كلمة التحرير

عقائد الصوفية ...

بقلم أ. محمود المراكبي

(شيخ الطريقة سابقا)

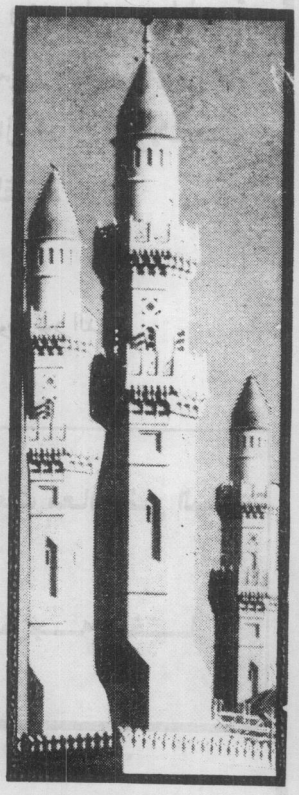

تقديم رئيس التحرير فضيلة الشيخ **صفوت الشوادفي**

الحمد لله الأحد الصمد ، والصلاة والسلام على رسوله خير البشر

وبعد ..

فإن التصوف دخيل على الإسلام في لفظه ومعناه ، وعقيدته ومبناه ، لما اشتمل عليه من الضلالات والخرافات ، واقترن به من الشوائب والرواسب ، وأحاط به من الغموض والشرود ! ولما تخلله من شبهات وشهوات .

ولقد كان للتصوف سوق رائجة في عصور قد مضت وانقضت ، وأجيال قد خلت ، وكانت سوق التصوف تستمد رواجها من جهل الأتباع والمريدين الذي يصدقون كل ما يسمعون ! ويؤمنون بما يعرفون وما لا يعرفون ، فالحق والباطل عندهم سواء ، وكان هذا أثرا من آثار نظرية وحدة الوجود ، ونظرية الحلول والاتحاد والتي يستوي في ظلها الإيمان والكفر ، والاستقامة والفجور ! وبين يدينا الآن كتاب جليل القدر ، عظيم النفع ؛ قد أجاد فيه مؤلفه وأفاد ، وكشف فيه عن حقيقة الصوفية وجذورها ، وحذر من خطرها وضررها ، وأثبت العلاقة الوثيقة بين التصوف والتشيع ، وبدأ كتابه باعترافات خطيرة عن نفسه يوم أن كان شيخاً لطريقة صوفية ، ثم تاب عليه ربه فهدى !

وقبل أن أترك الشيخ يتحدث عن نفسه فإنني ألفت أنظار القراء إلى أن هذا الكتاب الذي يفضح الصوفية ، ويكشف سترها قد أجاز مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف نشره وتداوله كما هو

في ضوء الكتاب والسنة

مرفق في نهاية المقال ، وهي دلالة قاطعة على أن الأزهر ليس هو الصوفية كما يزعم أتباعها ، وإلى اعترافات شيخ الطريقة نترك القارئ الكريم راجين منه أن يقرأها بكل عناية ورعاية ، مع ملاحظة أننا قد سقنا الاعتراف بنصه وفصه ، من دون حذف أو إضافة أو تعقيب ولا تنقيب !

● كنت شيخا لطريق صوفي :

كثير من الناس انخرط في طريقة صوفية ثم تركها بعد فترة ، دون أن يترك الموضوع عنده أي أثر ليعرف خلفيات الأمر وأبعاده ، أما تجربتي فقد بدأت مع مشارف السبعينيات ، فقد تلقيت طريق القوم بإذن من رجل فاضل كان يشغل منصبًا رفيعًا ، فقد كان مستشارا في مجلس الدولة وكان جم الأدب ، كثير الصمت ، صادق اللهجة ، يميل إلى العزلة ، دائم الذكر ، حديثه طيب ، ليس فيه غلو ولا شطط ، يدعو إلى مكارم الأخلاق ، ويأمر بمداومة ذكر اللّه ، ويحذر المريدين من الغفلة عن ذكر من لا يغفل ولا ينام ، وقد أحببت الرجل حبًا عظيمًا ، وطلبت التلقين على يديه ، في وقت كان يعد نفسه للابتعاد عن الطريق وتولية ابن الشيخ الكبير مكانه في مسئولية الطريق ، لذلك فقد أمره أن يلقنني الطريق ، وبدأت أسلك طريق القوم .

وقد توجهت من كل قلبي قاصدًا وجه اللّه تعالى ، والتزمت كل الالتزام بما أمرني به شيخي من الاستغفار والصلاة على النبي صلى اللّه عليه وسلم وذكر ((لا إله إلا اللّه)) ، وبطبيعة الحال لم يكن

"هذا الكتاب يفضح الصوفية ويكشف سترها، وقد أجاز مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف نشره وتداوله وهي دلالة قاطعة على أن الأزهر ليس هو الصوفية ."

عندي من العلم - وما زال - إلا القدر الذي يعرفه عامة الناس ، وبدأت أشاهد الرؤى وتتابع عندي البشريات ، وبدأت أرتقي مراتب الطريق المرتبة تلو الأخرى ، وأنا غارق في القراءة وطلب العلم مع المداومة على ما أمرني به شيخي ، ولم تمض ثلاث سنوات حتى أجازني شيخي وكلفني بمشيخة الطريق ، وما لبث الشيخ أن ترك الإخوان واعتزلهم ، وكلفني بقيادة الطريق ، ودعوة الخلق إلى طريق الحق ، وتلقين المريدين ، بل وترقيتهم بما في ذلك الإجازة بمشيخة الطريق .

وشعرت بعظم المسئولية ، خاصة وأنا أستفتح الحضرات يوم الجمعة في مسجد التحرير بمصر الجديدة ، ويوم الأحد بمسجد السيدة نفيسة ، رضي الله تعالى عنها ، ومن إدراكي لأهمية إبلاغ الناس أمر هذا الدين ، فقد ازددت شغفًا بالعلم الشرعي ، لأُعلم نفسي أولاً ، ثم لأنقل العلم الصحيح للمريدين ، فقد اعتدت أن أجلس بعد الحضرة وأتلقى الأسئلة ، وكان مفروضًا أن أجيب عليها ، وهذا ما تلقيته عن شيخي عن شيخه ، إلا أني آليت على نفسي ألا أُجيب عن أي سؤال من تلقاء نفسي ، وإنما أنقل ما تعلمته وقرأته عن علماء الأمة وسلفها الصالح ، وإذا ما سُئلت عما لا أعلم فإني أطلب من السائل أن يمهلني لأدرس سؤاله وأجيب عليه في الحضرة التالية .

ثم أراد الله تبارك وتعالى أن تتكشف أمامي مواضع الاختلاف بين التصوف وبين الكتاب والسنة ، وكانت أول قضية أثارت انتباهي ، نص في الورد الذي كنا نردده فرادًا أو جماعة في الحضرة ، حيث يقول الشيخ : (اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد ، الذي شاهد ربه بعيني رأسه وطاب وما غاب) .

وتذكرت حديث السيدة عائشة ، رضي الله تعالى عنها ، المعروف في كتب العلم ، والذي أخرجته معظم مصادر الحديث الشريف وعلى رأسها البخاري ومسلم ، والذي تستنكر فيه هذا القول وتستقبحه ، وتصف من قال : إن محمدًا رأى ربه بأنه قد أعظم على الله الفرية ، فكانت دهشتي بالغة كيف يخالف شيوخنا حقائق الدين وفهم الصحابة عنها ، ومن أين أتوا بهذه الصيغ ، فعكفت الشهور الطوال أدرس هذا الموضوع ، أطالع فيه كتب الحديث وشروحها ، وكتب السيرة وما يتعلق بالإسراء والمعراج ، وأشهر كتب التفسير ، حتى اطلعت على أقوال الصحابة في هذا الموضوع ، وانتهيت إلى أن

> "المراكبي: كانت دهشتي بالغة كيف يخالف شيوخنا حقائق الدين وفهم الصحابة عنها، ومن أين أتوا بهذه الصيغ، فعكفت الشهور الطوال أدرس هذا الموضوع أطالع فيه كتب الحديث وشروحها."

الراجح عند علماء الأمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ير ربه بعيني رأسه يوم المعراج ، وأن هذا الخبر انفرد به ابن عباس في رأي نقله عنه كعب الأحبار ، كما نقل عن ابن عباس رأيًا آخر قال فيه : إن محمدًا رأى ربه بفؤاده .

فبدأ الشك ينتابني إذ لم أكن أتصور أن هذا الطريق بعيد عن الكتاب والسنة ، ففتح الله تبارك وتعالى عيني على مخالفات أكبر ، وكلما ظهرت لي قضية أتفرغ لها تمامًا وكنت أشعر بتوفيق الله تعالى وتيسيره واضحًا جليًا ، ومن ذلك أني كنت في يوم أدرس ظاهرة الشطح عند الصوفية ، وفي ساعة متأخرة من الليل ، احتجت مجموعة من الكتب تناقش الموضوع ، وإذا بصديق يمر عليَّ فأسأله عن الكتب فيأتيني بها من مكتبته في دقائق .

وهكذا بدأت تتكشف الأمور الواحدة تلو الأخرى ، وظللت على هذا الحال ثلاث سنوات أو أربع ، ألتقي خلالها بمشايخ الطريق ، ومنهم من يكاشف الناس في كثير من الأحداث ، إلا أن أحدًا منهم لم يشعر أني أبحث في تأصيل الطريق ومدى حيوده عن الكتاب والسنة .

ولما تجمعت عندي كل القضايا والمخالفات الصوفية ، بدأت في مرحلة مفاتحة مشايخ الطريق وخلفاء الشيخ الأكبر ، وما تركت منهم شيخا إلا وناقشته وحاججته الساعات الطوال ، والليالي ذوات العدد ، وإلى ما بعد منتصف الليل ، فما وجدت عند القوم دليلاً ولا برهانًا ، سوى قولهم : (إن شيخنا كان رجلاً صالحًا ، وعالمًا في كلية أصول الدين ، فكيف يفوت عليه خلل ؟! وتأتي أنت وتنتقد ما استمر عليه الشيخ حتى وفاته) ، وكثير من المشايخ كان يفتح فاه من الدهشة عندما ألقنه الحجة والدليل، ولما عجز المشايخ عن الإجابة عن تساؤلاتي ، والإجابة على اعتراضاتي ، أمروا المريدين بالابتعاد عني . وأشاعوا أنني كنت على وشك أن يفتح الله عليَّ وأتلقى : (كن فيكون) ، إلا أنني لم احتمل الأنوار فتوقفت ، وفُتنت بالعلم ، وطالبوهم بعدم زيارتي ، وعدم الإنصات إليَّ ، ولما أصدرت كتابي الأول وأسميته ((القول المبين لنفع السالكين)) كان عندي بعض أمل أن يستمع الصوفية إلى نداء الكتاب والسنة ، والإعراض عن البدع والشركيات ، ولكن هيهات ، فاستمر بحثي عن أصل هذه الأفكار ، ومتى ظهرت في الإسلام ؟ ومن أول مَن أظهرها مِن الناس ؟ محاولاً

" المراكبي : ناقشت مشايخ الطرق وخلفاء الشيخ الأكبر ، وما تركت شيخًا منهم إلا وناقشته وحاججته الساعات الطوال ، والليالي ذوات العدد ، فما وجدت عند القوم دليلًا ولا برهانًا سوى قولهم : إن شيخنا كان رجلًا صالحًا ، وعالمًا في كلية أصول الدين فكيف يفوت عليه خلل ؟! "

الوصول إلى أصول الصوفية والمنابع التي استقت منها هذه الأفكار .

ثم يسر لي الحق تبارك وتعالى كتابة هذه السلسلة التي سطرت فيها تجربتي كاملة ، ولكن من منظور مناقشة الأفكار الدخيلة على الإسلام ، ثم جاء سؤال هام جدًا سمعته من بعض أصدقائي ممن ينتمي إلى صوفية الطرق الأخرى ، يقول فيه : (قد يكون طريقك الذي سرت فيه يتضمن بعض الانحرافات ، أما طريقنا فهو مطابق للكتاب والسنة ، لا يخالفهما قيد أنملة ، فلم اعتراضك على التصوف ؟ فالرجل بسؤاله هذا يحاول أن يبرئ التصوف ككل ، ويزعم أن الشطط والزيغ فقط في الطريقة التي كنت أنتسب إليها .

فبدأت في مرحلة دراسة الطرق الصوفية التي توفرت لي مصادرها وكتب أورادها ، ورحت أتتبع أفكار الانحراف الممثلة في وحدة الوجود وذكر اللّه بالأسماء السريانية والعدوان في الدعاء وغيرها من الأفكار - التي سنناقشها بالتفصيل في كتابنا هذا - فللأسف الشديد كان هناك اتفاق بين الطرق الصوفية على نفس الأفكار والدعائم ، لذا فقد تحول البحث من قضية طريق صوفي إلى مناقشة قضية التصوف ككل ، ومن هنا جاءت هذه السلسلة من الكتب ، ولما كانت قصة موسى والخضر ، عليهما السلام ، هي الدعامة الأساسية التي يرتكز عليها الصوفية والباطنية ، فقد خصصت لها الكتاب الأول ، ثم جاء الكتاب الثاني ليناقش فكرة تقسيم الدين إلى ظاهر وباطن ، وهي الفكرة التي اتكأ عليها الفكر الباطني عمومًا .

ثم ناقشت في الكتاب الثالث كيف تسرب الفكر الباطني إلى الشرائع السماوية ، والمراحل التي مر بها انحراف الباطنية من اليهود ، ثم تأثير التأويل الباطني على عقيدة النصارى ، ثم كيف تسرب الفكر الباطني إلى الإسلام ؟ حتى ظهر فكر الشيعة والغلاة من الإسماعيلية والدروز ، ثم جاء الآن دور الكتاب الرابع الذي بين يديك الآن ، الذي هو مربط الفرس والهدف من كل هذا الجهد ، وأسأل اللّه تعالى أن يكون عملنا هذا خالصًا لوجهه الكريم ، وأن يكتب لنا ثوابه وثواب من ينتفع به إلى يوم الدين .

وصلّ اللهم على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

يسر لي الحق تبارك وتعالى كتابة هذه السلسلة التي سطرت فيها تجربتي، ولكن من منظور مناقشة الأفكار الدخيلة على الإسلام.

نموذج رقم « ١٧ »

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهـــر الشريف
مجمـع البحـوث الاسـلامية
الادارة العـــامة
للبحـوث والتأليف والترجمـة

AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

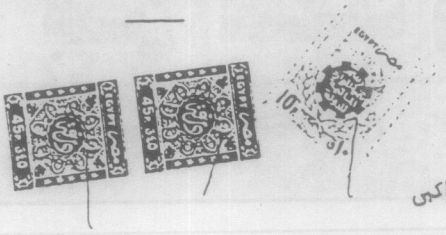

السـيد / محمود . عوض . محمود . المراكبى

السـلام عليكم ورحمـة اللـه وبركاته ـ وبعـد :

بناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : عقائد الصوفية فى ضوء الكتاب و السنة تاليفكم .....

نفيد بأن الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعـه ونشره على نفقتـكم الخـاصة .

مع التـاكيد على ضرورة العنـاية التامة بكتـابة الآيات القـرآنية والاحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبـع .

واللـه المـوفق ،،،

والسـلام عليكم ورحمـة اللـه وبركاته ،،،

مـدير عـام
ادارة البحوث والتـاليف والترجمـة

تحريرا فى ٢٧/ ٦ / ١٤١٦
الموافق ١٩/ ١١/ ١٩٩٥

الحلقة الثانية

عقائد الصوفية

في ضوء الكتاب والسنة

بقلم أ. محمود المراكبي

الحمد لله ، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة محمد بن عبد الله سيد ولد آدم ، بعثه ربه بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ، نشهد أنه بلغ الرسالة ، وترك أمته على المحجة البيضاء ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، أخرج قومه من ضيق الشرك إلى رحابة التوحيد ، ومن ظلمات عبادة الأوثان إلى أنوار طاعة الواحد الديان ، ثم دعانا صلوات الله وسلامه عليه إلى التمسك بكتاب الله وسنته وهديه ، وحذرنا من تقليد الآباء واتباع الأهواء .

ولقد قص علينا الحق ، تبارك وتعالى ، في محكم التنزيل أحوال الأمم السابقين ، فأدركنا أن كل نبي دعا قومه أولاً إلى التوحيد ، وأوضح لهم أركانه وشروطه ، وحذرهم من اتخاذ الوسائط بينهم وبين ربهم ، فمن استقامت عقيدته فقد انشرح صدره للطاعة ، واستعد لقبول الأوامر والنواهي ، ومن أعرض عن حقيقة التوحيد فما تنفعه الطاعة ولو سجد أبد الآبدين .

● مقدمة وتكليف :

ولا يخفى أننا في زمن غربة الدين وعزلة الإسلام وتكالب الأمم على قصعة المسلمين ، وقد أصبحنا بين هجوم أعداء الإسلام ، وبين مطرقة المفرطين من أبنائه وسندان الغالين ، والناس يتساءلون : من أين يبدءون ؟ وكثير منهم يعرفون أنه لن ينصلح أمر هذه الأمة إلاّ بما صلح عليه أولها ، فبداية الإصلاح في السير على هدي الأنبياء والمرسلين ، وتنقية العقيدة من كل مظاهر الشرك ، والعودة إلى المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، ولا شك أن رسالة " مجلة التوحيد " تمس لب القضية وتعالج قلبها الحزين ، ونحن اليوم في أمسّ الحاجة إلى فهم التوحيد ، كما أراده الحق ، تبارك وتعالى ، وارتضاه دينا حيث قال : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [آل عمران : ١٩] ، وقد حدد النبي ، صلوات ربي وسلامه عليه ، بناء

هذا الدين على خمسة أركان ، ودعامته الأساسية هي التوحيد .

وإنه لمن توفيق اللّه تعالى أن تولى فضيلة الشيخ / محمد صفوت الشوادفي تعريف القراء الكرام في العدد الصادر في شهر شوال عن إسهامي المتواضع في قضية بيان التوحيد وحقائقه ، من خلال سلسلة كتبي عن الظاهر والباطن ، وتقديمه لكتابي " عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة " .

وقد شعرت بعظم المسئولية الملقاة على عاتقي ، حيث كلفني الأخوة في المجلة بكتابة سلسلة مقالات - تنشر تباعًا بإذن اللّه تعالى - توضح قضية الفكر الباطني ، وأسلوب القوم في نشر أفكارهم ، وكيف يستميلون الأتباع ، وسنتتبع بحول اللّه وطوله مناهل الفكر وصوره المختلفة التي يظهر بها في المجتمع الإسلامي .

● تمهيد وقبول :

١- ينبغي على الدعاة أن يتعرفوا على طبيعة العصر الذي نعيش فيه ، حيث ذابت المسافات بين الأمم وتلاقت الثقافات ، وتداخلت الحضارات ، وتلك نتيجة منطقية لعالم يسمونه اليوم قرية إلكترونية ، خاصة بعد ظهور شبكة " الإنترنت " ، وتسابقت الدول والمؤسسات ، بل والأفراد إلى نشر ما عندها من أفكار ، فاليوم يستطيع أي شخص يملك حاسبا آليًا أن يبحث من خلال " الإنترنت " عن الإسلام ، وسيجد عشرات المواقع التي تقدم معلومات عن الإسلام ، والغريب أنك تجد للبهائية موقعًا على الشبكة ، تقدم فيه معتقداتها للناس على أنها الإسلام ، فكيف يميز الناس بين الطيب والخبيث ؟!

٢- إن المتتبع للمعرض السنوي للكتاب الذي يقام في مصر يلاحظ كثرة الكتب التي تُقدّم الفكر الباطني ، ويدرك أن الباطنية قد انتقلوا من مرحلة التستر إلى مرحلة العلانية ، وأن تركيزهم الأكبر الهجوم على أهل السنة خاصة في مصر والسعودية ، ومن هذه الكتب : " أهل السنة شعب اللّه المختار " ، " الخدعة رحلتي من السنة إلى الشيعة " ، " الشيعة في مصر من الإمام علي إلى الإمام الخميني " ، " الهمة في آداب اتباع الأئمة " ، " التشيع والتصوف لقاء أم افتراق " ، ومنها أيضا " دراسات جادة عن الصلة بين التصوف والتشيع " ، " العناصر الشيعية في التصوف " ، " النزعات الصوفية في التشيع " .

كل هذه العوامل جعلتني بعد أن أصدرت سلسلة الظاهر والباطن ، أقبل هذا التكليف ، فالدين مستهدف ، وأمن الوطن هو المهدد ، ويبقى السؤال : ماذا سنقدّم ؟

● هل من جديد ؟

ربما يتساءل بعض الناس فيقول : ماذا ستقدم ؟ إن هذا الموضوع قُتل بحثا ، وتكلم فيه علماء كثيرون ؟ وللإجابة على هذا السؤال أقول :

١- إن أغلب من كتب في هذا الموضوع ، إما صوفي يدافع بحرارة عن سلوكه واعتقاده دون أن يطلع على مناهل الفكر الصوفي وحقيقة ما يؤمن به ، وغالبا ما ينهاه شيخه عن قراءة كتب نقد التصوف ، أو ناقد للتصوف لم يعش التجربة الصوفية ، ويتعرف على منهج القوم في تهذيب النفس ، كما أنه في أغلب الأحيان ينقد نظريات وحدة الوجود والوحدة المطلقة ؛ دون أن يدرس أوراد الطرق الصوفية المتداولة اليوم بين أيدي ما لا يقل عن خمسة مليون مسلم في مصر وحدها ، فيرد عليه مشايخ الطرق قائلين : إن هذا الهجوم على أفكار لا نعتنقها نحن ، ولم نتلقاها عن شيوخنا ، ويُصدّق المريد هذه الدعوى دون أن يقيم عليها دليلا ، وينتهي الجدال دون أي نتائج ، فلا هؤلاء يصدّقون ، ولا هؤلاء يفهمون !!

٢- قلة عدد الباحثين الذين تتبعوا منابع الفكر الصوفي ، وربط بينه وبين الفكر الشيعي ، ومنهم : السراج الطوسي في " اللُّمع " ، وابن خلدون في " مقدمته " ، وأحمد أمين في كتابه " ضحى الإسلام " ، إحسان إلهي ظهير في سلسلة كتبه عن الشيعة والتصوف ، وكامل الشيبي في كتابه " الصلة بين التصوف والتشيع " ، هذا لا يمنع وجود كثير من العلماء والدعاة أشاروا في كتاباتهم عن هذه الصلة دون أن يفردوا لها بالتأليف .

٣- إن قيام الدولة الشيعية في إيران كان على أكتاف التصوف ، فالدولة الصفوية كانت صوفية في بداية أمرها ، ثم غلب عليها التشيع ، وبعد أن تملكوا نصاب الأمور ، استداروا على الصوفية ، فأذاقوهم جزاء سِنِمّار .

ومن هنا تظهر أهمية هذه السلسلة من المقالات ، فكاتبها عاش تجربة التصوف حتى وصل إلى مشيخة الطريقة الخلوتية ، واطلع على أغلب كتب القوم ، ثم كان الفضل والتوفيق من الله تعالى أولاً ، ثم من واقع الأوراد التي تلقاها عن شيوخه واطلاعه الواسع على الكتاب والسنة ظهر له الجيود ومواضع الاختلاف ، فراح يبحث عن الإجابات لعله يبلغ الغايات ، وينجو من هذه المتاهات ، فكان ذلك سببًا مباشرًا في تأصيل القضية ، فراح يتتبع نشأة التصوف وتطوره ، والمنابع التي شرب منها ، حتى تحولت الدراسة من مجرد انحراف في طريق صوفي إلى دراسة غير مسبوقة عن الفكر الباطني ككل .

● المنهج في عرض الدراسة :

١- ليكن شعارنا في هذه المقالات قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وسنتبع بحوله سبحانه بالقاعدة التي تقول : " إن ناقلاً فالصحة ، وإن مدعيا فالدليل " ، وهذه القاعدة استقاها علماء السلف من فهمهم ، لقوله تعالى : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ [البقرة : ١١١] .

٢- غايتنا بيان انحراف الفكر ومدى خطورته على الأمة ، وتنبيه الغافلين عن مراد الباطنية ومخططاتهم لأهل السنة والجماعة ، وسيجد أحسن الناس ظنّا أن الأمر خطير ، ويمس صلب عقيدة التوحيد ، وليعلم القارئ الكريم أنه ليس بيننا وبين أحد من الناس خصومة ، فالأشخاص ليست لنا هدف ، وعقيدتنا ألا نُكفر من شهد أن لا إله إلاّ الله ، وأن محمدا رسول الله ، وعمل بحقها .

٣- وأسلوبنا هو التركيز على الأولويات عملا بقوله تعالى : ﴿ أولى لك فأولى ﴾ [القيامة : ٣٤] ، فالتصوف يحيى بيننا ، وتتعدد طرقه ، وتختلف مشاربه ، وكثير من أتباعه لا يدركون خطورة ما هم فيه ، ولو عرفوا الطريق الصحيح لسلكوه ، ولوجهوا إخلاصهم إلى كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، بدلا من ضياع الأعمار في سلوك يصطدم بقوة مع اعتقاد السلف الصالح ، رضوان الله عليهم أجمعين ، وسنركز فيما بقي من هذه المقالة على قضية هامة ألا وهي :

● نشأة التصوف :

يحاول بعض الباحثين نسبة التصوف إلى الصفاء ، أو رداء الصوف ، أو إلى اشتقاق كلمة صوفي من الكلمة اليونانية سوفيا ومعناها الحكمة ، أو إلى أهل الصفة ، ولم يثبت صحة أي من هذه الأقوال ، ومن المؤكد تاريخيًا أن اسم الصوفية والتصوف لم يُعرفا في المجتمع الإسلامي في القرنين الأول والثاني الهجريين ، ويحاول مؤرخو التصوف البحث في قضايا كثيرة تدور حول تاريخ ظهور الصوفية ، ومَن أول مَن سُمي صوفيًا ؟ ومَن الصوفي ؟ ونوجز هذه الآراء فيما يلي :

١- إن التصوف ظهر بعد عصر تبع الأتباع ، وهذا ما يحدده القشيري في رسالته ، حيث يناقش توقيت ظهور التصوف بقوله : (اعلموا رحمكم الله أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يَتسمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية سوى صحابة رسول الله ، إذ لا فضيلة له فوقها ، فقيل لهم : الصحابة ، ولما أدركهم أهل العصر الثاني سُمي من صحب الصحابة : التابعين ، ورأوا ذلك أشرف سمة ، ثم قيل لمن بعدهم : أتباع التابعين ، ثم اختلف الناس ، وتباينت مراتبهم ، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين : الزهاد والعُبّاد ، ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق ، فكل طريق ادعوا أن فيهم زهادًا ، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف ، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة .

٢- ولابن الجوزي تفسير آخر عن نشأة التصوف ، حيث يقول : كانت النسبة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان والإسلام ، فيقال : مسلم ومؤمن ، ثم حدث اسم زاهد وعابد ، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا ، وانقطعوا إلى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها ، وأخلاقا تخلقوا بها ، ورأوا أن أول من انفرد بخدمة الله تعالى عند بيته الحرام رجل يُقال له : صوفة واسمه الغوث بن مر ، فانتسبوا إليه ، لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى ، فسُمُّوا بالصوفية .

٣- بينما يؤكد ابن تيمية ما ذهب إليه القشيري أن كلمة الصوفية ظهرت للمرة الأولى قرب انتهاء القرن الثاني الهجري ، حيث يقول : أما كلمة " الصوفية " بالجمع فقد ظهرت للمرة الأولى سنة ١٩٩ هـ ، إذ أطلقت فيما يرى المحاسبي والجاحظ على مدرسة تنسكية شيعية نشأت بالكوفة في ذلك العهد ، وكان أكبر زعمائها عايدك البناني الذي تُوفي في بغداد سنة ٢١٠ هـ ، كما يرى أن أول ظهور الصوفية في البصرة ، وأن أول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد ، وهو من أصحاب الحسن البصري ، ويرى بعض متأخري الصوفية ، ومنهم عبد الرحمن الجامي - المتوفى سنة ٨٩٨ هـ ، أن أول من حمل اسم صوفي هو أبو هاشم الكوفي ، بينما يترجم متقدمي الصوفية لأبي هاشم بالزاهد ، ومنهم أبو نعيم في " الحلية " ، بينما يرى أبو عبد الرحمن السلمي صاحب " طبقات الصوفية " : أن أول من سمى ببغداد " صوفي " عبدك الصوفي ، وكان من أورع المشايخ وأهيبهم .

٤- ويقول الدكتور / عبد الرحمن بدوي : لكن هذه كلها أقوال المتأخرين عن القرن الثاني ، وليست لدينا روايات كتابية ، وثيقة من القرنين الأول والثاني ورد فيها اسم " الصوفي " ، ولعل أقدم ما وصلنا من مؤلفات ذكرت اسم الصوفي ، والصوفية هو كتاب " البيان والتبيين " للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٠ أو سنة ٢٥٥ هـ ، إذ يذكر الصوفية من النساك ، ويورد أسماء من عُرف بالفصاحة منهم ، وقد ذهب قوم من عامة الصوفية إلى أن التصوف منسوب إلى الصُّفَّة ، ويَرُدُّ هذا القول كثير من العلماء منهم ابن الجوزي الذي يقول : ونسبة الصوفي إلى أهل الصفة غلط ؛ لأنه لو كان كذلك لقيل : صُفّي .

فإذا كان اسم الصوفية لم يُعرف إلا في القرن الثالث الهجري فمتى ظهرت أفكارهم ؟ وكيف انحرفت معتقداتهم هذا ما سنتعرض له في المقالة التالية عن مراحل الشطح عند الصوفية - إن كان في العمر بقية - وأسأل الله لي ولكم التوفيق والرشاد .

عقائد الصوفية

في ضوء الكتاب والسنة

الحلقة الثانية

الشطح عند الصوفية

الحمد لله الذي حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين ، وألحقنا بهم برحمتك يا أكرم الأكرمين .. وبعد :

فقد انتهينا في الحلقة الثانية إلى نتيجة هامة ؛ وهي أن اسم التصوف والصوفي لم يُعرفا في الأمة الإسلامية خلال عصر الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ، وأن أول ظهور لهذه المسميات كان بعد المائة الثانية للهجرة .

□ الزهد في الإسلام □

نناقش في هذه الحلقة تطور الفكر الصوفي الذي كانت بدايته مواجهة إقبال الناس على الدنيا بعد زمن الفتوحات الكبرى ، وانشغال كثير من المسلمين عما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فبدأ تيار ينادي بالزهد ، والزهد في الإسلام كما عَرفَه الصحابة ؛ ليس في لبس المرقع من الثياب ، وإنما في إيثار الآخرة على الدنيا ، وعدم الوثوق بما في أيديهم اعتمادًا على ما عند الله ، فهذا أبو بكر ، رضي الله عنه ، كان أغنى العرب عند بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنه بذل ما يفنى رجاء ما يبقى ، وأمير المؤمنين عمر ، رضي الله عنه ، كان من أزهد الناس ، وقد شغله العدل بين الرعية وخوف المثول بين يدي الله عن متاع الدنيا ، وهذا الخليفة الثالث عثمان بن عفان يشتري بئر رومة ، ويجهز جيش العسرة ويشتري الأرض اللازمة لتوسعات المسجد النبوي وغير ذلك من إقدامه على البذل والعطاء ، وهذا علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، يسير على درب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ويبذل نفسه التي هي أغلى من أموال الدنيا ، يوم بدر وأحد وخيبر وباقي الغزوات .

فزُهْد السلف الصالح ليس رهبانية ابتدعوها ، ولا تحريم الحلال وإضاعة المال ، وهذه هي حقيقة الزهد ، وقد أثمر تيار الزهد ظهور المؤلفات التي تدعو إليه والتي كتبها علماء الحديث ، ومنهم ؛ زائدة بن قدامة (توفي ١٦٠هـ) ، وعبد الله بن المبارك (توفي ١٨١هـ) ، ومحمد بن فضيل بن غزوان (توفي ١٩٥هـ) ، ووكيع بن الجراح شيخ الشافعي (توفي ١٩٧هـ) ، أسد بن موسى المعروف بأسد السنة (توفي ٢١٢هـ) ، وسعيد بن منصور (توفي ٢٢٧هـ) ، ثم أحمد بن حنبل (توفي ٢٤١هـ) وكتاباه « الزهد » و« الورع » .

□ من الزهد إلى الشطح □

ويلخص ابن الجوزي رأيه في كتابه « تلبيس إبليس » عن بداية ظهور التصوف فيقول : (إن التصوف بدأ أولاً في شكل زهد وعبادة ، وكان عند الصدر الأول منهم في شكل مجاهدة النفس للاستقامة ، وتقويمًا لها وحملها على الصراط المستقيم حتى يصير تهذيبها خلقًا جبلّية) .

ثم ظهر قوم من الصّوفية تكلموا في الجوع والفقر والوساوس والخطرات ، مثل ؛ الحارث المحاسبي (توفي ٢٤٣هـ) وكتبه « الوصايا » ، و« الرعاية » ، و« التوهم » ، ثم أبي طالب المكي

وكتبه عن علم القلوب وقوت القلوب ، وظهرت جماعات يسمون أنفسهم الفقراء ، وثانية تسمى البكائين ، وثالثة تدعي العشق الإلهي ، وأشهرهم رابعة العدوية ، كما بدأ الزهد الصوفي يأخذ شكل لبس الخرقة والتجرد والمجاهدات ، وفي نفس الوقت بدأت ظاهرة الشطح الصوفي ، والتي تأثرت بدخول أفكار وفلسفات فارسية وهندية ويونانية مع دخول الإسلام إلى هذه البقاع ، التي يرون أنها نتيجة مرور الصوفي بخمس مراحل هي :

● **أولا : الوجد :** ويُعرفه الصوفية بقولهم : (والوجد ؛ هو ما صادف القلب من فزع أو غم أو رؤية معنى من أحوال الآخرة ، أو كشف حالة بين العبد وبين الله ، عز وجل ، قالوا : وهو سمع القلوب وأبصارها ، فمن ضعف وجده تواجد ، والتواجد ؛ ظهور ما يجد في باطنه على ظاهره ، ومن قوي تمكن فسكن) .

قال النووي : الوجد ؛ لهيب ينشأ في الأسرار ويسنح عن الشوق ، فتضطرب الجوارح طربًا أو حزنًا عند ذلك الوارد .

وقال بعضهم : الوجد ؛ بشارات الحق بالترقي إلى مقامات مشاهداته[1] .

وهذا أبو النصر السراج الطوسي في كتابه الشهير « اللُّمَع » – والطوسي يصفه فضيلة الدكتور / عبد الحليم محمود ، شيخ الأزهر الأسبق ، أنه أعظم مؤرخ صوفي في تاريخنا قديمه وحديثه – يقول : (إن الوجد ؛ مكاشفات من الحق ، ألا ترى أن أحدهم يكون ساكنًا فيتحرك ، ويظهر منه الزفير والشهيق ؟ وقد يكون من هو أقوى منه ساكنًا في وجده لا يظهر منه شيء من ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ الذين إذا ذُكِر اللَّه وجلت قلوبهم ﴾ [الحج : ٣٥] ، وأول الوجد رفع الحجاب ، ومشاهدة الرقيب ، وحضور الفهم ، وملاحظة الغيب ، ومحادثة السر ، وإيناس المفقود ، وهو فناؤك أنت من حيث أنت .

وقال أبو سعيد (الخراز) رحمه الله : الوجد ؛ أول درجات الخصوص ، وهو ميراث التصديق بالغيب ، فلما ذاقوها وسطع في قلوبهم نورها ، زال عنهم كل شك وريب[2] .

ويُقال : إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند ذكر الموت ، وفرّق بعض المشايخ بين الوجد والتواجد بقولهم : (التواجد من الوجد بمنزلة التباكي من البكاء) .

ويروى عن سيد الطائفة الجنيد قوله : لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم ، وفضل العلم أتم من فضل (أي الزيادة) الوجد[3] .

ويقول القشيري : (الوجد يصادف قلبك ويَرِدُ عليك بلا تعمُّد وتكلف ، ولهذا قال المشايخ : الوجد المصادفة ، والمواجيد ثمرات الأوراد ، فكل من ازدادت وظائفه – أي ؛ نوافله – ازدادت من الله تعالى لطائفه ، ويَنقل عن شيخه أبي علي الدقاق قوله : الواردات من حيث الأوراد ، فمن لا ورد له بظاهره ، لا وارد له في سرائره ، وقال عمرو بن عثمان المكي : لا يقع على كيفية الوجد عبارة ؛ لأنه سر الله تعالى عند المؤمنين الموقنين[4] .

وحكي عن سهل بن عبد الله التستري أنه قال : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل ، ومن أهمية الوجد في الفكر الصوفي ألف فيه أحمد بن بشر بن زياد الأعرابي كتابًا سماه « الوجد » ، وقد لخصه الطوسي في كتابه « اللُّمَع » .

● **ثانيًا : الغلبة :** وهي حال يمر بها الصوفي إذا زاد عليه الوجد حتى يغلبه ، ويعرفونه بقولهم : والغلبة ؛ حال تبدو للعبد لا يمكنه معها ملاحظة السبب ، ولا مراعاة الأدب ، ويكون مأخوذًا عن تمييز ما يستقبله ، فربما خرج إلى بعض ما ينكر عليه من لم يعرف حاله ، ويرجع على نفسه صاحبه – أي ؛ صاحب الغلبة – إذا سكنت غلبات ما يجده ، ويكون الذي غلب عليه خوف أو هيبة أو إجلال أو حياء أو بعض هذه الأحوال[5] .

● **ثالثًا : السُّكْر :** فإذا ازدادت غلبة الوجد على الصوفي وصل إلى حالة السكر ، والسكر ؛ هو أن يغيب الصوفي عن تمييز الأشياء ، وقد أطلق القشيري على السكر غيبة ، حيث يقول : فالغيبة ؛

غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه ، ثم قد يغيب عن إحساسه بنفسه وغيره بوارد من تذكر ثواب أو تفكر عقاب[٦] .

وكتب يحيى بن معاذ إلى أبي اليزيد يقول : سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته ، فكتب أبو اليزيد في جوابه : سكرت وما شربت من الدُرر ، وغيري قد شرب بحور السماوات والأرض وما روي بعد ، ولسانه مطروح من العطش ويقول : هل من مزيد[٧] .

وتعبير السكر يذكرنا بمن يشرب الخمر حتى يغيب عن وعيه وإدراكه ، فالصوفي إذا غلبه الوجد غاب عن نفسه ، وربما نطق بما يؤاخذ عليه ، وهو ما يسمى بالشطح .

● **رابعًا : الشطح** : أن يتحدث الصوفي في حال سكره وغلبة الوجد عليه بقول ينكر عليه ، ويُعَرِّف الصوفية الشطح بقولهم : هو عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوته وهاج بشدة غليانه وغلبته .

وقالوا : الشطح عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى ، تصدر من أهل المعرفة باضطرار واضطراب ، وهي من زلات المحققين ، فإنه دعوى حق يفصح بها العارف ، لكن من غير إذن إلهي[٨] .

بينما يعرف صوفي معاصر الشطح بقوله : هو محاولة لوصف ما لا يوصف ، والكلام في الشطح على السكر فلا يؤاخذ صاحبه ، والشطح تعبير عن حالة اختلاط لا يميز فيها صاحب الطريقة الحق من الخلق ، ولا الباطن من الظاهر ، ولا المسمى من حقيقة الأسماء ، فالحق قريب إلى درجة أنه لم يعد ثمة ما يفصله عنه ، وهو حقيقة كل سائر ومتحرك[٩] .

نلاحظ التدرج في تعريف الصوفية لمراحل الشطح ، فهو يبدأ بالوجد ، ثم الغلبة ، فالسكر ، وينتهي بالشطح الذي يصدر عن أهل المعرفة ، وأن قولهم حق في ذاته ، والخطأ فقط في الحديث عنه ونَقْلِه للناس ، وهو من زلات المحققين ، حيث أظهروه بدون إذن إلهي ، وأن الشطح حالة اختلاط لا يميز فيها الصوفي بين الحق والخلق .

● **خامسًا : الفناء** : جمع اللّه ، تبارك وتعالى ، بين لفظي الفناء والبقاء في الآية الكريمة من سورة " الرحمن " : ﴿ كل من عليها فان ۞ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن : ٢٦، ٢٧] . ودلالة الآية محكمة واضحة ، لا يختلف الناس حولها ، فاللّه ، جل جلاله ، قضى من الأزل أن لمخلوقاته ابتداء ، ولآجَالِها انتهاء ، ولا بد من ميلاد لجميع الكائنات حتى الكواكب والأجرام السماوية ، ثم لا بد من موت جميع المخلوقات ، ومنهم الملائكة المقربون حتى ملك الموت الذي وكله اللّه في قبض الأرواح ، يجري عليه الفناء ، واللّه وحده هو الباقي قبل الأزل ، وقبل دوران الأفلاك والأجرام ، وبدء السنين والأيام ، وهو سبحانه باق بعد الأبد وبعد فناء الأكوان .

ومن يؤمن بعلو اللّه على خلقه ، ويميز بين صفات الخالق وصفات المخلوق يدرك تمامًا أن البقاء نعت ملازم للربوبية ، والفناء نعت ملازم لجميع المخلوقات ومنهم البشر ، ولكن الصوفية اصطلحوا على معان جديدة للبقاء والفناء تختلف تمامًا عن تفسير السلف للآيات القرآنية ، وإذا أردنا أن نعرف كيف ومتى بدأت هذه المفاهيم في الإسلام ؟ وكيف زحفت لتحتل الصدارة في الفكر الصوفي ؟ فالإجابة ؛ أن أول من تكلم في علم الفناء والبقاء هو أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز ، توفي عام ٢٧٧هـ(١٠) ، الذي يصفه الصوفية بقولهم : وهو سيد من تكلم في علم الفناء والبقاء(١١) .

والفناء الذي يقصده أبو سعيد الخراز هو ؛ أول مقام لمن وجد علم التوحيد وتحقق به فناء ذكر الأشياء عن قلبه ، وانفراده باللّه وحده[١٢] ، ومفاد قوله : إن التوحيد في الفهم الصوفي أصبح لغزًا لا يعرفه عامة المسلمين ؛ لأنهم لم يفنوا عن أنفسهم ، أما أهل الخصوص الواصلون إلى مقام الفناء فهم الموحدون الذين انفردوا باللّه وحده .

ويقول السهروردي : أقاويل الشيوخ في الفناء والبقاء كثيرة ، فبعضها إشارة إلى فناء المخالفات وبقاء الموافقات ، وهذا تقتضيه التوبة النصوح ، وبعضها إشارة إلى زوال الرغبة والحرص والأمل ،

وهذا تقتضيه تزكية النفس ، وبعضها إشارة إلى حقيقة الفناء المطلق ، وكل هذه الإشارات فيها معنى الفناء من وجه ، ولكن الفناء المطلق هو ما يستولي من أمر الحق ، سبحانه وتعالى ، على العبد ، فيغلب كون الحق سبحانه على كون العبد ، وهو ينقسم إلى :

- **فناء ظاهر** .
- **وفناء باطن** .

■ **فالفناء الظاهر** ؛ هو أن يتجلى الحق ، سبحانه وتعالى ، بطريق الأفعال ، ويسلب عن العبد اختياره وإرادته ، فلا يرى لنفسه ولا لغيره ، إلا بالحق سبحانه ، ثم يأخذ في المعاملة مع الله ، سبحانه وتعالى ، بحسبه ، حتى سمعت أن بعض من أقيم في هذا المقام من الفناء كان يبقى أيامًا لا يتناول الطعام والشراب حتى يتجرد له فعل الحق تعالى فيه ، ويقيض الله سبحانه له من يُطعمه ويسقيه ، كيف شاء وأحب ، وهذا لعَمري فناء ؛ لأنه فني عن نفسه وعن الغير ، نظرًا إلى فعل الله بفناء فعل غير الله .

■ **والفناء الباطن** : أن يُكاشف تارة بالصفات ، وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات ، فيستولي على باطنه أمر الحق تعالى ، حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس[١٣] ، ويُعَرِّف الصوفية الفناء بقولهم :

* **الفناء** : تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية دون الذات ، فكلما ارتفعت صفة (بشرية) قامت (صفة) إلهية مقامها ، فيكون الحق سمعه وبصره كما نطق به الحديث ، وتعليقنا على هذا التعريف أن الفناء قد تحول هنا إلى نوع من حلول الصفات الإلهية محل صفات العبد البشرية

* **الفناء** : سقوط الأوصاف الذميمة ، والبقاء عكسه ، وهو ثبوت النعوت المحمودة .

* **الفناء** : هو الغيبة عن الأشياء ، كما كان فناء موسى حين تجلى ربه للجبل فجعله دكًا وخر موسى صعقا

ويُعرف أبو القاسم القشيري في رسالته الفناء بقوله :

* **الفناء** : من استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عينًا ولا أثرًا ، ولا رسمًا ولا طللاً[١٤] .

* **الفناء** : أن لا ترى شيئًا إلا الله ، ولا تعلم إلا الله ، وتكون ناسيًا لنفسك ولكل الأشياء سوى الله ، فعند ذلك يتراءى لك أنه الرب ، إذ لا ترى ولا تعلم شيئًا إلا هو ، فتعتقد أنه لا شيء إلا هو ، فتظن أنك هو ، فتقول : أنا الحق ، وتقول : ليس في الدار إلا الله ، وليس في الوجود إلا الله[١٥] .

بينما يُعرف محمد غازي عرابي الفناء بقوله :

* **الفناء** : هو الغياب في الأوقيانوس الأعظم ، وقال تعالى : ﴿ ألم يجدك يتيمًا فآوى ﴾ [الضحى : ٦] . فالْيَتم ؛ موت كل علاقة للعارف بمن حوله ، وانقطاع حباله من الزمان والمكان والأيس والليس ، أما الإيواء ؛ فعودة إلى نجدة الفاني الذي غاص في بحر الوجود[١٦] .

ومن الغريب أن لا يستدل الصوفية على أقوالهم بآيات من كتاب الله ، عز وجل ، أو أحاديث شريفة من المصادر الصحاح ، وإذا استشهدوا بآية فإنها غالبًا ما يقع تحت باب اللطائف التي تُخرج الآية عن تفسير السلف الصالح ، ودائمًا ما يكون دليلهم وحجتهم أحوال الحلاج وأمثاله – التي سنناقش دورها في انحراف الفكر الصوفي وحيوده عن حقائق الدين في الحلقة التالية بإذن الله تعالى – ثم ألا يجد محمد غازي في دين الإسلام ، أو حتى في مفردات اللغة العربية ، كلمة تعبر عن مفهوم الفناء حتى يطلع علينا بالأوقيانوس الأعظم الذي لا يعرفه أحد من المسلمين !! إن غموض الألفاظ مقصود في هذا المقام ، فلو صرح الرجل بعقيدته لأفشى أسرار القوم ، ولاتضح أنه يرمز إلى فناء العبد في الله ، وهو يعرف أن ما يعنيه ليس إلا الاتحاد مع الله ، ولما كانت الضرورات تبيح المحظورات ، فهو مضطر للتعامل مع الأوقيانوس حتى ولو كان الأعظم !! ولا يكتمل

الحديث عن الشطح دون الإشارة إلى فرسانه الأوائل ؛ وأشهرهم البسطامي والحلاج .

□ الشطح والبسطامي □

البسطامي[١٦] هو ؛ أبو اليزيد طيفور بن عيسى بن سروشان ، كان جده مجوسيًا فأسلم ، ويترجم له السلمي في « طبقات الصوفية »، فيقول : كان من الزهاد والعباد وأرباب الأحوال ، وهو من أهل بسطام (توفي ٢٦١هـ) .

وأبو اليزيد البسطامي من الشخصيات التي اعتنقتْ مبدأ العشق الإلهي ، الذي بدأ ظهوره في القرن الثالث ، وانتهى بمذهبي الاتحاد ووحدة الأديان على يدي الحلاج ، فسار البسطامي على طريق الزهد والتقشف الهنديين ، وانتهى بقولته الشهيرة : (أنا هو ، وهو أنا) .

ومن أقواله : (غلطت في ابتدائي في أربعة أشياء ؛ توهمت أني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه ، فلما انتهيت – أي ؛ بعد وصوله – رأيت ذكره سبق ذكري ، ومعرفته تقدمت معرفتي ، ومحبته أقدم من محبتي ، وطلبه لي أولاً حتى طلبته)[١٨] .

ويقدم البسطامي أمثلة للشطح والجرأة في القول كقوله : عرفت الله بالله ، وعرفت ما دون الله بنور الله ، وسُمِع البسطامي يومًا يقول : (يا رب أفهمني عنك ، فإني لا أفهم عنك إلا بك)[١٩] .

ويقول أيضًا : (لم أزل أجول في ميدان التوحيد ، حتى خرجت إلى دار التفريد ، ثم لم أزل أجول في دار التفريد ، حتى خرجت إلى الديمومية ، فشربت بكأسه شربة ، لا أظمأن من ذكره أبدًا)[٢٠] .

وسُئِل أبو اليزيد البسطامي يومًا : ما علامة العارف ؟ فقال : ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾ الآية [النمل : ٣٤] ، وقال : عجبت لمن عرف الله كيف يعبده ؟ وقيل له : إنك من الأبدال السبعة الذين هم أوتاد الأرض ، فقال : أنا كل السبعة ، وتجاوز البسطامي أقصى درجات الشطح وبلغ اختلاطه منتهاه ، حتى إنه لم يفرق بين الحق ، سبحانه وتعالى ، وبين نفسه ، فتراه يقول : غبت عن الله ثلاثين سنة ، وكانت غيبتي عنه ذكري إياه ، فلما خنست عنه وجدته في كل حال حتى كأنه أنا .

□ نتائج ظاهرة الشطح □

أدت هذه الأقوال إلى ظهور أحوال ومقامات صوفية ، عبّروا عنها بمصطلحات خاصة بهم لا يتسع المجال لبحثها ، مثل ؛ الغيبة والحضور ، والجمع والفرق ، وجمع الجمع ، وفرق الفرق ، وعين الجمع ، ثم راح الصوفية يحثون أتباعهم على التواجد ، يقولون لهم : إن التواجد من الوجد بمنزلة التباكي من البكاء ، وأن السماع طريق لحصول التواجد ، حتى إن الطوسي أفرد للسماع جزءًا من كتابه « اللُّمع » أسماه كتاب السماع ، وقد انقسمت الصوفية – فيما يخص الشطح – إلى ثلاث فرق :

١– الفرقة الأولى : انضمت إلى علماء أهل السنة المعاصرين لهم ، في إنكار هذه الدعاوى وتلك الشطحات ، ومنهم سيد الطائفة الجنيد ، كما تسمية الصوفية ، ومنهم أبو سليمان الداراني (توفي ٢١٥هـ) ، الذي يقول : ربما وقعت النكتة من كلام القوم في قلبي فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة ؛ لأن الله ، عز وجل ، ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ، ولم يضمنها لي فيما سوى ذلك .

٢– الفرقة الثانية : حاولت شرح هذه الشطحات ، وتأويلها لإيجاد معاني شرعية لها ، وقد جانبهم التوفيق في أغلب الحالات .

٣– الفرقة الثالثة : اعتذرت عن أهل الشطح ، ورأت في أقوالهم أحوال سكر ومذاقات للعارفين ، هي حق في ذاتها ، ولكنها قيلت بدون إذن إلهي ، فأدت إلى هذا اللبس وذاك الغموض ، ولا لوم على قائليها لغلبة الحال عليهم .

وتعليقنا أن هذه الآراء وأمثالها أعطت العذر وقدمت المبرر لمن أراد الخروج على الشريعة ، وأدت إلى النتائج التالية :

١- تعطيل الصوفية لاستخدام ميزان الشريعة على هذه الأقوال ، وحجتهم أنهم كيف ينكرون على من وصل إلى مقامات الوجد والسكر ، وهذه أحوال أهل المعرفة والتحقيق !

٢- ظهور أقوال يتجرأ أصحابها بنسبتها إلى الله ، عز وجل ، ويزعمون الحديث نيابة عنه سبحانه ، وبذلك أصبح العارفون بالله عندهم يتلقون مباشرة الإلهام والفتوحات عن الله ، عز وجل .

٣- إن الشطح في حد ذاته لم يكن نهاية المطاف ، وإنما كان مرحلة أدّت بشكل تلقائي إلى مرحلة القول بالفناء والبقاء .

٤- يمزج الفناء بين صفات الخالق والمخلوق ، ويسمح بحلول صفات الرب محل صفات العبد ، إن القول بالفناء هو الذي مهد بقوة للقول بوحدة الوجود ، التي ليس لها غاية سوى هدم القول بوجود خالق بائن عن خلقه ، وهذا ما يقول به الحلاج ، وابن عربي ، وابن سبعين ، والجيلي - كما سنبين في الحلقات القادمة إن شاء الله تعالى - فإذا تناولنا أوراد الطرق الصوفية المعاصرة ووجدنا أفكار الفلاسفة ودعاة الوحدة ظاهرة جلية ، بل إنها تعد عند المشايخ سر أسرار الطرق ، دَعَونا المجلس الصوفي الأعلى للحوار ، بل وتطبيق لائحة المجلس التي ترفض أي طريق يعتقد أتباعه بوحدة الوجود ، وطالبناهم بتنقية أوراد القوم من عقائد ما أنزل الله بها من سلطان ، والانتصار لعقيدة التوحيد .

والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات .

وكتبه

أ. محمود المراكبي

---

(١) « التعرف بمذهب أهل التصوف » لأبي بكر محمد الكلاباذي (١٣٤) .

(٢) « اللمع » لأبي نصر السراج الطوسي (٣٧٦) .

(٣) « اللمع » لأبي نصر السراج الطوسي (٣٨١) .

(٤) « الرسالة القشيرية » لأبي القاسم هوزان القشيري (٥٨) .

(٥) « طبقات الصوفية » لأبي عبد الرحمن السلمي (١٣٧) .

(٦) « الرسالة القشيرية » لأبي القاسم هوزان القشيري (٦٣) .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٤٠) ، أبو الزيد البسطامي (٤٥٨) .

(٨) « معجم مصطلحات الصوفية » د . عبد المنعم حفني (١٤٠) ، والجرجاني في « التعريفات » بند شطح .

(٩) « النصوص في مصطلحات الصوفية » لمحمد غازي عرابي (١٧٥) .

(١٠) « الطبقات الكبرى » لعبد الوهاب الشعراني (١/٧٨) .

(١١) أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٢٤٦) ترجمة رقم (٥٦٩) .

(١٢) « حلية الأولياء » لأبي نعيم (١٠/٢٤٦) ترجمة رقم (٥٦٩) .

(١٣) نقلاً عن نشر المحاسن الغالية المعروف بكفاية المعتقد ونكاية المنتقد لليافعي (٢٠٩) .

(١٤) نقلاً عن نشر المحاسن الغالية المعروفة بكفاية المعتقد ونكاية المنتقد لليافعي (٢٠٩) .

(١٥) « معجم مصطلحات الصوفية » د . عبد المنعم الحفني (٢٠٨) .

(١٦) « النصوص في مصطلحات الصوفية » لمحمد غازي عرابي (٢٥٩) .

(١٧) « طبقات الصوفية » لأبي عبد الرحمن السلمي (٦٧) .

(١٨) « طبقات الصوفية » لأبي عبد الرحمن السلمي (٧٢) .

(١٩) « طبقات الصوفية » لأبي عبد الرحمن السلمي (٧٢) .

الحلقة الرابعة

عقائد الصوفية
في ضوء الكتاب والسنة

الحلاج درويش صوفي أم باطني خبيث؟

الحمد لله الذي أنزل على عبده الفرقان ليكون للعالمين نذيرًا ، واصطفاه للناس معلمًا ، واجتباه للأنبياء والمرسلين إمامًا ، وأقامه للموحدين دليلاً ، فالفائز من سار على هديه ، والخاسر من اتبع كل ناعق وتولى عن سنته ، وصلّ اللهم عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد ؛ فقد تتبعنا في الحلقات السابقة مسار التصوف حتى وصلنا اليوم إلى منعطف خطير وظاهرة جلية من ظواهر اختلف الناس حولها اختلافًا كبيرًا ؛ ألا وهي الحلاج ، وما يعنينا من أمره هو اقتفاء أثره لبيان دوره في انحراف التصوف ، ونتبين ذلك حين نقرأ ترجمة الحافظ ابن كثير للحلاج ، والتي بدأها بقوله : (ونحن نعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يكن قاله ، أو نتحمل عليه في أقواله وأفعاله ، فنقول : هو الحسين بن منصور بن محمي الحلاج ، أبو مغيث ، ويقال : أبو عبد الله ، كان جده مجوسيًا ، اسمه محمي ، من أهل فارس من بلدة يقال لها : البيضاء ، ونشأ بواسط ، ويقال : بتستر ، ودخل بغداد ، وتردد على مكة وجاور بها في وسط المسجد في البرد والحر ، مكث على ذلك سنوات متفرقة ، وكان يصابر نفسه ويجاهدها ، ولا يأكل إلا بعض قرص ، ويشرب قليلاً من الماء معه وقت الفطور مدة سنة كاملة ، وكان يجلس على صخرة في شدة الحر في جبل أبي قبيس ، وقد صحب جماعة من سادات المشايخ الصوفية ؛ كالجنيد بن محمد ، وعمرو بن عثمان المكي ، وأبي الحسين النوري .

قال الخطيب البغدادي : والصوفية مختلفون فيه ، فأكثرهم نفوا أن يكون الحلاج منهم ، وأبى أن يعدَّه فيهم ، وقبله من متقدميهم ؛ أبو العباس بن عطاء البغداديَ ، ومحمد بن خفيف الشيرازي ، وإبراهيم بن النصراباذي ، وصححوا له حاله ، ودونوا كلامه ، حتى قال ابن الخفيف : الحسن بن منصور الحلاج عالم رباني ، وقال إبراهيم النصراباذي : إن كان بعد النبيين والصديقين موحد فهو الحلاج ، وسُمع الشبلي يقول : كنت أنا والحلاج شيئا واحدًا ، إلاّ أنه أظهر وكتمت ، كما صح أنه دخل الهند وتعلم بها السحر ، وقال : أدعو به إلى الله ، وكان أهل الهند يكاتبونه بالمغيث ، ويكاتبه أهل سركستان بالمقيت ، ويكاتبه أهل خراسان بالمميز ، وأهل فارس بأبي عبد الله الزاهد ، وأهل خوزستان بأبي عبد الله الزاهد حلاج الأسرار) .

ويروي ابن الجوزي في « المنتظم » وابن كثير في « البداية والنهاية » كثيرًا من حيل الحلاج وسحره وشعوذته ، فقد كان داهية واسع الحيلة ، ومبتدعًا خطيرًا أثرت مزاعمه في مجتمعه ، وأحدثت فتنًا هائلة .

ويشرح الشعراني أحوال الحلاج بقوله :

إن عمرو بن عثمان المكي رأى الحسين الحلاج يومًا وهو يكتب شيئًا ، فقال : ما هذا ؟ فقال الحلاج : أعارض القرآن – أي ؛ يكتب كالقرآن – فدعا عليه وهجره ، قال الشيوخ : فالذي أصاب الحلاج وحل به من البلاء كان من ذلك الدعاء .

وقُتل حسين الحلاج بدعوة عمرو بن عثمان المكي ؛ وذلك أنه كان عنده جزء فيه علوم الخاصة من القوم ، فأخذه الحسين ، فقال عمرو : من أخذ هذا الكتاب قطعت يداه ورجلاه ، فكان كذلك ، وإنما كان القول بتكفيره تسترًا على دعوة عمرو .

ويشرح الشعراني كيف قُتل الحلاج فيقول : فأمر بالحلاج وضرب ألف سوط ، فلم يتأوه ، وقطعت يداه ورجلاه وصلب ، ثم أحرق بالنار ، ووقع الاختلاف فيه بين الناس أهو الذي صُلب أم رُفع ، كما وقع في عيسى ابن مريم ، عليه السلام .

وهكذا جاءت نهايته سنة ٣٠٠ هـ ؛ حيث قُبض عليه ونودي عليه : هذا أحد دعاة القرامطة فاعرفوه ، ثم حُبس فضُرب ألف سوط ، ثم قطعت يده ، ثم رجله ، وحُز رأسه ، وأحُرقت جثته ، فاستراح الناس من فساده ، وتمنوا أن تدفن معه أفكاره، ولكن شاءت إرادة الله تعالى أن تبقى أفكاره فتنة للناس ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حيَّ عن بينة ، قال تعالى على لسان موسى الكليم ، عليه السلام : ﴿ إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾ [الأعراف : ١٥٥] .

❋ دفاع الحلاج عن إبليس :

يتحدث الحلاج عن شيخه إبليس بحب شديد ، وإعجاب مفرط ، وامتنان عظيم ، فهو يراه الموحد الحقيقي في هذا الكون ، ويعترف بفضله قائلاً :

١– ما صحت الدعاوى لأحد إلا إبليس ، وأحمد صلى الله عليه وسلم كشف له عين العين ، قيل لإبليس : اسجد ، ولأحمد : انظر ، هذا ما سجد ، وأحمد ما نظر ما التفت يمينا ولا شمالاً : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ [النجم : ١٧] .

٢– ويقول الحلاج : التقى موسى بن عمران وإبليس على عقبة الطور ، فقال له : يا إبليس ما منعك عن السجود ؟ فقال : منعني الدعوة بمعبود واحد ، ولو سجدت له لكنت مثلك ، فأنت نوديت مرة واحدة انظر إلى الجبل ، فنظرت ، ونوديت أنا ألف مرة أن اسجد فما سجدت لدعواي بمعناي .

٣– ومن شطحات الحلاج العجيبة أنه قال : وما كان في أهل السماء موحِّد مثل إبليس .

٤– ويعترف الحلاج بفضل إبليس عليه فيقول : فصاحبي وأستاذي إبليس وفرعون ، إبليس هُدد بالنار ، وما رجع عن دعواه ، وفرعون أغرق في اليم وما رجع عن دعواه ، ولم يقر بانواسطة البتة ، وإن قُتلت أو صلبت أو قطعت يدي ورجلاي ما رجعت عن دعواي.

❋ الحلاج والباطنية :

إن من الأخبار المنقولة عن الحلاج ، ما يؤكد العلاقة الوثيقة بينه وبين الباطنية ؛ لذا تراه يدعو إلى أنواع جديدة من العبادات ، يهدم بها أركان الإسلام ، ومن العبادات التي دعا إليها الحلاج ؛ إذا صام الإنسان ثلاثة أيام بلياليها ولم يفطر ، وأخذ في اليوم الرابع ورقات هندباء وأفطر عليها ، أغناه الله عن صوم رمضان ، وإذا صلى في ليلة واحدة ركعتين من أول الليل إلى الغداة أغنته عن الصلاة بعد ذلك .

كما أعلن عن فكرة الحج بالهمة ، حيث يكفي المرء أن يعقد نيته ويستجمع همته فينال ثواب الحج دون أن يرهق نفسه بالسفر وانتقال الأجسام إلى البلد الحرام ، ويقول الحلاج : إذا بنى بيتا وصام أيامًا ، ثم طاف حوله عريانا ، أغناه عن الحج .

وكان الحلاج من أوائل دعاة الباطنية في التدرج بالدعوة من رجة إلى أخرى ، واستخدم الرمز في خطاب الأتباع ، فتراه يحدد أسلوبه في دعوة الناس عن طريق نقلهم من حال إلى حال أخرى ، ومرتبة إلى مرتبة حتى يبلغوا الغاية القصوى ، وأن يخاطبوا كل قوم على حسب عقولهم وأفهامهم وعلى قدر استجابتهم وانقيادهم .

❋ الإيمان والكفر عند الحلاج :

يعرفنا الحلاج بأفكاره عن حقيقة الإيمان ، وماهية الكفر عنده ، من خلال مجموعة من أقواله نختارها من كتبه :

١- ويُروى عن عبد الودود بن سعيد الزاهد قال : دخلت على الحلاج فقلت له : دلني على التوحيد ؟ فقال : التوحيد خارج عن الكلمة حتى يعبر عنه ، قلت : فما معنى لا إله إلاّ الله ؟ قال : كلمة شغل بها العامة لئلا يختلطوا بأهل التوحيد ، وهذا شرح التوحيد من وراء الشرح ، ثم احمرت وجنتاه وقال : أقول لك : مجملاً ؟ قلت : بلى ، قال : من زعم أنه يوحد الله فقد أشرك .

٢- يقول ابن أخت الحلاج : رأيت بخط خالي : من فرق بين الكفر والإيمان فقد كفر ، ومن لم يفرق بين الكافر والمؤمن فقد كفر .

٣- يقول في موضع آخر من طواسينه : الكفر والإيمان يفترقان من حيث الاسم ، وأما من حيث الحقيقة فلا فرق بينهما .

٤- وقال الحلاج : حجبهم الاسم فعاشوا ، ولو أبرز لهم علوم القدرة لطاشوا ، ولو كشف لهم الحجاب عن الحقيقة لماتوا.

٥- ويروي أبو نصر بن قاسم البيضاوي أنه رأى رقعة بخط الحلاج عند بعض تلامذته مكتوب فيها : اعلم أن المرء قائم على بساط الشريعة ، ما لم يصل إلى مواقف التوحيد ، فإن وصل إليها سقطت من عينه الشريعة ، واشتغل باللوائح الطالعة من معدن الصدق ، فإذا ترادفت عليه اللوائح ، وتتابعت عليه الطوالع ، صار التوحيد عنده زندقة ، والشريعة عنده هوسًا ، فبقي بلا عين ولا أثر ، وإن استعمل الشريعة استعملها رسمًا ، وإن نطق بالتوحيد نطق به غلبة وقهرًا .

٦- وكتب الحلاج لأحد تلامذته فقال : السلام عليك يا ولدي ، ستر الله عنك ظاهر الشريعة ، وكشف لك حقيقة الكفر ، فإن ظاهر الشريعة كفر محض ، وحقيقة الكفر معرفة جلية .

٧- ويعتقد الحلاج في وحدة الأديان ، فتراه يقول يومًا لعبد الله بن طاهر الأزدي : الأديان كلها لله ، عز وجل ، شغل بكل دين طائفة ، لا اختيارًا منهم ، بل اختيارًا عنهم ، فمن لام أحدًا ببطلان ما هو عليه ، فقد حكم أنه اختار ذلك لنفسه - هذا مذهب القدرية ، والقدرية مجوس الأمة - واعلم أن اليهودية والنصرانية والإسلام وغير ذلك من الأديان هي ألقاب مختلفة ، وأسام متغايرة ، والمقصود منها لا يتغير ولا يختلف .

٨- يقول الحلاج : إنني أُنْكِرُ دين الله ، فهذا فرض عليَّ ، وأما إنكار العامة له فخطيئة .

* الحلاج والحلول :

غالبًا ما يبدأ الانحراف بالقول بالفناء والبقاء ، فقد خطب الحلاج يومًا في جامع المنصور فقال : أيها الناس إذا استولى الحق على عبد أخلاه من غيره ، وإذا لازم أحدًا أفناه عمن سواه ، وإذا أحب عبدًا حث عباده بالعدوان عليه ، حتى يتقرب العبد مقبلاً عليه .

وقال العطار : قلت : ها أنذا قد فنيت ، قال - أي الله ، عز وجل -: كذلك منحتك البقاء ، حين ترى نفسك عندما أهبك وجودًا لا يتصور ، ثم يتطور الفناء إلى الشطط ، فقد قال الحلاج ، ليس يتركني - يعني الله - ونفسي فأنسى ، وليس يأخذني من نفسي فأستريح منها ، وهذا دلال لا أطيقه ، وأنشد قائلاً :

هويت بكلي كل كلك يا قدسي
تكاشفني حتى كأنك في نفسي

ثم يصرح الحلاج باعتقاده في حلول الإله فيه فيقول :

١- أرى ربي بعين قلبي ، فأقول له : من أنت ؟ فيقول لي : أنت !!

٢- ومن كلام الحلاج : والحقيقة خليقة ، دع الخليقة لتكون أنت هو ، أو هو أنت من حيث الحقيقة .

٣- ويقول نظمًا :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته
وإذا أبصرته أبصرتنا

٤- ويوجز الحلاج عقيدته في بيت من الشعر يقول فيه :

أنا الحق والحق حق
لابس ذاته فما ثَمَّ فرق

٥- وقيل : قتل الحلاج لقوله : من هذب في الطاعة جسمه . وملك نفسه ، ارتقى به إلى مقام المقربين ، فإذا لم يبق فيه من البشرية نصيب حل فيه روح الله الذي كان من ابن مريم .

٦- وينسب للحلاج قوله شعرًا :

سبحان من أظهر ناسوته
سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهرًا
في صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه
كلحظة الحاجب بالحاجب

* الحلاج والشيعة والنور المحمدي :

ولا شك أن الرجل كان يؤمن برجعة أئمة الشيعة ؛ لذا فلا غرابة أن يقال عنه : كان الحلاج شيعيًا متطرفًا . ولذلك نراه يدعي لنفسه أنه المهدي المنتظر ، فقد صرح عند مقتله قائلاً : سأعود إليكم بعد أربعين يومًا .

يضيف الحلاج إلى شطحاته وتجاوزاته الخطيرة بعدًا جديدًا حين ينقل إلى أهل السنة مفاهيم الشيعة حول قِدَم نور النبي صلى الله عليه وسلم والأئمة ، ولكنه لا يستطيع أن يصرح بقِدَم نور الأئمة فقط ، وإلا عُرف مذهبه الخبيث ؛ لذا تراه يكتفي بزعم قِدم نور النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقول : إن نور محمد أشرق قبل أن يكون الخلق ، ومنه استمد الأنبياء هديهم ، والأولياء معارفهم ، لتجليه على مر الأيام فيهم ، وهذا النور القديم كما هو مصدر هداية هو مصدر خلق ، فمنه كانت الأكوان ، ولولاه لما كان وجود ، ويستطرد قائلاً : أنوار النبوة من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، وليس في الأنوار نور أنور وأظهر وأقدم سوى نور صاحب الكرم ، نعته سبقت الهمم ، ووجوده سبق العدم ، واسمه سبق القلم ؛ لأنه كان قبل الأمم .

إن الحلاج حين ينادي بين الصوفية من أهل السنة بهذه النظرية القديمة التي مزجت الفلسفات اليونانية والنظرة المسيحية للابن ، والمزاعم الشيعية عن الإمام ، هو في الواقع يمثل جسرًا عبرت عليه كل الأفكار الهدامة كالآفات تهاجم رياض إيمان أهل السنة ، ولم يتأثر بالحلاج إلا الفكر الصوفي ، فقد تطورت نظريته على يدي ابن عربي شيخ الصوفية الأكبر الذي صاغها في نظرية وحدة الوجود ، ووضع لمساتها النهائية من بعده عبد الكريم الجيلي في « الإنسان الكامل »، وسنعرض في الحلقات التالية بتوفيق الله تعالى لدور كل منهما .

* اعتذار الصوفية عن الحلاج :

ترجم أبو عبد الرحمن السلمي للحلاج في « طبقات الصوفية » فقال : إن المشايخ في أمره مختلفون ، رده أكثر المشايخ ، ونفوه ، وأبوا أن يكون له قدم في التصوف ، وقبله بعضهم ، وأثنوا عليه ، وصححوا له حاله ، وحكوا عنه كلامه ، وجعلوه أحد المحققين ، حتى قال محمد بن خفيف : الحسين بن منصور الحلاج عالم رباني ؛ إلا أن الرجل يُعَد من كبار الباطنية الذين قاموا بدور متميز في نشر أفكار الباطنية ، ومن كبار دعاة الاستغراق في العشق الإلهي الذي كان شائعًا في القرن الثالث الهجري ، وترك وراءه عددًا كبيرًا من الناس يحسبونه صوفيًا فانيًا غارقًا في مقامات السكر والغلبة ، وقد بلغ الحلاج والبسطامي حدًا لا يُبارى في أقوال الشطح وأحوال السكر والفناء ، فمقولة الحلاج : أنا الحق ، أو ما في الجبة إلا الله . وما يحكى عن أبي اليزيد أنه قال : سبحاني ، لا تجد عند الصوفية تفسيرًا إلا أنها أحوال سكر ووجد وغيبة لا يؤاخذ قائلها .

* خلاصة الرأي في الحلاج :

يختلف الناس حول الحلاج اختلافًا شديدًا ، فمن أقام عليه الحد من علماء زمانه حكموا عليه بميزان الشرع الحكيم ، واقتصوا منه القصاص الذي يشفي قلوب عباد الله المخلصين ، ولم يعتمد هؤلاء على أقوال مفتراة على الرجل ، وقد بذلوا جهودهم في استتابته ، وبحثوا سبل الاعتذار عن أقواله ، فأبى الحلاج واستكبر ، وظل على ضلاله القديم ، فحذروا الناس من شره ، وأقاموا عليه حد ربه . ومن أوجز ما يُروى عن الحلاج قول أبي بكر الصولي : قد رأيت الحلاج وجالسته ، فرأيت جاهلاً يتعاقل ، وغبيًا يتبالغ ، وفاجرًا يتزهد ، وكان ظاهره أنه ناسك صوفي ، فإذا علم أن أهل البلدة يرون - أي

يعتقدون – الاعتزال صار معتزلاً ، أو يرون الإمام صار إماميًا ، وأراهم أن عنده علمًا من إمامتهم ، أو رأى أهل السنة صار سنيًا ، وكان خفيف الحركة مشعبذًا ، قد عالج الطب ، وجرب الكيمياء ، وكان مع جهله خبيثًا .

فالحلاج في حقيقة الأمر داعية للباطنية ، أظهر العديد من الأفكار ، وخلط مجموعة من المفاهيم ، وأحسن الظن به جماعة من السذج والغافلين ، وسار خلفه أتباع كثيرون ؛ فالحلاج إذن ليس درويشًا صوفيًا ، وإنما باطني خبيث ، وللأسف سار وراء أفكاره أقطاب التصوف .

✱ محاولات تصحيح مسار التصوف :

عندما ظهرت نزعات الابتعاد عن الكتاب والسنة بين المتصوفة ، الذين يخوضون في الفناء والشطح وغير ذلك ، لم يسكت العلماء عامة ورجال التصوف كذلك ، ويمكن أن نرصد المحاولات الأولى التي قام بها بعض الصوفية لتصحيح مسار التصوف منهم .

✱ السراج الطوسي :

ظهر الطوسي في مطلع القرن الرابع الهجري تقريبًا ، وأخرج كتابه « اللمع » وأفرد فيه بابًا سماه « أغاليط الصوفية » ، واعترض فيه على القول بالفناء بقوله : والذي أشار إلى الفناء ، أراد به فناء رؤية الأعمال والطاعات ، ببقاء رؤيا العبد لقيام الحق للعبد بذلك ، وكذلك فناء الجهل بالعلم ، وفناء الغفلة بالذكر ، وفناء البشرية بالبشرية صفة من صفات البشرية ، والذي يتوهم أنه ذهاب النفس ، وزوال التلوين عن العبد وقتا دون وقت ، وذهاب البشرية فقد غلط وجهل عن وصف البشرية .

ثم يناقش الأقوال التي انتشرت عن الفناء فيقول : وقد غلط جماعة من البغداديين في قولهم : إنهم عند فنائهم عن أوصافهم دخلوا في أوصاف الحق ، وقد أضافوا أنفسهم بجهلهم إلى معنى يؤديهم ذلك إلى الحلول ، أو إلى مقالة النصارى في المسيح ، عليه السلام ، ولم يدرك القائلون بالفناء الذي هو فناء صفات البشرية ، أن البشرية لا تزول عن البشر ، وهم لا يفرقون بين البشرية وبين أخلاق البشرية ، فالأخلاق تتبدل وتتغير بما يرد عليها من سلطان أنوار الحقائق ، وصفات البشرية وأخلاقها إذا تغيرت فليست هي عين البشرية .

ثم يوضح الطوسي موضع الخطأ في حديث أهل الشطح عن الفناء فيقول : وأما الذين غلطوا في معنى الفناء ، إنما غلطوا بدقيقة خفيت عليهم ، حين ظنوا أن أوصاف الحق هي الحق ، وهذا كله كفر ؛ لأن الله تعالى لا يحل في القلوب ، ولكن يحل في القلوب الإيمان به والتوحيد له ، والتعظيم لذكره ، بمعاني التحقيق والتصديق .

ويزيد الأمر بيانا حين يقول : فمنهم من ترك الطعام والشراب ، وتوهم أن البشرية هي القالب ، والجثة إذا ضعفت زالت بشريتها ، فيجوز أن يكون موصوفًا بصفات الإلهية ، ولم تحسن هذه الفرقة الجاهلة الضالة أن تفرق بين البشرية وبين أخلاق البشرية ؛ لأنَّ البشرية لا تزول عن البشر ، كما أن لون السواد لا يزول عن الأسود ، ولا لون البياض عن الأبيض ، وأخلاق البشرية تبدل وتغير بما يرد عليها من سلطان أنوار الحقائق ، وصفات البشرية ليست هي عين البشرية ، ويؤكد الطوسي العلاقة بين الفناء والحلول حين يقول : والذي غلط في الحلول غلط ؛ لأنه لم يحسن أن يميز بين أوصاف الحق ، وبين أوصاف الخلق ؛ لأن الله تعالى لا يحل في القلوب ، وإنما يحل في القلوب الإيمان به ، والتصديق له ، والتوحيد والمعرفة ، وهذه أوصاف مصنوعاته من جهة صنع الله بهم ، لا هو بذاته أو صفاته يحل فيهم ، تعالى الله عز وجل عن ذلك علوًا كبيرًا .

ولا شك أن الطوسي بموقفه هذا قد وضع يده على قضية هامة ، ولم يخطر بباله ما سيخترعه ابن عربي بعد ذلك ، ثم تأخذ به الطرق الصوفية من بعده وتسير على نهجه ، حين يرى أن وجود الخلق هو ذاته وجود الخالق .

✱ الكلاباذي :

ينضم الكلاباذي إلى قائمة المتعرضين على انحراف التصوف ، محاولاً توجيه التصوف إلى الكتاب والسنة ، والابتعاد عن الشطح والأحوال التي أوصلت التصوف إلى اعتناق كثير من أفكار فرق الباطنية ، وقد قدَّم الكلاباذي كتابًا أسماه « التعرف لمذهب أهل التصوف » ، يعد من أقدم وأدق وأنقى

وأصفى ما كُتب عن التصوف ورجاله ، حتى قال قدامى الصوفية : لولا التعرف لما عُرف التصوف .

فنراه يصحح مفهوم الفناء بقوله : فالفناء هو أن يفنى عن الحظوظ ، فلا يكون له في شيء من ذلك حظ ، ويسقط عنه التمييز ، فناء عن الأشياء كلها شُغلاً بما فني به ، كما قال عامر بن عبد اللّه : ما أبالي امرأة رأيت أم حائط ، والبقاء الذي يعقبه هو أن يفنى عما له ويبقى بما للّه .

ويعرف البقاء الصوفي بقوله : هو أن تصير الأشياء كلها شيئًا واحدًا ، فتكون كل حركاته في موافقات الحق دون مخالفاته ، فتكون فانيًا عن المخالفات ، باقيًا في الموافقات ، فيكون ما نهي عنه كما أُمر به ، ولكن لا معنى ؛ أن لا يجري عليه إلا ما أمر به وما يرضاه اللّه تعالى ، دون ما يكره ، ويفعل ما يفعل للّه لا حظ له فيه في عاجل أو آجل .

فالفناء كما يراه الكلاباذي ؛ فناء في طاعة اللّه ، تبارك وتعالى ، والابتعاد عن معصيته ، والبقاء في مرضاته والالتزام بحدوده ، وليس في هذا الفهم أدنى شبهة ، بل نراه يحاول تصحيح مفاهيم الفناء التي ابتدعها الحلاج وغيره من زعماء الشطط والزيغ .

لقد تتبعنا في الحلقات السابقة مراحل انحراف التصوف ، أولا ؛ من الناحية التاريخية ، وثانيًا ؛ من الناحية الفكرية ، ورصدنا تطوره ، ونود قبل أن نتناول دور ابن عربي وابن سبعين والجيلي أن نوجز المراحل السابقة في نقاط محددة هي :

١- بدأ التصوف مع نهاية القرن الثالث الهجري ؛ حيث لم يظهر قبل ذلك ، أي إشارة إلى الصوفية أو التصوف فيما تركه لنا السلف الصالح من كتب ومصادر ، وقد بدأ التصوف بإقبال بعض العباد على الزهادة واعتزال الدنيا ، والانقطاع للطاعات وعبادة اللّه سبحانه .

٢- ظهر بعد ذلك القول بالوجد ، وهو حال يفسره الصوفية بما يصادف القلب من أحوال الآخرة ، أو رفع الحجاب ، كما يحلو للبعض أن يقول ، أو حال من أحوال القلوب من خشية أو وجل أو رجاء ، فيظهر ما يجده الصوفي في باطنه على ظاهره .

٣- إذا استمر الوجد وغلب صاحبه سماه الصوفية غلبة ، وقد احتاط بعض المشايخ في قبول أحوال الوجد ، وربط الواردات التي ترد مع حال الوجد ، بما يتركه في نفس صاحبه ، وقياس ذلك في ضوء الكتاب والسنة ، فما وافقها كان حالاً من أحوال الصلاح ، وإن كان عكس ذلك فلابد للصوفي من رفض هذا الحال .

٤- وإذا استمر الحال واشتدت وطأته ربما يغيب الصوفي عن نفسه ، فيصل إلى حالة من السكر ، حيث يغيب عنه تمييز الأشياء .

٥- ظهرت مجموعة من الأقوال لأناس يصفهم الصوفية بأنهم في حالة الوجد أو الغلبة أو السكر ، وكل ما يصدر عنهم في هذه الأحوال يسميه الصوفية شطحًا .

٦- أبرز الشطحات التي ظهرت في بداية انحراف الصوفية كانت على يدي أبي اليزيد البسطامي المتوفى سنة ٢٦١ هـ .

٧- أول من تحدث في الفناء وأفاض فيه هو أبو سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٧٧ هـ .

٨- ثم ظهر الحلاج المقتول سنة ٣٠٠ هـ على مسرح الأحداث ، وسرعان ما خطف الأضواء ، وقد نجح الرجل وهو يعتنق مفاهيم الباطنية أن يلبس على الناس حاله ، حتى عده بعض الصوفية من أكابر القوم ، وقد أرسى الحلاج الكثير من المفاهيم التي أصبحت فيما بعد الأسس التي سار على دربها فلاسفة التصوف ، من أخطر المفاهيم التي خاض فيها الحلاج هو مفهوم قدم نور النبي صلى اللّه عليه وسلم ، ثم قوله بالحلول والاتحاد ، وباقي الشطحات الباطنية الخطيرة .

٩- تعد المراحل السابقة التمهيد الحقيقي لظهور أفكار ابن عربي ، ثم ابن سبعين والجيلي ، والتي انتهت إلى عقيدة جديدة لا علاقة لها بالنبوة ورسالة النبي الخاتم صلوت اللّه وسلامه عليه .

١٠- لم تمنع محاولات تصحيح مسار التصوف من استمرار انحراف أفكاره وجنوحه إلى الغموض والأسرار .

وإلى اللقاء في الحلقة القادمة ، بإذن اللّه ، مع ابن عربي ووحدة الوجود التي تدندن حولها أغلب أوراد الطرق الصوفية ، واللّه وحده المستعان .

أ / محمود المراكبي

بقلم أ / محمود المراكبي

عقائد الصوفية

في ضوء الكتاب والسنة

الحلقة الخامسة

ابن عربي شيخ العارفين أم هادم الدين ؟!

الحمد لله وكفى . والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم ، تحدثنا في المقالات السابقة عن مراحل تطور الفكر الصوفي ، بدءا من الشطح ومراحله ، ومرورا بالقول بالفناء والبقاء . ونتعرض اليوم لقضية من أخطر قضايا التصوف : وهي وحدة الوجود ، ولن يمر الحديث عنها دون أن نقدم واضعها محيي الدين بن عربي . والقارئ لمؤلفاته يعرف عنه وينكر . وهو في نظر الناس إما شيخ العارفين ، أو هادم للدين ، وقبل أن ندخل في لب الموضوع علينا أن نقدم لها فنقول وبالله تعالى التوفيق .

يحاول الإنسان منذ فجر التاريخ أن يتعرف على خالق الكون . والحكمة من وجود المخلوق ، وكيف يتقرب المخلوق إلى خالقه ؟ وقد انقسم الناس في قضية وجود الخالق والمخلوق إلى ثلاثة فرق هي :

١ – قوم أقروا بوجود خالق للعالم أوجده من عدم . وفرقوا بين وجوده ووجود مخلوقاته . وهؤلاء هم أتباع الرسل .

٢ – وقائلون بوجود العالم وينفون بالكلية وجود خالق له . وهؤلاء هم الشيوعيون والملاحدة ، أو ينفون بعضا من صفاته . وهم الكافرون .

٣ – وقائلون بوجود واحد للخالق ، وينفون وجود العالم . ويرون الوجود الحقيقي للخالق فقط وما العالم عندهم إلا مظاهر وتجليات للخالق . ويؤمن هؤلاء بوحدة الوجود ، ويسمون الاتحادية أو الوجودية .

وأن نناقش في مقالنا هذا أفكار الشيوعيين ، فيكفيهم انهيار دولتهم فوق رءوسهم ، وإنما سيدور حديثنا حول معتقدات ومفاهيم أصحاب وحدة الوجود . ولا بد من أن نسلم في البداية بعجز المصنوع عن التعرف على صانعه ، ومن رحمة الخالق سبحانه وتعالى بخلقه أن هيأ لهم أسباب معرفته وحصرها في مجالين أساسيين هما :

١ – **النقل** . ٢ – **العقل** .

١ – **النقل** : وهو ما يأتي عن طريق إرسال الرسل . وابتعاث الأنبياء ، مبشرين ومنذرين ، آمرين بأوامر الله ، وناهين عما يغضبه ، معهم الدليل والبرهان وهم لا يتكلمون من عند أنفسهم ، وإنما يتحدثون عمن بعثهم ، وأن الشرائع تمثل أسلوب سعادة البشر ، وعلى قدر مخالفة المنهج الإلهي يشقى الفرد ، ويفسد المجتمع .

٢ - **العقل** : وهو التدبر والتفكر في آيات اللّه التي تظهر تباعًا في الآفاق وفي الأنفس ، حتى يتبين الحق للناس ، فالعقل يوصل إلى المعبود ، ثم يقف عند هذا الحد ، وهلاك العقل أن يتفكر في ذات الإله .

فأهل الإيمان يعتمدون على النقل ، ولا مجال للشطح في وجود النص الصحيح ، ثم يتفكرون بعقولهم وأفئدتهم في دوائر المعرفة التي أشار إليها الوحي الإلهي ، ومنها التعرف على قدرة اللّه وحكمته ودقيق صنعته ، وذلك بالتدبر في الكون ؛ أما الفلاسفة فيعتمدون على العقل فقط ، ويسمحون له أن يجوب آفاق أعلى من طاقته ، وبالتالي يصلون إلى مفاهيم بعيدة عن الرسالات ، ونهايات جميع محاولات الفلاسفة لم تصل إلى بدايات وحي السماء ، وقد كان لحركة الترجمة التي بدأت في العهد الأموي ، واتسعت في زمن المأمون دورها في مزج الدين بالفلسفة ، حتى وصلت إلى نظرية وحدة الوجود التي أرساها شيخ الصوفية الأكبر ، والكبريت الأحمر « ابن عربي الأندلسي » ، وكل ما فعله الرجل أن أخذ نظرية وحدة الوجود التي يدين بها الهنود والبراهمة من قرون عديدة قبل ظهور الإسلام ، ثم استعمل شطحات الصوفية عن الفناء والبقاء ، ثم استعان بفكرة قدم نور النبي صلى اللّه عليه وسلم والأئمة التي ابتكرتها الشيعة الإسماعيلية من بعدهم ، وروج لها الحلاج وغيره ، ثم صاغ هذه الأفكار في نظرية وحدة الوجود ، وهذا ما يؤكده العلماء في قولهم : (ولم يكن لمذهب وحدة الوجود وجود في الإسلام في صورته الكاملة قبل ابن عربي ، فهو الواضع الحقيقي لدعائمه ، والمؤسس لمدرسته ، والمفصل لمعانيه ومراميه ، والمصور له بتلك الصورة النهائية ، التي أخذ بها كل من تكلم في هذا المذهب من المسلمين من بعده) . [مقدمة « فصوص الحكم » د. أبو العلا عفيفي ٣٥] .

وقبل أن نتحدث عن مصادر نظرية وحدة الوجود ينبغي أن نشير إلى بضاعة الفلاسفة وصور اتصال الخالق بالمخلوق كما يراها الباطنية وأصحاب العقائد المنحرفة وهي تتلخص في الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، ونعرض تعريفًا موجزًا لكل صورة من هذه الصور :

١ - الحلول الخاص :

وأصحاب هذا المبدأ يرون أن اللّه ، جل جلاله ، يحل في أشخاص معينة فقط ؛ ومنهم النسطورية من النصارى ، الذين يقولون بحلول اللاهوت في الناسوت ، وأن اللّه حل في عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، وهو أيضًا قول الرافضة وغلاة الشيعة الذين يقولون أن اللّه حل في علي بن أبي طالب ، رضي اللّه عنه ، وفي أئمة آل البيت ، كما سبق أن زعم ذلك الحلاج أيضًا ، ومنطق هؤلاء ؛ أن اللّه - تعالى عن ذلك - يتنزل في الخلق ، ويحل فيهم فتفنى صفات البشرية وتبقى فيهم صفات الربوبية ، فالحلول هو التطبيق الكامل لفكرة الفناء والبقاء التي نادى بها أبو سعيد الخراز .

٢ - الاتحاد الخاص :

ويعتقد أصحاب هذه النظرية أن العبد إذا ارتقى بالطاعات ، وصَفَت نفسه بالمجاهدات ، فَنِيت صفاته الذميمة وبَقِيت صفاته الحسنة ، فإن العبد يسمو وتشف روحه ، كما تصفو طبيعته حتى يتحد وجوده بوجود ربه ، وهذا قول يعقوبية النصارى ، حيث يقولون باختلاط اللاهوت والناسوت في عيسى ، عليه السلام ، وقد زعم بعض الصوفية الوصول إلى مقام الاتحاد الخاص ؛ منهم أبناء الطريقة الجيلانية فيما ينسبونه للشيخ الجيلاني[1] ، وفي توسلهم بشيخهم بالوسيلة المسماة الغوثية ، ويعتقدون أن الشيخ تلقاها بطريق الإلهام القلبي ، والكشف المعنوي - ننقله كاملاً فيما بعد - ونذكر هنا نبذة عنه ؛ وفيه حوار بين الشيخ وبين اللّه - تعالى اللّه عما يقولون علوًا

---

[1] نعتقد أن الشيخ الجيلاني بريء من توسل أتباعه به ، خاصة والرجل شهد له بالصلاح كبار علماء زمانه .

٣ - وحدة الوجود :

يعتبر أصحاب نظرية وحدة الوجود أنهم فقط الموحدون حقًا ، ومن سواهم مشركون . فمن لم يتحقق في مذهبهم يرى للعبد وجودًا وللّه وجودًا آخر ، فإذا قال : أشهد أن لا إله إلاّ اللّه ، قالوا له : إذا كنت تشهد لنفسك وجودًا مع اللّه ؟ فأنت إذن تؤمن بوجود اثنين ؟! وبالتالي تشرك نفسك مع اللّه ، إنك ما زلت في مقام الحجاب والشريعة ، أما هم الواصلون إلى فهم وحدة الوجود ؛ فإنهم يقولون : طالما أن : (اللّه معكم أينما كنتم) ، وهو : (أقرب إلينا من حبل الوريد) ، فلم نقول أن هناك وجودين ؟ بل هو موجود واحد لا ثاني له ، وهو وجود اللّه على الحقيقة ، وهذا الوجود في الواقع هو مجموع مخلوقاته التي انبثقت عنه كمظاهر له ، ويقولون : هذا الوجود إذا نظرت له في ظاهر الأمر وجدت خلقًا ، أو إن شئت قلت : إن اللّه هو الظاهر بمخلوقاته ، وإذا نظرت إلى المخلوقات لا تظن أنها خلقًا ، بل يجب أن تفنى هذه الظواهر من أمام عينيك ، حتى ترى اللّه باسمه تعالى الباطن ، فما ثم خلق ، ولا ترى في الكون إلا اللّه ، وهذا هو المراد من قولهم : « توحيد العامة ؛ لا إله إلاّ اللّه ، وتوحيد الخاصة ؛ لا موجود إلا اللّه » [« موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده سيد المرسلين » ، شيخ الإسلام مصطفى صبري (٣/٣٥)] .

وحدة الوجود هي لإزالة هذا المرج
... عربي في فتوحاته غاية نظريته . يقوله
... التحليل من المرج . كما أوضح ذلك شعرا
حيث يقول

فمن الظاهر والمعبود ظاهرت
ومظهر الكون عين الكون فاعتبروا
ولست أعبده إلا بصورته
فهو الإله الذي في طيه البَشَرُ

● مصادر نظرية وحدة الوجود :

إن وحدة الوجود عقيدة قديمة دان بها بعض الأمم قبل الإسلام ، ولم تكن مُغَلَّفة بإطار من السرية أو السمو عن فهم العامة وإدراكهم ؛ لكونها من المذاقات العالية ، فهي عقيدة العام والخاص في الديانة الهندوسية ، فالبراهمة يقولون : إن براهما هو القوة الكامنة العظمى في الوجود ، بل هي الكون الحقيقي كله ، والبراهمة شيء واحد هو جوهر العالم الخفي الذي لا تحده قيود الزمن ، كما أن شعوب الصين كانت تؤمن بالاتصال بالتاوي ، والتاوي اسم يطلق مرة على الإنسان ، ومرة يوصف الإله بالتاوي ، وهذا الفهم قريب من الحقيقة الكلية عند ابن عربي .

ويقول عدد من المستشرقين : إن ابن عربي تأثر بابن ميسرة وابن برجان ، بينما يرى الآخرون أنه لم يتأثر بأحد ، وأنه هو الواضع الأول والمؤسس لهذه النظرية .

ورغم اتفاقنا مع مجموع الآراء التي حاولت الوصول إلى الروافد التي غذت أفكار الرجل ، إلاّ أننا نضيف إلى ما سبق : أن ابن عربي تأثر وبوضوح بمن سبقه من الصوفية أصحاب الشطح المنادين بالفناء والبقاء ، ونحن نرى أن أقوال أبي سعيد الخراز ، وأبي اليزيد البسطامي والحلاج كانت هي اللبنات

الأساسية التي صاغ منها ابن عربي أفكاره ، بل إن أكثر العناصر التي بنى عليها نظريته سبقه إليها أحد هؤلاء الثلاثة ؛ فالخراز وضع تعريفًا للفناء والبقاء ، واستثمره القشيري وحرّف الفناء إلى فناء صفات العبد ببقاء صفات الإله ، والبسطامي فتح باب تعطيل الشريعة ، وأن الحقيقة مخالفة للشريعة وهو الذي مهد لأفكار الفناء ، ثم جاء الحلاج فقنن الفناء ، واعتبر توحيد المسلم لربه نوعًا من الإشراك ، وأن أهل الحقائق يفصون عن ذواتهم ، فيرون التوحيد بمعنى ؛ لا موجود إلاّ اللّه ، كما نراه يقرر أن الأديان كلها واحد ، ولا فرق بين الكفر والإيمان .

إن الباحث حين يجمع هذه العناصر جنبًا إلى جنب ؛ لا يجد صعوبة أن يُقلص دور ابن عربي ؛ لأنّه في الحقيقة قد أضاف شيئًا يسيرًا إلى جملة ما استقاه من أفكار أهل الشطح ، ويكون دور ابن عربي هو النتيجة المنطقية لكل ما سبقه من مقدمات ، وبالتالي يكون إسهامه فقط في بلورة هذه العناصر وصياغتها في شكل رمزي إشاري إلى حد بعيد ، ولعل هذا هو السبب الذي نرى ابن عربي كثيرًا ما يذكر أسماء الحلاج والبسطامي والخراز بمناسبة وغير مناسبة ، ومن أمثلة ذلك ؛ ما قاله في « الفتوحات » عن الإسراء والمعراج : (فكان من آياته التي أراه – أي أن اللّه سبحانه أطلع رسوله صلى اللّه عليه وسلم ليلة إسرائه – كونه تدلى في حال عروجه ، وهذا عين ما أشار إليه أبو سعيد الخراز في قوله عن نفسه : ما عرفت اللّه إلاّ بجمعه بين الضدين ، فلولا أنت ما كان دنو ولا تدل ، فكان بهويته في الجميع في حال واحدة ، بل هو عين الضدين ، فأنت من حيث هويتك لا نعت لك ولا صفة .

وقيل لأبي اليزيد : كيف أصبحت ؟ فقال : (لا صباح لي ولا مساء ، إنما الصباح والمساء لمن تغير بالصفة ، وأنا لا صفة لي ، فإني بكيت زمانًا ، وضحكت زمانًا ، وأنا اليوم لا أضحك ولا أبكي ، والصعود والهبوط نعت ، فلا صعود للعبد ، ولا هبوط من حيث عينه وهويته ، فالصاعد عين الهابط ، فما دنا إلا عين من تدلى ، فإليه تدلى ومنه دنا) .

[« الفتوحات المكية » ابن عربي (٤٠/٤)] .

● الحقيقة المحمدية :

إن الشيعة حين انتابتها نوبات الغلو ، وقالت بقدوم نور الأئمة لزمهم القول بقِدَم نور جدهم سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، والمقصود بالقِدَم : أن نور النبي جزء أو قبضة من نور اللّه ، جل وعلا ، إذ لا يوصف بالقِدَم إلاّ اللّه وحده ، وكل ما في الكون مُحدث أوجده اللّه بقدرته ، وحتى يفسح الغلاة لأنفسهم مجال الظن وافتراء الكذب ؛ راحوا يتهربون من ألفاظ الخلق ، والعبد ، والنبي ، والرسول ، إلى مصطلحات أفلاطون وغيره من الفلاسفة الذين لا يعترفون بالخلق من عدمه ؛ ولكنهم يؤمنون بالفيض والتعين .

ويمزج مشايخ الصوفية مفاهيم الشيعة والفيض الأفلاطوني والتعين الفلسفي ، ويضعون أورادهم ويقدمونها للمريدين على أنها فتوحات الشيخ وأسراره ، وأنى للمريد أن يفهم مرامي الورد ومقاصده ، وبالتالي يتلقى عبادته الجديدة للّه ، تبارك وتعالى ، على أنها علوم الخاصة ، والمشايخ يحذرون المريدون من أسرار الطريق ، ولا يجوز في سلوك القوم إفشاء الفتوحات ، ويحذرون المريد بقولهم : (ولا يجوز للمريد إفشاء سر من الأسرار ، إلاّ أن يأمره الشيخ أو الشرع بإذاعته ، وربما غلب عليه الحال فأفشى سر الربوبية ، فوقع له كما وقع للحلاج ، خاصة في هذا الزمان الذي استتر فيه الأولياء الصادقون والعلماء العاملون ، وصار الفقير إذا وقع في ورد له لا يهتدي غالب الناس إلى خروجه من تلك الورطة ، وربما قُتل ذلك الفقير ظلمًا ، فالكتمان واجب على المريد حتمًا للسلامة) . [« الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية » عبد الوهاب الشعراني (٩٠)] .

ولا يستطيع كثير من الناس أن يحل هذه الألغاز ولا يفهم مرامي هذه العبارات المتعلقة بالأسرار ، إلاّ إذا أدرك المقصود بالحقيقة المحمدية ، والإنصاف يقتضي أن نتعرف على مصطلح الصوفية حول الحقيقة المحمدية من كتبهم والتي جاء فيها :

● الحقيقة المحمدية :

هي الذات مع التعين الأول ، وهي الاسم الأعظم ، وسر الحقيقة ما لا يفشى من حقيقة الحق في كل شيء) . [معجم مصطلحات الصوفية ، د . عبد المنعم الحفني (٧٩)] .

ويعرفها القاشاني بقوله : (هي الذات مع التعين الأول ، فله الأسماء الحسنى كلها ، وهي الاسم الأعظم) . [اصطلاحات الصوفية للقاشاني] .

ويعرفها محمد غازي بقوله : (الحقيقة المحمدية ؛ ضامة لجميع الذوات ، هادية بأمر الله ، لا تحدث أمرًا إلا بإذنه ، وهي قديمة قِدَمَ الخالق ، وهي خلق دون إيجاد ، إذ هي الوجه المتعين للنور الأول) . [النصوص في مصطلحات الصوفية ، محمد غازي عرابي (١٠٠)] .

ويقول ابن عربي : (الحقيقة المحمدية أو الإنسان الكامل ؛ فالإنسان على صورة الحق من التنزيه والتقديس عن الشوب في حقيقته ، فهو المألوه المطلق ، والحق سبحانه هو الإله المطلق ، وأعني بهذا كله الإنسان الكامل) . [الفتوحات المكية ، محيي الدين بن عربي (٣/٦٠٣)] .

* [illegible]

[illegible] ، فنشأ في وسط [illegible] ، حيث نشي كثيرًا من الصوفية المتفلسفين بالأندلس مصيرًا سيئًا ، ومن هؤلاء : ابن قسي رئيس فرقة المريدين ، والذي قتل في سنة ٥٤٦ هـ ، ثم ما لبث أن رأى شيخه ابن برجان وابن العريف يموتون مسمومين بأمر سلطان شمال أفريقيا علي بن يوسف بعد سجنهما مدة طويلة . [ميزان الاعتدال ، (٣/٦٥٩)] .

وبرغم أن وحدة الوجود فلسفة قديمة معروفة قبل الإسلام ، اعتنقها أقوام كثيرون ، ولا ينسب لابن عربي أدنى فضل في اختراعها ، وإنما دوره البارز في تغليف النظرية بقشرة إسلامية دخل بها إلى قلب أهل السنة ، إلاّ أن الشيعة والإسماعيلية وجدت في أفكار ابن عربي دليلاً على صحة أقوالهم ، ولهذا تراهم يثنون عليه في كتبهم ولا يذكرونه إلاّ بالألقاب التي يروجون لها ، ومنها : محيي الدين ، والشيخ الأكبر ، وخاتم الأولياء ، والكبريت الأحمر ، وغير ذلك .

والذي يقرأ كتب ابن عربي يجد مشقة كبيرة في تتبع أفكار الرجل ، لا سيما إذا قرأت له : « الفتوحات المكية » ، أو « مواقع النجوم » ، أو « عنقاء مغرب » ، أو « شجرة الكون » ، وهي مؤلفات كتبها قبل أن تكتمل نظريته عن وحدة الوجود ، أما من يطلع على آخر ما كتب مثل « فصوص الحكم » ؛ فإنه يرى الفكرة واضحة انقشع عنها الغموض ، وعبّر عنها كاتبها بعد أن تخلى عن خوفه القديم أن يرمى بالكفر والزندقة ، وأيضًا بعدما حقق شهرة وأتباعًا وحماية كافية .

وإليك ما ذكره الدكتور / زكي مبارك في كتابه الرائع « التصوف الإسلامي » ؛ حيث يقول : (وقد تأملت طويلاً في كتاب « الفتوحات » ، فرأيت ابن عربي يدور حور فكرة وحدة الوجود دورانًا لبقًا ، ولا يكاد يُفصح عنها إلاَّ عن طريق الإيماء) .

ولنترك ابن عربي يشرح لنا نظريته بنفسه ، وسنبدأ من « الفتوحات » ، حيث يجنح الشيخ الأكبر إلى الرمز والإشارة وأسلوب السؤال والجواب ، فيقول : (إيجاز البيان بضرب من الإجمال ؛ بَدْءُ الخلق الهباء ، وأول موجود فيه الحقيقة المحمدية الرحمانية ، ولا أين يحصرها لعدم التمييز ، ومم وُجد ؟ وُجد من الحقيقة المعلومة التي لا تتصف بالوجود ولا بالعدم . وفيم وُجدَ ؟ في الهباء ، وعلى أي مثال وُجد ؟ الصورة المعلومة في نفس الحق ، ولم وجد ؟ لإظهار الحقائق الإلهية ، وما غايته ؟ التخليص من المزجة) . [« التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق » د / زكي مبارك (١٢٨)] .

ثم يُفَصِّل هذا الإيجاز بقوله : المعلومات أربعة وهي :

١ - **الحق تعالى** : وهو الموصوف بالوجود المطلق ، وهو موجود بذاته ، والعلم به عبارة عن العلم بوجوده ، ووجوده ليس غير ذاته ، مع أنه غير معلوم الذات ، ولكن يُعلم ما تنسب إليه من الصفات .

٢ - **ومعلوم ثان** : الحقيقة الكلية التي هي للحق وللعالم لا تتصف بالوجود ، ولا بالعدم ، ولا بالحدوث ، ولا بالقِدَم ، هي في القديم إذا وصُف بها قديمة ، وفي المُحدَث إذا وصف بها مُحدَثه ، ولا تُعْلَمُ المعلومات قديمها وحديثها حتى تُعلم هذه الحقيقة ، ولا توجد هذه الحقيقة حتى توجد الأشياء الموصوفة بها ، فإن وجد شيء عن غير عدم متقدم - كوجود الحق وصفاته - قيل فيها موجود قديم ؛ لاتصاف الحق بها ، وإن وجد شيء عن عدم كوجود ما سوى الله وهو المحدث الموجود بغيره ، قيل : إنها مُحدثة ، وهي في كل موجود بحقيقتها ، فإنها لا تقبل التجزؤ ، فما فيها كل ولا بعض ، ولا يُتوصل إلى معرفتها مجردة عن الصورة ، بدليل ولا برهان ، فمن هذه الحقيقة وجد العالم بواسطة الحق تعالى ، وليست بموجودة فيكون الحق قد أوجدنا من موجود قديم ، فيثبت لنا القدم ؛ وكذلك لتعلم أيضًا أن هذه الحقيقة لا تتصف بالتقدم على العالم ، ولا العالم بالتأخر عنها ، ولكنها أصل الموجودات عمومًا ، وهي أصل الدهر ، وفلك الحياة ، والحق المخلوق به وغير ذلك ، وهي الفلك المحيط المعقول ؛ فإن قلت : إنها العالم ، صدقت ، أو : إنها ليست العالم ، صدقت ، أو : إنها الحق ، أو : ليست الحق ، صدقت ، فهي تقبل هذا كله ، وتتعدد بتعدد أشخاص العالم ، وتتنزه بتنزه الحق .

٣ - **ومعلوم ثالث** : وهو العالم كله ؛ الأملاك والأفلاك ، وما تحويه من العوالم والهواء والأرض ، وما فيهما من العالم ، وهو الملك الأكبر .

٤ - **ومعلوم رابع** : وهو الإنسان .

وسنلقي من كلام ابن عربي الضوء على بعض النقاط التي تساعدنا على فهم مرامي كلامه :

١ - أول موجود هي الحقيقة المحمدية ، ويسميها ابن عربي بالحقيقة الكلية ، والتي وُجدت من حقيقة معلومة لا تتصف بالوجود ولا بالعدم .

٢ - لاحظ قوله : المعلومات أربعة ، ولم يقل : الموجودات أربعة .

٣ - المعلوم الثالث ؛ هو الكون ، والمعلوم الرابع ؛ هو الإنسان ، ومجموعهما هو ما تسميه كل الشرائع بالخلق ، فكأن ابن عربي يقول : المعلومات ثلاثة هي : الحق تعالى ، والحقيقة الكلية ، والخلق .

٤ - ما أضافه ابن عربي بين معلومة الحق ومعلومة الخلق هي معلومة الحقيقة الكلية .

وللحديث بقية ، وإلى اللقاء في الحلقة القادمة إن شاء الله .

أ / محمود المراكبي

عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة

الحلقة السادسة

بقلم أ / محمود المرتضى

ابن عربي شيخ العارفين أم هادم للدين [٢]!!

الحمد للّه والصلاة والسلام على رسول اللّه وبعد ؛ فقد تحدثنا في المقال السابق عن وحدة الوجود ، وعن ابن عربي وغموض كلامه ، وفي هذا المقال نكمل حديثنا عن ابن عربي :

٥- يؤكد ابن عربي نفي الوجود عن معلومة الحق بقوله : (والعلم به هو العلم بوجوده ؛ أي بذاته ، وهو غير معلوم الذات ، ولكن يعلم ما تُنسب إليه من الصفات) .

٦- أثبت الوجود فقط للحقيقة الكلية ، وقرر أنها كُلٌّ لا يتجزأ ، ولا تُعلم المعلومات قديمها وحديثها ، وهذه الحقيقة هي أصل الموجودات وأصل الجوهر وفلك الحياة وألحق المخلوقات به ، وهذه الحقيقة التي تهب الحياة إذا نُسبت لمعلومة الخلق ، وهبته الوجود وسميت الحقيقة الكلية في هذه الحال بالخلق ، وإذا نسبت لمعلومة الحق وهبته الوجود وسميت الحقيقة الكلية آنذاك بالقديم أو الحق ، وبيان ما يلغزه ابن عربي هو ؛ هناك معلوم بلا وجود هو اللّه ، ومعلوم آخر بلا وجود أيضًا هو الخلق ، وحقيقة كلية واهبة الوجود وهي لا تتجزأ ، فإذا أضيفت هذه الحقيقة إلى المعلوم أنه قديم أصبح للّه وجود ، حقيقته هي الحقيقة المحمدية ، وإذا أضيفت إلى الشيء المعلوم أنه حادث وهو الخلق وهبته الوجود ، وحقيقة هذا الوجود هي الحقيقة المحمدية !!

وإذا رجعنا إلى « الفتوحات المكية » ؛ نرى ابن عربي يحدثنا قبل أن تكتمل نظريته يقول : كان اللّه ولا شيء معه ، ثم أدرج فيه ، وهو الآن على ما عليه كان ، فلما أراد وجود العالم وبدأه ، انفعل عن تلك الإرادة المقدسة بضرب تَجَلٍّ من تجليات التنزيه إلى

الحقيقة الكلية ، انفعل عنها حقيقة تسمى الهباء ، ويسميه أصحاب الأفكار - أي الفلاسفة - الهيولي الكلي ، والعالم كله فيه بالقوة والصلاحية ، فقبل منه تعالى كل شيء في ذلك الهباء على حسب قوته واستعداده ، فلم يكن أقرب إليه قبولاً في ذلك الهباء إلاّ حقيقة محمد صلى اللّه عليه وسلم المسماة بالعقل ، فكان سيد العالم بأسره ، وأول ظاهر في الوجود ، فكان وجوده من ذلك النور الإلهي ومن الهباء ومن الحقيقة الكلية ، وفي الهباء وجد عينه وعين العالم من تجليه ، وأقرب الناس إليه علي بن أبي طالب ، وأسرار الأنبياء أجمعين .

وتكشف جملة ابن عربي الأخيرة ميوله الشيعية التي لا يستطيع إخفاءها ، وهي سمو مكانة علي بن أبي طالب على جميع الخلق من الملائكة المقربين والأنبياء ، وبالتالي أبي بكر وعمر ، رضي اللّه عنهما .

ويعلق الدكتور / أبو العلا عفيفي في « فصوص الحكم » (٨/٢) بقوله : وقد يُفهم من كلام ابن عربي أنه يقول باثنينية الخالق والمخلوق ، أو الحق والخلق ، أو الوجود الظاهر واللّه ، وليس في الحقيقة أثر للاثنينية في مذهبه ، وكل ما يشعر بالاثنينية يجب تفسيره على أنه اثنينية اعتبارية ، فليس في الوجود في نظره إلا حقيقة واحدة ، إذا نظرنا إليها سميناها حقًا وفاعلاً وخالقًا ، وإذا نظرنا إليها من جهة أخرى سميناها خلقًا وقابلاً ومخلوقًا ، وليس على وجه التحقيق في مذهبه خلق بمعنى إيجاد من العدم ، إذ يستحيل في اعتقاده الوجود من العدم المحض ، وإنما أصل كل وجود وسبب كل فيض إلهي دائم - يعبر عنها أحيانًا بالتجلي الإلهي - يمد كل موجود في كل لحظة بروح من اللّه ، فيراه الناظر في الصور المتعددة التي يظهر فيها ، وذلك هو الخلق في اصطلاح ابن عربي : تجل إلهي دائم ، فيما لا يحصى عدده من صور الموجودات ، وتغير دائم وتحول في الصور في كل آن ، ذلك هو الذي يطلق عليه ويقول : إنه هو المشار إليه في قوله تعالى : ﴿ بل هم في لبسٍ من خلقٍ جديدٍ ﴾ [ق : ١٥] .

ويقرر ابن عربي حقيقة مذهبه في شعره حين يقول :

فإن قلت بالتنزيه كنت مُقَيِّدًا
وإن قلت بالتشبيه كنت مُحَدِّدًا
وإن قلت بالأمرين كنت مسددًا
وكنت إمامًا في المعارف سيدا
فمن قال بالأشفاع كان مشركًا
ومن قال بالإفراد كان موحدا
فإياك والتشبيه إن كنت ثانيًا
وإياك والتنزيه إن كنت مُفردا
فما أنت هو بل أنت هو
وتراه في عين الأمور مسرحًا ومقيدا

ويفصح ابن عربي عن نظريته شيئًا فشيئًا ، فيروي حوارًا بين اللّه ، جل وعلا ، وبين محمد صلى اللّه عليه وسلم فيقول : إن محمدًا صلى اللّه عليه وسلم ، لما أبدعه اللّه تعالى حقيقة مثلية ، وجعله نشأة كلية ، حيث لا أين ولا بين ، قال له : أنا الملك ، وأنت الملك ، وأنا المدبر ، وأنت الفلك ، وسأقيمك فيما يتكون عنك ، سايسًا ومدبرًا ، وناهيًا وآمرًا ، تُعطيها مما قد أعطيتك ، وتكون فيها كما أنا فيك ، فلست سواك ، كما لست سواي ، فأنت صفاتي فيهم وأسماني ، فتفصَّد النبي عَرَقًا ، فكان ذلك العرق الطاهر ماء ، وهو الماء الذي نبأ به الحق تعالى في صحيح الأنباء ، فقال سبحانه : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ [هود : ٧] .

وابن عربي بهذا النص يزعم قِدَم النبي صلى اللّه عليه وسلم قبل العرش ، وقبل الماء ، بل إن الماء الذي

عليه العرش هو من عرق النبي صلى اللّه عليه وسلم .

✸ ابن عربي و « فصوص الحكم » :

يعتبر كتاب « فصوص الحكم » من أواخر ما كتب ابن عربي ، وفيه تخلى عن حذره في الكتابة ، فتكلم بشكل واضح ، وبقليل من الألغاز المعتاد في أسلوبه ، وقد تناول كثير من المهتمين بالتصوف هذا الكتاب بالشرح والتحليل ، إلاّ أن تعليق الدكتور / أبي العلا عفيفي يعد أفضل شرح وبيان لمراد ابن عربي ، وهو التعليق الذي لا غنى عنه لمن أراد أن يفهم أسلوبه ومرامي كلامه ؛ لذا سنختار عددًا من الأمثلة التي تظهر وحدة الوجود عند ابن عربي في مراحل نضجها ، وبلورتها في ذهن الرجل وكتاباته ، ونقرأ منها في فص حكمة مهيمية في كلمة إبراهيمية ؛ معنى « خليل اللّه » ، أو مقام الخلة ، فيقول : إنما سمي الخليل خليلاً لتخلله وحصره جميع ما اتصفت به الذات الإلهية .

قال الشاعر :

قد تخللت مسلك الروح مني
وبه سمي الخليل خليلا

كما يتخلل اللون التلون ، فيكون العَرَضُ بحيث جوهره ما هو كالمكان والمتمكن ، أو لتخلل الحق وجود صورة إبراهيم ، عليه السلام ، وكل حكم يصح من ذلك ، فإن لكل حكم موطنًا يظهر به لا يتعداه ، ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات ، وأخبر عن نفسه ، وبصفات النقص وبصفات الذم ؟ ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الحق من أولها إلى آخرها ، وكلها حق له كما هي صفات المحدثات حق الحق .

الحمد للّه ؛ فرجعت إليه عواقب الثناء من كل حامد ومحمود ، ﴿ وإليه يرجع الأمر كله ﴾ [هود : ١٢٣] ، فعمَّ ما ذُمَّ وحُمِدَ ، وما ثم إلاّ محمود ومذموم ، اعلم أنه ما تخلَّل شيء شيئًا إلا كان محمولاً فيه ، فالمُتخَلِّل - اسم فاعل - محجوب بالمتخلل - اسم مفعول - فاسم المفعول هو الظاهر ، واسم الفاعل هو الباطن المستور ، وهو غذاء له كالماء يتخلل الصوفة فتربو به وتتسع ، فإن كان الحق هو الظاهر ، فالخلق مستور فيه ، فيكون الخلق جميع أسماء الحق ؛ سمعه ، وبصره ، وجميع نِسَبِهِ وإدراكاته ، فإن كان الخلق هو الظاهر ، فالحق مستور باطن فيه ، فالحق سمع الخلق وبصره ويده ورجله وجميع قواه ، كما جاء في الخبر الصحيح ، ثم إن الذات لو تعرَّت عن هذه النسب لم تكن إلهًا ، وهذه النسب أحدثتها أعياننا ، فنحن جعلناه بمألوهيتنا إلهًا ، فلا يُعرف حتى نُعرف ، قال عليه السلام : « من عرف نفسه عرف ربه » ، وهو أعلم الخلق باللّه .

ويقول شعرًا :

فلا تنظر إلى الحق
وتعريه عن الخلق
ولا تنظر إلى الخلق
وتكسوه سوى الحق
ونزهه وشبهه وقم
في مقعد الصدق
وكن في الجمع إن شئت
وإن شئت ففي الفرق
تحز بالكل إن كل
تبدي قصب السبق
فلا تَفنى ولا تبقى
ولا تُفني ولا تُبقي
ولا يلقى عليك الوحي
في غير ولا تلقي

ويقول ابن عربي في فص حكمة فردية في كلمة محمدية : (إذ لا يشاهد الحق مجردًا عن المواد أبدًا ، فشهود الحق في النساء أعظم الشهود وأكمله ، وأعظم الوصلة النكاح ، وهو نظير التوجه الإلهي

على من خلقه على صورته ، لذلك قال : الناكح روح المسألة ، فلو علمها لعلم بمن التَذَّ ومن التذَّ) .

ويقول في فص هود : (إذا كان الحق وقاية للحق بوجه ، والعبد وقاية للحق بوجه ، فقل في الكون ما شئت إن شئت قلت هو الخلق ، وإن شئت قلت هو الحق ، وإن شئت قلت هو الحق الخلق ، وإن شئت قلت : لا حق من كل وجه ، ولا خلق من كل وجه ، وإن شئت قلت بالحيرة في ذلك .

● تفسير ابن عربي للقرآن : ينسب الباطنية إلى ابن عربي أحد كتبهم عن تفسير القرآن ، وقد أنكر نسبه هذا التفسير إلى ابن عربي عدد كبير من الباحثين ، لذا فلن نستشهد بما هو غير ثابت عن الرجل ، وإنما سندرس مجموعة من النصوص نختارها من أشهر كتبه التي سطرها بيديه مثل : « الفتوحات المكية » ، و« فصوص الحكم » وغيرها ، حيث يظهر فيها كيف يلوي ابن عربي مراد الآيات القرآنية ليؤكد مفاهيم وحدة الوجود . ومن ذلك قوله : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن اللّه رمى ﴾ [الأنفال : ١٧] ؛ فالعين التي أدركت بها أن الرمي للّه ، غير العين التي أدركت بها أن الرمي لمحمد صلى اللّه عليه وسلم ، فتعلم أن لك عينين ، إن كنت صاحب علم فعلم قطعًا أن الرامي هو اللّه في صورة محمدية جسدية .

ثم يقول شاعرًا :

فعين الخلق عين الحق فيه
فلا تنكر فإن الكون عينه
فإن فرقت فالفرقان بادٍ
وإن لم فاعتبر فالبين بينه

وقد يعجب القارئ من جرأة ابن عربي على اللّه وكلامه ، والأعجب من ذلك أنه يفسر جزءًا من الآية بصورة ، وينسى بقيتها أو يتناساها ، وفي كثير من الأحيان تهدم بقية الآية ما ذهب إليه شطحه في تفسير أول الآية ، ومن ذلك تفسير ابن عربي عبادة بني إسرائيل للعجل حسب مفهومه لوحدة الوجود فيقول : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ [الإسراء : ٢٣] ، قضى : أي قدر ألا يُعبد في الوجود إلاّ اللّه ، ولهذا أخذ موسى برأس أخيه هارون ، عليهما السلام ، يجره إليه ، فاللوم هنا على هارون ، وموسى لم ير في سجود بني إسرائيل للعجل أي خطأ ، إنما الخطأ كله مُنصب على هارون ، حيث أنكر عبادة العجل ، يؤكد ابن عربي أن هارون لم يدرك وحدة الوجود بعد ، وأنه مازال يفهم أن وجود اللّه مخالف لوجود المخلوق ، أي مازال على توحيد العامة .

لذا يقول ابن عربي : فكان موسى أعلم بالأمر من هارون ؛ لأنّ أصحاب العجل ما عبدوه إلا لعلمهم بأن اللّه قد قضى ألا تعبدوا إلا إياه ، وما حكم اللّه بشيء إلا وقع ، فكان عتب موسى – الذي يعبر عن وحدة الوجود – أخاه هارون – الذي مازال يعبر عن مقام توحيد العامة – لما وقع الأمر من إنكاره ، وعدم اتساعه ، فإن العارف من يرى الحق في كل شيء ، بل يراه عين – أي ذات – كل شيء ، فكان موسى يربي هارون تربية علم ، وإن كان أصغر منه في السن .

لذا أراد موسى ، عليه السلام بيان حقيقة الأمر لهارون وقومه ، ويدلهم على الخطأ وقصورهم في فهم وحدة الوجود على حقيقتها ؛ فالخطأ الذي وقع فيه بنو إسرائيل هو تخصيص صورة المعبود في العجل ، ولو أنهم أدركوا الأمر على حقيقته لعبدوا أي شيء وكل شيء : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه اللّه ﴾ [البقرة : ١١٥] ؛ والخطأ على هارون أكبر ؛ لأنه أنكر على قومه مع أنهم أعلم منه بوحدة الوجود ، بينما هو في مقام توحيد العوام ؛ لذا ترى ابن عربي يفسر تصرف موسى ، عليه السلام ، ليؤكد مذهبه ، فموسى لم يصهر الذهب ويعيده إلى قومه أو إلى أصحابه من أهل مصر ، لم يفعل ذلك موسى ؛ وإنما نسف العجل وذرى ذراته في اليم ، ليعلمهم أن

المعبود في كل الوجود ، وليس في شكل معين فيقول : فحرقه ونسف رماد تلك الصورة في اليم نسفًا ، وقال له : انظر إلى إلهك ، فسماه إلهًا بطريق التنبيه للتعليم ، لما علمه أنه بعض المجالي الإلهية .

ويفسر ابن عربي قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ قضى ﴾ على أنه قدر وحكم ، ولا نعرف كيف يفسر ابن عربي بقية الآية ؛ حيث يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وبالوالدين إحسانًا ﴾ ، فأين موقع الجاحدين لآبائهم المنكرين لإحسانهم من حكم اللّه وتقديره حسب فهم ابن عربي !! قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه في درجات كثيرة مختلفة ، أعطت كل درجة مجلى إلهيًّا عُبد فيها ، وأعظم مجلى عُبد فيه وأعلاه الهوى ، كما قال تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ [الجاثية : ٢٣] ، وهو أعظم معبود ، فإنه لا يعبد شيء إلا به ، ولا يعبد هو بذاته ، ثم يقول :

وحق الهوى إن الهوى سبب الهوى
ولولا الهوى في القلب ما عبد الهوى

ثم يشرح قوله تعالى : ﴿ وأضله اللّه على علم ﴾ [الجاثية : ٢٣] ، فالضلال عنده هو الحيرة ، ثم يستكمل حديثه فيقول : والعارف المكمل من رأى كل معبود مجلى للحق يعبد فيه ؛ ولذلك سموه كلهم إلهًا مع اسمه الخاص بحجر ، أو شجر ، أو حيوان ، أو إنسان ، أو كوكب ، أو ملك ، وهذا اسم الشخصية فيه .

ثم يذكر ابن عربي في «فتوحاته» : أنه شاهد الهوى في بعض مكاشفاته ظاهرًا بالألوهية قاعدًا على عرشه ، وجميع عبدته حافون من حوله ، ويقول : وما شاهدت معبودًا في الصور الكونية أعظم منه – أي الهوى – ويؤكد عقيدته هذه نظمًا فيقول :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه فالدين ديني وإيماني

ويفسر ابن عربي قول اللّه تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : ٣١] ، فيقول : والمظلوم المقام ؛ حيث نعته بالانقسام ، وهو عين واحدة ، فإنه لا يشرك معه إلا عينه ، وهذا غاية الجهل .

ومن أعجب تفاسيره لقول اللّه تعالى : ﴿ يأيها الناس أنتم الفقراء إلى اللّه واللّه هو الغني الحميد ﴾ [فاطر : ١٥] ، يضيف ابن عربي وقفًا لازمًا بعد قوله تعالى : ﴿ أنتم الفقراء إلى اللّه ﴾ ، ثم يقرأ بعد الوقف قوله تعالى : ﴿ واللّه ﴾ ، ثم يجعل وقفًا ثانيًا ، فيصبح المعنى : ﴿ أنتم الفقراء إلى اللّه ﴾ ﴿ واللّه ﴾ أيضًا فقير إليكم ، ثم يعبر عن المعنى الذي توصل إليه بقوله : فوجودنا وجوه ، ونحن مفتقرون إليه من حيث وجودنا ، وهو مفتقر إلينا من حيث ظهوره لنفسه ، فأنت غذاؤه بالأحكام ، وهو غذاؤك بالوجود ، فتعين عليه ما تعين عليك ، والأمر منه إليك ، ومنك إليه ، غير أنك تسمى مكلفًا ، ولا يسمى هو مكلفًا ، ثم يقول شعرًا :

فيحمدني وأحمده
ويعبدني وأعبده
وفي حال أقر به
وفي الأعيان أجحده
فيعرفني وأنكره
وأعرفه فأشهده

ويقول أيضًا :

الرب حق والعبد حق
يا ليت شعري من المكلف
إن قلت عبد فذاك رب
أو قلت رب أنى يكلف

ويقول ابن عربي في « فص الكلمة النوحية » : فإن للحق في كل خلق ظهورًا ، فهو الظاهر في كل مفهوم ، وهو الباطن عن كل فهم ، إلا عن فهم من

قال : إن العالم صورته وهويته ، وهو الاسم الظاهر ، كما إنه بالمعنى روح ما ظهر ، فهو الباطن .

ثم يستطرد قائلاً : اللّه تعالى لا يُعرف إلا بجمعه بين الأضداد في الحكم عليه بها ، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن . فهو عين ما ظهر ، وهو عين ما بطن في حال ظهوره . وما ثم من يراه غيره ، وما ثم من يبطن عنه . فهو الظاهر لنفسه باطن عنه ، وهو المسمى أبا سعيد الخراز ، وغير ذلك من أسماء المحدثات ، فيقول الباطن لا إذا قال الظاهر أنا ، ويقول الظاهر لا إذا قال الباطن أنا .

أما قوله تعالى : ﴿ لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل اللّه اللّه أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ، فيفسره ابن عربي على هواه قائلاً : ﴿ رسل اللّه ﴾ مبتدأ ، و﴿ اللّه ﴾ خبر ، والمعنى رسل اللّه هم اللّه .

أما الآية المباركة : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ؛ فيعلق عليها ابن عربي بقوله : للطفه وسريانه في أعيان الأشياء .

أما قوله تعالى : ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾ [فاطر : ٦٠] . وقوله سبحانه : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ [البقرة : ١٨٦] ؛ فيقول ابن عربي معقبًا : لأنّ عين الداعي عين المجيب اللّه .

ويفسر ابن عربي قصة ذبح إسماعيل ، عليه السلام ، بقوله : ﴿ قال يا أبت افعل ما تؤمر ﴾ [الصافات : ١٠٢] يقول ابن عربي : ومن عرف ما قررناه علم أن الحق المنزه هو الخلق المشبه ، وإن كان قد تميز الخلق من الخالق . فالأمر الخالق المخلوق ، والأمر المخلوق الخالق ، كل ذلك من عين واحدة ، لا بل هو العين الواحدة ، وهو العيون الكثيرة : ﴿ فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ﴾ [الصافات : ١٠٢] . والولد عين أبيه ، فما رأى يذبح سوى نفسه : ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ [الصافات : ١٠٧] ، فظهر بصورة كبش من ظهر بصورة إنسان ، وظهر بصورة ولد ، لا بل بحكم ولد من هو عين الوالد : ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ [النساء : ١] ، فما نكح سوى نفسه ، فمنه الصاحبة والولد ، والأمر واحد في العدد .

فالحق خلق بهذا الوجه فاعتبروا
وليس خلقًا بذاك الوجه فادكروا
من يدر ما قلت لم تخذل بصيرته
وليس يدريه إلا من له بصر
جمع وفرق فإن العين واحدة
وهي الكثيرة لا تبقي ولا تذر

ثم ينكر ابن عربي آيات علو اللّه على خلقه ، ويشرح اسم اللّه تعالى العلي فيقول : ومن أسمائه الحسنى العلي ، على من ؟ وما ثم إلا هو ، فهو العلي لا علو إضافة ؛ لأنّ الأعيان التي لها العدم الثابتة فيه ما شمت رائحة من الموجود ، فهي على حالها مع تعداد الصور في الموجودات ، والعين واحدة من المجموع في المجموع ، فوجود الكثرة في الأسماء وهي النسب ، وهي أمور عدمية ، وليس إلا العين الذي هو الذات ، فهو العلي لنفسه لا بالإضافة ، فما في العالم من هذه الحيثية علو إضافة ، لكن الوجوه الوجودية متفاضلة ، فعلو الإضافة موجود في العين الواحدة من حيث الوجوه الكثيرة ، لذا نقول فيه : هو لا هو ، أنت لا أنت .

لعلك تنتظر منا أيها القارئ الكريم أن نجيب على تساؤلنا عن ابن عربي : هل هو شيخ العارفين أم هادم للدين ؟ ونستبحك عذرًا أن نرجئ الإجابة إلى المقالة التالية – إن كان في العمر بقية – ففيها سنتدارس ، إن شاء اللّه تعالى ، نتائج نظرية وحدة الوجود ، وساعتها تنكشف الإجابة تلقائيًا دون جدل أو سفسطه . ثم نستكمل أدوار ابن الفارض وابن سبعين والجيلي في تطور الفكر الصوفي . واللّه وحده من وراء القصد ، وهو يهدي إلى سواء السبيل .

عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة

الحلقة السابعة

بقلم أ/
محمود المراكبي

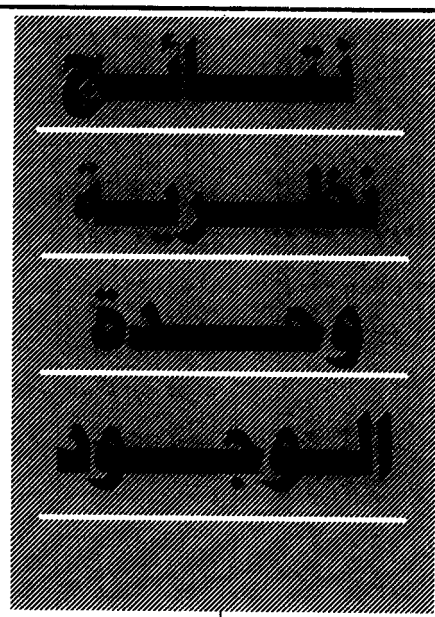

الحمد للّه وكفى، وسلام على رسوله المصطفى، وعلى آله وصحبه أهل الصفا والوفا، أما بعد:

فلم يستطع أحد ممن عاصروا ابن عربي ولا المتتبعين لنشأة أفكاره عن وحدة الوجود، محاولته إلباسها ثوب الإسلام أن يتنبأ بنتائجها. ولن نتحدث عن نتائج هذه الأفكار الدخيلة على الإسلام، وإنما سنترك المجال لصاحب النظرية أن يقدم لنا نتائجها التي توصل إليها، والتي نوجزها في أربع نقاط:

١- وحدة الأديان والاعتقادات:

نشرت مجلة ((التوحيد)) في عددها السابق فتوى رقم (١٩٤٠٢)، بتاريخ ١٤١٨/١/٢٥ الصادرة عن اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية بخصوص وحدة الأديان أو التقريب بينها، ولا يدرك كثير من الناس دور ابن عربي في التمهيد لهذه الأفكار؛ فقد توصل شيخ الصوفية الأكبر بخياله الفاسد إلى أن أي معبود هو اللّه على الحقيقة، وقد نصح الصوفية بالحرية في عبادة ما يشاءون، ويقول لهم: أفرد أو أشرك، فاللّه ذات كل شيء. وتراه يوجه

الناس إلى عدم التقيد باعتقاد معين ، فالبوذي والساجد لصنم والعابد للثالوث والقائل بالعقل الأول ؛ كل أولئك وغيرهم عنده يعبدون اللّه ، ولكن من توقف منهم عند معتقد واحد فقط فهذا هو نقص الفهم ، والكامل عند الشيخ الأكبر هو : والأكمل مِن الكامل من اعتقد فيه – أي ؛ في اللّه – كل اعتقاد ، وعرفه في الإيمان والدلائل وفي الإلحاد ، فإن الإلحاد ميل إلى اعتقاد معين من الاعتقادات ، فاشهدوه بكل عين إن أردتم إصابة العين ، فإنه عام التجلي ، له في كل صورة وجه ، وفي كل عام حال . [((الفتوحات المكية)) : ٢١٢/٢] .

ومشايخ الطرق الآن يستفتحون الحضرات بذكر لا إله إلا اللّه قائلين للمريدين : إن لها ثلاث مستويات من المعرفة أولها ؛ لا معبود إلا اللّه ، ثم يرتقي المريد إلى معرفة أنه لا مقصود إلا اللّه ، ثم يصل إلى مقام لا موجود إلا اللّه ، وهذه المعاني هي الترجمة العملية لكلام ابن عربي .

وليس غريبًا أن يكتب ابن عربي أبوابًا في ((فتوحاته)) يحث الناس فيها على ترك التوكل ، وترك المراقبة وما إلى ذلك ، ومن أمثلة ذلك ما جاء في باب ترك التوكل :

أنت الخليفة فيما أنت مالكه
الحق ليس به نفع ولا ضرر
ترك التوكل حال ليس يعلمه
غير الوكيل فلا روح ولا بشر
كيف التوكل والأعيان ليس سوى
عين الموكل لا عين ولا أثر[1]

ويقول في باب ترك المراقبة :

لا تراقب فليس في الكون إلا
واحد العين وهو عين الوجود
فتسمى في حالة بمليك
وتكنى في حالة بالعبيد
ودليلي ما جاء في افتقار
الفقير إلى الغني الحميد
وهكذا جاء في التلاوة نصًا
في قريب من سعده وبعيد
ثم جاءوا بأقرضوا اللّه قرضًا
في قريب من سعده وبعيد

ويحذر ابن عربي من خطورة الإنكار على أصحاب الملل الفاسدة ، فيقول : فإياك أن تتعبد بعقد – أي ؛ بدين – مخصوص ، وتكْفُرَ بما سواه فيفوتك خير كثير ، بل يفوتك الأمر على ما هو عليه ، فكن في نفسك هيولي – أي ؛ قابلاً – لصور المعتقدات كلها ، فإن اللّه تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد ، فإنه يقول : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه اللّه ﴾ [البقرة : ١١٥] ، فالكل مصيب ، وكل مصيب مأجور ، وكل مأجور سعيد ، وكل سعيد مرضي عنه .

ويوجز ابن عربي عقيدته بقوله :

عقد الخلائق في الإله عقائدًا
وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه

٢ – تعطيل الثواب والعقاب :

يمثل الثواب والعقاب عقبة أساسية أمام نظرية وحدة الوجود ، فلو أن اللّه هو الظاهر في كل الوجود ، وهو حقيقة كل موجود ، فالعبد رب ، والرب عبد !!

وقد تساءل ابن عربي كثيرًا مَن المكلف ، ومن الذي يثيب المحسن على إحسانه ؟ ويعاقب المسيء

على خطيئته ؟ وإذا كنا مظهرًا إلهيًا ، والإنسان في عقيدته مجبور .

وللقارئ أن يتساءل : لِمَ صار قوم إلى جنة واستقر أقوام في النار ؟ ولكن خيال ابن عربي لا يعجزه أن يجد مخرجا لهذه القضية . فتراه ينصح العوام أن يكتفوا بالشريعة ، فيفهموا الثواب والعقاب على نحو ما يفهم جمهور المسلمين ، بينما يحتفظ هو بذلك السمو الروحاني الخاص بالأقطاب الواصلين ، فمن سمت به التجليات إلى مقام الفناء عرف أن لا موجود إلا الله ، واستطاع أن يقول : أنا الله .

ومن وصل إلى هذا المقام علم أن النار ليس فيها ذلك العذاب المشتق من التعذيب ، وإنما عذابها مشتق من العذوبة ، فمن دخل النار وجد حلاوة وعذوبة لا عذابًا وسعيرًا وحميمًا ، إلى آخر الأوصاف القرآنية عن جهنم ودركاتها .

ويقول :

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده
وما لوعيد الحق عين تعاين
وإن دخلوا دار الشقاء فإنهم
على لذة فيها نعيم مباين
نعيم جنان الخلد . فالأمر واحد
وبينهما عند التجلي تباين
يسمى عذابًا من عذوبة طعمه
وذاك له كالقشر والقشر صائن[٢]

٣- تفضيل الولاية على النبوة :

يرى ابن عربي أن هناك نبوة ظاهرة ، ونبوة باطنة مستترة ، ويعتقد أن النبي يتلقى إلهامه من حجاب أمين الوحي ، وليس من مشكاة الحق مباشرة ، أما إلهام الولي فإنه أسمى ؛ لأنه يتلقى عن الله مباشرة . فالولي يتلقى من نفس المشكاة التي يتلقى منها أمين الوحي جبريل ، عليه السلام . فتراه يقول في ((الفصوص)) : إن الولي يستقي من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول .

كما أن عند ابن عربي مظهرا آخر يتميز فيه الولي عن النبي ، وهو ؛ أن الرسالة والنبوة – أعني نبوة التشريع ورسالته – تنقطعان ، والولاية لا تنقطع أبدا .

ومن أقواله عن النبوة ما يلي : لم يمت أبو يزيد حتى استظهر القرآن ، وهو تنزله عليه ذوقا ، ومن استظهر القرآن فقد اندرجت النبوة بين جنبيه ، كذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا الفرق بين تنزله على النبي صلى الله عليه وسلم وبين تنزله علينا وبين جنبينا من وراء حجابنا ، فهو لنا في الظهر لا في الظهور ، فنبوتنا مستورة عنا مع كوننا محلاً لها ، فمن خشع تصدع ، ومن علم يخشى .

ثم يفسر النبوة والولاية بموجب وحدة الوجود فيقول :

آلله قال على لسان عبيده
فالصمت في الأكوان نعت لازم
ما ثم إلا من يكلم نفسه
فهو السميع كلامه والعالم
وهو الوجود فليس إلا عينه
هذا هو الحق الصريح المحكم[٣]

ويوجز عقيدته بقوله : فإذا علمت هذا فقل على الإطلاق : إن الولاية أفضل من النبوة مطلقًا . [((الفتوحات)) : ٢ ٨٦] .

٤- الكشف عن سر الربوبية :

يبوح شيخ الطريقة البرهانية محمد عثمان البرهاني في كتابه ((تبرئة الذمة في نصح الأمة)) بسر الربوبية الذي لو عرف بطلت النبوة ، فيقول : يظن البعض أن سيدنا جبريل ، عليه السلام ، كان الواسطة بين اللّه ، تبارك وتعالى ، وبين سيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ومن ظن هكذا فقد دلل على عدم معرفته ، إذ لو صح ذلك لتعين وجود خلل في كلمة التوحيد ، فبدلاً من لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه ، تكون لا إله إلا اللّه محمد رسول رسول اللّه ، ثم يفسر فريته هذه بحكاية طويلة نختصرها ، خشية الملل ، دون إخلال بمعناها ، مؤداها : أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سأل جبريل ، عليه السلام ، عن كيفية تلقيه الوحي عن ربه ، فقال جبريل : إنه يُستدعى إلى البيت المعمور ، ثم يُنصت إلى صوت ينبعث من داخله ، فيتلقى عنه الوحي ، فأراد أن يكشف الرسول لجبريل ما خفي عنه ، فأمره أن يصعد للبيت المعمور ، ويقول : محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب ، ففتح له البيت ، وكانت المفاجأة الكبرى أن يجد من يتلقى عنه الوحي جالسًا داخل البيت هو نفسه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وهو في نفس اللحظة لم يغادر مكانه في المدينة ، فقال له : يا رسول اللّه ، إذا كان الأمر منك وإليك فلماذا تعبي ؟ فرد عليه قائلاً : للتشريع يا أخي يا جبريل . [((تبرئة الذمة في نصح الأمة))] .

ولا تتعجب يا أخي الكريم من هذيان البرهاني وما ذهب إليه ، فقد سبقه الشعراني في ((كبريته الأحمر)) ، حيث يقول في تفسير قول اللّه تبارك وتعالى : ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه ﴾ [طه : ١١٤] ، فيقول : اعلم أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أعطي القرآن مجملاً قبل جبريل من غير تفصيل الآيات والسور ، فقيل له : ولا تعجل بالقرآن الذي عندك قبل جبريل ، فتُلقيه على الأمة مجملاً ، فلا يفهمه أحد عنك لعدم تفصيله . [((الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر ابن عربي)) : (٣)] .

ونحن نقترب الآن من فهم كلام الصوفية عن سر الحقيقة ، حيث يقول : إن سر الحقيقة ما لا يفشى من حقيقة الحق في كل شي . [((معجم مصطلحات الصوفية)) : د . عبد المنعم الحنفي (٧٩)] .

إن سر الربوبية المخزون عند الصوفية هو أن محمدًا هو التجسد الإلهي ، وحقيقته هي الذات القديمة قدم الخالق مع التعين الأول ، والاسم الأعظم ، ولو عرف الناس أن الراسل هو محمد الجالس في البيت المعمور ، والمرسل إليه هو محمد الجالس في المدينة ، ففيم النبوة ، وهذا ما عبروا عنه في افترائهم على لسان جبريل : إذا كان الأمر منك وإليك ففيم تعبي ؟ أي فيم النبوة ، وجاء الرد : للتشريع يا أخي يا جبريل .

فالشريعة أصبحت مجرد ستار تحجب الأسرار ، وبالتالي يبطل العلم ، إذ لو أذاع العلماء أن النبي أصل الموجودات وحقيقتها ، وأنه السر الساري في كل الوجود ، وأن نور النبي وحقيقته هي بعينها حقيقة الذات الإلهية القديمة ، تكون الموجودات هي

في نفس الوقت جزء من ذات الله ، ويكون الفاعل في كل حركة وسكنة هو الله في الحقيقة ، ولذا تنتفي الشريعة والأحكام ، ويختلط الحلال والحرام ، وانتفى معنى الثواب والعقاب والجنة والنار . وهذا مقام الجمع عند الصوفية ، ومن وصل فهمه من المشايخ إلى هذا المستوى ، رفع عن نفسه التكليف .

ويشير إلى ذلك الجيلاني في ((الغوثية)) . حيث يقول : من أراد العبادة بعد الوصول فقد أشرك بالله العظيم ؛ لأنه بعد أن أردك حقيقته وعرف سره يمكنه أن يقول : لمن الملك اليوم ؟ فإذا أراد العبادة بعد تحققه من هذا المقام ، فقد أراد أن يرجع إلى وجوده المنفصل في مقام الفرق ، وبالتالي يكون قد أشرك وجوده مع وجود الله .

ويقرر البرهاني في مقدمة كتابه ((تبرئة الذمة)) ؛ أنه أتى بهذه الضلالات بعد رجوعه لكتب السادة الأعلام ؛ الجيلاني ، وابن عربي ، والجيلي ، والسيوطي ، وغيرهم .

وفي الختام نحدد أفكار ابن عربي في النقاط التالية قبل الإجابة على تساؤلنا عن ابن عربي : هل هو شيخ العارفين ، أم هادم للدين ؟

١- مزج ابن عربي أفكار وحدة الوجود المعروفة قبل الإسلام ، مع نظرية الفيض عند أفلاطون ، وبدأ يحدث الناس عن أفكاره بأسلوب ملغز غامض ، خشية اعتراض الناس على أقواله ، وقد يحدث له ما حدث لشيخه وللحلاج من قبل .

٢- بنى ابن عربي نظريته عن وحدة الوجود من فناء أبي سعيد الخراز ، وشطحات البسطامي ونظرية قدم نور النبي صلى الله عليه وسلم للحلاج ، وطلع على الناس بوحدة الوجود . والتي حام حولها في ((الفتوحات المكية)) ، وصرح بمراميها في كتبه الأخيرة ، ولا سيما ((فصوص الحكم)) .

٣- أطلق ابن عربي على حقيقة الوجود اسم الحقيقة المحمدية ، وجعلها أصل الموجودات ، وهي كل موجود بحقيقتها ولا تقبل التجزؤ ، وإذا نسبت هذه الحقيقة إلى معلومة ((القديم)) - أي ؛ الله - سميت ((الحق)) الخالق ، وإذا نسبت إلى معلومة ((الحادث)) - أي ؛ الخالق - سميت بالمخلوق .

٤- فسر ابن عربي القرآن الكريم وراح يلوي حقائقه لإثبات مزاعمه ، وفي كثير من الأحيان يستشهد بجزء من آية ولا يستكملها ، وفيها هدم كامل لمزاعمه .

٥- اختلط الخالق بالمخلوق في وحدة الوجود ، وضاعت النبوة ، وفقدت التكاليف الشرعية مرادها ، وابن عربي يأمر بعكس ما يأمر به الإسلام ، مثل ترك التوكل ، وترك المراقبة .

٦- يؤمن ابن عربي بوحدة الأديان وصحة جميع الاعتقادات ، بل إنه يرى من يتمسك بعقيدة واحدة يخسر خيرا كبيرا ، والعارف عنده من يعتقد جميع الاعتقادات .

٧- يستوي الثواب والعقاب عند ابن عربي ، بل إن حقيقة الجنة هي نفسها عين النار ، وليس في النار عذاب وسلاسل وحميم كما يفهم الناس ، بل هو عذاب من العذوبة واللذة .

٨- يفضل ابن عربي الولاية عن النبوة ، ويرى أن القرآن يتنزل على العارفين ، كما تنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويذكر ما استظهر القرآن من العارفين كأبي سعيد الخراز .

٩- يلتمس المتتبع لآراء ابن عربي غلوه الشديد في علي بن أبي طالب ، بل تراه يصرح في

كثير من الأحيان ، بأنه أقرب الحقائق إلى الحقيقة المحمدية .

١٠- أدى ظهور أفكار ابن عربي إلى تشجيع الآخرين على النسج على منواله ، ومنهم ابن سبعين والجيلي ، كما سنوضح في المقال التالي بتوفيق الله تعالى .

يقول الحافظ الذهبي في ترجمة محمد بن علي بن محمد (ابن عربي) : ما عندي أن محيي الدين تعمد كذبًا ، ولكن أثرت فيه تلك الخلوات والجوع فسادًا وخيالاً وطرف جنون ، وصنف التصانيف في تصوف الفلاسفة وأهل الوحدة ، فقال أشياء منكرة عدها طائفة من العلماء مروقاً وزندقة ، وعدها طائفة من العلماء من إشارات العارفين ورموز السالكين ، وعدها طائفة من متشابه القول ، وأن ظاهرها كفر وضلال ، وباطنها حق وعرفان ، وأنه صحيح في نفسه كبير القدر ، وآخرون يقولون : قد قال هذا الباطل والضلال ، فمن الذي قال إنه مات عليه ؟

فالظاهر عندهم من حاله أنه رجع وأناب إلى الله ، ثم يختم الذهبي كلامه بقوله : نسأل الله العفو ، وأن يكتب الإيمان في قلوبنا ، وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فوالله لأن يعيش المسلم جاهلاً خلف البقر لا يعرف من العلم شيئًا سوى سور من سور القرآن يصلي بها الصلوات ، ويؤمن بالله وباليوم الآخر خير له بكثير من هذا العرفان وهذه الحقائق ، ولو قرأ مائة كتاب ، أو عمل مائة خلوة . [((ميزان الاعتدال)) : ٦٦/٣] .

ولكاتب هذه السطور تجربة صوفية كاملة ، وصل خلالها إلى مرتبة شيخ الطريق ، ولما وفقني الله تعالى وهداني إلى محبة الكتاب والسنة والتمسك بالنهج القويم ، وعلمت ما في سلوك القوم من الشطط ، سألت أكبر مشايخ الطريق عن وحدة الوجود وما يقول به ابن عربي ؟ فأجابني : هي حق في ذاتها ، خطأ في الحديث عنها ، فتبين لي أن مشايخ الصوفية يدينون بهذه المعتقدات ، ويصيبهم ضيق عند مواجهتهم بحقائقها ، فأمامنا نصوص محددة ، كيف يفسرونها ويزيلون عنها الشطط ؟ وإذا فسروا نصًّا عجزوا عن عشرات أخرى ، فلا يجدون أمامهم إلا أن الشيخ قد رجع عن هذه المعتقدات قبل وفاته ، فنقول لهم : هذا أمر لا دخل لنا فيه ، فالناس حسابهم على ربهم ، وليس لنا سوى بحث المفاهيم التي سطروها بأيديهم ويتداولها المريدون عن مشايخهم دون أن يفهموا المراد منها ، نحن نوضح ونحذر من خطورة الشطط ، ونزن أقوال هؤلاء على ضوء الكتاب والسنة ، حتى لا يقول أحد على الله بالباطل وفي دينه بالكذب والجهل ، وتكون النتيجة بلبلة الناس وإبعادهم عن حقائق الإسلام .

إن ابن عربي ليس شيخًا للعارفين ، وإنما هادم للدين ، وأفكاره دعوة إلى دين آخر ومفاهيم أخرى لا علاقة لها بما جاء به أمين الوحي جبريل ، عليه السلام ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمره بإبلاغه للناس ، وصدق الله العظيم القائل في كتابه العزيز : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ [الرعد : ١٧] .

والله من وراء القصد ، وهو يهدي إلى سواء السبيل .

---

(١) ((الفتوحات)) : (٢-٢٠١) .
(٢) ((الفصوص)) : (٩٤) .
(٣) ((الفتوحات)) : (١٨٠/٢) .

عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة

بقلم أ / محمود المراكبي

٨
ابن سبعين والوحدة المطلقة

الحمد لله على نعمة التوحيد ، والصلاة والسلام على من دلنا عليها ، محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فقد تتابعت من فضل الله - تبارك وتعالى - أحاديثنا حول أهم ركن من أركان تدور حوله عقيدة الصوفية ، ألا وهو ؛ وحدة الوجود ، وعرج بنا الحديث على مراحل انحراف الفكر الصوفي والقول بالفناء والشطح والسكر ، ثم توقفنا عند دور الحلاج والبسطامي ، ثم واصلنا السير حتى أبرزنا دور ابن عربي ، وعرضنا نظريته عن وحدة الوجود ونتائجها ، وأثبتنا أن الرجل ليس إمامًا للعارفين ، ولكنه هادم لأصول الدين ، واليوم نستكمل الحديث مع ابن سبعين ودوره الذي لا يستهان به ، فنقول وبالله تعالى التوفيق :

ولد أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم الأندلسي ، المعروف بابن سبعين في سنة ٦١٣ هـ ، وفي نفس المدينة التي ولد بها ابن عربي ، وتوفي بمكة المكرمة سنة ٦٦٩ هـ ، ثم انخرط في سلك الطريقة الشوذية ، نسبة إلى شيخه الصوفي الأندلسي عبد الله الشوذي ، ثم أسس فيما بعد الطريقة السبعينية ، وقد حصل ابن سبعين على الكثير المتنوع من المعارف ، فتعلم فنون الفكر الإسلامي واليوناني ، كما تعلم المذاهب والديانات غير الإسلامية ، وحذق في علم الحروف (الجفر) والطب وغير ذلك من المعارف[1] .

ومن أهم مؤلفاته ؛ « بُد العارف » ، و« المسائل الصقلية » ، و« رسالة الإحاطة » ، وكتاب « الألواح » ، و« الرسالة النورية في الذكر » ، وبعض الرسائل الأخرى ، وقيل : إنه مات منتحرًا أو مسمومًا ، وفي ذلك ورد : « وقد مات منتحرًا بمكة بأن قطع شرايين يده حتى تصفى دمه »[2] .

ويعد كتابه « بُد العارف » من أهم كتبه ، وقد أمعن الرجل في الرمز في كتاباته ، مما جعل المتخصصين في التصوف يحاولون فك رموز ابن سبعين ، ومنها مراده من كلمة « بُد » ، فيقول الدكتور / التفتازاني : البد هو المعبود ، بينما ينفي يوسف زيدان هذا الرأي قائلا : ولكننا نرى أن لاستعمال ابن سبعين لكلمة « بُد » مغزى غير ذلك الذي ذهب إليه الدكتور / التفتازاني ومحقق الكتاب ! فقد شغف ابن سبعين بالاطلاع على الديانات والمذاهب القديمة ، ومن بينها المذاهب الهندية ، ويحدثنا البيروني في « تحقيق ما للهند من مقولة » (ص٣١) عن مذهب أصحاب البُد ، وهم فرقة هندية ، عليها مسحة صوفية عرفانية ، وكلمة « البُد » عندهم تعني البرق الذي أخرجه « براهما » من باطن الأرض ، كما يخبرنا الشهرستاني في « الملل والنحل » (ص ٥٩٦) ؛ أن هناك جماعة من البراهمة يسمون أصحاب « البددة » ومعنى البُد عندهم ؛ شخص في هذا العالم اسمه « شاكمين » وتفسيره ؛ السيد الشريف ، ودون مرتبة البُد ، مرتبة البُوديسعية ، ومعناها ؛ الإنسان الطالب سبيل الحق .

وعلى ذلك فالأرجح أن يكون رمز البُد عند ابن سبعين مأخوذًا بمعناه الحرفي من تلك المذاهب القديمة التي شغف ابن سبعين بها[٣] .

● **دور ابن سبعين في الوحدة :**

لم يترك ابن سبعين أصحاب الفرق والآراء والفلاسفة إلا انتقدهم وخطأ موقفهم ، فيقول : الفقيه ؛ صالح الأصل فاسد الفرع ، صادق الجنس كاذب النوع ، والأشعري ؛ فاسد الأصل ، قبيح الفرع ، والفيلسوف ؛ كثير السلاح ، قليل النطاح ، طويل العدة ، قصير المدة والنجدة ، وأما الصوفي ؛ فإن حسناته سيئات المقرب .

ويستعيذ ابن سبعين من توقف أرسطو وتشتيت مسائله الإلهية ، ومن شكوك المشائين ، وحيرة أبي نصر الفارابي ، وتمويه ابن سينا في بعض الأمور ، واضطراب الغزالي وضعفه ، وتردد ابن الصائغ ، وتنوع ابن رشد ، وتلويحات السهروردي ، وتشويش ابن خطيب الري (الفخر الرازي) ، وتخليط الأقدمين ، ورموز جعفر (الصادق) المحتملة ، ومن شطحات بعض رجال الرسالة القشيرية ، ومن تصريف ابن مسرة في الحروف ، ومن تهذيب بعض الأسماء على مذهب ابن قسي صاحب « خلع النعلين » ، وهكذا انتقد ابن سبعين جميع السابقين عليه[٤] .

وينسب لابن سبعين اعتقاده بأن النبوة مكتسبة ، وقد كان سبب نفيه من المغرب أنه قال : لقد حجَّر ابن آمنة واسعًا بقوله : « لا نبي بعدي »[٥] .

وكان ابن سبعين يُجَاور في غار حراء يرتجي فيما ينقل عنه أن يأتيه فيه وحي ، كما أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، بناء على ما يعتقده من العقيدة الفاسدة ، من أن النبوة مكتسبة ، وأنها فيض يفيض على العقل إذا صفا ، فما حصل له إلا الخزي في الدنيا والآخرة إن مات على ذلك ، وقد كان إذا رأى الطائفين حول البيت يقول عنهم : كأنهم الحمير حول المدار ، وأنهم لو طافوا به – أي بابن سبعين – كان أفضل من طوافهم بالبيت[٦] .

ومن المعلوم أنه لم يدخل المسجد النبوي في حياته ، ويُفسر ذلك ؛ أنه صده عن زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرب من باب من أبواب مسجد المدينة – على ساكنها أفضل الصلاة والسلام – يهرق منه دم كدم الحيض ، والله تعالى أعلم بحقيقة أمره[٧] .

وكان ابن سبعين يتعمد اصطناع الألغاز والغموض الشديد في أسلوبه ، حتى إن كبار الصوفية ، ومنهم الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد جلس مع ابن سبعين من ضحوة إلى قريب من الظهر ، ثم قال : إنه – أي ابن سبعين – يسرد كلامًا تعقل مفرداته ، ولا تعقل مركباته[٨] .

وقد عاشت الطريقة السبعينية في مصر عشرات السنين ، من سنة

٦٦٩ هـ بعد انتحار شيخها ، وحتى عصر شيخ الإسلام ابن تيمية ، رحمه الله ، والمتوفى سنة ٧٢٨ هـ ، ويعود الفضل الأول في القضاء نهائيًا على هذه الطريقة إلى شيخ الإسلام ، وما بذله لبيان ضلال الطريقة وأتباعها .

● **نشأة نظرية الوحدة المطلقة :**

لم يكن ابن سبعين وحده القائل بالوحدة المطلقة ، وإنما هو واحد من أبرز القائلين بها ، ومنهم السهروردي المقتول ، والشوذي ، والنفري ، وغيرهم ، وتختلف الوحدة المطلقة عند هؤلاء عن وحدة الوجود أن الأخيرة تثبت حقيقة واحدة هي الحقيقة المحمدية ، والتي لها مظهران ؛ مظهر الإله من ناحية ، ومن الناحية الأخرى مظهر الخلق ، أما الفكرة التي يدور حولها مذهب ابن سبعين في الوحدة المطلقة هي أن الوجود واحد ، وهو وجود الله فقط ، أما سائر الموجودات الأخرى فوجودها عين وجود الواحد .

ويفرق ابن سبعين في الوجود بين ما يسميه « الهوية » ، وهي الكل ، ويقصد بها الربوبية ، وبين ما يسميه « الماهية » ؛ وهي الجزء ، ويقصد بها العبودية ، وتقوم نظريته على فكرة اتحاد الهوية والماهية في وحدة مطلقة ، لذا يقول ابن سبعين : والوجود إما واجب الوجود ، وهو الكل والهوية ، وإما ممكن الوجود ، وهو الجزء والماهية ، فالربوبية هي الهوية التي هي الكل ، والعبودية هي الماهية التي هي الجزء ، فما من حقيقة منسوبة إلى الماهية بالأصالة إلا واسمها جزء ، ولا وجود لكلٍّ إلا في الجزء ، ولا وجود لجزء إلا في الكل ، فاتحد الكل بالجزء ، فارتبطا بالأصل ، وهو الوجود ، وافترقا وانفصلا بالفرع ، فالعامة والجهال غلب عليهم العارض ، وهو الكثرة والتعدد ، والخاصة والعلماء غلب عليهم الأصل وهو وحدة الوجود[٩] .

يقول الدكتور / التفتازاني في أطروحته للدكتوراة حول ابن سبعين وفلسفته الصوفية : استوعب ابن سبعين كثيرًا من الفلسفات والمذاهب الإسلامية وغير الإسلامية ، ثم صبغها بصبغة معينة ، وتمثلها على نحو خاص به ، واستطاع أن يخرج من جماع هذه الفلسفات والمذاهب بمذهب صوفي متسق الأجزاء .

ثم يستطرد قائلاً : كان ابن سبعين قائلاً بالوحدة المطلقة ، التي يسميها أحيانًا بالإحاطة ، يعني الإحاطة الوجودية ، والتحقق عند ابن سبعين هو علم الوحدة ، والمحقق هو الكامل الذي أثبت الوجود المطلق الواحد ، وعلم التحقيق عنده رتبة أعلى من علوم الفقهاء والمتكلمين والصوفية والفلاسفة[١٠] .

ويحدثنا شيخ مشايخ الطرق الصوفية الأسبق عن علاقة ابن عربي بابن سبعين فيقول : وفي رأينا أن اعتداد ابن سبعين بنفسه اعتدادًا كبيرًا ، وهو الذي جعله لا يعترف لابن عربي ولا لغيره من معاصريه بأي فضل ، بل جعله يحقره .

ثم يستطرد قائلاً : أما أوجه التشابه التي نجدها بين ابن عربي وابن سبعين في آرائهما ، وإدراج خصومهما لهما في فئة واحدة ، هي فئة القائلين بالوحدة ، فهو لا يعني في رأينا انتماء ابن سبعين إلى ابن عربي ، وإنما يعني أن كليهما قد استمد من مصدر واحد ، وتأثر بمؤثرات واحدة ، فمزج التصوف بالفلسفة ، والقول بالوحدة ، ثم يقرر في نفس الموضع أنهما استمدا من مصدر واحد سابق هو مدرسة ابن مسرة التي أذاعت آراء الأفلاطونية الحديثة .

ومن أقوال ابن سبعين : رَبٌّ مالك ، وعبد هالك ، ووهم حالك ، وحق سالك ، وأنتم ذلك ، اللّه فقط والكثرة وهم[١١] ، اختلط في الإحاطة الزوج مع الفرد ، واتحد فيه النجم مع الورد ، وبالجملة السبت هو الأحد ، والمُوَحِّدُ هو عين الأحد ، ويوم الفرض هو يوم العرض ، والذاهب من الزمان هو الحاضر ، والأزل في العيان هو الآخر ، والباطن في الجنان هو الظاهر ، والمؤمن في الجنان هو الكافر ، والغبي هو الولي ، والفقير

هو الغني ، وهذه حكمية لا أحداث وهمية .

وكان ابن سبعين يقول : اللّه فقط والكثرة وهم ، فإنه على قوله : لا موجود إلا اللّه ، ولهذا كان يقول هو وأصحابه في ذكرهم : ليس إلا اللّه ، بدلاً من قولنا : لا إله إلا اللّه ، ولهذا كان يسميهم الشيخ قطب الدين بن القسطلاني : الليسية[١٢] .

● مشايخ الطريقة السبعينية :

إذا نظرنا إلى سلسلة مشايخ الطريقة السبعينية التي أسسها ابن سبعين لوجدنا عجبًا ، ولولا أننا ننقل عن شيخ مشايخ الطرق الصوفية الدكتور / التفتازاني لاتهمنا الصوفية وأتباعهم بالافتراء على الأولياء والمتقين ، لذا نكتفي بالنقل الحرفي من كتاب « ابن سبعين وفلسفته الصوفية » كما ورد : والطريقة السبعينية التي أسسها ابن سبعين ليست كسائر الطرق الصوفية الأخرى في ترتيب الإسناد ترتيبًا زمنيًا ينتهي إلى الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، وإنما هي تجعل استمدادها من عديد من الصوفية والفلاسفة ، مسلمين وغير مسلمين ، ودون مراعاة للترتيب الزمني ، فقد أورد الششتري – تلميذ ابن سبعين – إسناد هذه الطريقة السبعينية في أبيات من قصيدة له ، ومن عجب أنه يذكر في عداد شيوخها ؛ هرمس ، وسقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، والإسكندر الأكبر ، ويذكر أيضًا الحلاج ، والشبلي ، والنفري ، والحبشي ، وقضيب البان ، والشوذي ، والسهروردي المقتول ، وابن الفارض ، وابن قسي ، وابن مسرة ، وابن سينا ، والغزالي الطوسي ، وابن طفيل ، وابن رشد ، وأبا مدين الغوث ، وابن عربي ، والحراني ، وعدي ، وابن سبعين ، وبهذا تكون الطريقة السبعينية طريقة تلفيقية ، بمعنى أنها تجمع بين ألفاق من المذاهب الإسلامية وغير الإسلامية[١٣] .

والشيء الذي يستحق أن نعلق عليه هو محاولات الدكتور / التفتازاني المستميتة في الدفاع عن ابن سبعين ، فكل قول يُظهرُ فساد عقيدة ابن سبعين يحاول أن يجد له تأويلاً أو مخرجًا ، وكل ثناء على ابن سبعين من أتباع وحدة الوجود يسرده التفتازاني بحماس واضح ، ويقيم أفكار ابن سبعين بقوله : ولو فرض أننا سألنا ابن سبعين نفسه : هل كان صوفيًا أو كان فيلسوفًا ؟ لكانت إجابته : إنه ليس صوفيًا ، ولا فيلسوفًا ، وإنما هو محقق جامع لكل الكمالات التي للفقيه والمتكلم والفيلسوف والصوفي ، ويزيد عليها بعلم ليس من جنس ما يُكتسب ، وهو علم الوحدة المطلقة ، أو علم التحقيق ، فيكون بذلك في رتبة أعلى من رتبة الصوفي والفيلسوف[١٤] .

ثم يختم الدكتور / التفتازاني كتابه بقوله : ونحن نرجو أن نكون بهذه الدراسة التي قدمناها عن حياة ابن سبعين ومذهبه ، قد قمنا ببعض ما يجب علينا من العناية بتراثنا الإسلامي ، ودراسة أهم شخصياته التي كانت مجهولة أو شبه مجهولة[١٥] .

إن هذه الرسالة العلمية التي قدمها الدكتور / التفتازاني تثير حمية المسلم المؤمن حين يقرأ كلامًا بعيدًا كل البعد عن كتاب اللّه تعالى وسنة رسوله صلى اللّه عليه وسلم ، ثم يتكلف صاحبها في تبرير أقوال ابن سبعين والدفاع عنه ، ويناقش كون ابن سبعين صوفيًا أو فيلسوفًا ؟ ودون أن يتعرض فيها للنقاط التالية :

١- تقييم أفكار ابن سبعين وتحديد موقعها من الإسلام على هدي من الكتاب والسنة .

٢- كيف يتلقى ابن سبعين عن مشايخ مسلمين وغير مسلمين دون مراعاة للترتيب الزمني ؟!

٣- كيف يمزج ابن سبعين أفكارًا إسلامية وغير إسلامية ، ثم نعتبره من أهم شخصيات التراث الإسلامي ؟!

٤- كيف يجمع ابن سبعين الكمالات ، وهو الواصل إلى علم الوحدة المطلقة ، ويكون في رتبة أعلى من الصوفي والفلسفي ، هل الكمالات في هدم الإسلام وعقيدته ؟!

٥- هل إلقاء الضوء على شخصية مجهولة كابن سبعين لا

يُعرف عنها إلا دورها في انحراف أفكار الصوفية يعد عملاً واجبًا علينا للعناية بتراثنا ؟!

فمتى ينتصر مشايخ الطرق لعقيدة أهل السنة والجماعة ؟! وقد كان حريًّا بالدكتور / التفتازاني أن ينضم لكثير من العلماء القدامى والمعاصرين الذين تصدوا لهذه التيارات المنحرفة ، وأن ينبه الناس ويصدر الفتاوى التي تكشف خطورة هذه الشطحات وتلك الفلسفات ، ومن هؤلاء أبو حيان الأندلسي الذي يُصدر تحذيرًا من الأندلس - موطن ابن سبعين - يحذر الناس من الوقوع في هذه المتاهات الضالة .

● **تحذير من الأندلس :**

ولد محمد بن يوسف ، الشهير بأبي حيان الأندلسي سنة ٦٥٤ هـ ، وهو صاحب تفسير القرآن الكريم المسمى « البحر المحيط » ، وقد عاصر ابن عربي المولود أيضًا في الأندلس ، وقد أدرك أبو حيان خطورة أفكار ابن عربي ، وهذا واضح من كلام تاج الدين الحفني تلميذ أبي حيان ، الذي يكرر في كتابه « الدر اللقيط من البحر المحيط » تحذير الناس من شر ابن عربي ، فيقول : سمعنا بعض الضالين - وهو ابن عربي صاحب « الفتوحات المكية » - وكان ينبغي أن يُسمى بالقبوح الهلكية ، وأنه يزعم أن الولي خير من النبي ؛ لأن الولي يأخذ عن الله بغير واسطة ، والنبي يأخذ بواسطة عن الله ، ولأن الولي قاعد في الحضرة الإلهية ، والنبي مُرسل إلى قوم ، ومن كان في الحضرة أفضل ممن يرسله صاحب الحضرة ... إلى أشياء من الكفريات والزندقة ، وقد كَثُرَ مُعَظمو هذا الرجل في هذا الزمان من غلاة الزنادقة القائلة بالوحدة ، ، نسأل الله السلامة في أديانا وأبداننا[١٦] .

ويقول في موطن آخر :

ومن بعض اعتقادات النصارى استنبط من تستر بالإسلام ظاهرًا ، وانتمى إلى الصوفية ؛ حلول الله في الصور الجميلة ، ومن ذهب من ملاحدتهم إلى القول بالاتحاد والوحدة ، كالحلاج ، والشوذي ، وابن أحلى ، وابن عربي المقيم في دمشق ، وابن الفارض ، وأتباع هؤلاء ؛ كابن سبعين ، والششتري تلميذه ، وابن مُطرف المقيم بمرسية ، والصفار المقتول بغرناطة ، وابن لباج ، وابن الحسن المقيم بلوزقة ، وممن رأيناه يُرمى بهذا المذهب : العفيف التلمساني ، وله في ذلك أشعار كثيرة ، وابن عياش المالقي الأسود الأقطع المقيم بدمشق ، وعبد الواحد بن المؤخر المقيم بصعيد مصر ، والأيكي العجمي الذي كان تولى المشيخة بخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة من ديار مصر ، وأبو يعقوب بن مبشر تلميذ الششتري المقيم بحارة زويلة بالقاهرة ، والشريف عبد العزيز المنوفي ، وتلميذه عبد الغفار القوصي ، وإنما سردت أسماء هؤلاء نصحًا لدين الله - يعلم الله ذلك - وشفقة على ضعفاء المسلمين ، وليحذروهم فهم شر من الفلاسفة الذين يكذبون الله ورسله ، ويقولون بقدم العالم ، وينكرون البعث ، وقد أولع جهلة من يلتمس التصوف بتعظيم هؤلاء ، وادعائهم أنهم صفوة الله تعالى وأولياؤه والأمر فيهم كما ذكرت[١٧] .

ألا يستحق الأمر أن يصدر علماء الأزهر الشريف نسخة حديثة من تحذير أبي حيان الأندلسي تتضمن سرد أسماء معاصرة من مشايخ الطرق الذين يعتقدون نفس أفكار ابن عربي وابن سبعين والجيلي ، ما أحوجنا اليوم لمن ينصح لدين الله ، ويشفق على ضعفاء المسلمين ، ويحذو حذو أبي حيان الأندلسي في تحذير الناس ممن هم أخطر على العقيدة من أعداء الدين ، وقبل أن ننهي حديثنا أود أن أوجز ما قلناه في نقاط محددة هي :

١ - يرى ابن عربي عقيدة وحدة الوجود التي تقول بوجود واحد هو الحقيقة المحمدية ، ولها مظهران هما ؛ الخالق ، والمخلوق ، أما ابن سبعين فقد أوصل وحدة الوجود إلى الوحدة المطلقة ، حيث يقول : إن الوجود وجود واحد فقط ، هو

وجود اللّه ، وليس لسائر الموجودات وجود مستقل ، وإنما وجودها هو عين الوجود الواحد .

٢- يرى أصحاب الوحدة المطلقة أن شهادة التوحيد لا ينبغي أن تكون لا إله إلا اللّه ؛ لأنها باثنينية الخالق والمخلوق ، وهم يرون التحقيق في قول : ليس إلا اللّه ، ولذا سُموا بالليسية .

٣- يعتقد ابن سبعين أن النبوة مكتسبة ، وكان يجاور في غار حراء ينتظر الوحي ، ويقول : لقد حجَّر ابن آمنة واسعًا حيث قال : « لا نبي بعدي » .

٤- يعترف ابن سبعين أن مكونات نظريته هي أفكار تلفيقية جمعها الرجل من الفلسفة القديمة ، حتى أنه يذكر في سلسلة مشايخ طريقته كلٍّ من ؛ هرمس ، وأفلاطون ، وأرسطو ، والإسكندر الأكبر ، بالإضافة إلى أغلب الفلاسفة المسلمين أصحاب الشطحات والأفكار الباطنية ؛ كالحلاج ، وابن رشد ، وابن سينا .. وغيرهم .

٥- مشايخ الطريقة السبعينية ليس عندهم شرط التلقي أو السماع ، أو حتى المعاصرة بين الشيخ والمريد ، كما يعرف الناس عن طرق تلقي العلم ، ولكن مشايخهم لا يحجزهم حاجز الزمن ، بل هو مطوي لهم ، ولذلك ضمت سلسلة مشايخهم أشخاصًا من هنا وهناك لا يجمعهم زمان ولا مكان .

٦- يجد أمثال ابن سبعين حظهم من العناية والاهتمام من الباحثين وطلاب الدرجات العلمية كالماجستير والدكتوراه ، بينما يقل الاهتمام بمن قام على أكتافهم هذا الدين ، ومن خدمه من علماء السلف والتابعين .

٧- غيرة علماء المسلمين على ظهور هذه الأفكار ، ومنهم على سبيل المثال الحفني ، تلميذ أبي حيان الأندلسي ، الذي شغله الأمر وهو يكتب تفسيره للقرآن ، ظهر ابن عربي في الأندلس ، وبدأت أفكاره تنتشر بين الناس ويظهر لها الأتباع ، فما كان من الرجل إلا أن سجل اعتراضه على بروز هذه الأفكار ، بل إنه راح يحصي أشهر أتباع وحدة الوجود في زمانه وأماكنهم ، تحذيرًا للناس من خطورة أفكارهم على دين الإسلام ، ويا ليت علماؤنا اليوم يتأسون بنهج علماء سلفنا الصالح .

وإلى الملتقى في المقالة التالية - بمشيئة اللّه تعالى - حيث نستكمل الحديث عن عبد الكريم الجيلي ونظريته عن الإنسان الكامل والتي تدندن حولها كثير من أوراد الطرق الصوفية المعاصرة ، واللّه ولي التوفيق .

محمود المراكبي

(١) « الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي » ليوسف زيدان (١١٣) .
(٢) « تاريخ الإسلام » مجلد ٣٠ (ورقة ٢٨أ) نقلاً عن ابن سبعين وفلسفته الصوفية للدكتور أبي الوفا التفتازاني (٦٣) .
(٣) « الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي » ليوسف زيدان (١١٤) .
(٤) « الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي » ليوسف زيدان (١١٥) .
(٥) « فوات الوفيات » (١: ٢٤٨) نقلاً عن ابن سبعين وفلسفته الصوفية للدكتور أبي الوفا التفتازاني (٦٣) .
(٦) « البداية والنهاية » لابن كثير (١٣: ٢٧٦) .
(٧) « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » للتلمساني (٢: ١٩٦) .
(٨) « ابن سبعين وفلسفته الصوفية » للدكتور أبي الوفا التفتازاني (٩١) .
(٩) « الصوفية في نظر الإسلام » لسميح عاطف الزين (٦٧) .
(١٠) « ابن سبعين وفلسفته الصوفية » للدكتور أبي الوفا التفتازاني (٦٧) .
(١١) « ابن سبعين وفلسفته الصوفية » للدكتور أبي الوفا التفتازاني (٢٣٦) .
(١٢) « مجموع الرسائل والمسائل » لشيخ الإسلام ابن تيمية (١: ٩١) .
(١٣) « ابن سبعين وفلسفته الصوفية » للدكتور أبي الوفا التفتازاني (١٦٩) .
(١٤) « ابن سبعين وفلسفته الصوفية » للدكتور أبي الوفا التفتازاني (٤٥٦) .
(١٥) « ابن سبعين وفلسفته الصوفية » للدكتور أبي الوفا التفتازاني (٤٧٠) .
(١٦) « الدر اللقيط من البحر المحيط » لتاج الدين الحفني (٦: ١٥٦) .
(١٧) « الدر على هامش البحر المحيط » تاج الدين الحفني (٣: ٤٤٨) بتصرف .

عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة

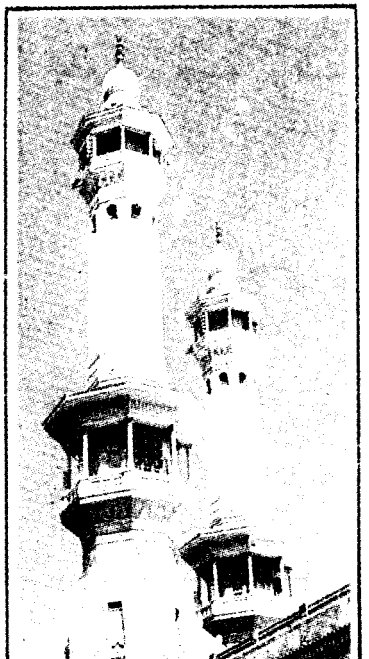

الحمد للّه حمدًا يوازي نعمة الإسلام، ونشكره سبحانه على نعمة الإيمان، ونصلي ونسلم ونبارك على سيد ولد آدم، الذي عبد اللّه حتى أتاه اليقين، وعلى آله وصحبه ونحن معهم برحمتك يا أرحم الراحمين، أما بعد :

فقد وصلنا إلى نهاية المطاف في حديثنا عن وحدة الوجود، التي وضع ابن عربي أساسها، واعتبر اللاهوت والناسوت مجرد وجهين لحقيقة واحدة، والناظر إلى ظاهرها يسميها خَلْقًا أو الحقيقة الكلية في الصورة الخَلْقية، والناظر إلى باطنها وحقيقتها يسميها حقًّا أو الحقيقة الكلية في صورة إلهية، وأن الحقيقة الكلية لا تتجزأ، فالإنسان هو المألوه المطلق، والحق هو الإله المطلق، ويعني بهذا كله الإنسان الكامل، الذي هو الحقيقة الكلية المسماة بالحقيقة المحمدية، وقلنا : إن ابن عربي فرق مفردات نظريته بين صفحات كتبه وألغزها عامدًا متعمدًا ؛ حتى لا يلقى مصير من سبقه من الملاحدة، فصورة الحلاج على الصليب لا تفارق مخيلته، إلا أن أفكاره كانت المادة الخام التي أعاد عبد الكريم الجيلي سبكها في قوالب جديدة، وكان ذلك في القرن التاسع الهجري، حيث خيم على الأمة الإسلامية الضعف والوهن، وأصبحت الأمة كقصعة الطعام التي يتداعى عليها الأكلة من كل فج عميق ؛ لذلك اختلف أسلوب الجيلي في كتاباته عن ابن عربي، واتسم بأنه أكثر وضوحًا وأقل إلغازًا وتعقيدًا.

أولاً : الجيلي على طريق الوحدة :

وضع الجيلي عددًا كبيرًا من الكتب والمؤلفات منها : « المناظر الإلهية »، و« الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية »، و« الكهف والرقيم في شرح بسم اللّه الرحمن الرحيم »، وكتاب « حقيقة الحقائق التي هي للحق من وجه ومن وجه للخلائق »، وكتاب « إنسان عين الجود ووجود عين الإنسان الموجود »، وكتاب « الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل »، وبالرغم من استغراقه

٩ الجيلي والإنسان الكامل

بقلم
أ. محمود المراكبي

في الأسلوب الرمزي شأنه شأن فلاسفة الصوفية ، إلا أن أسماء كتبه توضح أنه لا ينوي أن يلف أو يدور ، ولا يحتاج إلى كثير من المقدمات يؤسس عليها شيئًا جديدًا ، فلبنات النظرية موضوع من قبل ، والجيلي يسعى فقط في شرح وبيان ما غمض منها ، لذا يقرر في كتاباته أنه يؤمن بوحدة الوجود ، فنراه يقول : (ألا ترى إليه سبحانه وتعالى أنه واحد ، تخيل المشرك الشركة فيه ، فالشريك المُعْتَقَد شركته مخلوق ، والشركة المعتقدة مخلوقة ، والاعتقاد مخلوق ، والحق سبحانه وتعالى في كل شيء من ذلك بكماله وذاته ، لا يتجزأ ولا يتعدد ، ولا يتكيف ، واحد لا ثاني له ، فحصل من هذا أن الشريك هو الحق ، والمشرك هو الحق ، والشركة هي الحق ، وإن شئت أَشْرِكْ ، وإن شئت فَأَفْرِد ، فما ثم إلاّ عينك) . [« الكهف والرقيم في شرح بسم اللّه الرحمن الرحيم » للجيلي (ص٨)] .

ويقصد الجيلي بالشريك هو من يعتقد بثنائية الوجود ، وجود للّه ووجود للمخلوق ، ولإيمانه بالوجود الواحد الذي هو الحقيقة المحمدية ، وأنها سر كل موجود ، وبالتالي يستوي اعتقاد وحدة الوجود وهو اعتقاد من أفرد اللّه بالوجود ، ومن أشرك أو تخيل الشركة في اللّه .

ويقول كذلك : (واعلم أن قولنا الحق والخلق ، والرب والعبد ، إنما هو ترتيب حكمي نسبي لذات واحدة ، كل ذلك لا يستوفي معناها ، ووقوفك مع شيء من تعدد ذلك ، زور وتضييع وقت في عين الحقيقة) . [« الكهف والرقيم في بسم اللّه الرحمن الرحيم » للجيلي (ص٢٨ ، ٢٩)] .

وكما ترى أخي القارئ الكريم أن الجيلي واضح صريح ، يصل إلى هدفه بعبارة سهلة ؛ فالشرك والكفر والإيمان واحد ، والخلق والخالق واحد ، والمخالف لذلك يُضيع وقته في عين الحقيقة التي بالطبع تخالف الشريعة ، ثم يدلي الجيلي بدلوه - كما فعل سلفه ابن عربي - فيقول مفسرًا قوله تعالى : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون اللّه ﴾ [الفتح : ١٠] ، فيقول : ﴿ إنما ﴾ بمنزلة : ما ، وإلا ، وتقديره : ﴿ إن الذين يبايعونك ﴾

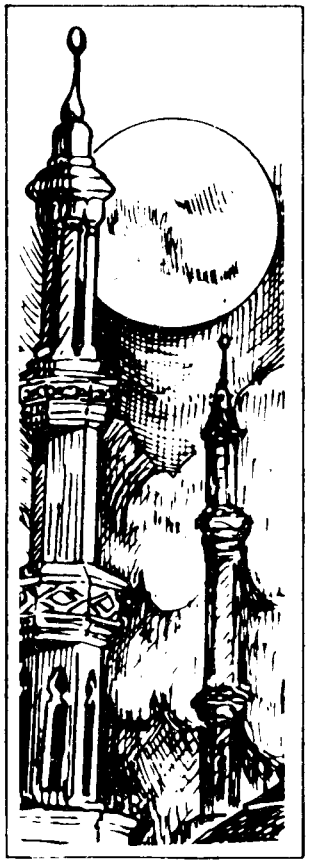

ما (يبايعون إلا اللّه) ، ومن المعلوم أن محمدًا صلى اللّه عليه وسلم بويع ، فشهد اللّه لنفسه إنما بويع إلا اللّه ، فكأنه يقول : ما أنت عندما بويعت محمدًا ، إنما أنت اللّه بالغيب ؛ لأنهم مبايعون اللّه على الحقيقة ، وهذا معنى الخلافة ، وهو نفس تفسير ابن عربي .

تأثر الجيلي بأفكار كل من سبقوه من فلاسفة الصوفية أدعياء الفناء والشطح والوحدة ، والجيلي كغيره يزعم وصول العارف إلى مقامات مشاهدة تجليات الذات والصفات ، وفناؤه التام من ناحية خلقيته ، وبقاؤه من ناحية حقيته ، فيفني عن نفسه بظهور ربه ، ثم يفنى عن ربه بظهور سر الربوبية ، ثم يفنى عن الصفات بمتعلقات الذات ، فيبقى في اللّه باللطيفة الإلهية ، ثم قبوله الاتصاف بالصفة الإلهية قبولاً أصليًا ، ثم اتصافه بالصفة الإلهية .

إن الصوفي حين يتعلم عدم الاعتراض ، ثم يتصفح كتب العارفين يعيش في حالة نفسية تجعله يشعر أنه من خاصة الناس ، وأنه يطالع أسرار وفتوحات ذات مذاق يرقى فوق كل مذاق ، وحين يقرأ تخاريف المشايخ لا يعرف كيف يفسر لنفسه صدور مثل هذه التخاريف عمن يزعم مشاهدته للذات الإلهية ، وحتى نوضح مقصدنا من هذا نضرب مثالين من أقوال عبد الكريم الجيلي هما :

١ - حياة أفلاطون إلى اليوم : العجيب أن يقول الجيلي : سافر الإسكندر ليشرب من هذا الماء (عين الحياة) اعتمادًا على كلام أفلاطون أن من شرب من ماء الحياة فإنه لا يموت ؛ لأن أفلاطون كان قد بلغ هذا المحل وشرب من هذا البحر ، فهو باق إلى يومنا هذا في جبل يسمى دراوند ، وكان أرسطو تلميذ أفلاطون ، وهو أستاذ الإسكندر ، صحب الإسكندر في مسيره إلى مجمع البحرين ، فلما وصل إلى أرض الظلمات ساروا وتبعهم نفر من العسكر وأقام بمدينة تسمى « ثبت » ، وهو حد ما تطلع الشمس عليه ، وكان من جملة من صحب الإسكندر من عسكره الخضر ، عليه السلام .

٢ - الدنيا على ظهر حوت :

يحدد الجيلي مكان عين الحياة فيقول : (إنها في جانب المغرب عند البلد المسمى بالأزيل المغرب ، فمن خاصية هذا البحر المعين الذي خلقه اللّه في مجمع البحرين أن من شرب منه لا يموت ، ومن سبح فيه أكل من كبد البهموت ، والبهموت حوت في البحر المالح ، جعله اللّه الحامل للدنيا وما فيها ، فإن اللّه تعالى لما بسط الأرض جعلها على قرني ثور يسمى البرهوت ، وجعل الثور على ظهر حوت في هذا البحر يسمى البهموت ، وهو الذي أشار إليه الحق تعالى بقوله : ﴿ وما تحت الثرى ﴾ [طه : ٦]) .

أين أفندة الصوفية وعقولهم حين يطالعون هذا التخريف ؟! هل يتجرأ أحد أن ينكر على الجيلي ؟! إن لكاتب هذه السطور تجربة حين ناقش مشايخ الطريق في تخاريف الشعراني في طبقاته ، وكان رد أحدهم - وهو حاصل على ماجستير في الكيمياء -: (وأنا ما لي ومال الشعراني ، وهو أنا قده علشان أعترض عليه ، يقول اللي هو عايزه) ، وخاف الرجل أن ينتصر للّه ولرسوله صلى اللّه عليه وسلم .

ثانيًا : أصول نظرية الإنسان الكامل :

١ - الحقيقة المحمدية نقطة وحدة الوجود :

يكثر الجيلي من استخدام كلمة « النقطة » ، ولها عنده دلالات صوفية خاصة ، وقد سبقه الحلاج لاستخدام « النقطة » ، وبنفس الدلالة التي يقصدها الجيلي ، حيث يقول الحلاج : (النقطة أصل كل خط ، والخط نقط مجتمعة ، فلا غنى للخط عن النقطة ، ولا للنقطة عن الخط ، وكل خط مستقيم أو منحرف ، فهو متحرك عن النقطة بذاتها ، وكل ما يقع عليه بصر أي أحد فهو نقطة بين نقطتين ، وهذا دليل على تجلي الحق من كل ما يشاهد ، وترائيه عن كل ما يعاين ، ومن هذا قلت : ما رأيت شيئًا إلا ورأيت اللّه فيه) .

يستدل الجيلي على أهمية النقطة بحديث موضوع مكذوب لا أصل له ، ولا يصح عقلاً ولا نقلاً ، ونص كلامه يقول : « وكل ما في القرآن فهو في الفاتحة ، وكل ما في الفاتحة فهو في بسم اللّه الرحمن الرحيم ، وكل ما في بسم اللّه الرحمن الرحيم فهو في الباء ، وكل ما في الباء فهو في النقطة التي تحت الباء » .

والجيلي كغيره من أقطاب الصوفية لا يروي الأحاديث بأسانيدها ، ولا يخرجها من مصادرها المعروفة ، ويكفي أن يقول : ورد في الخبر ، ليكون

كلامه معتبرًا عند أتباعه !! ومما يدل على كذب هذا الحديث : أن القرآن الكريم عندما كُتب في عهد الرسول الكريم وأصحابه لم يكن مُنَقَّطًا ، ولا مُشكلاً ، ولا مخزبًا ، ولا مجزءًا ، ومن المعروف أن أول من وضع النقط على الحروف العربية هو أبو الأسود الدؤلي في نهاية القرن الأول الهجري ، فكيف يقبل هؤلاء أن تكون أسرار القرآن كلها موجودة في نقطة سيضعها الدؤلي بعد أكثر من قرن من تنزل القرآن على النبي صلى اللّه عليه وسلم ؟!

وينسج الجيلي على منوال الحلاج فيقول : (إن النقطة هي أصل الحروف ، وما الحروف إلا مجموعة من النقاط المتتابعة على شكل الحرف ، وما المحيط إلا عين النقطة ، والدائرة ليست إلا عين النقطة ، لظهور النقطة في كل جزء منها ، فما ثم في الدائرة إلا النقطة) .

وقد وضع الجيلي كتاب « حقيقة الحقائق التي هي للحق من وجه ومن وجه للخلائق » ، ويسميه أيضًا كتاب النقطة ، يقول فيه : (يجب أن تعلم أن النقطة هي الظاهرة في الحروف ظاهرًا وباطنًا ، وخلاصة هذه المعرفة أن تشهد أن اللّه تعالى هو المتجلي في الوجود ظاهرًا وباطنًا ، أولاً وآخرًا ، فلا موجود سواه ، تعالى اللّه عن مُزاحم له في الوجود) . تعالى اللّه عما يقولون ، فهو سبحانه المستوي على عرشه البائن من خلقه .

ويزعم الجيلي : أن وجود النقطة دليل على واحدية اللّه تعالى في الوجود ، وأنه محض الوجود المطلق ، إذ لا موجود سواه . ويقول كذلك : إن النقطة هي حقيقة حقائق الحروف ، كما أن الذات حقيقة حقائق الوجود ، فنسبتها إلى الحروف كنسبة الذات الإلهية إلى الصفات ، ثم يشرح توحيده فيقول : الحق سبحانه هو المتجلي في مظاهر أسمائه وصفاته ، وأسماؤه وصفاته تجليات في الوجود ، أي ظهوره في المخلوقات ، فرجع إليه الوجود المنسوب إلى المخلوق ، وكذا وجوده المنسوب إليه ، فله الوجود جميعه ، وهذا حقيقة التوحيد ؛ لأن وحدانيته لم تترك في الوجود غيره ، فهو كل الوجود .

ثم يكشف عن حقيقة النقطة فيقول : ولقد درجت في بعض معارج الغيب فأشهدني الحق تعالى صورة النقطة في عالم القدس عنده ، فإذا هي على صورة الحقيقة المحمدية .

٢ - الحقيقة المحمدية أصل الموجودات :

يبني الجيلي عقيدته الفاسدة على حديث موضوع مكذوب على النبي صلى اللّه عليه وسلم فيقول : (وكذلك الحقيقة المحمدية خُلق العالم بأسره منها ، كما ورد في حديث جابر أن اللّه تعالى خلق روح محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ومحمد صلى اللّه عليه وسلم هو الظاهر في الخلق باسمه بالمظاهر الإلهية ، ألا ترى أنه صلى اللّه عليه وسلم أسري بجسمه إلى فوق العرش ، وهو مستوى الرحمن) .

ويقول الجيلي في « الإنسان الكامل » : (إن اللّه تعالى لما خلق محمدًا صلى اللّه عليه وسلم من كماله ، وجعله مظهرًا لجماله وجلاله ، خلق كل حقيقة من محمد من حقيقة من حقائق أسمائه وصفاته ، ثم خلق نفس محمد صلى اللّه عليه وسلم من نفسه ، وليست النفس إلا ذات الشيء) .

وننبه القارئ الكريم ألا يُفسر كلمة « خلق » التي يستخدمها الجيلي على أنها إيجاد من العدم حسب مفهوم الكلمة عند عموم الناس ، بل يقصد الجيلي معنى آخر تمامًا ، وتوضح هذه الأبيات مراد الجيلي من كلمة « الخلق » فيقول :

ذات لها في نفسها وجهان
للسفل وجه والعلا الثاني
ولكل وجه في العبارة وإلا
ذات وأوصاف وفعل بيان
إن قلت واحدة صدقت وإن
تقل اثنان حق إنه اثنان
أو قلت لا بل إنه لمثلث
فصدقت ذاك حقيقة الإنسان

وإذا تصفحت كتاب « الإنسان الكامل » ترى الجيلي يدور حول إثبات أن كل شيء في الوجود خُلِق من الحقيقة المحمدية ، فجبريل وعزرائيل[1] وإسرافيل ، عليهم السلام ، خُلقوا من محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فجبريل خلق من العقل الأول الذي هو محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فكان محمد صلى اللّه عليه وسلم أبا جبريل وأصلاً لجميع العالم ، وخلق اللّه

عزرائيل من نور ، وهم محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ولما خلق اللّه تعالى العالم جميعه من نور محمد صلى اللّه عليه وسلم كان المحل المخلوق منه إسرافيل قلب محمد صلى اللّه عليه وسلم ، كما سيجيء بيان خلق جميع الملائكة وغيرهم كل من محل منه .

يذكر الجيلي في أبواب كتابه محل خلق العرش والكرسي والسماوات والأرض والجنة وأبوابها ، والنار ودركاتها ، حتى أشراط الساعة ، ولم يترك الجيلي في نفسه ذرة من الحياء تمنعه أن يزعم أن إبليس أيضًا مخلوق من محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فيقول : اعلم أن اللّه تعالى لما خلق النفس المحمدية من ذاته ، وذات الحق جامعة للضدين ، خلق الملائكة العالين من حيث صفات الجمال والنور والهدى من نفس محمد صلى اللّه عليه وسلم - كما سبق بيانه - وخلق إبليس وأعوانه من حيث صفات الجلال والظلمة والضلال من نفس محمد صلى اللّه عليه وسلم .

ويفسر الجيلي قول اللّه تعالى : ﴿ قل هو اللّه أحد ﴾ [الإخلاص : ١] ، فيقول : قل يا محمد هو أي الإنسان اللّه أحد ، فهاء الإشارة في ﴿ هو ﴾ راجع إلى فاعل ﴿ قل ﴾ وهو أنت ، وإلا فلا يجوز إعادة الضمير إلى غير مذكور ، أقيم المخاطب هنا مقام الغائب التفاتًا بيانيًا ، إشارة إلى أن المخاطب بهذا ليس نفس الحاضر وحده ، بل الغائب والحاضر في هذا على السواء .

ويقرر الجيلي قرب عقيدته من عقيدة النصارى بقوله : (وأما النصارى فإنهم أقرب من جميع الأمم الماضية إلى الحق تعالى ، فهم دون المحمديين ، وسببه أنهم طلبوا اللّه تعالى فعبدوه في مُحْدَثِ عيسى ومريم وروح القدس ، ثم قالوا بعدم التجزئة ، ثم قالوا بِقِدَمِه على وجوده في محدث عيسى ، وكل هذا تنزيه في تشبيه لائق بالجناب الإلهي ، لكنهم حصروا ذلك في هؤلاء الثلاثة ، فنزلوا عن درجة الموحدين ، غير أنهم أقرب من غيرهم إلى المحمديين) . (انتهى) .

ومن المناسب هنا أن ننقل ما يقوله القيس مكس ميشيل في كتابه « لماذا وُلد المسيح ؟ » حيث يقول في باب (نور من نور) (ص ٣٧) ما نصه : (اللّه نور ، والمسيح منه ، نور من نور ، نور خرج من النور لينير كل إنسان ، المسيح جاء إلى عالمنا بهدف محدد ، وهو أن ينير كل واحد فينا بنوره العظيم ، فهو نور أشرق من النور ليفيض بالنور على جميع الجالسين في الظلمة وظلال الموت ، المسيح هو تجسد هذا النور فيه حل كل ملء النور ، ونحن من ملئه جميعًا أخذنا) !!

وحين نقول : إن الصوفية هي الفرقة التي أطرت سيدنا محمدًا صلى اللّه عليه وسلم كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، فإن قولنا هذا يطابق عرض القيس مكس ميشيل عن عقيدة النصارى في المسيح ، وإقرار الجيلي نفسه عن قرب عقيدته من عقيدة النصارى ، والرجل لم يستخدم لفظ المسلمين ، وإنما قال : المحمديين ، كما عرف عمن يعبدون عيسى بأنهم المسيحيون وليس النصارى كما أخبرنا القرآن الكريم .

ويضيف عبد الكريم الجيلي إلى اسم الإنسان الكامل العديد من المرادفات منها : الحقيقة الكلية ، والحقيقة المحمدية ، والأصل الأول ، وأصل الموجودات ، والذات المطلقة ، والعقل الأول ، ونقطة وحدة الوجود .

ويقول أيضًا : (واعلم أن الذات المطلقة لها الإحاطة على اللّه ، ولكن اللّه من الذات له الأفضلية عليها ؛ لأن كثيرًا من وجوه الذات ما هي اللّه ، وليس لها شيء من ألوهيته ، وكل وجه من اللّه هو الذات بكماله) ، وينظم الجيلي القصائد الطوال التي يعرض فيها عقيدته الفاسدة فيقول :

تجلى حبيبي في مرائي جماله
ففي كل مرأى للحبيب طلائع
فلما تبدى حسنه متنوعًا
تسمى بأسماء فمن مطالع
فأوصافه والاسم والأثر للذي
هو الكون عين الذات واللّه جامع
فما ثم من شيء سوى اللّه في الورى
ولا ثم مسموع ولا ثم سامع
هو العرش والكرسي والمنظر العلا
هو السدرة التي إليها المراجع
هو الأصل حقًا والهيولي مع الهبا
هو الفلك الدوار وهو الطبائع
هو النور والظلماء والماء والهوا
هو العنصر الناري وهو البلاقع
هو الشمس والبدر المنير هو السها

هو الأفق وهو النجم وهو المواقع
هو المركز الحكمي والأرض والسما
هو المظلم المعتام وهو اللوامع
هو الدار وهو الحي والأهل والفضا
هو الناس والسكان وهو المرابع
هو الحكم والتأثير والأمر والقضا
هو العز والسلطان والمتواضع
هو اللفظ والمعنى وصورة كل ما
يحال من المقبول أو هو واقع
هو الجنس وهو النوع والفصل إنه
هو الواجب الذاتي وهو الممانع
هو العرض الطارئ نعم وهو جوهر
هو المعدن الأصلي وهو الموانع
هو الحيوان الحي وهو حياته
هو الوحش وهو الأنس وهو السواجع
هو العقل وهو النفس والقلب والحشا
هو الروح وهو الجسم وهو التدافع
بدت في نجوم الخلق أنوار شمسه
فلم يبق حكم النجم والشمس طالع
فيا أحدي الذات في عين كثرة
ويا واحد الأشياء ذاتك سايع
تجليت في الأشياء حين خلقتها
فها هي ميطت عنك فيها البراقع
قطعت الورى من ذات حسنك قطعة
ولم تك موصولاً ولا فصل قاطع
ولكنها أحكام رتبتك اقتضت
ألوهية للضد فيها التجامع
فأنت الورى حقاً وأنت إمامنا
وإنك ما يعلو وما هو واضع
وما الخلق في التمثيل إلا كثلجة
وأنت بها الماء الذي هو نابع
وما الثلج في تحقيقنا غير مائه
وغير أن في حكم دعته الشرائع
ولكن بذوب الثلج يرفع حكمه
ويوضع حكم الماء والأمر واقع
تجمعت الأضداد في واحد إليها
وفيه تلاشت فهو عنهن ساطع
فكل بهاء في ملاحة صورة
على كل قد شابه الغصن يانع
وكل مليح بالملاحة قد زها
وكل جميل بالمحاسن بارع
وكل لطيف جل أو دق حسنه
وكل جليل وهو باللطف صادع
محاسن من أنشأه ذلك كله
فوَحِّد ولا تشرك به فهو واسع
وإياك أن تلفظ بغيرية البها
إليه البها والقبح بالذات راجع
يكمل نقصان القبيح جماله
فما ثم نقصان ولا ثم باشع
ويرفع مقدار الوضيع جلاله
إذا لاح فيه فهو للوضع رافع
وأطلق عنان الحق في كل ما ترى
فتلك تجليات من هو صانع

إن القارئ لهذه الأفكار يدرك تمامًا أنها بعيدة كل البعد ، ومختلفة غاية الاختلاف عما جاء به رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فأين معاني شهادة التوحيد وبساطتها ، من هرطقات وفلسفات ما أنزل اللّه بها من سلطان ، وكيف يحلو للصوفية أن يسموا هؤلاء بالعارفين ، وأي معرفة تلك التي تودي بصاحبها في جب الباطل وسراديب الانحراف ، ورب قائل يقول : وما ذنب الصوفية المعاصرة ومشايخ الطرق الحالية بهذه الأفكار ؟ وكل مريد يقول لك : لم أسمع من شيخي هذه الأفكار ، فلم تلومون علينا ما لم نعتقد به ؟ والجواب على ذلك في المقالات التالية بإذن اللّه تعالى ، حيث نعرض نصوصًا من أوراد عشرين طريقة صوفية معاصرة تضم نفس أفكار ابن عربي والجيلي وغيرهم ، والتي نوجزها في قول الصوفية بنظرية نور من نور . فإلى الملتقى ، واللّه ولي التوفيق ، وهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

(١) لم يرد في الكتاب ولا في السنة تسمية ملك من الملائكة بأنه عزرائيل ، ولكن ورد في بعض المصادر ، ولعلها أخذت من بعض كتب أهل الكتاب .

عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة

الصوفية المعاصرة ووحدة الوجود

بقلم أ / محمود الراكبي

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين وقائد الغر المحجلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فتقوم عقيدة الصوفية - في بساطة متناهية - على الإطراء والغلو في شأن النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحد الذي ذهبت إليه النصارى في عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، والدليل على ذلك نعرضه من أوراد القوم ، ولنستدرك على كلام الشيخ / محمد زكي إبراهيم (رائد العشيرة المحمدية) ، وهو داعية من دعاة إصلاح التصوف ونبذ الشطط عنه ، وله صولات وجولات في هذا المجال ، ورغم تقديري للشيخ على جهده في مجال إصلاح التصوف ، فقد توقفت عند إجابته على سؤال وجه إليه عن تعارض عقائد الصوفية مع عقيدة التوحيد ، وما هو رأي الشيخ في عقائد الحلول والاتحاد والوحدة ؟

فأجاب الشيخ قائلاً : (أما أن التصوف يدعو إلى عقائد الحلول والاتحاد والوحدة ، فليس هذا هو تصوف المسلمين ، وإنما هو تصوف أجنبي أعجمي مدسوس ، والمتهمون به نفر معدود محدود ، انتهى أمره ، وليس لهم اليوم تابع ولا وارث ، وأصبح ما نسب إليهم بحق أو بباطل نوعًا من الحفريات التاريخية ، التي لا يتابعها إلا الهواة والمتخصصون ، إن وجد اليوم هواة ومتخصصون في البحث عن مقابر الأفكار المهملة ، وإلا أصحاب الهوى الذي يعمي ويصم ، ولا اعتبار لأولئك ولا هؤلاء ، وقد أصبح الكلام في هذا الجانب نوعًا من مجرد الإثارة والتشويه ، والعبث وإضاعة الأوقات والتشويش على أفاضل الناس ، وشراء العاجلة بالآجلة) .

ويمكن أن نختصر كلام الشيخ في النقاط التالية :

١ - إقرار الشيخ أن عقيدة وحدة الوجود تخالف عقيدة المسلمين بل هي مدسوسة عليهم .

٢ - المتهمون به نفر محدود في التاريخ الغابر انتهى أمرهم .

٣ - لا يوجد اليوم من الصوفية المعاصرين من يعتقد هذه الأباطيل .

٤ - أن الحديث عن هذه الأفكار نوع من البحث عن الآثار في مقابر الأفكار .

٥ - أن المنشغلين بهذه الأمور مغرضون لا اعتبار لهم ، فهم أصحاب هوى أعماهم وأصمهم ، وحديثهم نوع من الإثارة والتشويش ، وأن هؤلاء المغرضين يضيعون الوقت ، ويتعرضون لأفاضل الناس ، ويشترون العاجلة بالآجلة .

ونستعين بالله تعالى وحده ونثبت للشيخ أنه لا يعلم ما في أوراد الصوفية المعاصرين ، وأن الأمر على حقيقته أخطر بمراحل مما يظن الشيخ ، ونعتقد بتوفيق الله تعالى بعد أن قدمنا للقارئ الكريم أفكار أئمة الصوفية في مقالاتنا السابقة

أننا نستطيع أن نعرض دراسة لأشهر أوراد الصوفية للطرق المعاصرة التالية لبيان حقيقة ما ذهب إليه رائد العشيرة المحمدية في إجابته ، ولنرى حجم الكارثة التي لا يراها الشيخ ، وهو عضو مجلس الصوفي الأعلى ، ومن مسئولياته مراجعة هذه الأوراد وإجازتها ، والبيان التالي يمثل الطرق الصوفية التي اتسع المقام لدراستها وتحديد النصوص الدالة على اعتناق زعمائها لعقيدة وحدة الوجود وبيانه كالتي :

١- الحقيقة المحمدية : نفحات في الصلاة على الرسول الأعظم .

٢- الخلوتية العونية : المحامد العونية في الصلاة على خير البرية .

٣- الخلوتية البكرية : مجموع صلوات وأوراد مصطفى البكري .

٤- الطريقة القادرية : الفيوضات الربانية في المآثر القادرية.

٥- الطريقة الشاذلية : أوراد الطريقة الشاذلية للشيخ عبد الفتاح القاضي .

٦- الفاسية الشاذلية : الأحزاب والوظيفة والياقوتة وصلوات الفاسي .

٧- الحامدية الشاذلية : الأوراد الحامدية الشاذلية .

٨- الطريقة البرهانية : تبرئة الذمة في نصح الأمة .

٩- الجعفرية الإدريسية : كنز السعادة والإرشاد للمعالي .

١٠- الطريقة الإدريسية : أحزاب وأوراد قطب دائرة التقديس .

١١- الختمية الميرغنية : مجموع راتب الميرغني .

١٢- طريقة أبي العزايم : نيل الخيرات بمداومة الأدعية والاستغاثات .

١٣- الطريقة الأحمدية : مجموع الأوراد الأحمدية .

١٤- الطريقة الخلوتية : مجموعة الأوراد الكبير ، صلوات أحمد الدردير .

١٥- دلائل الخيرات : مجموعة صلوات يقرؤها كثير من أتباع الطرق .

١٦- صلوات الشيخ الأكبر : ابن عربي وتقرؤها عدة طرق صوفية .

١٧- الطريقة الدسوقية : تائية إبراهيم الدسوقي .

١٨- الطريقة التيجانية : أوراد التيجاني .

١٩- الطريقة الرفاعية : مجموع الأوراد الكبير .

ونعرض فيما يلي نصوص كل طريقة على حده ، وسيرى المتتبع لمقالاتنا السابقة أنها واضحة الدلالة ولا تحتاج منا إلى تعليق أو شرح كبير ، أما من لم يتابع ما نشرته مجلة التوحيد في الأعداد السابقة ، فليطالع سلسلة كتبنا عن الظاهر والباطن ، وخاصة الكتاب الرابع عن عقائد الصوفية ، واللّه من وراء القصد وهو يهدي إلى سواء السبيل .

أولا : طريقة الحقيقة المحمدية

ولعل هذا أوضح مثال نضربه في هذا الشأن ، فقناعة شيخ الطريقة محمد بن صالح الحسيني العدوي بفكرة قِدَم النور المحمدي جعلته يسمي طريقته بهذا الاسم ، ويقول الرجل في أوراده التي كتبها مقلدا فيها الحلاج ومن تبعه من أصحاب الوحدة : اللهم صل وسلم وبارك على

سيدنا محمد الذي خلقت نوره من نور ذاتك بلا واسطة ، وخلقت من نوره جميع مكوناتك ، فكل به قائم ، الذي فتقت به رتق الوجود ، وأحييت به الكائنات ، وعين عنايتك الأزلية الأبدية ، ومبدأ الأشياء ظاهرًا وباطنًا ، ونهايتها سرًا وعلانية ، الذي لاح جماله في القِدَم وأشرق نوره في الوجود بلا عدم ، نور اللَّه الذي لا يطفأ .

ويستطرد قائلاً عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم : إنه الروح الأعظم في صورة إنسان ، والبرزخ الفاصل بين الحدوث والعدم ، المختص بالمعراج الذاتي ، والمشاهدة والمكالمة والنيابة العظمى ، قبضة النور التي تفرع عنها من الكائنات كل موجود ، الذي تم فيه مظهرك التام بكل زمان ومكان ، وأعطيته سر كن فدخلت تحت تصرفه الأكوان ، السابق للخلق نوره ، والرحمة للعالمين ظهوره ، سبب وجود الوجود ، وتكوين الأكوان ، وترجمان الأزل والأبد ، سر الوجود وجود الوجود ، النور الذاتي والسر المنزه الساري في جزئيات العالم وكلياته ، أسمى ما يصح أن يشمله اسم الوجود ، إنسان عين الموجودات ، نورك الأعظم وكمالك الأقدم وجمالك الأكرم ، الذي خلقت جميع الأنوار من نوره ، مفتاح إغلاق كنز الوجود ، خاتم دورات الأنوار .

أعتقد أن عبارات الشيخ واضحة الدلالة ، ولا تحتاج إلى تتبع وتعليق .

ثانيًا الطريقة الخلوتية العونية العيونية :

والطريقة فرع من الطريقة الخلوتية ، وسميت بالعونية نسبة إلى شيخها / محمود أفندي عنوي - وهو واضع كتاب الأوراد ، المسمى ((المحامد العونية في الصلاة على خير البرية)) - ثم بالعيونية نسبة إلى تلميذه الشيخ / إبراهيم أبو العيون عميد عائلة أبي العيون في أسيوط ، جاء في أوراد الطريقة نصوص عديدة تدندن حول وحدة الوجود ، والحقيقة المحمدية وقِدَم نور النبي صلى اللَّه عليه وسلم نختار منها صفحة (١١) :

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد صاحب القبضة الأصلية الطاهرة : الفاخرة السنية الباهرة ، التي قلت لها : كوني حبيبي محمدًا ، فصارت عمودًا من النور وتشعشعت وارتفعت بسر تكوينك وقدرتك ، واخترقت جميع حجب عظمتك ، وتساقطت منها قطرات عدد أنبيائك فخلقتهم وخلقت كل نبي منهم بقطرة فهم منه وإليه .

وهذا النص أوضح من نصوص أوراد الطريقة السابقة ، حيث لم يستخدم الشيخ لفظة : (خلق) في إيجاد نور النبي صلى اللَّه عليه وسلم ، وإنما جاء نور النبي صلى اللَّه عليه وسلم من القبضة الأصلية أي من نور اللَّه تعالى ، ولما قيل لهذه القبضة : كوني حبيبي محمدًا ، صارت عمودًا من النور وتشعشعت وارتفعت بسر كونك فيها ، حيث أن طبيعة القبضة هي ذاتها طبيعة المقبوض منه ، وبالتالي تمكنت هذه القبضة من اختراق حجب عظمة اللَّه تعالى ، فهي متصفة نفس صفات الإله وإلا ما استطاع نور المخلوق أن يخترق نور الخالق ، ويقول الشيخ / محمود أفندي عوني صفحة (٢٤) :

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد نقطة وحدة الوجود وأصل الموجودات ، والنص السابق يعد أدق تلخيص لنظرية الإنسان الكامل للجيلي ، كما أشرنا في مقالنا السابق عن عبد الكريم الجيلي .

ويقول الشيخ في صفحة (٢٦) من ورد الطريقة : اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد سر الوجود والإيجاد والفناء والبقاء .

وعبارة سر الوجود واضحة القصد ، أما سر الإيجاد فهذا يشير إلى أن الحقيقة المحمدية هي التي تهب للمعلومات الوجود ، فتكون سببًا في إيجادها .

ويقول الشيخ في صفحة (١٣) : اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد إنسان عين عين الكل في حضرة الوحدانية ، أي أن محمدًا صلى اللَّه عليه وسلم حقيقة ذات الكل في حضرة ليس فيها إلا حقيقة واحدة ؛ لذا سماها الشيخ في

حضرة الوحدانية هذا النص يثبت عقيدتهم أن الوجود الوحيد هو للحقيقة المحمدية ، ويقول أيضًا :

وَرَاء رائي وراء حجب الجلال والكبرياء القيومية ، وحياض الجبروت بوافي صافي فيض أنهار جلال أنواره متدفقة ، ومعناه أن النبي صلى اللّه عليه وسلم رأى ما رواء حجب الجلال والكبرياء أي أنه شاهد ربه مخترقًا جميع الحجب ، وأن حياض الجبروت الإلهي تفيض من أنهار جلال أنوار النبي صلى اللّه عليه وسلم ، أهناك شطط وغلو أكثر من هذا ؟!

ويؤكد نفس المعنى في صفحة (٣٩) : اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد بحر أنوار المهيمن العزيز ، والبحار في النهاية هي بحار الوحدة ، ويقرر ذلك بقوله في صفحة (٥٣) : اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد واسقنا من عين بحر الوحدة الصافية أصفى السلاف .

وجاء أيضًا في المحامد العونية صفحة (٩٧) في قصيدة التوسل بالسادة الخلوتية :

وبنور مشكاة الوجود وسره
إنسان عين الكامل طه نبينا

ويبلغ غلو شيخ الطريقة منتهاه حين يمدح الرسول صلى اللّه عليه وسلم نظمًا فيقول :

سر سرى في الملك والملكوت
النور إنسان عين الكل خير نبي
الأول الآخر المحيي المميت أب

أصل الأصول وعين العين ذو الرتب

ومن أوراد الطريقة ما يتلقاه المريد في الاسم الرابع دعاء آية الكرسي جاء فيه :

من أحب فرقتهم من أنا الأنانية ، ووصلتهم بأسرار الهوية ، حيث يفنى كل شيء بشهود الأحدية والوحدانية ، وبما أبطنته من الأسرار المخفية في باطن غيب الأحدية ، وبما أظهرته من الأنوار الجلية في ظاهر المحمدية .

ثالثًا : الطريقة الخلوتية البكرية :

الشيخ مصطفى البكري هو أحد مشايخ الطرق الخلوتية بتفرعاتها المتعددة ، ومنها الطريقة السابقة ، والنصوص التي سنعرضها الآن من كتاب مجموع صلوات وأوراد مصطفى البكري تبرز إيمان الشيخ بوحدة الوجود ، وتدندن حول مفردات هذه العقيدة ، ومنها ما جاء في صفحة (١٩) :

وصلّ وسلم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد الذي ظهر به الوجود والإيجاد .

وفي صفحة (١٣) : وصلّ وسلم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد المتمكن المشاهد للذات ، وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد سر الأزليات والأبديات .

كيف يكون النبي صلى اللّه عليه وسلم سر الأزليات والأبديات إلا من خلال مفاهيم وحدة الوجود ، وأنه صلى اللّه عليه وسلم الحقيقة الواحدة ، ويضيف الشيخ في الصفحة التالية إمكانيات التصريف للنبي صلى اللّه عليه وسلم ، فهو في الحقيقة ليس بشرًا رسولاً كما نفهم ، وإنما هو متصف بصفات الربوبية كما يزعم البكري بقوله في صفحة (٣٣) : وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد المتصرف في جميع الممالك والأملاك ، ونفس المعنى صفحة (٢٦) بقوله : وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد الذي تصرف في الوجود بالطول والعرض .

ويؤكد كلامه ص (٣٧) بقوله : وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد الذي أعطى التصريف بالكاف والنون ، اللهم إني أسألك بحق باء اسمك المعنية الموصلة إلى إيجاد أعظم مقصود ، وإيجاد كل مفقود وبالنقطة الدالة على معنى الأسرار السرمدانية والذات القديمة الفردانية . والنص السابق يعود بنا مرة ثانية إلى النقطة .

وللحديث بقية إن شاء اللّه تعالى ، وصلى اللّه وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، ثم أما بعد ، فنكمل - بعون الله تعالى - حديثنا عن عقيدة الصوفية .

رابعًا : الطريقة القادرية :

ورد في كتاب الأوراد المنسوب للشيخ عبد القادر الجيلاني حديثًا يدور بينه وبين الله عز وجل ويسمونه بالغوثية ، ليس له معنى سوى الطواف حول عقيدة وحدة الوجود ، ويعتقد أبناء الطريقة أن هذا الحديث جرى بين الشيخ وبين الله بطريق الإلهام القلبي والكشف المعنوي ، أي من العلم الباطن حسب المصطلح الصوفي للعلم الباطن ، وهذا الحوار عبارة عن مجموعة من الأسئلة يطرحها الجيلاني ، ويجيب عنها الله جل جلاله ، جاء فيه :

سألت - أي الجيلاني - يا رب : من أي شيء خلقت الملائكة ؟

قال لي : يا غوث الأعظم ، خلقت الملائكة من نور الإنسان ، وخلقت الإنسان من نوري ، ثم قال لي : يا غوث الأعظم ، الإنسان سري وأنا سره ، لو عرف الإنسان منزلته عندي لقال في كل نَفَس من الأنفاس : ﴿لمن الملك اليوم﴾ ، ثم قال لي : يا غوث الأعظم ، الاتحاد حال لا يعبر عنه بلسان المقال ، فمن آمن به قبل وجود الحال فقد كفر ، ومن أراد العبادة بعد الوصول فقد أشرك بالله العظيم .

ثم قال لي : يا غوث الأعظم ، أهل الجنة مشغولون بالجنة ، وأهل النار مشغولون بي ، ثم قال لي : يا غوث الأعظم ، أنا قريب من العاصي بعدما يفرغ من العصيان ، وأنا بعيد من المطيع إذا فرغ من الطاعات ، ثم قال لي : يا غوث الأعظم ، ليس لصاحب العلم عندي سبيل بعد إنكاره ؛ لأنه لو ترك العلم عنده صار شيطانًا .

عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة

الصوفية المعاصرة

ووحدة الوجود [٢]

بقلم أ / محمود المراكبي

لا تعكس هذه الغوثية الشيطانية أي مفهوم من مفاهيم الإسلام ، بل هي تنافي حقائق الدين وتهدم أصوله ، فالقرآن يقرر أن خلق الإنسان من طين بمراحل معروفة تكرر بيانها في آيات القرآن المحكمات ، والملائكة خلق من النور ، والجيلاني الغوث يقول لأتباعه : إن الإنسان خلق من نور اللّه ، والملائكة من نور الإنسان ، والغوثية تقرر الاتحاد وترك التكاليف ، ووحدة الوجود وأن الإنسان لو أدرك حقيقته لعلم أنه اللّه فلا حرج أن ينادي : ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ ؟ والغوثية بألفاظها هذه تُرسخ للمريدين مقالة الحلاج المشهورة (ما في الجبة إلا اللّه) ، كما ورد أيضًا في ورد الجيلاني في الصلاة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . راجع « مجموع الأوراد الكبير » (ص ٢٠) ما يلي :

● وأزكى تحياتك فضلاً وعددًا على أشرف الخلائق الإنسانية ومجمع الحقائق الإيمانية ، وطور تجلياتك الإحسانية ، ومهبط الأسرار الرحمانية ، واسطة عقد النبيين ، ومقدم جيش المرسلين ، وقائد ركب الأنبياء المكرمين ، وأفضل الخلق أجمعين ، حامل لواء العز الأعلى ، ومالك أزمة المجد الأسنى ، شاهد أسرار الأزل ، ومشاهد أنوار السوابق الأول ، وترجمان لسان القدم ، ومنبع العلم والحلم والحكم ، مظهر سر الجود الجزئي والكلي ، وإنسان عين الوجود العلوي والسفلي ، روح جسد الكونين وعين حياة الدارين .

تحاول كل طريقة أن تورد هذه المفاهيم في العديد من النصوص حتى يترسخ في عقيدة أتباعهم أركان وحدة الوجود ، ويشارك الجيلاني باقي الطرق في رغبته في الغرق في عين بحر الوحدة ، فيقول الشيخ في « مجموع الأوراد » (ص ٣٧) :

● وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وأغرقنا في عين بحر الوحدة السارية في جميع الموجودات ، ويؤكد عقيدة وحدة الوجود بقوله (ص ٢٥ و١٠٥) :

● اللهم صل على سيدنا محمد بحر أنوارك ومعدن أسرارك ، ولسان حجتك ، وعروس مملكتك ، وخزائن رحمتك ، وطريق شريعتك ، المتلذذ بتوحيدك ، إنسان عين الوجود ، والسبب في كل موجود ، عين أعيان خلقك ، المُقدَّم من نور ضيائك صلاة تدوم بدوامك ، وصل وسلم وبارك على عين الأعين والسبب في وجود كل إنسان ، وصل وسلم وبارك على من شيد أركان الشريعة للعالمين ، وأوضح أفعال الطريقة للسالكين ، ورمز في علوم الحقيقة للعارفين .

وللطريقة الجيلانية دعاء يسمونه (دعاء الجلالة) ، وينسبونه للشيخ عبد القادر الجيلاني ، يقولون فيه (ص ١٢) من « مجموع الأوراد الكبير » : اللهم إني أسألك بسر الذات ، وبذات السر ، هو أنت وأنت هو ، احتَجَبْتُ بنور اللّه وبنور عرش اللّه ، وبكل اسم للّه من عدوي وعدو اللّه .

هل هناك تصريح صوفي أوضح من هذا التصريح ، فالجيلاني يخاطب اللّه ويسأله بسر الذات ، والمراد به محمدًا صلى اللّه عليه وسلم ، كما تشير بذلك النصوص السابقة ، وبذات السر هو أنت ، وأنت هو ، هذه الأوراد توزع اليوم على المريدين الجدد ، ومشيخة الطرق الصوفية ترعى شئون هذه الطرق وتنظم لها الموالد ، وتعتمد الخلفاء والحضرات ، ولعلنا نكون قد أثبتنا للشيخ محمد زكي إبراهيم أن الأمر ليس حفريات تاريخية في مقابر الأفكار ، وإنما الأمر في حقيقته أخطر كثيرًا مما يظن عضو مجلس الصوفي الأعلى ، الذي لا يحاول الإصلاح الحقيقي للتصوف بتنقيته من الشرك باللّه ، وتمسكهم بعقيدة وحدة الوجود فيه ، دون أن يعلم كثير من المريدين شيئًا عنها ، وأيضًا الغلو والإطراء في سيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إطراء يخرجه عن حد البشرية ويجعل من حقيقته أصلاً للوجود .

خامسًا : الطريقة الشاذلية :

الطريقة الشاذلية من أكبر الطرق الصوفية في مصر ، ولها فروع متعددة وشعبًا متباينة ، نختار في مقالنا هذا بعض طرقها ونتتبع أورادها ومنها ؛ الطريقة التي شيخها الشيخ عبد الفتاح القاضي ، ويوزعون كتاب أورادهم على المريدين ، وهو كنوز الأسرار في الصلاة على النبي المختار ، وقبل أن نتعرض للنص نوضح مراد الصوفية من مصطلح « حضرة وحدانيتك » ؛ أنه الحضرة التي فيها الواحد فقط ، ولا يصح في هذه الحضرة وجود الرب والعبد ، وإنما هو وجود واحد ، وهذا ما سيفصح عنه الشيخ في عباراته التالية والتي وردت في باب صلوات الشيخ الفاسي :

● اللهم صل على إنسان عين الكل في حضرة وحدانيتك ، وجمع جمع أحديتك ، فكان المُبشر عين المبشر به ، حتى لا نرى في الوجود إلا أنت به . وفي صفحة (١٤) :

● اللهم صل على الواحد الثاني المخصوص بالسبع المثاني ، والسر الساري في منازل الأفق الرحماني ، والقلم الجاري بمداد مدد المداد الرباني على طول العقل الإنساني ، بل صل رب عليه على قدر عزته عليك ، اللهم صل على نورك موضع نظرك ، ومظهر منظرك ، ومظهر خزائن كرمك ، عقدة عزك ، ومفتاح قدرتك ، محل رحمتك ، ومجد عظمتك ، خلاصتك من كنه كونك وصفوتك ، وفي صفحة (١٥) :

● اللهم صل على سر وجودك ومظهر ود جودك وخزانة موجودك .

إن النص السابق يعد أخطر تصريح بالوحدة ، فالنبي سر وجود الله ! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

● اللهم صل على المتخلق بصفاتك ، المستغرق في مشاهدة ذاتك ، الحق المتخلق بالحق ، حقيقة الحق ، أحق هو قل : إي وربي إنه لحق ، وكيف نقدر على ذلك وقد جعلت كلامك خُلقه ، وأسماءك مظهره ، ومنشأ كونك منه ، وأنت مَلجأه وسكنه وملوك الأعلى عصابته ونصرته ، فهو أمينك خازن علمك ، حامل لواء حمدك معدن سرك ، مظهر عزك ، نقطة دائرة ملكك ومحيطك ومُركِّبه وبسيطه ، بل صل رب على الضمير البارز المستور في الثاني الآخر المضروب به ، المثال في عالم المثال ، اللهم صل على من نورت بنوره ملكوت سماواتك وأرضك .

ثم يكشف الفاسي عن عقيدته بلا حجاب ولا حياء في الصفحات من (١٧- ٢١) حيث يقول : فالقرآن يقول : ﴿ اللّه نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاةٍ ﴾ [النور : ٣٥] ، والهاء عائدة على اللّه ، جل جلاله - والفاسي يشرح الآية ويجعل الهاء عائدة على النبي صلى اللّه عليه وسلم -: ﴿ مثل نوره كمشكاة ﴾ كونك فيها مصباح من نوره : ﴿ المصباح في زجاجة ﴾ أجسام أنبيائك وملائكتك ورسلك : ﴿ الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة ﴾ أصلها النور الذي هو المفيض عليه من فيض أسمائك : ﴿ نور على نور ﴾ يهدي اللّه لنوره محمداً صلى اللّه عليه وسلم من يشاء من خلقه ، اللهم إنك عليم بهذا النور البارز المستور الباهر المشهور الذي بهرت به كلية الكونين ، وطرزت به الثقلين ، حقيقة حقك وصفوتك من خلقك بنوره حُملت حملة عرشك ، وبسره رفعت سماواتك ، وبسطت أرضك ، فهو سماء سمائك وعناية عيون إحسانك ، ومظهر عزك وسلطانك ، فأنت العليم به من حيث الحق والحقيقة ، وفي صفحة (٣٠) :

● اللهم صل على سيدنا محمد السابق للخلق نوره والرحمة للعالمين ظهوره ، بحر أنوارك ومعدن أسرارك ، إنسان عين الوجود والسبب في كل موجود ، عين أعيان خلقك ، المتقدم من نور ضيائك ، طور التجليات الإحسانية ومظهر سر أسرار الوجود الجزئي والكلي ، وإنسان عين الوجود العلوي والسفلي ، روح جسد الكونين ، وعين حياة الدارين .

ويستطرد الشيخ في كشف أسراره فيقول (صفحة ٤٦- ٥٠) :

● اللهم صل على سيد السادات ، الذي هو مفتاح أقفال الأعطيات الإلهيات الأول في الإيجاد والجود ، نور عين العنايات ، يا ظهور يا مظهر يا ظاهر يا أول يا آخر يا باطن يا ظاهر ، شريعتك مقدسة طاهرة ، ومعجزاتك باهرة ظاهرة ، أنت الأول في النظام ، والآخر في الختام ، والباطن بالأسرار والظاهر بالأنوار ، وفي (صفحة ٥٢) :

● الصلاة والسلام عليك يا عين الوجود ، الصلاة والسلام عليك يا سر الوجود ، والصلاة والسلام عليك يا سر نقطة دائرة الوجود ، ويزيد الشيخ مريديه من فيض فتوحاته الباطنية فيقول (صفحة ٦٥) :

● صلاة تصفينا بها من شوب الطبيعة الآدمية بالسحق والمحق وتطمس بها آثار وجود الغيرية منا في غيب غيب الهوية ، فيبقى الكل للحق في الحق بالحق ، وترقينا بها في معارج شهود وجود : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ [فصلت : ٥٣] على مظهر لسان عين سرك ، وأن تكسونا حلل صفات كمال سيدنا وحبيبنا محمد صلى اللّه عليه وسلم نور الجلالة وأتحفنا بالحب الرباني والوصل المعنوي كمن اصطفيته حتى أحببته فكنته ، نسألك بنور وجهك العظيم المبرة الجامعة من نور كمال سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم مصطفى عنايتك ، وأن تتحد ذاتنا بذاته المقدسة بجلالتك ، وتتحقق صفاتنا بصفاته ، اللهم صل وسلم على أكمل عبد لك في هذا العالم من بني آدم الذي أقمته لك ظلاً ، وجعلته لحوائج خلقك قِبلة ومحلاً ، واصطفيته لنفسك ، العبد القائم بسر الغيب والإحاطة بغاية الوصل الناظر بعين الذات إلى عين الذات ولا كيف ولا مثل .

يلاحظ القارئ الكريم أننا لا نعلق كثيرًا على هذه النصوص لوضوح دلالاتها ، وجلاء معانيها وبعدها كل البعد عن روح الإسلام ونصوصه وعقيدته التي تلقاها المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما هذا الغلو والإطراء الذي حذرنا منه سيد المرسلين ، فهذا ما لا يقبله أي قلب هدم أصنام الشرك وآمن بالله وحده لا شريك له .

سادسًا : مشيخة عموم الطريقة الفاسية الشاذلية :

ويمدح شيخ الطريقة القطب الكبير محمد بن محمد بن مسعود الفاسي النبي صلى الله عليه وسلم في أول جملة من أحزاب الطريقة الفاسية الشاذلية بعد البسملة (ص٢- ٤) حيث يقول :

● اللهم صل وسلم بجميع الشئون في الظهور والبطون على من منه انشقت الأسرار الكامنة في ذاته العلية ظهورًا ، وانفلقت الأنوار المنطوية في سماء صفاته السنية بدورًا ، وفيه ارتقت الحقائق منه إليه ، وتنزلت علوم آدم به فيه عليه .

● اللهم إنه سرك الجامع لكل الأسرار ، ونورك الواسع لجميع الأنوار ، ودليلك الدال بك عليك ، وقائد ركب عوالمك إليك ، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك ، فلا يصل واصل إلا إلى حضرته المانعة ، ولا يهتدي حائر إلا بأنوارك اللامعة .

ثم يدندن الشيخ حول نغمات الوحدة بعبارات واضحة لا لبس فيها ولا غموض يقول فيها :

● وزجَّ بي في بحار الأحدية المحيطة بكل مركبة وبسيطة ، وانشلني من أوحال التوحيد إلى فضاء التفريد المنزه عن الإطلاق والتقييد ، وأغرقني في عين بحر الوحدة شهودًا حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها نزولاً وصعودًا ، اللهم صل على الذات المحمدية اللطيفة الأحدية شمس سماء الأسرار ومظهر الأنوار ، ومركز مدار الجلال ، وقطب فلك الجمال .

● اللهم صل وسلم على من جعلته سببًا لانشقاق أسرارك الجبروتية ، وانفلاقًا لأنوارك الرحمانية ، فصار نائبًا عن الحضرة الربانية ، وخليفة أسرارك الذاتية ، فهو ياقوتة أحدية ذاتك الصمدية ، وعين مظهر صفاتك الأزلية ، فبك منك صار حجابًا عنك ، وسرًا من أسرار غيبك ، حُميت به عن كثير من خلقك ، فهو الكنز المطلسم والبحر الزاخر المطمطم ، وفي ((الياقوتة)) صفحة (٢٧) : لأنه - أي النبي صلى الله عليه وسلم - هو السر المصون ، والجوهر الفرد المكنون ، فهو الياقوتة المنطوية عليها أصداف مكنوناتك ، والغيبوبة المنتخب منها معلوماتك ، فكان غيبًا من غيبك ، وبدلاً من سر ربوبيتك ، حتى صار بذلك مظهرًا نستدل به عليك ، فكيف لا يكون كذلك ، وقد أخبرتنا بذلك في محكم كتابك بقولك : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ [الفتح : ١٠] ، فقد زال عنا بذلك الريب وحصل الانتباه .

سابعًا : الطريقة الحامدية الشاذلية :

وشيخها سلامة الراضي ، وجاء في أورادها ما يسمى بالوظيفة الشاذلية والمنسوبة للشيخ أبي الحسن الشاذلي والذي تلقاها عن شيخه عبد السلام بن بشيش (صفحة ١٨- ٢٠) :

● اللهم صل وسلم بجميع الشئون في الظهور والبطون على من منه انشقت الأسرار الكامنة في ذاته العلية ظهورًا ، وانفلقت الأنوار المنطوية في سماء صفاته السنية بُدُورًا ، وفيه ارتقت الحقائق منه إليه ، وتنزلت علوم آدم به فيه عليه ، فأعجز كلاً من الخلائق فهم ما أودع من السر فيه ، فذلك السر المصون لم يدركه منا سابق في وجوده ، ولا يبلغه لاحق على سوابق شهوده ، فأعظم به من نبي رياض الملك والملكوت بزهر جماله الزاهر مونقة ، وحياض معالم الجبروت بفيض أنوار سره الباهرة متدفقة ، ولا شيء إلا وهو به منوط وبسره الساري محوط ، إذ لولا الواسطة في كل صعود وهبوط لذهب كما قيل الموسوط .

● اللهم إنه سِرُكَ الجامع لكل الأسرار ونورك الواسع لجميع الأنوار ، ودليلك الدال بك عليك ، وقائد رَكْب عوالمك إليك ، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك .

نكتفي بهذا القدر على أن نستكمل دراسة باقي أوراد الطرق الصوفية في الأعداد القادمة بمشيئة الله تعالى ، ونحن ندعو القراء الكرام أن يمدونا بأي أوراد لطرق صوفية لم ترد في القائمة التي قمنا بدراسة أورادها ، حتى نوضح للمريدين ومشايخهم مواضع الخلل فيها ، وكيف ابتعدت عن عقيدة التوحيد ، وغرقت في بحار الوحدة ، تلك الفلسفة القديمة التي يدين بها بعض الديانات الهندية والفارسية القديمة قبل الإسلام ، فليكن معلومًا لهؤلاء أن التصوف قادهم إلى عقيدة لا علاقة لها بالتوحيد ، وبئس الورد المورود ، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة ، وعلى آله وصحبه وسلم .

بقلم أ / محمود المراكبي

عقائد الصوفية

في ضوء الكتاب والسنة

الصوفية المعاصرة ووحدة الوجود

الحلقة الحادية عشر

الحمد لله حمد الشاكرين ، ونستغفره استغفار المذنب الواثق من عفو الغفور الرحيم ، والصلاة والسلام على الرءوف الرحيم ، محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد :

فنستكمل بحول الله وطوله ما بدأناه في المقالة السابقة من عرض نصوص الطرق الصوفية المعاصرة ؛ لبيان مزالق الشيطان فيها ، وتلبيس إبليس لأتباعها ومشايخها ، حتى أصبح الغلو في رسول الله صلى الله عليه وسلم وإطراؤه كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم هو دين الصوفية وعقيدتهم التي يتلقونها عن مشايخهم جيلاً بعد جيل ، وما يدعو للشفقة بعامة المريدين أنهم لا يعرفون ما هم عليه ، ويحسبون أنهم مهتدون ، بل وأتباع الأولياء والأقطاب والأبدال ، وأنهم العارفون بالله الوارثون للعلم الباطني ، ونبدأ اليوم بالطريقة الثامنة من طرق القوم ؛ ألا وهي :

● **الطريقة البرهانية الدسوقية الشاذلية :**

وضع شيخ الطريقة محمد عثمان البرهاني كتابه « تبرئة الذمة في نصح الأمة » ، حرص فيه على جمع مخلفات الأخبار الفاسدة ، وجملة من الأحاديث الموضوعة ، وحزمة من عقائد الشيعة والباطنية وغلاة الصوفية ، وانتصر في كتابه إلى ساداته ابن عربي والجيلي وغيرهما ، فجاء الكتاب في جملته مزيجًا من الهذيان والتخريف .

وإذا أردنا أن نتتبع النصوص من كتابه لنقلنا أغلب الكتاب ، لذا نكتفي فقط بمثال واحد يفسر فيه الرجل قول الله تعالى : ﴿ والفجر ۞ وليالٍ عشرٍ ﴾ [الفجر : ١، ٢] ، فيقول : إن كبار المفسرين أهل البصائر يرون أن الفجر هو حالة قبضة نور النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن الليالي العشر التي تنقل فيها نور النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي حجب الجلال ، ثم يستطرد قائلاً : وعلى هذا المنوال فقد قال صلى الله عليه وسلم : أنا من نور الله ، والمؤمنون من رشحات نوري .

● **تاسعًا : الطريقة الجعفرية الإدريسية .**

وشيخ الطريقة هو الشيخ صالح الجعفري - الذي كان مجاورًا في الجامع الأزهر - وجاء في صفحة (١٤) من أوراد الطريقة المسمى « كنز السعادة والإرشاد » للمعالي من إملاء محمد بن عبد العالي وجمع أحمد بن إدريس قال : اللهم صلِّ على الذات الكنه ، قبلة وجوه تجليات الكنه ، عين الكنه في الكنه ، الجامع

لحقائق كمال كنه الكنه ، القائم بالكنه في الكنه للكنه ، صلاة لا غاية لكنهها دون الكنه ، وعلى آله وسلم ، كما ينبغي من الكنه للكنه ، اللهم إني أسألك بنور الأنوار الذي هو عينك لا غيرك ، أن تريني وجه نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما هو عندك آمين .

ويحاول الشيخ صالح الجعفري أن يستثني عبارة شيخه (نور الأنوار) التي يكررها في مواضع كثيرة من ورده ، ويريد بها النبي صلى الله عليه وسلم لا أن الشيخ صالح يخصص المراد من هذا الموضع فقط بأنه الله وليس النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقول : (نور الأنوار هو الله تعالى ، أي خالق الأنوار كلها ، وليس النبي صلى الله عليه وسلم كما يدعيه بعض الجهلة معترضًا على الأستاذ ، وفي غير هذا المكان يطلق عليه صلى الله عليه وسلم نور الأنوار) .

ويقول في صفحة (٢٠) : اللهم صلِّ على مولانا محمد نورك اللامع ، ومظهر سرك الهامع ، الذي طرزت بجماله الأكوان ، وزينت ببهجة جلاله الأوان ، الذي فتحت ظهور العالم من نور حقيقته ، وختمت كماله بأسرار نبوته ، فظهرت صور الحسن من فيضه في أحسن تقويم ، ولولا هو ما ظهرت لصورة عين من العدم الرميم .

● **عاشرًا : الطريقة الإدريسية :**

لم أر في أي ورد من أوراد الطرق الصوفية نصوصًا بهذا الكم وبهذه الجرأة والوضوح ، وطافحة بعقيدة وحدة الوجود ، فلا تكاد تخلو صفحة من كتاب أحزاب وأوراد قطب دائرة التقديس لأحمد بن إدريس الحسني إلا وهي تطفح بهذه المعتقدات ، نختار منها (ص ٤٤) : اللهم .. وأن تنعمني يا ذا الجلال والإكرام في شهود تجليات ذاتك بالعين التي لا يحجب عنها شيء في الأرض ولا في السماوات ، وأفض على جميع ذاتي لذة ذلك الشهود حتى أكون كلي لذة ذاتية إلهية سارية في نفسي من نفسي لنفسي كما نعمت سيدنا ونبينا ومولانا محمدًا صلى الله عليه وسلم في ذلك وحققني يا إلهي بإنسانيتي حتى أكون إنسان العين الكلية الإلهية التي لا يحصرها شيء ، ولا يقدر قدرها سواك كما حققت نبيك سيدنا ومولانا محمدًا صلى الله عليه وسلم .

ويقول كذلك في (ص ٤٧) : مظهر تجليات الحقائق الأبدية عبدك الذاتي ترجمان حضرة ديوان الكبرياء الإلهي

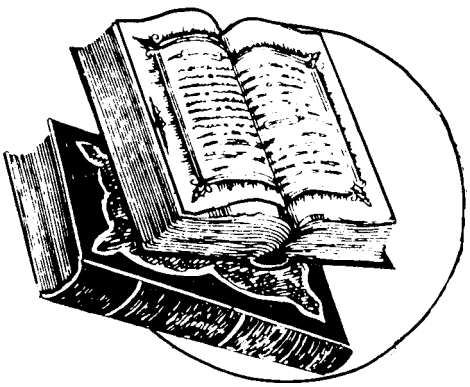

الأقدس نبيك سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم مجلى ذاتك العظمة الإلهية الأنزه ، ووفني يا إلهي بذلك وفاء كاملاً كما وفيته بذلك حتى تندمج كليتي بجمع أجزائها في بحر حقيقة حق الصدق ، حتى تكون ذاتي كلها صدقًا خالصًا إلهيًا صرفًا من جميع الوجوه ، ثم يشرح مشهد الكبرياء بقوله : مشهد الكبرياء في الحقيقة الإلهية المحمدية هو الروح الأعظم المنفوخ في آدم صلوات الله عليه ، وهو كوثر التجليات الإلهية والملكية وهو المفيض في كل شيء وإلى كل شيء من عين الأولية .

وفي (ص ٦٠) : وتجل لي يا إلهي بأسرار الكتاب المكنون الإلهي كتاب الحقائق الإلهية الذاتي ، وانشر يا إلهي في نفسي ذلك الكتاب حتى أجمع قرآن حقائق التجليات الإلهية كشفًا ووجودًا ، إحصاء وشهودًا ، من كل جهاتي ، وأكون منعوتًا بجميع الكمال الإلهي المحمدي في جميع أحوالي وتطوراتي ، فتزول غشاوة غش الأغيار عن بصري وبصيرتي ، بل وعن ذاتي كلها ، حتى تكون ذاتي كلها عينًا ذاتية إلهية من جميع الوجوه ، وأكون كلي وجهًا واحدًا إلهيًا ، لا أعلم من جميع جهاتي ولا أشهد ولا أرى في إياي ، وفي كل شيء وفي لا شيء إلا إياك .

والرجل بهذا النص يطلب أن يصير هو أيضًا إلهًا . ثم يقول في (صفحة ٧٢) : وأسألك بمعناك الذي لا يعلمه سواك ، الذي اقتضته الذات بالذات في الذات من الذات للذات ، كما أنت حيث أنت لذاتك ، كما تعلم ذاتك ، حتى تاه الكل في الكل ، وتحير الكل في الكل ، ويصرح في (ص ٨٣) بالنور الإلهي للرسول بقوله : كما بدأنا أول خلق نورًا إلهيًا نعيده ، وفي (ص ٨٨) يقول أيضًا : ينبوع عين مادة الوجود الإلهي الأزلي نبيك سيدنا

ومولانا محمدًا صلى اللّه عليه وسلم نقطة وجه جمال حُسْنِ الحق المشهود الإلهي الأبدي .

وننقل بعض النصوص من (ص ١٥٠ حتى ١٠٨) يقول فيها : اللهم صل على أم الكتاب كمالات كنه الذات عين الوجود المطلق ، الجامع لسائر التقييدات ، صورة ناسوت الخلق ، معاني لاهوت الحق ، الغيب الذات والشهادة الأسماء والصفات ، الناظر بالكل في الكل من الكل للكليات والجزئيات ، مبدأ الكل ، ومرجع الكل ، وهو الكل في الكل بلا بعض ولا كل ، صلى اللّه عليك يا محمد بكمال أحدية ذاته وصفاته على كمال جمعية أحدية ذاتك وصفاتك ، روح ذات الوجود ، مجمع حقائق اللاهوت ، اللهم صل على عين بحر الحقائق الوجودية المطلقة اللاهوتية ، ومنبع الرقائق اللطيفة المقيدة الناسوتية ، صورة الجمال ، ومطلع الجلال ، مجلى الألوهية ، وسر إطلاق الأحدية ، عرش استواء الذات ، المسمى كثرة صورها بالخلق ، جانب طور الحقائق الروحية الأيمن المكلم منه موسى النفس ، بأنا اللّه لا إله إلا أنا في حضرة القدس ، يا كامل الذات ، يا جميل الصفات ، يا منتهى الغايات ، يا نور الحق ، يا سراج العوالم ، يا محمد ، يا أبا القاسم ، يا مجلى الكمالات الإلهية الأعظم .

اللهم صل على مولانا محمد سراج أفق الألوهية ، ومعدن كنوز الأسرار الربانية ، سر استواء الرحمانية ، منظر وجوه الخلق ، مصدر الهو في الهو للهو من الهو ، مَن نبعت فيه ومنه أسرار : ﴿ اللّه لا إله إلا هو ﴾ ، ويصل الشطح بالرجل إلى منتهاه في (ص ١٣٦) ، فيصف النبي صلى اللّه عليه وسلم بقوله : اللهم صل على الذات الحقية القدسية والمعاني الكمالية الجلالية الجمالية ، قرآن حقائق الذات وفرقان تجليات الصفات ، عين الحياة الأزلية ، معنى التفصيلات الأبدية ، روح المعاني الإلهية ، وسر صور المباني الخلقية ، دهر الدهور ، وكتاب الحق المنشور ومعنى المكالمة الإلهية الطورية في حضرة الوادي القدسية الموساوية ، نور سبحات الوجه في جبل قاف تجليات الكنه ، صورة الحق ، ومعنى سر حروف الخلق ، مجمع بحور الحقائق ، لسان ترجمان الدقائق ، حقيقة الحقائق الكليات والجزئيات ، عرش رحمانية الذات .

والرجل لا يمل من الدوران حول عقيدته التي لا علاقة لها بالإسلام وتوحيده البسيط السهل الواضح ، وإنما يكرر أفكاره وأفكارَ أصحاب الوحدة ، والمراد من تكرار هذه الألغاز هو تمرير الشركيات على القلوب ولفها بالتيه والحيرة ، حتى تخرج عن التوحيد بالكلية .

● **حادي عشر الطريقة الختمية الميرغنية :**

يردد أبناء الطريقة الميرغنية أوراد الطريقة التي جاء فيها : اللهم صل على سلطان المملكة وإمام الحضرة المقدسة المفيض على الملأ الأعلى من وراء حجبك الجلا من قامت به عوالم الملك والملكوت ، المطمطم بالأنوار العلية والكنز الذي لا يعرفه على الحقيقة إلا مالك البرية ، ترجمان الرحمن لعباده بالإحسان في حضرة الامتنان بلسان اللطف والحنان ، بقوله : لو لم تذنبوا وتستغفروا لأتى اللّه بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم ، أو كما قال المكمل لعباد اللّه بالنفحات الفردية والمؤيد لهم بالظهورات الأُنسية والعرش كما يليق بها ظهر الرب من أجله من العماء ذروة الدواوين الإلهية ، ترجمان الحضرات الصمدانية ، روح المعارف العلمية ومادة الحقائق النورانية المتجلي في سماء الربوبية ، فهو الباطن الذي منه يُرى اللّه ، وهو الظاهر الذي به تجلى اللّه ، اللهم بالساجد عند العرش ، ومن هو سر العرش أدخلنا فوق الفرش ، واحملنا إلى الديوان الأعلى مع الديوان الأجلى على باطن منبع سر : ((إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقين)) .

● **ثاني عشر : طريقة أبي العزايم :**

ينشر مختار أبو العزيم كتابًا سطر فيه المأثور عن الإمام ماضي أبو العزائم الذي تواضع وسمى ورده ((نيل الخيرات)) ، وقسمه إلى مجموعة من الفتوحات ، وطبعًا يفهم المريدون أنها فتوحات ربانية ، وأسرار علوية ، ويقول في الفتح الأول من الصلوات : اللهم أوصل صلة الصلاة على قبضة أنوارك الذاتية ، ومجلى أسرارك الكنزية ، وسر تجلي العوالم الصفاتية ، ومصدر حقائق المظاهر الأسمائية ، الجامع بين أولية الحقية في مقام الأحدية بين الآخرية في مقام الواحدية ، وبينهما في مقام الوحدانية ، اللهم أسبغ هاطل صلواتك على عين الحق الكامل في مظهر الخلق ، اللهم صل وسلم على برزخ الهوية ورمز الألوهية الظاهر به عنه في مقام كان اللّه

ولا شيء معه ، والباطن في مقام تجلي الحقائق الأسمائية في مقام وهو على ما عليه كان .

ويشهد النص الوارد في الفتح الثالث من الصلوات على العلاقة الوثيقة بين الصوفية وبين الفلسفة الأفلاطونية والأفكار الباطنية اليهودية حين يقول : اللهم صل وسلم على العقل الأول الذي أضاء بنور أوليته عوالم الأرواح النورانية ، واللون الذاتي الذي تزينت بمحاسن صفاته جميع الآثار الكونية ، والمظهر الحقي الذي أفاض على العوالم كلها أسرار التجليات الرحمانية ، المتحقق في المظهرين الحقي والخلقي في الآخرية ، اللهم صل وسلم على مصدر التجليات الواحدية ومفيض غيث التفضلات الجمالية .

● **ثالث عشر : الطريقة الاحمدية :**

شيخ الطريقة هو قطب الصوفية الأكبر أحمد البدوي ، يرفعه أحبابه إلى أعلى المقامات أقلها أنه مركز الدائرة الروحية لمصر ، بينما يتهمه الباحثون بأنه كان داعيًا شيعيًا باطنيًا ، وجاسوسًا للدولة الفاطمية تحت ستار التصوف[1] ، وأوراد الرجل مقسمة إلى عدد من الأحزاب والصلوات منها ؛ الحزب الكبير والصلاة الكبيرة والصلاة الصغيرة ، ومنها ننقل ما يأتي :

اللهم صل على نور الأنوار وسر الأسرار وترياق الأغيار سيدنا محمد المختار وآله الأطهار وأصحابه الأخيار عدد نعم الله وأفضاله .

ولا يخفى أن عبارة : نور الأنوار يندرج تحتها كل الأنوار ، وهذا هو مقصود ابن عربي في وحدة الوجود ، ثم يكرر البدوي عبارات شجرة الأصل ، القبضة الأصلية الرحمانية وغيرها .

اللهم صلى على سيدنا محمد شجرة الأصل النورانية ، ولمعة القبضة الرحمانية ، وأفضل الخليقة الإنسانية ، وأشرف الصورة الجسمانية ، ومعدن الأسرار الربانية ، وخزائن العلوم الاصطفائية ، صاحب القبضة الأصلية ، والبهجة السنية ، والرتبة العلية ، من اندرج النبيون تحت لوائه ، فهم منه وإليه .

ونلمح ضمن أوراد الطريق الحزب الكبير الثاني وهو مشهور لتفريج الكروب نبرة شيعية واضحة ، حيث ورد في النص التالي : اللّه حسبي ، ومحمد وعلي رُكني ، والله متولي أمري .

ولأحمد البدوي قصيدة تطفح بوحدة الوجود تعرف باسم تائية أحمد البدوي ، يقول فيها :

فقرأت في توراة موسى تسعة
تليت على موسى لها لم يثبت
وقرأت من إنجيل عيسى عشرة
تليت على عيسى فزادت رفعتي
وقرأت من نهج الغرام مسائلاً
وأتيت فيها من شواهد فطنتي
أنا صاحب الناقوس سلطان الهوى
أنا فارس الأنجاد حامي مكة
أنا أحمد البدوي غوث لا خفا
أنا كل شبان البلاد رعيتي

● **رابع عشر : صلوات احمد الدردير :**

يستطيع القارئ بسهولة أن يحصي النصوص الدالة على وحدة الوجود في أوراد أحمد الدردير ، منها ما جاء تلميحًا ، ومنها ما صرح به الشيخ أو أتباعه ونسبوه إليه ، ومن ذلك ؛ وصلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وأغرقنا في عين بحر الوحدة السارية في جميع الموجودات ، وفي حرف الباء يقول الشيخ : واكشف لهم عن حظائر اللاهوت إلهي بالنور المحمدي الذي رفعت على كل رفيع مقامه ، وضربت فوق خزانة أسرار ألوهيتك أعلامه .

وينتشر بين أتباع الطرق أن ضريح الشيخ أحمد الدردير سره كبير ، ومن الطريف أن نذكر كيف كان أحد المشايخ المثقفين والحاصلين على درجة الماجستير في الكيمياء يعلم أبناءه في الطريق أحد أساليب قضاء الحاجات ، وتتلخص هذه الطريقة أن يزور المريد قبر الشيخ في حي الأزهر ، ثم يعرض على الشيخ الدردير حاجته ، ويختم طلبه قائلاً : اركب الحمارة واقض العبارة !!

ولا نعرف لم الإصرار على الحمارة في زمن اتسعت فيه الاتصالات ووسائل الانتقال ، ثم هل هي حمارة من عالم الروح ، أم هي حمارة حصاوي من حمير هذا الزمان ؟ ولا شك أن من سيركب الحمارة سيطول انتظار الناس لمساعيه !!

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى ، فإلى اللقاء .

عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة

الصوفية المعاصرة ووحدة الوجود [٢]

حمدًا لله وكفى، وصلاة وسلامًا على عباده الذين اصطفى .. وبعد : نكمل ما بدأناه - في الحلقة السابقة - مستعرضين نماذج من شطحات الصوفية وضلالاتهم من خلال أذكارهم وأورادهم :

- ***خامس عشر : دلائل الخيرات :***

ويعد كتاب «دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة والسلام على النبي المختار» والمشهور بدلائل الخيرات من أكثر الصلوات انتشارًا بين الطرق الصوفية، وتجتمع حوله الحلقات في المقام الذي يظن الصوفية وكثير من العوام أن فيه رأس الحسين، رضي الله عنه، ثم يقرأ المريدون بلسان واحد هذا الكتاب الذي لا يخلو من الإشارة إلى عقيدة وحدة الوجود :

- اللهم صلِّ على سيدنا محمد السابق للخلق نوره .

- اللهم صل على سيدنا محمد نور الأنوار وسر الأسرار .

- اللهم صل على سيدنا محمد الذي نوره من نور الأنوار ، وأشرق بشعاع سره الأسرار ، سابق للخلق نوره .

- اللهم صل على من فاضت من نوره جميع الأنوار .

- اللهم صل على سيدنا محمد بحر أنوارك ، ومعدن أسرارك ، ولسان حجتك ، وعروس مملكتك ، وإمام حضرتك ، وطراز ملكك ، وخزائن رحمتك ، وطريقة شريعتك ، المتلذذ بتوحيدك ، إنسان عين الوجود ، والسبب في كل موجود ، عين أعيان خلقك المتقدم من نور ضيائك .

هذا وقد توجه أحد المسلمين بسؤال إلى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء يقولُ فيه : ما حكم كتاب «دلائل الخيرات» ؟ وننقل نص الفتوى رقم (٢٣٩٢) ، والتي جاء فيها : أما كتاب «دلائل الخيرات» فننصحك بتركه ، لما يشتمل عليه

من الأمور المبتدعة والشركية ، وفي الوارد في القرآن والسنة غنية عنه .

● **سادس عشر : صلوات الشيخ الاكبر :**

ولا يخفى أن المقصود بالشيخ الأكبر هو ابن عربي الذي نال هذا المقام لاقتباسه نظرية وحدة الوجود ، وإلباسها ثوب النصوص الإسلامية ، وفي أوراده نجد ما يلي :

اللهم أفض صلة صلواتك وسلامة تسليماتك على أول التعينات المفاضة من العماء الرباني ، وآخر التنزلات المضافة إلى النوع الإنساني ، المهاجر من مكة كان اللّه ولم يكن معه شيء ثان إلى المدينة ، وهو الآن على ما عليه كان ، ونقطة البسملة الجامعة لما يكون ولما كان ، ونقطة الأمر الجوالة بدائرة الأكوان ، سر الهوية التي في كل شيء سارية ، وعن كل شيء مجردة وعارية ، أمين اللّه على خزائن الفواضل ومستودعها ومقسمها على حسب القوابل وموزعها ، كلمة السر الأعظم ، الفيض الأقدس الذي تكونت به الأكوان واستعدادتها ، والفيض المقدس الصفاتي الذي تكونت به الأكوان واستمدادها ، مطلع شمس الذات في سماء الأسماء والصفات ، ومنبع الإفاضات في رياض النسب والإضافات ، خط الوحدة بين قوسي الأحدية والواحدية ، وواسطة التنزل من سماء الأزلية إلى أرض الأبدية .

ولا شك أن من يصف النبي صلى اللّه عليه وسلم بأنه مطلع شمس الذات في سماء الأسماء والصفات ، لا يتبرأ من وصفه بنور الأنوار في النص التالي ؛ اللهم إني أسألك بنور الأنوار الذي هو عينك لا غيرك أن تريني وجه نبيك محمد صلى اللّه عليه وسلم .

ويرفع هذا النص النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى مقام الألوهية ، بل هم يزعمون أنه اللّه ، قاتلهم اللّه أنى يؤفكون ، ونستكمل قراءة الأوراد فنجد النص التالي :

اللهم صل على الذات المطلسم ، والغيث المطمطم ، والكمال المكتم ، لاهوت الجمال ،

بقلم
أ. محمود المراكبي

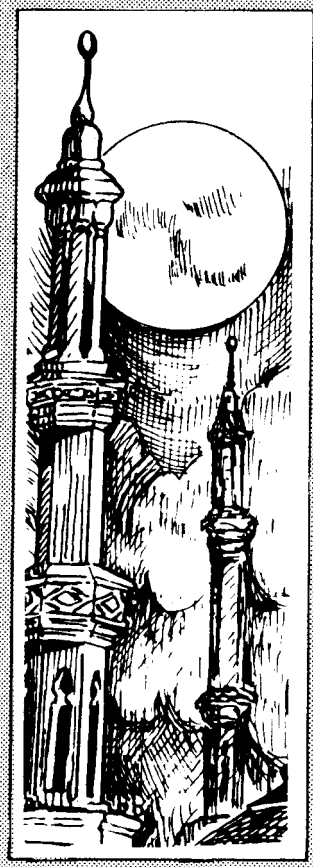

وناسوت الوصال ، وطلعة الحق ، كنز عين إنسان الأزل في نشر من لم يزل ، من أقامت به نواسيت الفرق في قاب ناسوت الوصال الأقرب إلى طرق الحق ، فصل اللهم به منه فيه عليه وسلم .

اللهم يا من لا أرى سواه ، وإن تعددت المظاهر ، ولا أناجي إلا إياه وإن كثرت الظواهر ، وتعدد تجلياتك في الشهود ، وبحرمة ظهورك للبصائر ، واحتجابك عن المشاعر ، ننقل ما سطره الشيخ نظمًا :

ندعوك مضطرين بالصفات
بمظهر الأسماء بسر الذات
بسر سر الطمس بالعماء
بكنزك المخفي بالهباء
بأول البارز للوجود
من عالم الغيب إلى الشهود
بنقطة الدائرة المشيرة
لوحدة المظاهر الكثيرة

لا يستطيع أحد بعد هذه الأمثلة من الأوراد أن ينفي اعتقاد أشهر الطرق الصوفية المعاصرة في وحدة الوجود ، ونستكمل الدراسة بتوفيق اللّه تعالى لبيان اعتقاد المزيد من الطرق الصوفية .

● **سابع عشر : تائية إبراهيم الدسوقي :**

أشرنا في سلسلة كتبنا « الظاهر والباطن » إلى تائية الدسوقي وشطحاته فيها ، وسنكتفي هنا بالنقل عن الدكتور عامر النجار من كتابه « الطرق الصوفية في مصر » ، والذي يقرر فيه نفس ما وصلنا إليه ونثبته من خلال هذا الباب ، تراه يقول : والمتأمل في أشعار الدسوقي يجد أنه أحد الصوفية القائلين بالحقيقة المحمدية ، ونلمس ذلك في هذه التائية الطويلة التي يتضح من خلالها نظرية الحقيقة المحمدية بكل أبعادها عند الدسوقي ، وأكثر من ذلك يتضح لنا كيف وصل في شطحه إلى أن يقول :

أتدري من أنا قلت أنت يا
مناي أنا إذ كنت حقيقتي
فقال كذلك الأمر لكننا إذا
تغيبت الأشياء كنت كنسختي

ونلمس وحدة الشهود حين يقول :

وما شاهدت عيني سوى عين ذاتها
لأن سواها لا يلم بفكرتي
بذاتي تقوم الذات في كل ذرة
جدد فيها حلة بعد حلة
أنا موجد الأشياء من غير حاجة
بكرة كون الكون من غير آلتي

ويقول أيضًا :

أنا الواحد الفرد الكبير بذاته
أنا الواصف الموصوف بذاته

ويستطرد الدكتور النجار حديثه بقوله : لعلي كنت على حق حين اتفقت مع (مارجليث) - اسم أحد المستشرقين في التصوف الإسلامي - في أن الدسوقي ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه الحلاج في شطحه ، وعلى الرغم من وجود شبهة القول بالحلول في قصيدة الدسوقي ، إلا أنه نفى الحلول بعد ذلك حين قال :

فأوصلت ذاتي باتحادي بذاته
بغير حلول بل بتحقيق نسبتي

ولعل تائية الدسوقي تصور لنا بوضوح الجانب النظري من تصوف الدسوقي وهو يقوم أساسًا على نظرية تنقل النور المحمدي أو الحقيقة المحمدية ،

فالنبي محمد هو في رأي الدسوقي قبضة من نور اللّه قال لها : كوني محمدًا ، فصارت محمدًا ، ومعنى هذا أن محمدًا ليس بشرًا ، ولكنه جزء من ذات الجزء أو قل من ذات اللّه تعالى ، كان قبل خلق آدم يحيا كملك في عالم الملكوت ، فلما خلق اللّه آدم من تراب حلت فيه تلك الحقيقة المحمدية ، ثم انتقلت إلى ابنه شيث ، ثم إلى إدريس ، وهكذا ظلت تلك الحقيقة المحمدية تنتقل من نبي إلى نبي حتى ظهرت في خاتم النبيين محمد العربي ، فلما مات عليه السلام انتقلت تلك الحقيقة أو ذلك النور المحمدي إلى علي ، ثم إلى ابنه الحسن .

وهكذا ظلت تنتقل من قطب إلى قطب حتى ظهر إبراهيم الدسوقي ، فحل فيه ذلك النور ، أو تلك الحقيقة المحمدية ، كما حلت في النبيين من قبل ، ولكنها قد أخذت اسمًا جديدًا في الذين حلت وتحل فيهم بعد النبي محمد ، ويسمى الذي تحل فيه قطبًا ، ومن قبل كان يسمى نبيًّا ورسولاً ، ومن هنا نلاحظ أن القطب عند الدسوقي قديم أزلي من حيث الحقيقة الروحية ، وإن كان حادثًا من حيث التشخيص الجسماني ، وهذا هو عين ما ذهب إليه الفاطميون من القول بالمثل والممثول ، فالمثل هو الدسوقي وأحزابه من الأقطاب ، والممثول هو الحقيقة المحمدية الأولية الأبدية القائمة في عالم الملكوت ، ثم إن هذه النظرية القطبانية لا تختلف في شيء عما قررته الفلسفة الأفلاطونية من أن لكل موجود في هذا العالم مثلاً يطابقه في عالم المثل ، أو قل : عالم الملكوت ، فالدسوقي إذن لم يك أحد أولئك المتصوفين الذين بنوا تعاليمهم على الإلهام وحده ، وإنما أفاد في تصوفه إلى حد كبير على النظريات الفلسفية التي مصدرها العقل والتفكير .

والذي يهدم فكرة هؤلاء عن الحقيقة المحمدية دليل نسوقه من جنس أقوالهم ، فتراهم يقولون : إن من حلت فيه الحقيقة المحمدية بعد النبي صلى اللّه عليه وسلم يسمى قطبًا ، ومن حلت فيه قبل النبي صلى اللّه عليه وسلم يسمى نبيًّا ورسولاً .

فالحجة هنا أن الحقيقة المحمدية كانت في ظهر عبد اللّه والد النبي صلى اللّه عليه وسلم ومن قبله في ظهر عبد المطلب جد النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فهل زعم أحد أنهم كانوا أنبياء ومرسلين ؟

نكتفي بهذا القدر ، ونستعرض في المقالة التالية طريقتين من أهم الطرق الصوفية المنتشرة انتشارًا كبيرًا في مصر وإفريقيا وهما الطريقة التيجانية والرفاعية .

فإلى الملتقى - إن كان في العمر بقية .

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين .

* * *

الصوفية المعاصرة ووحدة الوجود

الحمد لله الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على معلم الأمم النبي الأمي ، وعلى آله وصحبه وسلم . أما بعد :

فما زال حديثنا عن أوراد الطرق الصوفية ، والذي نتحدث فيه عن الطريقة التجانية ، ثم الرفاعية ، وقبل أن نشرع في الحديث نجدد دعوتنا لكل من يريدنا أن نبحث له عن مواضع الانحراف في أوراد طريقته ، فليتفضل مشكورًا بإرسالها إلى مجلة التوحيد ، حتى نضمها إلى دراستنا التي تناولت كل ما وقع في أيدينا من أوراد الطرق الصوفية ، ولم أعثر على ورد من أوراد الصوفية إلا وهو واقع في متاهة وحدة الوجود ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، والآن إلى الطريقة الثامنة عشر وهي :

● **الطريقة التجانية :**

شيخ الطريقة هو : أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد التجاني ، ولد عام ١١٥٠ من الهجرة ، حفظ القرآن ورحل في طلب العلم إلى بلاد عديدة ، وتلقى عن العديد من مشايخ الصوفية ، وانتهت رحلاته إلى أبي صيفون ، وهناك زعم أنه جاءه الفتح ، وأنه لقي النبي صلى اللّه عليه وسلم يقظة لا منامًا ، وأخذ عنه الطريقة مشافهة ، وزعم التجاني بعد شهرته أنه شريف ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ، ولم يعول في إثبات ذلك على وثائق مكتوبة ، ولا أخبار الأعيان والآحاد ، بل زعم أنه رأى النبي صلى اللّه عليه وسلم يقظة وسأله عن نسبه ، فأجابه بقوله : أنت ولدي حقًا ، وكررها ثلاثًا ، ثم قال : نسبك إلى الحسن صحيح .

وكتب مريده علي حرازم بن العربي براد من فيض شيخه التجاني كتاب ((جواهر المعاني وبلوغ الأماني)) يقرر فيها إيمانه بعقيدة وحدة الوجود في العديد من النصوص ، نختار منها : (الأصل في كل ذرة في الكون هي مرتبة للحق سبحانه وتعالى يتجلى فيها بما شاء من أفعاله وأحكامه ، والخلق كلهم مظاهر أحكامه وكمالات ألوهيته ، فلا ترى ذرة في الكون خارجة عن هذا الأمر ، فما ثم إلا كمالات ألوهيته ، وهو أن جميع المخلوقات مراتب للحق يجب التسليم له في حكمه ، وفي كل ما أقام فيه خلقه لا يعارض في شيء ، ثم حكم الشرع من وراء هذا يتصرف فيه ظاهرًا لا باطنًا ، ولا يكون هذا إلا لمن عرف وحدة الوجود ، فيشاهد فيها الفصل والوصل ، إن الوجود عين واحدة لا تجزؤ فيها على كثرة أجناسها وأنواعها ، ووحدتها لا تخرجها عن افتراق أشخاصها بالأحكام والخواص ، وهي المعبر عنها عند العارفين بأن الكثرة عين الوحدة ، والوحدة عين الكثرة ، فمن نظر إلى كثرة الوجود وافتراق أجزائه نظره عينًا واحدة على كثرته ، ومن نظر إلى عين الوحدة نظرة متكثرًا بما لا غاية له من الكثرة ، وهذا النظر للعارف فقط لا غيره من أصحاب الحجاب ، وهذا لمن عاين الوحدة ذوقًا لا رسمًا) .

بقلم أ / محمود المراكبي

● على كل من يريد أن نبحث له عن مواضع الانحراف في أوراد طريقته ، فليتفضل بارسالها إلى مجلة التوحيد .

● لم أعثر على ورد من أوراد الصوفية إلا وهو واقع في متاهة وحدة الوجود .

ويكرر التجاني كلام ابن عربي مُطَمْئِنًا الكفار والمشركين على سلامة موقفهم فيقول : (فكل عابد أو ساجد لغير اللّه في الظاهر فما عبد ولا سجد إلا للّه تعالى ؛ لأنه المتجلي في تلك الألباس ، وتلك المعبودات كلها تسجد للّه تعالى ، وتعبده وتسبحه وخائفة من سطوة جلاله سبحانه وتعالى ، ولو أنها برزت لعبادة الخلق ، وبرزت لها بدون تجليه فيها لتحطمت في أسرع من طرفة العين لغيرته تعالى لنسبة الألوهية إلى غيره ، قال سبحانه وتعالى لكليمه موسى : ﴿ إنني أنا اللّه لا إله إلا أنا فاعبدني ﴾ [طه : ١٤] ، والإله في اللغة هو المعبود بحق ، وقوله : ﴿ لا إله إلا أنا ﴾ يعني ؛ لا معبود غيري ، وإن عبد الأوثان من عبدها فما عبد غيري ، ولا توجه بالخضوع والتذلل لغيري) .

وقد جاء في أحزاب وأوراد الطريقة التجانية (ص٣٠) الصلاة الغيبية في الحقيقة الأحمدية ونصها :

● اللهم صل وسلم على عين ذاتك العلية بأنواع كمالاتك البهية ، في حضرة ذاتك الأبدية ، على عبدك القائم بك منك لك إليك .

كما تتضمن أوراد الطريق (ص١٤) صلاة تسمى (جوهرة الكمال) تقول :

● اللهم صل وسلم على عين الرحمة الربانية والياقوتة المتحققة الحائطة - أي ؛ المحيطة - بمركز الفهوم والمعاني ، ونور الأكوان المتكونة الآدمي صاحب الحق الرباني ، البرق الأسطع بمزون الأرياح المائلة لكل متعرض من البحور والأواني ، ونورك اللامع الذي ملأت به كونك الحائط بأمكنة المكاني ، اللهم صل وسلم على عين الحق التي تتجلى منها عروش الحقائق ، عين المعارف الأقوم صراطك التام الأسقم ، اللهم صل وسلم على طلعة الحق بالحق ، الكنز الأعظم ، إفاضتك منك إليك إحاطة النور المطلسم ، صلى اللّه عليه وعلى آله ، صلاة تعرفنا بها إياه .

وتنص ياقوتة الحقائق بالتعريف بحقيقة سيد الخلائق (ص٣٣) على ما يلي :

● اللهم .. العالي في عظمة انفراد حضرة أحديتك ، التي شئت فيها بوجود شئونك وأنشأت من نورك الكمال نشأة الحق ، وأنطقتها وجعلتها صورة كاملة تامة تجد منها بسبب وجودها ، وجعلت منها فيها بسببها انبساط العلم ، وتشعشعت الصور البارزة بإقبال الوجود ، وقدرت لها وفيها ومنها ما يماثلها ، مما يطابق أرقام صورها ، وحكمت عليها بالبروز لتأدية ما قدرته عليها ، وجعلتها منقوشة في لوحها المحفوظ ، وجعلت لكل الكل في كلك ، وجعلت الكل قبضة من نور عظمتك ، روحًا لما أنت أهل له ، ولما هو أهل لك ، أن تصلي وتسلم على ترجمان لسان القدم ، اللوح المحفوظ ، النور الساري الممدود ، الذي لا يدركه دارك ، ولا يلحقه لاحق ، الصراط المستقيم ، ناصر الحق بالحق .

● **فتاوى شرعية عن أوراد التجانية** : وجه بعض المسلمين العديد من الاستفسارات عن أوراد التجانية إلى

اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء ، واللّه تبارك وتعالى يجزيهم خير الجزاء ، حيث شكلوا لجنة من العلماء الأفاضل ، لدراسة أوراد هذه الطريقة ، وبحث أفكارها وقياسها بميزان الكتاب والسنة ، ثم أصدرت اللجنة العديد من الفتاوى بناء على هذه الدراسة المتأنية ، وإليكم نصوص هذه الفتاوى :

● الفتوى رقم (٢١٣٩) :

السؤال : هل يجوز قراءة ورد التجانية والتعبد به أم لا ؟

الجواب : بعد حمد اللّه ، والصلاة على نبيه صلى اللّه عليه وسلم ، الطريقة التجانية طريقة منكرة لا تتفق مع هدي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وسنته ، بل فيها بدع شركية تُخرج من يعتقدها أو يعمل بها من ملة الإسلام والعياذ باللّه ، وأورادها فيها بدع ، فلا يجوز التعبد بها ؛ لأن الأذكار من العبادات ، والعبادات توقيفية يُرجع فيها إلى كتاب اللّه وإلى ما ثبت عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كتلاوة القرآن الكريم ، وما حث عليه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من الذكر والدعاء في دواوين السنة ، والكتب التي استخلصت منها ، مثل : ((رياض الصالحين)) للنووي ، و((الكلم الطيب)) لابن تيمية ، و((الوابل الصيب)) لابن القيم ، و((الأذكار)) للنووي ، وغيرها من كتب الحديث المعتمدة .

● الفتوى رقم (٥٢٩٢) :

السؤال : عن قصيدة يتوسل فيها مريدي التجاني بشيخهم ، وفي القصيدة أبيات منها :

يا أحمد التجاني يا غيث القلوب
أما ترى ما نحن فيه من كروب

الجواب : أحمد التجاني وأتباعه الملتزمون لطريقته من أشد الخلق غلوًا وكفرًا وضلالاً وابتداعًا في الدين ، لما لم يشرعه اللّه سبحانه ولا رسوله صلى اللّه عليه وسلم .

● الفتوى رقم (٥٥٥٣) :

السؤال : هي ما عقيدتكم في الطريقة التجانية ورؤية المصطفى صلى اللّه عليه وسلم يقظة ؟

الجواب : الفرقة التجانية من أشد الفرق كفرًا وضلالاً وابتداعًا في الدين لما لم يشرعه اللّه ، وقد تصدى مجموعة من العلماء لأوراد هذه الطريقة بالدراسة والتحليل ، وخلصت اللجنة إلى النتائج التالية ، ننقلها عنهم حرفيًا :

١- غلو أحمد بن محمد التجاني مؤسس الطريقة ، وغلو أتباعه فيه غلوًا جاوز الحد حتى أضفى على نفسه خصائص الرسالة ، بل صفات الربوبية والإلهية ، وتبعه في ذلك مريدوه .

٢- إيمانه بالفناء ووحدة الوجود ، وزعمه ذلك لنفسه ، بل زعم أنه في الذروة العليا من ذلك ، وصَدَّقَه فيه مريدوه ، فآمنوا به واعتقدوه .

٣- زعمه رؤية النبي صلى اللّه عليه وسلم يقظة ، وتلقين النبي صلى اللّه عليه وسلم إياه الطريقة التجانية ، وتلقيه وردها والإذن له يقظة في تربية الخلق ، وتلقينهم هذا الورد ، واعتقاد مريديه وأتباعه ذلك .

٤- تصريحه بأن المدد يُفيض من اللّه على النبي صلى اللّه عليه وسلم أولاً ، ثم يفيض منه على الأنبياء ، ثم يفيض من الأنبياء عليه - أي التجاني - ثم منه يتفرق على جميع الخلق من آدم إلى النفخ في الصور ، ويزعم أنه يفيض أحيانًا من النبي صلى اللّه عليه وسلم عليه مباشرة ، ثم يفيض منه على سائر الخليقة ، ويؤمن مريدوه بذلك ويعتقدونه .

٥- تهجمه على اللّه ، وعلى كل ولي للّه ، وسوء أدبه معهم ، إذ يقول : قدماي على رقبة كل ولي ، فلما قيل له : إن عبد القادر الجيلاني قال فيما زعموا : قدمي على رقبة كل ولي قال : صدق ، ولكن في عصره ، أما أنا فقدماي على رقبة كل ولي من آدم إلى النفخ في الصور ، فلما قيل له : أليس اللّه قادرًا على أن يُوجد بعدك وليًا فوق ذلك ؟ قال : بلى ، ولكن لا يفعل !! كما أنه قادر على أن يوجد نبيًا بعد محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ولكنه لا يفعل ، ومريدوه يؤمنون بذلك ويدافعون عنه .

٦- دعواه كذبًا أنه يعلم الغيب ، وما تخفي الصدور ، وأنه يُصرف القلوب ، وتصديق مريديه ذلك وعده من محامده وكراماته .

٧- إلحاده في آيات اللّه وتحريفها عن مواضعها ، بما يزعمه تفسيرًا إشاريًا ، كما سبق في الأعداد من تفسيره قوله تعالى : ﴿ مرج البحرين يلتقيان ۞ بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ [الرحمن : ١٨، ١٩] ، ويعتقد مريدوه أن ذلك من الفيض الإلهي .

٨- تفضيله الصلاة على النبي صلى اللّه عليه وسلم

على تلاوة القرآن بالنسبة لمن يزعم أنهم أهل المرتبة الرابعة ، وهي المرتبة الدنيا في نظره .

٩- زعمه هو وأتباعه أن مناديًا ينادي يوم القيامة والناس في الموقف بأعلى صوته : يا أهل الموقف ، هذا إمامكم الذي كان منه مددكم في الدنيا .

١٠- زعمه أنه كل من كان تجانيًا يدخل الجنة دون حساب ولا عذاب ، مهما فعل من الذنوب .

١١- زعمه أن من كان على طريقته وتركها إلى غيرها من الطرق الصوفية تسوء حاله ، ويخشى عليه سوء العاقبة والموت على الكفر .

١٢- زعمه أنه يجب على المريد أن يكون بين يدي شيخه كالميت بين يدي الغاسل ، لا اختيار له ، بل يستسلم لشيخه ، فلا يقول : لم ، ولا كيف ، ولا علام ، ولا لأي شيء .. إلخ .

١٣- زعمه أنه أوتي اسم اللّه الأعظم ، علّمَه إياه النبي صلى اللّه عليه وسلم ، ثم هول أمره وقدر ثوابه بالآلاف المؤلفة من الحسنات ، خرصًا وتخمينًا ورجمًا بالغيب ، واقتحامًا لأمر لا يُعلم إلا بالتوقيف .

١٤- زعمه أن الأنبياء والمرسلين والأولياء لا يمكثون في قبورهم بأجسادهم ، إلا زمنًا محدودًا يتفاوت بتفاوت مراتبهم ودرجاتهم ثم يخرجون من قبورهم بأجسادهم كما كانوا من قبل ، إلا أن الناس لا يرونهم ، كما لا يرون الملائكة مع أنهم أحياء .

١٥- زعمه أن النبي صلى اللّه عليه وسلم يحضر بجسده مجالس أذكارهم وأورادهم ، وكذا الخلفاء الراشدون .. إلخ ، إلى غير ذلك مما لو عرض على أصول الإسلام اعتبر شركًا وإلحادًا في الدين ، وتطاولاً على اللّه ورسوله وتشريعه ، وتضليلاً للناس ، وتبجحًا منهم بعلمه الغيب .. إلخ .

هذا ما تيسر ، واللّه الموفق ، وصلى اللّه على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

توقيع الشيخ / عبد اللّه بن عبد الرحمن بن غديان . والشيخ / عبد الرزاق عفيفي . وسماحة الشيخ / عبد العزيز بن باز (الرئيس العام للجنة) . انتهى .

كما لا يفوتنا الإشارة إلى المجهود الطيب الذي بذله الأستاذ علي بن محمد الدخيل في دراسته العميقة للطريقة التجانية ، والتي ضمنها تأليفه الجيد لكتاب التجانية دراسة لأهم عقائد التجانية على ضوء الكتاب والسنة ، والذي ننصح الصوفية على اختلاف طرقهم بقراءته ، وجزاه اللّه خير الجزاء .

إن السؤال المنطقي الذي يطرح نفسه الآن هو : هل انحرفت الطريقة التجانية بقدر أكبر من غيرها من الطرق ؟ أم أن هناك اشتراكًا بينها وبين الصوفية عمومًا ، بحيث يمكن تطبيق فتوى علماء الإفتاء على كل الطرق ؟ وهذا سؤال خطير ، وإجابته تحتاج إلى لجان تتسلم أوراد الطرق الصوفية كاملة ، ثم تزنها بميزان الشرع ، وتحدد قدر الخلل فيها ، وهل هو خلل في أمور فرعية ، أم أن الأمر أشمل من ذلك ، وقدر الضرر الذي يلحق بعقيدة هؤلاء الأتباع ومقدار بعدهم عن حظيرة الإسلام ، إذا كانت وحدة الوجود هي أخطر انحرافات التجانية .

وقد أفتى علماء الرئاسة العامة للإفتاء بانحراف هذه المعتقدات ، وأنها أفكار كفرية بدعية ، ومعتقدوها على خطر عظيم ، وأن معظم ما تيسر لنا تحليله ودراسته من أوراد الطرق الصوفية المنتشرة في مصر ، قد أشربت عقيدة وحدة الوجود ، بل إن هناك أوراد تتحدث دون أي غموض وبشكل مباشر عن هذه الأفكار ، بل إن من الطرق الصوفية من أطلق على طريقته الحقيقة المحمدية .

وإذا كنا قد سعدنا بدور الأزهر الشريف في التصدي للطريقة البرهانية الدسوقية والشاذلية ، ولشيخها محمد عبده البرهاني ، وتوفيق اللّه تعالى لصاحب الفضيلة شيخ الأزهر السابق جاد الحق علي جاد الحق ، رحمه اللّه ، حتى منع هذه الطريقة من جمهورية مصر العربية ، قلعة الإسلام وحصنه الآمن ، إلا أننا ونحن نعلم أن الطريقة البرهانية فرع من الطرق الدسوقية التي ينادي شيخها بنفس أفكار التجاني ، وبالاتحاد والوحدة وأفكار الفاطميين وغيرهم ، فلم نغلق الفرع ولا نواجه الأصل ، لذا فإنا نسأل اللّه تبارك وتعالى أن يعين شيخ الجامع الأزهر الحالي فضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوي على التصدي للأصل ، وفي نفس الوقت يأمر بدراسة أوراد الطرق الصوفية ، ووقف أي طريقة تشيع بين الناس المفاهيم الفلسفية ، وتحجب الناس عن العقيدة الإسلامية السمحة ، والمحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك . وإلى اللقاء في الحلقة القادمة إن شاء اللّه ، حيث نتحدث عن الطريقة الرفاعية .

عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة

بقلم أ :
محمود المراكبي

الصوفية المعاصرة ووحدة الوجود

الحمد لله الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على معلم الأمم النبي الأمي ، وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد :

فما زال حديثنا عن أوراد الطرق الصوفية ، والذي نتحدث فيه عن الطريقة الرفاعية :

● **تاسع عشر : الطريقة الرفاعية :**

ولد أحمد الرفاعي بقرية حسن من أعمال واسط بالعراق المعروفة بأم عبيدة سنة ٥١٣ هـ ، وتوفي ودفن بها سنة ٥٧٨ هـ ، وقد عاش الرجل محاطًا بأفكار وحدة الوجود ، فكتب يحذر أتباعه منها في كتابه ((البرهان المؤيد)) ، حيث يقول في (ص٥٤) : (تقولون : قال الحارث ، قال أبو يزيد ، قال الحلاج ، ما هذا الحال ؟ قبل هذه الكلمات قولوا : قال الشافعي ، قال مالك ، قال أحمد ، قال نعمان ، صححوا المعاملات البينية ، وبعدها تفكهوا بالمقولات الزائدة ، قال الحارث وأبو يزيد : لا ينقص ولا يزيد ، وقال الشافعي ومالك : أنجح الطرق وأقرب المسالك ، شيدوا دعائم الشريعة بالعلم والعمل ، وبعدها ارفعوا الهمة للغوامض) .

ثم يقول في (ص٢٨) : (ينقلون عن الحلاج أنه قال : أنا الحق ، أخطأ بوهمه ، إذ لو كان على الحق ما قال : أنا الحق ، ويذكرون له شعرًا يوهم بالوحدة ، كل ذلك ومثله باطل ، ما أراه رجلاً واصلاً أبدًا ، ما أراه شرب ، ما أراه حضر ، ما أراه سمع إلا رنة أو طنينًا ، فأخذه الوهم من حال إلى حال ، من ازداد قربًا ولم يزدد خوفًا فهو ممكور ، إياكم والقول بهذه الأقاويل ، إن هي إلا أباطيل ، درج السلف على الحدود بلا تجاوز ، باللّه عليكم هل يتجاوز الحد إلا الجاهل ، هل يدوس عنوة في الجب إلا الأعمى ، ما هذا التطاول ، وذلك المتطاول ساقط) .

كما يتبرأ الرفاعي في (ص٥٥) من أقوال الفناء والوحدة ومزاعم الفلاسفة ، فيقول : (صموا أسماعكم عن علم الوحدة ، علم الفلسفة وما شاكلها ، فإن هذه العلوم مزالق الأقدام إلى النار ، حمانا اللّه وإياكم) .

ولا شك أن من يقرأ أقوال الرجل يعتقد أنه قد حدد موقفه بوضوح ، ولكن الغريب حقًا هو موقف أتباعه ، ترى أيسيرون على نهج الشيخ ويعملون بنصيحته ؟ أم يجرفهم تيار الانحراف عن التوحيد

والانخراط في وحدة الوجود ؟ وهذا ما نتبينه من قراءة أوراد الطريقة ، والذي ينسبونه إلى الشيخ الرفاعي في ((مجموع الأوراد الكبير)) (ص٢٠) ، والتي جاء فيها :

اللهم صلِّ وسلم وبارك على نورك الأسبق وصراطك المحقق ، من أبرزته رحمة شاملة لوجودك ، وأكرمته بشهودك ، واصطفيته لنبوتك ورسالتك ، وأرسلته بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إليك بإذنك وسراجًا منيرًا ، نقطة مركز باء الدائرة الأولية ، وسر أسرار الألف القطبية الذي فتقت به رتق الوجود ، فهو سرك القديم الساري وماهية جوهر الجوهرية الجاري ، الذي أحييت به الموجودات من معدن وحيوان ونبات ، فهو قلب القلوب ، وروح الأرواح ، وعلم الكلمات الطيبات ، القلم الأعلى ، والعرش المحيط ، روح جسد الكونين ، وبرزخ البحرين ، وثاني اثنين .

● **احتفال الرفاعية بيوم عاشوراء :**

كان يوم عاشوراء يوم يصومه العرب في الجاهلية ، واليهود في المدينة ، ولما دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، وقبل أن يفرض صوم رمضان تطوع النبي صلى الله عليه وسلم بصومه ، وأمر به ووعد لئن أحياه الله تعالى إلى العام القادم ليصومن التاسع والعاشر من المحرم مخالفة لليهود ، ولما فرض الله تعالى صوم رمضان ، استمر من الصحابة من يصوم هذا اليوم وتوقف من توقف ، حيث تحول الاهتمام من عاشوراء إلى شهر رمضان المبارك ، ولهذا لم يرد أن النبي صلى الله عليه وسلم صام يومي التاسع والعاشر رغم أنه عاش في المدينة بضع سنوات بعد ذلك .

إلا أن هذا اليوم اكتسب أهمية خاصة لما قتل فيه ريحانة النبي صلى الله عليه وسلم سيدنا الحسين ، رضي الله عنه ، ولا يخفى ما تفعله الشيعة من مسيرات ، وكيف يعاقبون أنفسهم ويضربون أجسادهم بالجنازير حتى تسيل دماؤهم ، ومن الغريب أن نجد الطريقة الرفاعية تأمر المريدين بخلوة خاصة يسمونها خلوة السبعة المحرم : (على كل الإخوان في الطريق الرفاعي ، وكل من أخذ العهد أن يقوم بخلوة سبعة أيام ، ابتداء من اليوم التالي من عاشوراء ، وهي حتمًا لازمًا ، باتفاق جميع المراجع مع كل من أخذ الطريقة الرفاعية والتمس - أي انتسب - لأهلها من المريدين والإخوان ، وشروطها صيام السبعة أيام المذكورة ، وأن يكون الصائم على وضوء دائم ، ولا ينام في تلك الأيام السبعة مع عياله بفراش قطعًا - أي يعتزل النساء - ولا يأكل من ذي روح وأن يحفظ لسانه من التكلم بكلام الدنيا ، وأن يربط قلبه في الله بسائر أوقاته وخلواته مع استحضار همة المرشد .

وقد قال الإمام الرفاعي : إن خلوة السبعة سبب الفيض للسالك والمريد الصادق في كل سنة من جهة السلسلة الرفاعية ، ومن لم يستطع أن يقوم بالخلوة على وجه الكمال ، فلا أقل من أن يقوم بسائر شروطها ويستعيض عن البعد عن الناس بحفظ لسانه وقلبه ، ولعل هناك اشتراكًا في خلوة السبعة أيام (المحرم) عند الرفاعية وعند الشيعة ، فإذا كانت الخلوة المحرمية تعني أن على الرفاعي أن يعتكف سبعة أيام أولها الحادي عشر من شهر المحرم ، فإن الحادي عشر من محرم الحرام هو اليوم التالي لقتل الشهيد الإمام الحسين ، رضي الله عنه) .

ويعلق الدكتور الشيبي بقوله : (فهذه الأيام السبعة التي يقضيها المريد الرفاعي تعني إظهار الحزن الشديد على الحسين ، كما يفعل الشيعة على صورة فيها مبالغة في

الحزن ، ولكن تقادم العهد أنسى أصحاب الطريقة وغيرهم دلالات مراسمها ، فلم يلتفتوا إلى الممرات السرية التي تصلهم بالتشيع) .

والغريب حقيقة أنك إذا سمعت الرفاعي يحذر أتباعه من الزيغ والغلو ، ويدعوهم إلى التمسك بالكتاب والسنة ، تظن أن الرجل يسير على جادة الطريق ، ثم تراه من جانب آخر يأمر أتباعه بالخلوات ، واعتزال النساء فيها ، وأكل الطعام القليل، ويشترط عليهم أن لا يكون ذا روح ، ثم تفاجأ بخلوة السبعة المحرم ، وبالتالي ينقل الرجل إلى أوساط أهل السنة خلوات الشيعة وأحزان يوم عاشوراء، وسواء صحت نسبة هذه الأمور إلى الرفاعي نفسه أو أن أحدًا من أتباعه ابتكرها من بعده ونسبها لشيخه ، ففي النهاية يتلقى أتباع الطريقة هذه المفاهيم التي ينقلها إليهم مشايخهم ويلصقونها بالرفاعي .

وصدق النبي الكريم صلى اللّه عليه وسلم ، حيث يصف أئمة الفتن : أن المرء يعرف منهم وينكر ! وصدق اللّه العظيم حيث يقول : ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ [البقرة : ٤٢] .

● **ملخص دراسة الطرق الصوفية ووحدة الوجود :**

١- يعتقد بعض الناس أن عقيدة وحدة الوجود قد دفنت في مقابر الأفكار ، وأن الباحثين عنها هم المغرمون بالآثار ، أو الباحثون عن الفتنة أو الشهرة والحظوة بين الناس ، وللأسف الشديد ، كان هذا رأي عضو المجلس الصوفي الأعلى ، وأحد الموصوفين بإصلاح التصوف ، وهو الشيخ محمد زكي إبراهيم ، رائد العشيرة المحمدية .

٢- تُوَصلنا دراسة حوالي عشرين طريقة من طرق التصوف المعاصرة إلى نتيجة ثابتة لا لبس فيها ؛ وهي أن أفكار وحدة الوجود وفلسفة الوحدة هي محور جميع أوراد هذه الطرق ، ومن العجيب أن يكون الشيخ محمد زكي إبراهيم عضو المجلس الصوفي ، ولا يطبق لائحة المجلس ، والتي لا تسمح بإنشاء طريقة صوفية تؤمن بعقيدة وحدة الوجود ، وفي نفس الوقت ينفي عن التصوف المعاصر الوقوع في الحفريات الفكرية التي اندثرت وماتت بموت قائليها .

٣- تتفاوت درجة الوضوح في أسلوب صياغة الأوراد بين الوضوح الشديد في طرق مثل طريقة الحقيقة المحمدية ، أو الطريقة الفاسية ، والشاذلية ، والقادرية ، والشاذلية بأفرعها المختلفة ، بينما تتسم الطريقة التجانية بالتبجح الشديد ، والأفكار الشاذة والمنحرفة ، مثل مدد التجاني الذي يمد جميع الأولياء من الأزل إلى الأبد .

٤- قيام شيخ الأزهر السابق ، رحمه اللّه ، بدور مشكور في وجه البرهانية ، ونتمنى أن يوفق اللّه تبارك وتعالى شيخ الأزهر الحالي فضيلة الدكتور طنطاوي لاستكمال ما بدأه سلفه ، واللّه ولي التوفيق .

٥- وقيام العلماء في الرئاسة العامة للإفتاء بالمملكة العربية السعودية بدورهم المشكور في بيان حقيقة أوراد التجانية ، وإصدار الفتاوى الشرعية التي تحذر الناس من خطورة هذه الأوراد .

٦- أن الصوفية هي الفرقة التي أطرت النبي صلى اللّه عليه وسلم كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، عليه السلام .

هذا ، وباللّه تعالى التوفيق ، وصلّ اللهم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

الحقيقة المحمدية عند السلف الصالح

بقلم أ / محمود المراكبي

الحمد لله الملك الحق ، الذي يحق الحق بكلماته ، وأمرنا بقوله : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ [الإسراء : ٨١] ، نستعين به سبحانه ، ونصلي ونسلم على من تنزل الهدي الحق على قلبه ليكون للعالمين نذيرًا ، فجاء بالصدق وصدق به ، من تمسك به فقد هدي إلى الصراط المستقيم ، وبعد :

فنشرع بتوفيق الله تعالى في بيان مكانة النبي صلى الله عليه وسلم في العقيدة ووسطية الإسلام ، فنتحدث أولاً عن طبيعة النبي صلى الله عليه وسلم وبشريته ، وأستسمح القارئ عذرًا إذ أستعمل التعبير الصوفي : (الحقيقة المحمدية) - إن جاز لنا أن نستخدمه ، ثم نشرح فهم السلف عنه - فالصحابة رضوان الله عليهم لم ينشغلوا طرفة عين بحقيقة محمد صلى الله عليه وسلم بمفهومها الفلسفي الباطني ، وقد كفتهم الآيات القرآنية المحكمة مئونة البحث الفلسفي ، فالله تبارك وتعالى يوحي لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه بحقيقته البشرية ، فيقول له : ﴿ قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يُوحى إليَّ ﴾ [الكهف : ١١٠] .

فالحقيقة المحمدية إذن ذات شقين ؛ فهو بشر مثل كل البشر ، والشق الثاني : هو مجال الاختصاص والتميز في قوله تعالى : ﴿ يُوحى إليَّ ﴾ ، ولا ينبغي أن نغفل عن هذه الحقيقة الواحدة ذات الشقين ، فالتقصير والتفريط يظهران لمن ينظر فقط إلى قوله : ﴿ بشرٌ مثلكم ﴾ ، وبدافع التمسك بالبشرية فقط أغفل بعضهم ما يلزم من أدب النظر إلى شق الاختصاص بالوحي ، بينما الغلو والإطراء يظهران لمن ينظر إلى شق : ﴿ يُوحى إليَّ ﴾ ، وبدافع الحب يضيف الباطنيون مفاهيمهم المنحرفة ، ومن يستعرض القرآن الكريم يجد مجموعة من الآيات تلقي الضوء على كل جانب وتعطيه حقه .

● **ثانيا : مهمة الرسول البلاغ :**

يخصص القرآن مهمة الرسول البلاغ عن ربه ، يقول سبحانه : ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾ [المائدة : ٩٩] ، ويقول جل من قائل : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ [النور : ٥٤] ، لذلك كان الجانب الثاني : ﴿ يُوحى إليَّ ﴾ ، برغم أن الآية القرآنية ذكرت : ﴿ بشرٌ مثلكم ﴾ أولاً ، ثم : ﴿ يُوحى إليَّ ﴾ ، إلا أننا سنبدأ ببيان حقائق قوله تعالى :

﴿ يوحى إليَّ ﴾ ، لسبب واحد ؛ لأنه هدفنا من البحث ، وهو الذي إذا أوضحناه نفينا الغلو عن النبي صلى الله عليه وسلم ، كما أننا حين نحدد مهمة النبي صلى الله عليه وسلم وحدودها ستظهر وسطية الفهم عن خاتم الأنبياء وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، فنقول وبالله تعالى التوفيق : يحدد القرآن الكريم مهمة الرسول في إبلاغ رسالة ربه إلى قومه ، دون أي تدخل أو تصرف من عنده ، والبلاغ عن الله عز وجل ، أشرف تكليف لخلق من خلق الله تعالى ، لذا حث الله سبحانه كافة الناس على طاعة رسله صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين ، ولذلك أنبأ كل نبي قومه بقوله : ﴿ إني لكم رسول أمين ۝ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ [الشعراء : ١٠٧، ١٠٨] ، فحقيقة طاعتهم طاعة لله الذي أرسلهم ، قال تعالى : ﴿ من يُطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظًا ﴾ [النساء : ٨٠] ، وقد قرر القرآن الكريم حقائق غاية في الأهمية ، فليس للرسول أن يتحمل نتائج إقبال قومه أو إدبارهم ، فليس هذا من شأنه ، هو مبلغ فقط : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ [الإسراء : ١٣] ، كما تنفي الآية مسئولية النبي صلى الله عليه وسلم عن حفظ قومه أو حفظ إيمانهم ، أو مراعاة قلوب أتباعه وخواطرهم حسب المفهوم الصوفي ، فذلك هو الغلو الذي يأباه الإسلام ، وقد فصلت الآيات الكريمات هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حُمل وعليكم ما حُملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ [النور : ٥٤] ، فطاعة الرسول هي السبيل إلى الهداية إلى ما يرضي الله عز وجل ، فيستحيل في العقل أن يعرف العبد ربه ومراد إلهه من نفسه ، بل لا بد للإله أن يُعرف الناس كيف يسلكون إليه ويهتدون إلى صراطه المستقيم .

كما جاء التحذير من مخالفة أمر الله ورسوله ، قال سبحانه : ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغُ المبينُ ﴾ [المائدة : ٩٢] ، ويتكرر الإنباء بمهمة الرسول في قوله : ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ [التغابن : ١٢] ، ثم ينفي القرآن الكريم أي صفة من صفات الألوهية عن رسله ، ويؤكد على بشريتهم وإنهم ليسوا بجبارين ، وليس لهم سيطرة على أتباعهم ، وفي نفس الوقت ليسوا بوكلاء على المؤمنين ، فيقول سبحانه : ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ [الغاشية : ٢٢] ، وقوله سبحانه : ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظًا وما أنت عليهم بوكيل ﴾ [الأنعام : ١٠٧] ، وكذا قوله تعالى : ﴿ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ [ق : ٤٥] ، حتى إذا أذن النبي صلى الله عليه وسلم لبعض المنافقين ، جاء عتاب الله رقيقًا لطيفًا ، قال تعالى : ﴿ عفا الله عنك لم أذنتَ لهم ﴾ [التوبة : ٤٣] ، ولما اجتهد في إبلاغ سادة قريش وتأخر لحظة عن ابن أم مكتوم جاء الوحي معاتبًا ، قال جل شأنه: ﴿ عبس وتولى ۝ أن جاءه الأعمى ۝ وما يدريك لعله يزكى ﴾ [عبس : ١ - ٣] . وقال تعالى : ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقوم يؤمنون ﴾ [الأعراف : ١٨٨] ، وكذا قوله جل وعلا : ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يُوحى إليَّ ﴾ [الأنعام : ٥٠] ، وتؤكد الآيات بشرية النبي صلى الله عليه وسلم بقوله عز من قائل : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ [الزمر : ٣٠] .

إن هذه الآيات تقيم الحجة على أصحاب الغلو ، كما يحذر الله تبارك وتعالى أصحاب التفريط بالآيات الدالة على خصوصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتميزه بالوحي الذي يستلزم آدابًا خاصة تفوق التعاملات العادية بين البشر ، مثل قوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ [الشورى : ٥٢] ، ويعرفنا الله عز وجل كيفية الأدب مع حبيبه ومصطفاه محمد بن عبد الله فيقول سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ۝ إن الذين يغضُّون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجرٌ عظيم ۝ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا

يعقلون﴾ [الحجرات : ٢- ٤] ، قال تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ [النجم : ٣] ، وينبغي أن نفهم قوله سبحانه : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ [الأنفال : ١٧] بنفس أسلوب الخليل إبراهيم ، عليه السلام ، حين أمره ربه أن يؤذن للحج ، قال ما معناه : ومن يسمعني ؟ قال الحق تبارك وتعالى : عليك الأذان ، وعلينا البلاغ ، ولم يقل أحد : إن الخليل ، عليه السلام ، قد تحول حين الأذان إلى صورة إلهية ، وإنما هي معجزة وخصوصية يختص الله بها من يشاء من عباده ، وهذا نفس ما وقع للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو رمى الحصى ، والقادر على إيصال كل حصاة إلى رجل من الكفار يلقى حتفه في المعركة هو الله وحده لا شريك له .

ويقرر الحق سبحانه أن من يبايع المبلّغ عن الله هو في الحقيقة مؤمن صادق مبايع لله تعالى : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ [الفتح : ١٠] ، ولا تقصد هذه الآيات من قريب أو بعيد ؛ أن محمدًا حين بايع وحين رمى لم يكن محمدًا في الباطن كما ظهر للناس ، بل كان في الحقيقة الله ، كما يزعم الصوفية أصحاب وحدة الوجود .

فالحقيقة الإيمانية الصحيحة أن يؤمن المسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يجري عليه ما يجري على البشر ، من الخليقة ، والتكوين في الرحم ، ثم الولادة ، والطفولة ، والصبا ، والشباب ، والرجولة ، إلى الوفاة ، والغسل ، والكفن ، والدفن .

ولكن هذه الطبيعة البشرية تميزت في رسول الله صلى الله عليه وسلم بمطالب الوحي ، والاستعداد لتلقيه ، فالنبي يمثل أشرف النوع البشري ، فهو صلوات ربي وسلامه عليه من أطيب الأنساب ، انتقل من أطهر الأصلاب إلى أنقى الأرحام ، لذلك أخبر عن نفسه صلى الله عليه وسلم : ((أنا سيد ولد آم ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع ، وأول مُشفع)) . وقال صلوات ربي وسلامه عليه : ((إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني)) . ثم إنه صلى الله عليه وسلم تلقى عن ربه أكمل الرسالات وختام النبوات ، فهو الرحمة العامة للعالمين ، والرأفة الكاملة بالمؤمنين ، وهو صاحب الحوض المورود والشفاعة الكاملة ، وصاحب الوسيلة والدرجة العالية الرفيعة ، وكمال الفهم هو النظر بالعينين إلى اجتماع الصفتين معًا في قوله تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يُوحى إليَّ أنما إلهُكُم إلهٌ واحدٌ ﴾ [الكهف : ١١٠] ، أما الغلو أو التقصير فهو نظير بعين واحدة إلى شق واحد فقط .

● **ثالثا الرد على فكرة قدم نور النبي صلى الله عليه وسلم :**

إن الشيعة ومن وراءها فرق الباطنية المختلفة ، ثم الصوفية بطرقها المتعددة قالوا مقولة النصارى في إطراء النبي صلى الله عليه وسلم ، فهم افتقروا إلى الدليل على صحة زعمهم ، فلم يرد في الكتاب ولا في السنة ما يؤيد رأيهم ، بل على العكس هناك أدلة ثابتة لا تحتمل أي تأويل تنفي أوهامهم وتنسفها من أساسها ؛ نسوق منها ما يلي :

١- اول خلق الله :

وردت أحاديث كثيرة تحدد مخلوقاتٍ لها سبق في الخلق ، ولكن من هو أول الخلق ؟ هل هو حقيقة محمد صلى الله عليه وسلم كما يزعم الصوفية ؟ والإجابة يرويها عبادة بن الصامت ، رضي الله عنه ، حيث يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((أول ما خلق الله تبارك وتعالى القلم ، ثم قال : اكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة)) .

كما وردت أحاديث صحيحة تنص على أول خلق الله عز وجل ، منها ما رواه البخاري وغيره ؛ عن عمران بن حصين ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إجابة على سؤال وفد بني تميم عن أول هذا الأمر كيف كان ، قال : ((كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء)) . وفي رواية أخرى : ((كان الله ولم يكن قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السماوات والأرض)) . فالعرش والماء خُلقوا قبل خلق السماوات والأرض ، وفي رواية أحمد بن حنبل : ((وكتب في اللوح ذكر كل شيء)) ، كما روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضي الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال : وعرشه على الماء)) . فترتيب الخلق إذن

هو : خلق الماء والعرش ، ثم القلم ، ثم اللوح ، وكل هؤلاء خُلقوا قبل السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وإذا كانت نظرية قِدَم نور النبي صلى اللّه عليه وسلم تفترض خلق كل شيء من نور محمد صلى اللّه عليه وسلم الذي هو من نور اللّه ، فحديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الذي يرويه أبو هريرة يقول فيه : قلت يا رسول اللّه : إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني ، فأنبأني عن كل شيء ، فقال : ((كل شيء خلق من ماء)) .

ولو كان كلام الصوفية ومزاعمهم صحيحة لقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : كل شيء خُلق من نوري ، فكيف يقبل هؤلاء أن يفتروا على اللّه ورسوله الكذب وهم يعلمون ، إذ لا يعقل أن مشايخ الصوفية لم يطلعوا على هذه الأحاديث .

٢- خلق آدم ، عليه السلام :

ليس من المعقول أن تخبرنا آيات القرآن الكريم في أكثر من عشرين موضعًا عن مراحل خلق آدم، عليه السلام ، من تراب ، ثم من طين لازب الذي تحول إلى صلصال كالفخار ، ثم حمأ مسنون ، ثم التسوية والخلقة ، ثم نفخ الروح ، ولا تأتي آية واحدة تشرح حقيقة النور الذي قبضه اللّه من ذاته وسماه محمدًا ، ثم تشعشع هذا النور واخترق جميع حجب عظمة اللّه ، حتى خلق منه كل شيء ، ولو أن الكون خلق من نور النبي صلى اللّه عليه وسلم - كما يزعمون - أما كان الأولى أن يقرر القرآن الكريم ذلك صراحة ، ولو في آية قرآنية واحدة !! أتختفي هذه الحقيقة المزعومة من القرآن !! وتؤكد بدلاً منها مراحل خلقة آدم ، عليه السلام ، من تراب ، أليس القائل بهذا الافتراء يقول على اللّه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

لو أن الكون مخلوق من نور النبي صلى اللّه عليه وسلم ويعرف ذلك كل المخلوقات ، فكيف لا يسجد إبليس لمن استودعه اللّه نور النبي صلى اللّه عليه وسلم ، ثم لِمَ اعتذر إبليس عن عدم سجوده لآدم أن طبيعته من نار وطبيعة آدم من تراب ، وقد كان يكفيه أن يقول : أولى بي أن أسجد لنور النبي وليس لطينة آدم !!

وقد فات الصوفية أن هناك نهي واضح في القرآن الكريم عن الخوض في مراحل خلق السماوات والأرض ، وذلك قول اللّه تبارك وتعالى : ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عَضُدًا ﴾ [الكهف : ٥١] ، والمعنى المفهوم من نص الآية ؛ أن اللّه تبارك وتعالى لم يُطلع أحدًا على مراحل الخلق ، ولم يطلب من أحد من خلقه أن يشرح للناس هذه المراحل ، فمن يحاول ذلك يقول على اللّه بغير علم ، وبالتالي فهو ضال مضل ، وما كان اللّه ليتخذ المضلين عضدًا ؛ أي عونًا لشرح ذلك الأمر ، لذلك تضاربت أقوالهم مع النصوص الصحيحة ، فهم يقولون : الخلق من نور محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ورسولنا صلى اللّه عليه وسلم يقول الخلق من ماء ، فمن أولى بالتصديق إن كنتم صادقين ؟!

٣- لا وجود للحقيقة المحمدية قبل بعثته صلى اللّه عليه وسلم :

عن خالد بن معدان أن نفرًا من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قالوا : يا رسول اللّه ، أخبرنا عن نفسك ، وقد روي نحوه عن أبي ذر وشداد بن أوس ، وأنس بن مالك ، رضي اللّه عنهم أجمعين ، فقال : ((أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشر بي عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء له قصور بصرى من أرض الشام)) .

إن إجابة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذن تنفي أن بدء أمره قبل خلق العرش - كما يزعمون - وقد وردت مجموعة من الآيات المحكمات تنفي سيطرة الرسول على الناس ، أو معرفته بالقرآن الكريم قبل بعثته ، يقول سبحانه : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورًا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] .

إن هذه الآيات المباركات تقطع دابر قول القائلين بقدم النور المحمدي ، كما أن معانيها لا تنقص من قدر رسولنا الكريم صلى اللّه عليه وسلم ، وإنما هي تشتمل على زيادة في شرفه العظيم صلى اللّه عليه وسلم ، واختصاصه بالوحي الذي علمه ما لم يكن يعلم ، كما أثبت ذلك قوله تعالى : ﴿ وأنزل اللّه عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل اللّه عليك عظيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] . وللحديث بقية إن شاء اللّه تعالى .

عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة

الحقيقة المحمدية عند السلف الصالح

بقلم أ / محمود المراكبي

الحمد للّه الملك الحق ، الذي يحق الحق بكلماته ، وأمرنا بقوله : ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا﴾ [الإسراء : ٨١] ، نستعين به سبحانه ، ونصلي ونسلم على من تنزل الهدى الحق على قلبه ليكون للعالمين نذيرًا ، فجاء بالصدق وصدق به ، من تمسك به فقد هدي إلى الصراط المستقيم ، وبعد :

● ***رابعًا : حقوق الأنبياء في الكتاب والسنة :***

نتابع في هذه الحلقة - بعون اللّه تعالى - الحديث عن حقوق الأنبياء على أتباعهم من هدي كتاب اللّه تعالى وسنة رسوله صلى اللّه عليه وسلم ، وما ينبغي أن يكون عليه اعتقاد المؤمنين المقتدين بالرسل والأنبياء ، وما هو حد التوسط في اعتقاد الناس عن الرسل المبلغين عن اللّه بين طرفي الإفراط والتفريط ، وأول هذه الحقوق هو :

١- التعزير والتوقير :

قال تعالى : ﴿ إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا ۞ لتؤمنوا باللّه ورسوله وتعزّروه وتوقّروه وتسبحوه بكرةً وأصيلاً ﴾ [الفتح : ٨، ٩] ، فالتعزير : النصر ، والتوقير : التأييد ، وهذا في حق الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، أما التسبيح بكرة وأصيلاً فهذا حق اللّه عز وجل ، قال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبيَّ الأميَّ الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، فالرسول ﷺ هو المبلغ لشرع ربه ، وبالتالي فإن طاعته طاعة لمن يبلغ عنه ، ويجب على من يؤمن به أن يعزره وينصره ويتبع النور الذي أُنزل معه .

٢- الطاعة التامة :

أرسل اللّه تبارك وتعالى رسله ليدلوا الناس على التوحيد ، وقد مكث رسول اللّه ﷺ أول ثلاث سنوات يدعو قومه إلى لا إله إلا اللّه ، حتى تمكن التوحيد من قلوبهم تتابع الوحي ، وفصلت الرسالة أحكام الدين وحث الناس على طاعة ربهم ، ومن هنا جاءت الآيات التي تحدد سبل الفوز

والنجاة ، قال تعالى : ﴿ ومن يُطع اللَّه ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧١] ، ففي طاعة اللَّه ورسوله تفتح أبواب الرحمات ، قال تعالى : ﴿ وأطيعوا اللَّه والرسول لعلَّكم تُرحمون ﴾ [آل عمران : ١٣٢] ، واللَّه تبارك وتعالى يبشر الطائعين بالجنة والرضوان في محكم التنزيل ، قال سبحانه : ﴿ ومن يطع اللَّه ورسوله يُدخله جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ومن يتولَّ يُعذبه عذابًا أليمًا ﴾ [الفتح : ١٧] ، أما الإعراض عن طاعة اللَّه ورسوله ﷺ ففيه إبطال للأعمال وتوقف عن السلوك إلى الواحد الديان ، قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا اللَّه وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ [محمد : ٣٣] ، وقد يصل الإعراض عن أمر اللَّه تعالى إلى حد الكفر إذا كان الأمر خاصًّا بالعقيدة أو الشرك ، قال تعالى : ﴿ قل أطيعوا اللَّه والرسول فإن تولوا فإن اللَّه لا يحبُّ الكافرين ﴾ [آل عمران : ٣٢] .

فالمسلم عليه طاعة اللَّه ورسوله حال سماعه لأحكام الكتاب والسنة ، ولا ينبغي له أن يزيغ أو يتهرب أو يحرف الكلم عن مواضعه ليحيد عن أمر اللَّه وأمر رسوله ، ويحذرنا الحق تبارك وتعالى من هذا التصرف بقوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا اللَّه ورسوله ولا تولَّوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ [الأنفال : ٢٠] ، كما أن للَّه طاعة ، فإن للرسول طاعة أيضًا ، قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا اللَّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيءٍ فردوه إلى اللَّه والرسول إن كنتم تؤمنون باللَّه واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً ﴾ [النساء : ٥٩] .

وقد نص القرآن الكريم على طاعة الرسول ﷺ طاعة منفردة ؛ لأنه مبلغ عن مولاه ، وذلك في مواضع عديدة ؛ منها قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسولٍ إلا ليُطاع بإذن اللَّه ﴾ [النساء : ٦٤] ، كما أشار القرآن إلى معصية الفاسقين للَّه ولرسوله ، قال تعالى : ﴿ ومن يعص اللَّه ورسوله ويتعدَّ حدوده يُدخله نارًا خالدًا فيها وله عذابٌ مهينٌ ﴾ [النساء : ١٤] .

٣- **اتباع النبي ﷺ :**

ليس هناك طريق أسرع ولا أسلم ولا أضمن في الوصول إلى اللَّه تعالى من اتباع النبي ﷺ والاقتداء به في صغائر الأمور قبل عظائمها ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون اللَّه فاتبعوني يحببكم اللَّه ويغفر لكم ذنوبكم واللَّه غفورٌ رحيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، كما عرفتنا السنة النبوية المطهرة أن كمال إيمان العبد رهن بأن يكون هواه تبعًا لما جاء به النبي ﷺ ، فهذا هو الحب الحقيقي ، حيث يتخذ المحب من محبوبه الأسوة والقدوة ، واتباعه هو شغله الشاغل ، والسير على دربه هو قمة الطاعة للَّه تعالى ، وهو الغاية العظمى من اتباع الأنبياء والمرسلين ، صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين .

وهناك فرق كبير بين التقليد والاتباع ، فالتقليد هو اتباع غير النبي ، والسير على أي طريقة من الطرق بلا بينة في دين اللَّه تعالى ، أما الاتباع فهو التلقي عن الوحي ، والاقتداء بما كان عليه النبي ﷺ ، وصدق اللَّه العظيم حيث يقول : ﴿ لقد كان لكم في رسول اللَّه أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو اللَّه واليوم الآخر وذكر اللَّه كثيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

٤- **التحاكم إلى الرسول والرضى بحكمه والتسليم له :**

أقسم اللَّه تبارك وتعالى بنفسه ، ونفى الإيمان عمن لا يرضى بتحكيم الرسول فيما شجر بين الناس ، قال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويُسلموا تسليمًا ﴾ [النساء : ٦٥] ، ولا شك أن التحاكم إلى رسول اللَّه ﷺ بصفته مبلغًا عن اللَّه عز وجل يمثل قمة إيمانية عالية ، لا يعلوها إلا الرضا بحكمه ، والتسليم لأمره ، سواء كان حكمه في صالح المرء أو عليه ، وكذا قوله : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى اللَّه ورسوله ليحكم بينهم أن

يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المُفلحون ﴾ ومن يُطع اللّه ورسوله ويخش اللّه ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ [النور : ٥١، ٥٢] ، فجعل سبحانه الطاعة له ولرسوله ، بينما الخشية والتقوى له وحده ، فالتحاكم إلى اللّه ورسوله حق من حقوق الأنبياء على أقوامهم .

٥- **الأدب مع النبي ﷺ :**

إن من الآداب القرآنية التي علمنا إياها رب العالمين : توقير النبي ﷺ ، وعدم ندائه باسمه ، كما ينادي الناس بعضهم بعضًا ، فلا يقولوا : يا محمد هكذا فقط ، بل يقولوا : يا نبي اللّه ، يا رسول اللّه ، قال تعالى : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا ﴾ [النور : ٦٣] ، ومن الأدب في حضرته ﷺ عدم رفع الصوت بين يديه ﷺ ، قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعضٍ أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ [الحجرات : ٢] .

٦- **الصلاة والسلام عليه :**

أمرنا اللّه عز وجل بأمر عظيم من أمور الدين ، وتنبيهًا لنا بقدر هذا التكليف ، بدأ به بنفسه تشريفًا لقدر نبيه وتعليمًا ، وثنى بالملائكة الكرام البررة ، فقال سبحانه : ﴿ إن اللّه وملائكته يُصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلّموا تسليمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] ، وقد وردت عشرات الأحاديث النبوية الشريفة التي تدعو المسلمين إلى كثرة الصلاة والتسليم على سيد الأولين والآخرين .

٧- **اقتران حبه ﷺ بحب اللّه تعالى :**

على المسلم أن يدرك رفعة النبي ﷺ ، وأنه رحمة للعالمين ؛ مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، وعلى المؤمن أن يقتدي به في أقواله وأفعاله ، وأن يجعله قدوته في كل شيء ، وأن يحب رسول اللّه ﷺ حبًا عظيمًا لا يزيد عليه إلا حبه للّه الواحد الأحد الذي خلقه وسواه وعدله وصوره في أحسن تقويم ، وكثيرًا ما يجمع القرآن الكريم بين حب اللّه وحب رسوله ﷺ ، ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من اللّه ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربصوا حتى يأتي اللّه بأمره واللّه لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [التوبة : ٢٤] .

إن قمة الأدب مع النبي ﷺ تتمثل في تقديم محبته على المال والأهل والولد ، وأيضًا على النفس ، فذلك تمام الإيمان به ﷺ ، كما ورد في الحديث : ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)) .

٨- **إرضاء اللّه ورسوله :**

وجه القرآن الكريم العبد المسلم إلى الحرص على رضى اللّه ورسوله ، وتقديم رضاهما على رضى الناس ، ولو كانوا أولي قربى ، فقال سبحانه : ﴿ واللّهُ ورسوله أحقُ أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ﴾ [التوبة : ٦٢] ، فعلى المؤمن أن يبحث مع كل موقف يقابله في حياته عن التصرف الصحيح الذي يرضي اللّه تبارك وتعالى ، ويتبع الرسول ﷺ في هذا التصرف ، ومن رزقه اللّه تبارك وتعالى هذه الخصلة فهو من أهل السعادة ، ومن وضع رضاء اللّه ورسوله نصب عينيه فليعلم أن أكثر الناس عن ربهم معرضون ، قال تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، ﴿ وما يؤمن أكثرهم باللّه إلاّ وهم مُشركون ﴾ [يوسف : ١٠٦] ، وأن غضب الناس عليه لن يحول دون تمسكه بهدفه ، فرضا الناس لا ينال بمعصية اللّه ، وكما قالت عائشة ، رضي اللّه عنها : إن رضا الناس غاية لا تدرك .

٩- **عدم تفضيل النبي ﷺ على غيره من الأنبياء :**

للّه تبارك وتعالى وحده أن يفضل بعض النبيين على بعض ، كما قال سبحانه : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعضٍ ﴾ [الإسراء : ٥٥] ، وقال عز من قائل : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعضٍ منهم من كلم اللّه ورفع

بعضهم درجاتٍ وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدوس ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، وليس للناس أن يفاضلوا بين الأنبياء من عند أنفسهم ، لذلك علَّم رسول اللَّه ﷺ أصحابه أن لا يفضلوه على أي نبي من الأنبياء ، فقد ورد في الحديث المتواتر أن النبي ﷺ قال : ((لا تفضلوني على يونس بن متى)) . وفي رواية أخرى : ((لا يقولن أحدكم : إني خير من يونس بن متى)) .

ولما خاطبه أحد الصحابة قائلاً : يا خير البرية ، قال : ((بل ذاك إبراهيم ، عليه السلام)) .

مما سبق نخلص إلى أن حق النبي ﷺ على قومه وأتباعه أن يعزروه ويوقروه وينصروه وينصروا دينه ، وأن يطيعوه ويقدموا طاعته ومحبته على كل شيء من مال وولد وأهل ونفس والناس أجمعين ، وأن يردوا كل ما يتنازعون فيه إلى رسول اللَّه ﷺ ، وأن يحكموه في كل الأمور ، وليس أمامهم إلا السمع والطاعة والرضا بقضائه ويسلموا تسليمًا .

خامسًا : حرص النبي ﷺ على التوحيد :

كان رسول اللَّه ﷺ يحقق عبوديته للَّه تعالى ، ويعلم أمته كيف تحقق ذلك ، وفي نفس الوقت يحذرها من الوقوع في الغلو الذي وقعت فيه النصارى ، حتى عبدوا عيسى ، عليه السلام ، وقد روى الإمام أحمد في ((مسنده)) عن طفيل بن سخبرة أخي عائشة ، رضي اللَّه عنها ، لأمها أنه رأى فيما يرى النائم كأنه مر برهط من اليهود ، فقال : من أنتم ؟ قالوا : نحن اليهود ، قال : إنكم أنتم القوم لولا أنكم تزعمون أن عزيرًا ابن اللَّه ، فقالت اليهود : وأنتم تقولون : ما شاء اللَّه وشاء محمد ، ثم مر برهط من النصارى ، فقال : من أنتم ؟ قالوا : نحن النصارى ، قال : إنكم أنتم القوم لولا أنكم تقولون : المسيح ابن اللَّه ، قالوا : وأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء اللَّه وشاء محمد ، فلما أصبح أخبر بها من أخبر ، ثم أتى النبي ﷺ ، فأخبره فقال : ((أخبرت أحدًا ؟)) قال : نعم ، فلما صلوا خطبهم - أي النبي ﷺ - فحمد اللَّه وأثنى عليه ، فقال : ((إن طفيلاً رأى رؤيا فأخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم تقولون كلمة كان يمنعني الحياء منكم - زاد البيهقي : فلا تقولوها - ولكن قولوا : ما شاء اللَّه وحده لا شريك له)) .

وقد روى حذيفة ، رضي اللَّه عنه ، نفس القصة مختصرة فقال : إن رجلاً من المسلمين رأى في النوم أنه لقي رجلاً من أهل الكتاب ، فقال : نِعْمَ القوم أنتم ، لولا أنكم تشركون ، تقولون : ما شاء اللَّه وشاء محمد ، وذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : ((أما واللَّه ، إن كنت لأعرفها لكم ، قولوا : ما شاء اللَّه ، ثم شاء محمد)) .

وروى ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ يكلمه في بعض الأمر ، فقال الرجل لرسول اللَّه ﷺ : ما شاء اللَّه وشئت ، فقال رسول اللَّه ﷺ : ((أجعلتني للَّه عدلاً ؟ بل ما شاء اللَّه وحده)) .

وعن حذيفة أن النبي ﷺ قال : ((لا تقولوا : ما شاء اللَّه وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء اللَّه ، ثم شاء فلان)) .

وروى البيهقي في ((سننه)) عن عدي بن حاتم قال : خطب رجل عند رسول اللَّه ﷺ قال : من يطع اللَّه ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى ، فقال رسول اللَّه ﷺ : ((بئس الخطيب أنت ، قل : ومن يعص اللَّه ورسوله فقد غوى)) .

وقال ﷺ : ((لا تتخذوا قبري عيدًا ، وصلوا عليَّ حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني)) .

وقال ﷺ : ((اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد ، اشتد غضب اللَّه على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) .

وقال ﷺ : ((إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك)) .

سادسًا : الوسطية في الإسلام :

أنزل اللَّه تبارك وتعالى آيات مباركات نتلوها في كل ركعة سائلين إياه قائلين : ﴿ اهدنا الصِّراط المستقيم ۞ صراط الذين

أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ [الفاتحة : ٦، ٧] ، فالصراط الحق يتوسط نهج القوم المغضوب عليهم ونهج القوم الضالين ، ولقد مثل رسول اللّه ﷺ الصراط المستقيم بالخط المستقيم ، ثم رسم عن يمينه خطوطًا وعن يساره خطوطًا ، وهو يتلو قول اللّه تبارك وتعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

ومن المعلوم أن كل خُلُق محمود هو في حقيقته توسط بين وصفين مذمومين أحدهما يتسم بالغلو والإفراط ، والآخر بالتفريط والتقصير ، فالشجاعة مثلاً خلق حسن محمود مبعثه قوة تنبعث لنصرة الحق ، وهي خلق إذا شابه الغلو والإفراط نتج عنه صفة التهور والحماقة ، وذلك وصف لمن بذل قوة بدون ضابط يحكمها لنصرة الباطل مثلاً أو التمادي في القوة بما يقارب البطش والجبروت ، والشجاعة إذا نسبناها للتفريط والتقصير كانت المحصلة صفة الجبن الذي نعرفه بأنه التأخر أو التوقف عن بذل القوة لنصرة الحق ، ولقد كان دأب اليهود التقصير والتفريط في جنب اللّه عز وجل ، فما من تكليف على لسان نبي اللّه موسى ، عليه السلام ، إلا وقابلوه بالجدال والمراء ، حتى إيمانهم وفهمهم عن اللّه تبارك وتعالى قاصر ، حتى قالوا : ﴿ يد اللّه مغلولةٌ ﴾ [المائدة : ٦٤] ، وقالوا كذلك : ﴿ إن اللّه فقيرٌ ونحن أغنياء ﴾ [آل عمران : ١٨١] ، وهذا رسول اللّه ﷺ يأتيه حبر من أحبار اليهود فيقول : يا محمد ، إنا نجد أن اللّه يجعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلائق على إصبع ، فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول ﷺ حتى بدت نواجذه ، ثم قرأ رسول اللّه ﷺ : ﴿ وما قَدَرُوا اللّه حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ﴾ [الزمر : ٦٧] ، كما أنهم لم يوفوا للّه بعهد ، من أجل ذلك غضب اللّه عليهم ولعنهم .

أما النصارى فقد دفعهم الإفراط في الحب والغلو في الإطراء إلى الضلال المبين ، حين زعموا أن عيسى ، عليه السلام ، إنما هو المظهر الأول والأقنوم الثاني ، وقبضة النور الأصلية التي خلق منها كل شيء ، ويرون أن يوم الدينونة هو المثول بين يدي الابن للحساب والجزاء ، لقد وصف اللّه تبارك وتعالى أمة الإسلام بأنها أمة وسط في قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، فالوسطية في الاعتقاد هي الاعتدال بين الغلو والتقصير مع نفي كل من الغلو والتقصير .

ورسول اللّه ﷺ يحذر أصحابه قائلاً : ((تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك)) ، كما حذرنا ﷺ من مغبة الغلو الذي يتمثل اليوم واضحًا في إطراء الصوفية للنبي ﷺ ، كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، وذلك بقوله ﷺ : ((لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبده ، فقولوا : عبد اللّه ورسوله)) .

فهذه الألفاظ خرجت من فم من أوتي جوامع الكلم ﷺ ومقصوده واضح جلي ، كأنه يقول لنا : إياكم أن ترفعوني فوق مقام العبودية والرسالة إلى مقام الألوهية كما فعلت النصارى ، ومعنى هذا التحذير أن فريقًا من المسلمين سيفعل ذلك ، ولا نعرف سوى الصوفية التي وقعت في ذلك ، ولا ينبغي أن نعد معهم الشيعة والباطنية ، حيث إن حقيقة مذهب هؤلاء هو الغلو في علي بن أبي طالب ، رضي اللّه عنه ، وكراهية باقي الصحابة ، حتى ألبسوه ثوب الألوهية ، وما إلى ذلك من الأفكار التي انحرفت بالشيعة والباطنية عن جادة الإسلام وطريقته المثلى .

وصلّ اللهم على عبد اللّه ورسوله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

مملكة الأقطاب

برغم أن جميع الأخبار التي تنسب إلى الصوفية بدأت منذ القرن الثالث بذكر الأبدال والنقباء وغيرها من الألقاب ليس من بينها القطب ، إلا أن اصطلاح القطب قد طغى على كل ما سبق وضعه ، واستأثر بالمكانة الأوسع انتشارًا بين الدراويش ، حتى أصبح القطب أشهر الكلمات استخدامًا بين الصوفية ، وأغلب الناس لا يعرفون معنى القطب ، ولا دوره الذي رسمه له المشايخ ، والملاحظ اليوم أنه لا يخلو كتاب من كتب الصوفية ولا ورد من أوراد طرقهم المختلفة ، ولا إجازة لشيخ من مشايخهم ، ولا قصيدة من قصائد التوسل عند الصوفية من إشارات واضحة الدلالة عن المقصود بـ ((القطب)) ، وكلما ارتقى المريد في سلوكه ، وطالت صحبته للمشايخ ، ورسخت أقدامه في الطريق ، كلما سمع المزيد عن القطب وأدرك شيئًا من المهام التي ينسبونها له ، ونظرًا للتدرج الذي يتبعه المشايخ في التصريح بهذه المعلومات ، لا يجد المريد غضاضة في قبول هذه المفاهيم جرعة بعد أخرى ، وبالتالي لا

لا يخلو كتاب من كتب الصوفية ولا ورد من أوراد طرقهم المختلفة ولا إجازة لشيخ من مشايخهم من إشارات واضحة الدلالة عن المقصود بالقطب !!

يفكر في إدراك مراميها أو يتوقف عن تلقيها بالقبول ، ولبيان الأمر نعرض ما سطره مشايخ الصوفية في كتبهم عن القطب ورتبة القطبانية .

أولاً : تعريف مقام القطبانية :

لا اختلاف بين الصوفية على تعريف القطب ، والمتأمل في تعريفات الصوفية عن قطبهم ، يجد التعريفات التالية :

✸ القاشاني في اصطلاحات الصوفية (ص١٤٥) يُعرف القطب قائلاً : (هو الواحد الذي هو موضع نظر اللّه تعالى من العالم في كل زمان ، وهو على قلب إسرافيل عليه السلام) .

✸ والشعراني في طبقاته (ص ١٤٥) يقول عن القطب : (وهو العَمَد المعنوي المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ اللّه الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ﴾ [الرعد : ٢]) .

✸ ويعرف الدكتور الحفني في (ص٢١٨) من معجم مصطلحات الصوفية القطب بقوله : عبارة عن رجل واحد هو موضع نظر اللّه تعالى من العالم في كل زمان ، ويسمى الغوث أيضاً باعتبار التجاء الملهوف إليه ، وهو خلق على قلب محمد ﷺ ، ويسمى أيضاً بقطب العالم ، وقطب الأقطاب ، والقطب الأكبر ، وقطب الإرشاد ، وقطب المدار .

✸ ولمحمد عازي تعريف آخر عن القطب في كتابه « النصوص في مصطلحات الصوفية » (ص٢١٧) يقول فيه : القطب هو الغوث ، وهو جامع الأسماء الحسنى ، لا تجد صفة من الصفات الحسنة إلا رأيتها فيه .

✸ ولعلي الخواص في « طبقات الشعراني » (٢-١٤١) تعريف للقطب يشرحه بقوله : الخلوة باللّه وحده لا تكون إلا للقطب الغوث في كل زمان ، فإذا فارق هيكله المنور بالانتقال إلى الدار الآخرة انفرد الحق بشخص آخر مكانه ، لا ينفرد بشخصين قط في زمان واحد .

ويستطرد - في جرأة غريبة - قائلاً : وهذه الخلوة وردت في الكتاب والسنة ، ولكن لا يشعر بها إلا أهل اللّه تعالى .

✸ ويعرف ابن عربي في « الفتوحات المكية » (٢-٥٧٣) القطب بقوله : هو المنعوت بجميع الأسماء تخلقاً وتحققاً ، وهو مرآة الحق ومجلى النعوت المقدسة ، ومجلى المظاهر الإلهية . وصاحب الوقت ، وعين الزمان ، وسر القدر ، وله علم دهر الدهور ، الغالب عليه الخفاء ، محفوظ في خزائن الغيرة ، ملتحف بأردية الصون ، لا تعتريه شبهة ، ولا يخطر له خاطر يناقض مقامه .

ونلاحظ اتفاق تعريفات الصوفية على معنى محدد في وصف « القطب » ، وهو أنه الموضع الوحيد لنظر الحق تبارك وتعالى من الكون ، وهذه معلومة مغايرة تماماً للمفاهيم الأساسية التي يقدمها الإسلام عن اللّه الواحد القهار ، أما أن تحصر الصوفية توجه صفات اللّه تعالى إلى شخص واحد من بين جميع الخلق ، فهذا هو الفكر الباطني بعينه ، والذي يتفق تماماً مع الفكر المسيحي والفلسفات القديمة .

ثانياً : علامات القطب وصفاته :

ينقل الشعراني في « اليواقيت والجواهر » (٢-٧٨) رأياً لأبي الحسن الشاذلي يشرح فيه عاملات القطب يقول فيه : إن للقطب خمس عشرة علامة ؛ أن يمد بمدد العصمة ، والرحمة ، والنيابة ، ومدد حملة

العرش العظيم ، ويكشف له حقيقة الذات ، وإحاطة الصفات ، ويكرم بكرامة الحلم والفضل بين الموجودين ، وانفصال الأول عن الأول وما انفصل عنه إلى منتهاه وما ثبت فيه ، وحكم ما قبل وما بعد ، وحكم من لا قبل له ولا بعد ، وعلم الإحاطة بكل علم ومعلوم ، وما بدا من السر الأول إلى منتهاه ثم يعود إليه .

ويصف القطب في (٢-٨٧) راغب النساء ، وريث الأنبياء ، مرآة الحق ، وصاحب علم سر القدر ، وعلم دهر الدهور ، غالب عليه الخفاء ، لا يعتريه شبهة في دينه ولا خاطر ، دائم العبودية والافتقار ، يُقبح القبيح ويحسن الحسن ، يحب الجمال المقيد في الزينة والأشخاص ، تأتيه الأرواح في أحسن الصور ، لا تظهر روحانيته إلا من خلف حجاب الشهادة والغيب ، لا يرى من الأشياء إلا محل نظر الحق ، وهو غير أصحاب الأحوال من الأولياء ؛ أي أصحاب التلوين الذين يتغيرون باستمرار لكثرة انتقالهم من حال إلى حال ، ومن مقام إلى مقام .

ثالثًا : شروط القطبانية :

يضع الصوفية لمن يحتل مقام القطبانية شروطًا منها :

١- أن يكون صاحبها ذا جسم طبيعي وروح وموجود في الدنيا بجسده .

٢- أن يكون واحدًا في زمانه ، فلا ينازعه في هذا المقام ولي آخر .

٣- أن يكون له نائبان هما الإمامان كل منهما يحكم نصف المعمورة . (وهذا شرط اختلف فيه الصوفية ، وهناك رأي أن أحد الأئمة يتصرف في المُلك ، والآخر في الملكوت) .

٤- أن يكون له في زمانه أربعة أوتاد ، واحد منهم يحفظ الإيمان ، والثاني يحفظ الولاية ، والثالث يحفظ النبوة ، والرابع يحفظ الرسالة .

كما يرى ابن عربي أيضًا أن القطب مقام بعد النبي ﷺ ؛ لأنه مُمثله في الزمان والمكان ، ولا يتمكن القطب أن يقوم في القطبانية إلا بعد أن يحصل معاني الحروف التي في أوائل السور مثل : (الم ، المص) ، وغير ذلك ، فإذا أوقفه اللّه تعالى على حقائقها ومعانيها تعينت له الخلافة وكان أهلاً لها .

ويشرح ابن قضيب البان موقف القطبية فيقول : أوقفني اللّه تعالى على بساط القطبية ، وقال لي : الإنسان الكامل قطب الشأن الإلهي ، وغوث الآن الزماني ، أول ما أُسلم له : التصريف في قطر نفسه حتى يبلغ الأشد ، ثم أسلم له وأوقف له أقطار الأقاليم ، ثم أسلم له الأرض ، ثم أُسلم له المُلك ، ثم أجمع له المُلك والملكوت ، وهذا هو الغائب الرحماني .

وقال لي تعالى : القطب يعرفه كل شيء حتى أهل الغيب ، وعالم المُحال ، وأهل الأرض البيضاء ، وتعرفه أيضًا العوالم ، وصور أولي العلم حتى يسلمها بطابع الرحمة ، ويرويها بالبصر .

وقال لي تعالى : القطب خزانة أرواح الأنبياء ، والكون كله صورة القطب ، وهو شمعة نُصبت لفراش المقربين ، وصلاح مشاهد العارفين ، وغذاء أفئدة الواصلين .

وقال لي تعالى : من نفس القطب صور برزخ الشئون والصفاتية ، وعقله إسرافيلية ، وفي نفسه عمود الشموس الروحية ، والذين يختارونه هم أهل زمانه .

وقال لي تعالى : القطب الفرد الواحد في كل زمان : الحقيقة المحمدية ، ولكل زمان قطب منها ، وهو خطيب سر الولاء : بلى ، وهو شمس

عروس ﴿ أشهدهم ﴾ ، وتلقي عشاق أشواق : ﴿ إن كنتم تحبون اللّه ﴾ [آل عمران : ٣١] ، وهذا وصف من ذاق لوحدة الشهود ، وعاين وشاهد ، بعد أن كابد وجاهد ، حتى وصل إلى أعلى مقام ، فرأى ما رأى وهو في المقامات الرفيعة ، وتجلى اللّه له مبسطًا بعض علمه وأسراره وفتوحاته عليه .

رابعًا : مبايعة القطب :

يصف الدكتور الشرقاوي في كتابه « الحكومة الباطنية » (ص٤٦) بيعة الأولياء للقطب فيقول : يبايع القطب بأمر إلهي على السمع والطاعة ، كل مأمور من أدنى إلا العالون ؛ أي العابدون للّه تعالى بالذات ، وكل من يدخل عليه يسأله سؤالاً فيجيب عليه ، ويرى الإمام الغزالي في كتابه « إحياء علوم الدين » أن العابدين للّه هم الأفراد ، وهم أولياء خارج نطاق الحكومة الباطنية ، ويمكن أن تكون مقاماتهم أعلى من مقامات الأقطاب ، ويبنى للقطب سرير في الحضرة المثالية ، يقعد عليه ، ويحيط بعلم كل شيء ، وللّه المثل الأعلى ، وبعد أن ينصب إليه السرير ، يخلع عليه جميع الأسماء التي يطلبها العالم ويظهر بها حللاً وزينة متوجًا بها .

كما يروي عن الشعراني أن الأقطاب كانوا يعملون في حرف شتى ؛ فتارة يكون أحدهم حدادًا ، وتارة تاجرًا ، وأحيانًا يبيع الفول ، ولا يجد الشعراني أي غضاضة في الزعم أن القطب قد يكون شحاذًا يتسول الناس ، فيروى عن الشيخ علي الجمل ، وكان قطبًا غوثًا ، أنه كان يسأل القرايط المال - أي يتسول - من حانوت إلى حانوت ، فالسؤال هو طريق لمخالفة النفس ، فلا يجد الولي الكامل حظًا لنفسه ، مهما أوتي من نعم ومنن ومقامات عالية .

خامسًا : مدة ولاية القطب :

تكثر الحكايات في كتب الصوفية عن مقامات القطبانية ، ومن تعين قطبًا ، وكم مدة ولايته لهذا المنصب الخطير ؟ وسواء يقرر القطب نفسه مدة ولايته أو ينقل عنه بواسطة أتباعه ومريديه ، أو يقرر ذلك أحد أبنائه ، ومن ذلك قول الشيخ إسماعيل عن مدة قطبانية أبيه محمد الحفني أنه أقام في درجة القطبانية ستة وأربعين سنة وثلاثة أشهر وأيامًا ، وهو القطب الغوث الفرد الجامع هذه المدة . [« الحكومة الباطنية » للشرقاوي (٤٧)] .

وكذلك يرى أئمة الصوفية أنه ليس للقطب في الزمان الواحد مدة محددة ، ولا يعزل حتى ينقضي أجله ، وقد يستمر سنوات ، أو سنة ، أو شهرًا ، أو يومًا ، أو ساعة ، وذلك حسب ما قدر اللّه له ، ومن الأقطاب من يمكث ثلاثة وثلاثين سنة ، ومنهم من يمكث ثلاث سنوات ، وتنسخ دعوة القطب بدعوة أخرى كما تنسخ الشرائع بالشرائع ، ولا يُورث القطب كما يورث الحكم الظاهر .

سادسًا : مكان القطب وإقامته :

يحدد ابن عربي مكان القطب بقوله : إن القطب لا يرى شيئًا إلا ويرى اللّه قبله ، وله في البلاد مكة ، وإذا سكن أي مكان آخر بجسمه ، فإن محله مكة وليس غيرها . [« الحكومة الباطنية » للشرقاوي (٥١)] .

وللحديث بقية إن شاء اللّه تعالى .

عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة

مقام الغوثية

بقلم عميد مهندس
محمود المراكبي

يفرق الصوفية بين مقام القطب ودرجة الغوث ، فهم يرون أن الغوثية أعلى من مرتبة القطبانية ، وأعلى مقامات الأولياء على الإطلاق مرتبة يسمونها مرتبة ((القطب الغوث الفرد الجامع)) ، وسنتعرف على الغوث من خلال تعريفات القوم .

أولاً : تعريف القطب الغوث :

يعرف القاشاني في مصطلحاته (١٦٧) مقام القطب الغوث بأنه : هو القطب حين يلتجأ إليه ، ولا يسمى في غير ذلك الوقت غوثًا ، بينما يعرف الصوفية القطب بأنه : هو جامع الأسماء الحسنى ، ولا تجد صفة من الصفات الحسنة إلا رأيتها فيه ، يأتي بالجديد الذي يناسب زمانه ، فلزمانه بُعث ، ولولاه ما ابتعث ، فهو غوث العباد ، وهو النجم الهادي ، وفي كتاب اللّه سورة باسمه ، وفي أولها : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ [النجم : ١] ، إشارة إلى المصدر الذي جاء منه القطب ، وقد هوى إلى الأرض ، ليجعل اللّه به أفئدة من الناس تهوي إليه . [((النصوص)) لمحمد غازي (٢٧١)] .

فالقطب بهذا المفهوم هو إله مع اللّه ، فعلمه يساوي علم اللّه ، ويقدر على ما يقدر عليه اللّه ، فكأنه إله معين لفترة زمانية معينة ، ثم يعين غيره وهكذا ، كما أنه يأتي بالجديد ، وسبق أن قلنا : إنه ينسخ ما قبله كما تنسخ شريعة النبي ما كان قبله من شرائع .

ثانيًا : خصائص القطب الغوث :

مما سبق نستطيع أن نستخلص أن للقطب الغوث عند الصوفية خصائص عديدة منها :

١- أنه يختلي وحده بالحق تعالى، ولا تكون لغيره من الأولياء هذه المزية، والمعروف أن القطب الغوث في المرتبة الرابعة، وهي مقام الصديقية الكبرى، أو القرابة العظمى.

٢- إذا مات القطب الغوث انفرد تعالى بتلك الخطوة أو الخلوة لقطب آخر، ولا ينفرد بالخلوة الله تعالى لشخصين في آن واحد أبدًا، وهذه الخلوة تعتبر من علوم الأسرار.

٣- يلزم أن يكون القطب واحد في إقامة الدين، وذلك لئلا يقع التنازع والفساد.

٤- قد يكون القطب قطبًا بالسيف، كأبي بكر، وعمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، وقد يكون الخليفة نائبًا للقطب، ويقصد بقطب السيف أنه المطبق للشريعة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥- قد تكون القطبانية لولاة الأمور كالخلفاء، ويصح أن تكون للأئمة المجتهدين الأربعة، أو لغيرهم، وفي هذه الحالة يكون انشغالهم بالعلم حجابًا؛ لأن شأنهم التخفي، والأئمة الأربعة هم: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وابن حنبل، رضي الله عنهم أجمعين.

٦- ينبه ابن عربي إلى أن طاعة الأقطاب واجبة، ويستشهد بالآية الكريمة: ﴿يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ [النساء: ٥٩]، ويقصد بهم الأقطاب والخلفاء والولاة، ولكن المباح فقط، قد لا يصرح الصوفية بعقيدتهم حول عصمة القطب بخلاف الباطنية الذين يرون الإمام معصوماً. [((الحكومة الباطنية)) د. حسن الشرقاوي (٤٧)].

ثالثًا: سلطات القطب الغوث:

يمثل القطب الغوث الحكومة الباطنية، ويعتبر الرئيس الأعلى لها، ويعتقد أئمة الصوفية أن القطب له مطلق السلطات على أهل الباطن، وأمره وطاعته وحكمه نافذ، ورؤيته صادقة، وقوله غير مردود؛ لأن علمه لا يصدر إلا عن الله تعالى، وهو يتصل بأعضاء حكومته إلهامًا، أو عن طريق الرؤيا أو بطريق التوجه.

ديوان التصريف والحكومة الباطنية:

أولاً: نشأة الديوان:

بعد أن حدد الباطنيون من الصوفية أفكارهم عن الأقطاب والأبدال والنقباء، وجدوا أنه ليس من المعقول أن يظل كل ولي من هؤلاء في معزل عن صاحبه، لا سيما وقد أشارت معارف الصوفية إلى تحركات وتنقلات للأبدال والأقطاب وغيرهم، فهداهم شيطان الشطح أن يخترعوا اجتماعات روحية وجسدية يومية لكل أصناف الأولياء وطبقاتهم، لذا راحوا يرتبون اللقاءات فيما بينهم، ولا يجتمع هؤلاء لأمر بسيط، وإنما ليتولوا تشكيل مجلس يدير الكون وينظر في أموره وأحواله نيابة عن الله عز وجل، وهو ما يُعرف بالديوان أو المملكة الباطنية، وهذا كلام غريب جدًا ذكرته كتب معدودة من كتب الصوفية، إلا أنها تعتبر في نظر المشايخ من كتب الفتوحات الربانية الكبرى، وقد سمعته من أحد خلفاء الشيخ الكبير، يقول: اللي عاوز يعرف الفتوحات والمذاقات العالية فليقرأ كتب الأكابر كالإبريز للدباغ، و((الطبقات الكبرى)) للشعراني.

وهذه العبارة ساق معناها عبد القادر عطا في تعليقه على كتاب ((علم القلوب)) لأبي طالب المكي (ص٥٤)، حيث قال: والصوفية يرون أن العلم المكتسب من الأوراق ليس بعلم، وإنما هو علم تقليد وذوق مستعار، والعلم كامن في كل روح إنسانية، وإنما يمنعه من الظهور حجب النفس، ومتى قام العبد على قدم التجرد لله باتباع شعائره، واجتناب مكارهه، وصدق توجهه إلى ربه، وصحت نيته، وولي وجهه بعزم وثبات نحو الطريق، انكشفت تلك الحجب، وبرز العلم الكامن بمقدار ما في المريد من عزم الجذب من عالم الفيض، وقد برز هذا العلم

على ألسنة بعض كبار الصوفية من الأميين الذين جهلوا القراءة والكتابة تمامًا من أمثال (سيده) عبد العزيز الدباغ صاحب الإبريز ، و(سيده) علي الخواص ، وقد نقل الشعراني أبحاثه في العلم .

ثانيًا : التعريف بالديوان :

ولما كان الدباغ أكثر من تحدث عن الديوان ، لذا سنعرض ما جاء في إبريزه بصورة مختصرة ، وعلى هيئة نقاط محددة ، وسنذكر أقوال الرجل أمام كل نقطة :

١- ما هو الديوان ؟ عبارة عن اجتماع يومي يتم بين الأولياء الأموات منهم والأحياء ، من مشارق الأرض ومغاربها .

ويروي الشعراني في ((طبقاته)) (٦٧/١) عن عبد اللّه التستري أنه قال : ما من ولي للّه صحت ولايته إلا ويحضر إلى مكة في كل ليلة جمعة لا يتأخر عن ذلك .

٢- مكان الديوان : غار حراء بمكة المكرمة .

٣- نشأة الديوان : كان الديوان معمورًا بالملائكة ، ولما بعث النبي صلى اللّه عليه وسلم جعل الديوان يعمر بأولياء هذه الأمة . فظهر أن أولئك الملائكة كانوا نائبين عن أولياء هذه الأمة المشرفة ، حيث رأينا الولي إذا خرج إلى الدنيا وفتح عليه وصار من أهل الديوان ، فإنه يجيء إلى موضع مخصوص فيجلس فيه ويصعد الملك الذي كان فيه ، فإذا ظهر ولي آخر جاء إلى موضع ويصعد الملك الذي في ذلك الموضع ، وهكذا كانت بداية عمارة الديوان حتى كمل ، وللّه الحمد ، وأما الملائكة الذين هم باقون فيه فهم ملائكة ذات النبي صلى اللّه عليه وسلم الذين كانوا حفاظًا لها في الدنيا ، ولما كان نور ذاته صلى اللّه عليه وسلم مفرقًا في أهل الديوان بقيت ملائكة الذات الشريفة مع ذلك النور الشريف .

ثالثًا : وصف الديوان :

يتكون الديوان من سبعة دوائر متحدة المركز ، ويطلق الدباغ في كتابه اسمًا لكل دائرة صفًا ، فأصغر الدوائر قطرًا تسمى الصف الأول ، ووصفها كالتالي : يجلس الغوث في صدر الصف الأول ، وأربعة أقطاب عن يمينه ، وهؤلاء الخمسة مالكية المذهب ، وعن يساره ثلاثة أقطاب واحد من كل مذهب من المذاهب الثلاثة ، والوكيل في مواجهة الغوث وهو مالكي أيضًا ، ولا يتكلم الغوث إلا مع الوكيل ، ولذا سمي وكيلاً ؛ لأنه ينوب في الكلام عن جميع من في الديوان ، والتصرف للأقطاب السبعة عن أمر الغوث ، وكل واحد من الأقطاب السبعة تحته عدد مخصوص يتصرفون تحته . (لاحظ تحيز الدباغ ، للمذهب المالكي فقد منحهم ست مقاعد في الصف الأول ، ولم يعط بقية المذاهب إلا مقعدًا واحدًا لكل منهم ، فالرجل مالكي المذهب) .

رابعًا : اجتماعات الديوان :

مازلنا ننقل لك أيها القارئ الكريم الحديث عن الدباغ من كتابه ((الإبريز)) ، ودورنا في هذا النقل هو التلخيص خشية الإطالة ، والتبويب لبيان فكرة الديوان وتكاملها في الفكر الصوفي ، وتغطي كافة التفاصيل ، فالاجتماعات لها موعد ولغة وجدول أعمال ، ومعروف من يدعون إليها ، كما أن الاجتماعات السنوية تشبه اجتماعات الجمعية العمومية في وقتنا الحالي .

١- ميعاد الاجتماع : يوميًا في الثلث الأخير من الليل ، وهي ساعة استجابة الدعاء ، وساعة ميلاد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

٢- لغة الاجتماع : السريانية ، لاختصارها وجمعها المعاني الكثيرة ؛ ولأن الديوان يحضره الأرواح والملائكة ، والسريانية هي لغتهم ، ولا يتكلمون بالعربية إلا إذا حضر النبي صلى اللّه عليه وسلم أدبًا معه .

٣- الغرض من الاجتماع : إذا اجتمعوا اتفقوا على ما يكون من ذلك الوقت إلى مثله من الغد ، فهم يتكلمون في قضاء اللّه تعالى في

اليوم المستقبل ، والليلة التي تليه ، ولهم التصرف في العوالم كلها السفلية والعلوية ، وحتى في الحجب السبعين ، وحتى وما هو فوق الحجب السبعين ، فهم يتصرفون فيه ، وفي أهله ، وفي خواطرهم ، وما تهجس به ضمائرهم ، فلا يهجس في خاطر واحد منهم شيء إلا بإذن أهل التصرف ، وإذا كان هذا في عالم ما فوق الحجب السبعين التي فوق العرش ، فما ظنك بغيره من العوالم .

٤- كيف يجتمعون ؟ ينزل الأموات من البرزخ ويطيرون طيرًا بطيران الروح ، فإن قربوا موضع الديوان بنحو مسافة نزلوا إلى الأرض ومشوا على أرجلهم ، إلى أن يصيروا إلى الديوان ، والميت يحضر بذات روحه ، لا بذاته الفانية الترابية .

٥- الاجتماع السنوي : يحضره الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، مثل إبراهيم وموسى وغيرهما من الرسل .

٦- ميعاد الاجتماع السنوي : في ليلة القدر ، ويحضره الملأ الأعلى من الملائكة المقربين وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأكابر صحابته ، رضوان الله عليهم .

٧- من يحضر الديوان ؟ يفصل الدباغ أمور الديوان ، وننقل عنه ما يتعلق بالحضور ، ومتى يحضر النبي صلى الله عليه وسلم اجتماعات الديوان ؟ وما حال الحضور حينئذ ؟ ومن يخلف القطب إذا اعتذر عن الاجتماع وشغله أمر أهم من تدبير شئون الكون ؟ وما إلى ذلك من أمور ، فنراه يقول :

- الحاضرون هم : الأولياء والأموات والملائكة ، وهم من وراء الصفوف ، والجن الكمل ، وهم الروحانيون ، وهم من وراء الجميع ، وهم يبلغون صفًا كاملاً ، وليس كل من يحضر الديوان من الأولياء يقدر على النظر في اللوح المحفوظ .

كيف نميز الأحياء من الأموات ؟

يمكن تمييز الحاضرين الأحياء من الأموات بثلاثة أمور هي :

- أن زي الأموات لا يتبدل ، وهيئته ثابتة ، بينما الأحياء ثيابهم تتغير وهيئاتهم كذلك ، فمرة ترى الواحد منهم حليق الشعر ، ومرة بدون شارب وهكذا .

- أن ذات الميت لا ظل لها ، فإذا وقف الميت بينك وبين الشمس لا ترى له ظلاً .

- الأموات لا تقع معهم مشاورة في أمور الأحياء ؛ لأنهم لا تصرف لهم فيها ، وقد انتقلوا إلى عالم آخر في غاية المباينة لعالم الأحياء ، وإنما تقع معهم المشاورة في أمور عالم الأموات .

هل يحضر النبي صلى الله عليه وسلم ؟

نعم ، وإذا حضر النبي صلى الله عليه وسلم إلى الديوان جلس في موضع الغوث ، وجلس الغوث في موضع الوكيل ، وتأخر الوكيل للصف ، وإذا جاء النبي صلى الله عليه وسلم جاءت معه الأنوار التي لا تطاق ، وإنما هي أنوار محرقة قاتلة لحينها ، وهي أنوار المهابة والجلال ، وكلامه صلى الله عليه وسلم مع الغوث ، فالأمر الذي ينزل من عند الله لا تطيقه ذات إلا ذات النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا خرج من عنده صلى الله عليه وسلم لا تطيقه ذات إلا ذات الغوث ، ومن ذات الغوث يتفرق على الأقطاب السبعة ، ومنهم يتفرق على أهل الديوان ، وإذا حضر النبي صلى الله عليه وسلم في الديوان وجاءت معه الأنوار التي لا تطاق ، بادرت الملائكة من أهل الديوان ، ودخلوا في نوره صلى الله عليه وسلم ، فما دام النبي صلى الله عليه وسلم في الديوان لا يظهر منهم ملك ، فإذا خرج من الديوان رجع الملائكة إلى مراكزهم .

نستكمل الحديث - إن شاء الله - في العدد القادم .

مقام الغوثية

بقلم عميد مهندس :
محمود المراكبي

الحمد للّه ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، وبعد :

في هذا العدد نواصل حديثنا عن عقائد الصوفية ، من خلال توضيحنا لمقام الغوثية ، فنقول - وباللّه تعالى التوفيق :

غياب الغوث وديكتاتورية الأغلبية :

قد يغيب الغوث عن الديوان فلا يحضره ، فيحصل بين أولياء اللّه تعالى ما يوجب اختلافهم ، فيقع فيهم التصرف الموجب لأن يقتل بعضهم بعضًا ، فإن كان غالبهم اختار أمرًا وخالف الأقل من ذلك ، فإن الأقل يحصل فيهم التصرف السابق فيموتون جميعًا . (لا نعرف مسمى لهذا النوع من الديكتاتورية أم تراها تهدف إلا أن تركب الأقلية الموجة خشية القتل ، وهذا النوع من البطش لا يليق بالحكومات الظالمة ، فكيف يقع من صفوة الأولياء رواد الديوان) .

سبب غياب الغوث :

إما لاستغراقه في مشاهدة الحق سبحانه ، وإما لكونه في بداية توليته بعد موت الغوث السابق ، لذا فإنه قد لا يحضر في بداية الأمر حتى تتأنس ذاته شيئًا فشيئًا .

حضور النبي ﷺ في غياب الغوث :

يحصل لأهل الديوان من الخوف والجزع ، من حيث يجهلون العاقبة من حضور النبي ﷺ ما يخرجهم عن حواسهم ، حتى إنه لو طال ذلك أيامًا كثيرة لانهدمت العوالم .

من يحضر سوى الأولياء :

لِمَ يحضر الجن والملائكة ؟ إن الأولياء يتصرفون في أمور تطيق ذواتهم الوصول إليها ، وفي أمور أخرى لا تطيق ذواتهم الوصول إليها ، فيستعينون بالملائكة والجن فيها .

هل يحضر نساء في الديوان ؟ نعم يحضره النساء وعددهن قليل ، وصفوفهن ثلاثة وذلك من جهة الأقطاب الثلاثة التي على اليسار خلف الصف الأول . (لاحظ النساء ممثلات في الديوان ويجلسن في ناحية الأحناف والشافعية والحنابلة ، وبالطبع بعيدات عن المالكية) .

سبب قيام الساعة :

لا دخل للمجاذيب في الديوان ، ولا بأيديهم تصرف ، وإذا بلغ إليهم التصرف هلك الناس ، فإذا كان كبير الديوان - أي الغوث - منهم ، وليس معه عقل تمييز فيقع الخلل في التصرف ، ويكون ذلك سببًا في خروج الدجال .

لا شك أن حجم الضلال والبهتان في موضوع الديوان والمملكة الباطنية أكبر مما يظن أتباع الصوفية ، وحين قَبِلَ المريدون من مشايخهم تقسيم الدين إلى ظاهر وباطن ، فإنهم لا يدركون أن هذا الباطن يلغي توحيد الربوبية وتوحيد

الألوهية ، ويشكك في أسماء وصفات مالك الملك عز وجل ، فالدنيا تسير بتصريف القطب وأتباعه ، والقيامة تقوم إذا تولى تصرف الكون مجذوب لا يدري من أمر نفسه شيئًا ، والمجذوب لا يأمنه عاقل على بضاعة يبيعها للناس ، فكيف يقبل الناس أن يتولى مجذوب تصريف شئون الكون فيقع الخلل ويخرج الدجال وتقوم الساعة ، سبحانك ربنا هذا بهتان عظيم ، وأعانهم عليه قوم آخرون ، ومن علامات الحق أنه واحد أبلج لا اختلاف فيه ، ومن علامات الباطل أنه لجلج وظلمات بعضها فوق بعض ، وأنه لا يتفق فيما بينه أبدًا ، وقد تحدث بعض الصوفية في كتبهم عن الديوان ؛ منهم الدباغ والخواص والشعراني ، ويقول التجاني : (رماح حزب الرحيم في نحور حزب الرجيم لعمر بن سعيد ٢: ٢١٤) أنه رأى في الديوان سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام يطلب الدعاء من سيده منصور ، وأمثلة هذا الهراء لا تنتهي ، فما أيسر ادعاء الناس بالباطل ودون دليل أو برهان ، فلا حاجز يمنع اللسان من أن يخوض ويصول ويجول ، فما أيسر أن يغلف الشيطان هذه الأقوال بثياب الفتوح والإلهام وتلبيس التوحيد لله عز وجل ، وحقيقة الأمر أنها غياهب الضلال وإلهامات الشياطين .

خامسًا الحكومة الباطنية :

لا شك أن ما قدمناه من بيان حول مقامات الصوفية ودرجاتهم ، والديوان واجتماعات الأقطاب والأبدال والأوتاد قد أعطى تصورًا واضحًا عن مدى الهلوسة في الفكر الصوفي وتأثره بالأفكار الباطنية ، فهذه الهيئة الصوفية الباطنية المختفية عن الأنظار تماثل تمامًا فكرة غياب المهدي في السرداب وتصريفه للأمور إلى أن يخرج للشيعة ، ويفعل الأفاعيل بأهل السنة ، إن مفاهيم الدباغ غاية في الخطورة ، فالرجل يزعم والصوفية من ورائه أن أهل الديوان يتصرفون في جميع العوالم ، ولا يقف افتراء الرجل عند هذا الحد ، بل يتجاوزه بجرأة ووقاحة بالغتين ، حين يزعم أنهم يتصرفون في الحجب السبعين التي فوق العرش وهو بهذا يخفي مراده ، فالرحمن على العرش استوى ، فلم يبق للدباغ إلا أن يقول : إن أهل الدايون يتصرفون في حجب عظمة الله عز وجل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، سبحانك ربنا وإليك المصير ، ويومئذ توفى كل نفس ما كسبت وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

ومن أغرب الكتب التي اطلعت عليها ، كتاب ألفه حسن محمد الشرقاوي الحاصل على الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية ، وقد سمى كتابه ((الحكومة الباطنية)) ، ويهديه (ص٥) إلى : (الخائفين ليثبتوا ، والمتشككين ليؤمنوا ، واليائسين ليتحرروا ، والتائبين ليطمئنوا ، وإلى المؤمنين ليزدادوا إيمانًا ، والصابرين ليشتدوا عزمًا ، والمخلصين ليروا ثمرة إخلاصهم ، والمجاهدين لينعموا ، والعارفين ليشهدوا ، إلى هؤلاء أهدي كتابي هذا ، عسى أن يتقبلني تقبلاً حسنًا ، ونعم بالله وكيلاً . المؤلف حسن الشرقاوي) .

ثم يدافع المؤلف (ص١٠) عن الصوفية ويخرجهم من دائرة الفرق الباطنية ، ويقول : ولا شك أن التصوف السني يأخذ من الكتاب والسنة طريقه ويهتم بآراء الصوفية الذين أخذوا مادتهم عن الرسول ﷺ وعن الصحابة والتابعين سلوكياتهم التي لم تخرج قيد أنملة عن تعاليم الإسلام (لاحظ جرأة الرجل) ، وربما يتبادر إلى ذهن المتأمل النظري ، والذي يهتم بالظاهر فحسب أنهم خرجوا بشكل أو بآخر عن التعاليم الإسلامية ، ذلك لأنه لم يستخدم تأويله الجانب العملي أو السلوكي أو الذوقي الذي يربط بين الظاهر والباطن ، وهذا ما جعل كثيرًا من الظاهرين ينكرون التصوف السني رغم أنه لم يخرج عن تعاليم الإسلام . اهـ .

ثم يبدأ الدكتور الشرقاوي كتابه فيشرح التنظيم الباطني للولاية الروحية ، ثم نظام الحكم في الحكومة الباطنية ، ثم يعرج على مفهوم القانون في الحكومة الباطنية ، ثم الولاية في الحكومة

الباطنية ، ثم يبدأ في الباب الخامس دراسة ميدانية للحكومة الباطنية ، توصله إلى مجموعة من النتائج أبرزها أن طنطا هي مركز للشعاع الروحي ، وأن البدوي هو قطب المنطقة ، وأن الدراسة الميدانية أثبتت عدم وجود ضرائح لأولياء بالمنطقة لا يخضعون للبدوي باعتباره قطب المنطقة ، والرجل يصل إلى نتائجه العجيبة ويعرضها بسذاجة شديدة كأنها مسلمات في دين الله تبارك وتعالى ، فتراه يقول (ص ٢٣٢) : أما قواعد الدولة الباطنية فثابتة لا تحتمل التناقض ، ولا يأتيها الفساد والتغير ؛ لأنها مستمدة من القرآن الكريم والسنة المحمدية ، فهي قواعد صالحة لكل زمان ومكان ، وأصحابها يستمدون وجودهم منها ، ومن ثم كانوا طبقة خاصة أرستقراطية ، ليس بينهم إلا مؤمن صالح ، ومريد صادق ، وسالك تائب ، وولي عارف .

وكم أحزنني جرأة الرجل على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، كيف يسوق خرافاته التي نقلها بالحرف من مؤلفات الشعراني والدباغ واليافعي ، وهم المعروفون بتبني البدع والخرافات ، وأصل من أصول الزيغ والشطط ، وكتبهم لا يقرؤها الناس إلا على سبيل التعرف على غرائب الأمور ، وسمات مراحل انحطاط المسلمين وانحدارهم تاريخيًا وفكريًا ، لذلك فقد أحصيت عدد الآيات القرآنية في كتاب « الحكومة الباطنية » فوجدتها لا تتجاوز أصابع اليدين ، منها آية في مقدمة الطبعة الثالثة : ﴿ شهد اللّه أنه لا إله إلا هو ﴾ [آل عمران : ١٨] ، وآية في (ص٤٨) ، ويكرر في (ص ٧٨) ، وهي قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ [النساء : ٥٩] ، ثم يتحف القارئ بشرح ابن عربي لها فيقول : ويقصد بهم الأقطاب والخلفاء ، وآيتان في (ص ٥٤) ، يستند بهما الصوفية على وجود القطب أو الخليفة بقوله تعالى في سورة « البقرة » : ﴿ إني جاعلٌ في الأرض خليفةً ﴾ [البقرة : ٣٠] ، وقوله تعالى : ﴿ إني جاعلك للناس إمامًا ﴾ [البقرة : ١٢٤] ، وآية في (ص٥٦) ، وينقل تفسير الشعراني عن قوله تعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض مهادًا ۞ والجبال أوتادًا ﴾ [عم : ٦، ٧] ، فيقول : هي تأييد لوجود الأوتاد ، كما فسرها ابن عربي ، وفي (ص ٩٣) يستند إلى قوله تعالى : ﴿ أرني أنظر إليك ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، وهكذا إلى نهاية الكتاب ، بينما لم تبلغ عدد الأحاديث النبوية التي أوردها في كتابه « أصابع اليد الواحدة » ؛ فيطالعنا في (ص٦٢) أول حديث ينسبه إلى النبي ﷺ عن النقباء ، ويقرر بنفسه أنه لم يجد الحديث إلا عند اليافعي والسيوطي ، ورواه المحب الطبري في « الرياض النضرة » ، وحديث : « الأرواح جنود مجندة » في (ص ٨٧) ، ثم في (ص ٧٩) ، يسوق حديث : « اختلاف أمتي رحمة » ، الذي أورده الملا علي القاري في « الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة » حديث (١٦٠) ، وقال : زعم كثير من الأئمة أنه لا أصل له ، وأورده الألباني في « الأحاديث الضعيفة » حديث رقم (٥٧/١) ، وقال : لا أصل له ، ونقل عن المناوي قوله : وليس بمعروف عند المحدثين ، ولم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع ، ومعنى الحديث مستنكر عند المحققين من العلماء ، فقال العلامة ابن حزم في « الأحكام في أصول الأحكام » (٦٤/٥) بعد أن أشار إلى أنه ليس بحديث : (وهذا من أفسد قول يكون ؛ لأنه لو كان الاختلاف رحمة لكان الاتفاق سخطًا ، وهذا ما لا يقوله مسلم) .

ولم يحاول الدكتور الشرقاوي أن يتبع أي منهج علمي يثبت به دعواه ومزاعمه أن الحكومة الباطنية مستمدة من الكتاب والسنة ، ولم يحدد لنا أي كتاب وأي سنة يتحدث عنها ، ويذكرنا موقف الرجل بشاهد لم ير شيئًا .

عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة

مراتب الأولياء

بقلم أ :

محمود المراكبي

سأل أحمد بن عياد أحد مشايخ الشاذلية في مقدمة كتابه ((المفاخر العلية في المآثر الشاذلية)) (ص١٦، ١٧) عن معنى القطب ؟ فقال له شيخه : الأقطاب كثيرة ، فإن كل مقدم قوم هو قطبهم ، وأما قطب الغوث الفرد الجامع فهو واحد ، وتفسير ذلك أن النقباء هم ثلاثمائة ، وهم الذين استخرجوا خبايا النفوس ، فهذه الثلاثمائة لهم إمام منهم يأخذون عنه ويقتدون به ، فهو قطبهم ، ثم النجباء أربعون ، وقيل : سبعون ، وأما الأبدال فهم سبعة رجال ، أهل كمال واستقامة واعتدال ، ومن خواص الأبدال : من سافر منهم من موضعه ، وترك جسدًا على صورته ، فذاك هو البدل لا غير ، والبدل على قلب إبراهيم عليه السلام ، وهؤلاء الأبدال لهم إمام مقدم عليهم ، يأخذون عنه ويقتدون به ، وهو قطبهم ؛ لأنه مقدمهم ، وقيل : الأبدال أربعون ، وسبعة هم الأخيار ، وكل منهم لهم إمام منهم هو قطبهم ، ثم الأوتاد ، وهم عبارة عن أربعة رجال ، منازلهم منازل الأربعة أركان من العالم شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالاً ، ولهم واحد منهم هو قطبهم ، وأما الإمامان فهما شخصان أحدهما عن يمين القطب ، والآخر عن شماله ، فالذي عن يمينه ينظر في الملكوت وهو أعلى من صاحبه ، والذي عن شماله ينظر إلى الملك ، وصاحب اليمين هو الذي يخلف القطب ، والغوث : عبارة عن رجل عظيم وسيد كريم تحتاج إليه الناس عند الاضطرار في تبيين ما خفي من العلوم المهمة والأسرار ، ويُطلب منه الدعاء ؛ لأنه مستجاب الدعاء ، لو أقسم على الله لأبر قسمه ، مثل أويس القرني في زمن رسول الله ﷺ ، ولم ينفرد أحمد بن عياد بهذه المفاهيم عن درجات الأولياء وأسمائهم وأوصافهم ، بل انتشرت هذه المفاهيم في أوساط الصوفية وحضراتهم وطرقهم المختلفة .

أولاً : أحاديث الأبدال :

اخترع الصوفية مراتب لأوليائهم ومشايخهم أكثرها شهرة الأقطاب والأبدال ، وقد ألف الشعراني كتابًا سماه ((الميزان الخضرية)) ، وللسيوطي رسالة سماها ((الخبر الدال على وجود الأقطاب والأوتاد والنجباء والأبدال)) ، أورد فيها مجموعة كبيرة من الأخبار والآثار الضعيفة ، حاول بها إثبات وجود الأبدال ، وبرغم تضارب هذه الأقوال واختلاف متونها اختلافًا كبيرًا ، إلا أنه

من الغريب حقًا أنها تخبر عن كل من الأبدال والنقباء والعمد ، دون أدنى ذكر للأقطاب ، ويبدو أن القطب درجة استحدثت فيما بعد ، وسنعرض هذه الروايات والحكم عليها ، حتى يُميز القارئ الكريم بين الطيب والخبيث مما اشتهر على ألسنة الصوفية من هذه الأحاديث ، ومن أراد تتبع رجال الإسناد فليرجع إلى كتابنا ((عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة)) ، ومما يلفت النظر أن معظم روايات الصوفية تتفق على أن للشام الحظ الأوفر من الأبدال ، عددهم في رواية ضعيفة : ((الأبدال بالشام وهم أربعون رجلاً)) ، وتارة : ((ستون)) ، وفي رواية أخرى ضعيفة أيضًا : ((الأبدال أربعون رجلاً وأربعون امرأة)) ، وفي رواية : ((الأبدال بالشام ثلاثون رجلاً على منهاج إبراهيم ، كلما مات رجلاً أبدل الله مكانه آخر ، وعشرون منهم على منهاج عيسى ابن مريم ، وعشرون منهم قد أوتوا من مزامير آل داود)) .

واليافعي يرى تقسيمًا آخر ، حيث يقول : ((الأوتاد واحد باليمن ، وواحد بالشام ، وواحد بالمشرق ، وواحد بالمغرب ، والله سبحانه يُدير القطب في الآفاق الأربعة من أركان الدنيا كدوران الفلك في أفق السماء)) .

وهذا الشكل الذي يقدمه اليافعي أبسط مما اخترعه الكتاني ، فالدنيا على حد علمه يحدها شمالاً وجنوبًا اليمن ، وعلى القطب أن يدور أركان الدنيا ، إلا أن القاشاني ابتكر تصورًا أيسر ، فيقول : ((البدلاء سبعة رجال ؛ يسافر أحدهم عن موضع ويترك فيه جسدًا على صورته ، بحيث لا يعرف أحد أنه فُقد ، وذلك معنى البدل لا غير ، وهم على قلب إبراهيم)) . [((اصطلاحات الصوفية)) للقاشاني (ص٣٦)] .

وهناك أخبار أخرى تكسر احتكار الشام للأبدال ، وتفتح المجال أمام التوزيع الجغرافي والانتشار على باقي الدول والأمصار .

ولهذا ظهرت أسماء مساعدة للأبدال ؛ كالنقباء ، والنجباء ، والأوتاد ، وبذلك نجد الأخبار تقول : ((الأبدال من أهل الشام ، والأوتاد من أبناء الكوفة)) . وفي رواية : ((النجباء بالكوفة ، والأبدال بالشام ، والنجباء من أهل مصر ، والأخيار من أهل العراق)) . وفي رواية أخرى نرى توزيعًا جغرافيًا آخر : ((دعامة أمتي عصب اليمن ، وأبدال الشام وهم أربعون)) . ثم يجمع أحمد بن أبي الحواري بين هذه الروايات فيقول : سمعت أبا سليمان الداراني يقول : ((الأبدال بالشام ، والنجباء بمصر ، والعصب باليمن ، والأخيار بالعراق)) .

ثم تعقب شيخ الإسلام الشوكاني هذه الأحاديث في كتابه ((الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة)) ، وكذلك الألباني في ((سلسلة الأحاديث الضعيفة)) ، وفي ((ضعيف الجامع الصغير)) ، وغيرهما من العلماء الذين أثبتوا ضعف هذه الآثار ، وسنورد فيما يلي كل حديث من

هذه الأحاديث ودرجتها ، ثم نتتبع رجاله ونظهر علته ، وننقل أقوال علماء الحديث عن كل منها ، حتى يعرف الصوفية مستوى أدلتهم التي تقوم عليها عقيدتهم عن مشايخهم :

١- حديث عبد اللَّه بن عمر ، رضي اللَّه عنه : ((خيار أمتي في كل قرن خمسمائة ، فالأبدال أربعون ، فلا الخمسمائة ينقصون ، ولا الأربعون ، كلما مات رجل أبدل اللَّه من الخمسمائة مكانه ، وأدخل من الأربعين مكانه)) . قالوا : يا رسول اللَّه ، دلنا على أعمالهم ؟ قال : ((يعفون عمن ظلمهم ، ويحسنون إلى من أساء إليهم ، ويتواسون فيما آتاهم اللَّه عز وجل)) .

درجة الحديث : ضعيف ولا يصح ، وفي إسناده من لا يعرف ، وحكم عليه ابن الجوزي بالوضع .

٢- حديث عبد اللَّه بن مسعود ، رضي اللَّه عنه : ((إن للَّه في الخلق ثلاثمائة قلوبهم على قلب آدم ، وللَّه في الخلق أربعون قلوبهم على قلب موسى ، وللَّه في الخلق سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم ، وللَّه في الخلق واحد خمسة قلوبهم على قلب جبريل ، وللَّه في الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل ، وللَّه في الخلق واحد قلبه على قلب إسرافيل ، فإذا مات الواحد أبدل اللَّه مكانه من الثلاثة - ثم هكذا باقي الأعداد - فبهم يحيي ويميت ويمطر وينبت ويدفع البلاء)) . قيل لابن مسعود : وكيف بهم يحيي ويميت ؟ قال : لأنهم يسألون اللَّه إكثار الأمم ، فيكثرون ، ويدعون على الجبابرة فيقصمون ، ويستسقون فيسقون ، ويسألون فتنبت لهم الأرض ، ويدعون فيدفع بهم أنواع البلاء .

ويكفي من وهن هذه الرواية أن تكون قلوب أولياء أمة محمد ﷺ على قلب أنبياء آخرين ليس فيهم النبي ﷺ .

درجة الحديث : موضوع ، قال الطبراني : في إسناده مجاهيل . وقال عنه الذهبي : هذا كذب ، قاتل اللَّه من وضع هذا الإفك .

٣- ويروى عن ابن مسعود بلفظ آخر هو : ((لا يزال أربعون رجلاً من أمتي على قلب إبراهيم عليه السلام ، يُدفع بهم عن أهل الأرض ، يُقال لهم : الأبدال ، إنهم لن يدركوها بصلاة ولا صوم ولا صدقة)) . قالوا : يا رسول اللَّه ، فبم أدركوها ؟ قال : ((بالسخاء والنصيحة للمسلمين)) .

درجة الحديث : ضعيف جدًا .

٤- حديث علي بن أبي طالب ، رضي اللَّه عنه : ((الأبدال بالشام وهم أربعون رجلاً ، كلما مات رجل أبدل اللَّه مكانه رجلاً ، يُسقى بهم الغيث ، ويُنتصر بهم على الأعداء ، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب)) .

درجة الحديث : الحديث ضعيف ، وإسناده منقطع .

٥- حديث أبي هريرة ، رضي اللَّه عنه : ((لن تخلو الأرض من ثلاثين مثل إبراهيم خليل الرحمن ، بهم يغاثون ، وبهم يرزقون ، وبهم يمطرون)) .

درجة الحديث : موضوع وباطل ، وفي إسناده وضّاع وكذاب .

٦- حديث أنس بن مالك ، رضي اللّه عنه : ((البدلاء أربعون رجلاً ؛ اثنان وعشرون بالشام ، وثمانية عشر بالعراق)) .

درجة الحديث : موضوع . وفى طرقه متروك كذاب خبيث ، ومجاهيل ، ودرجة طرقه الأخرى ضعيفة .

٧- حديث عوف بن مالك ، رضي اللّه عنه ، قال : ((لا تسبوا أهل الشام ، فإني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : ((فيهم الأبدال ، وبهم تنصرون ، وبهم ترزقون)) .

درجة الحديث : ضعيف ، ويقول عنه الألباني : إسناده ضعيف جدًا .

٨- حديث عبادة بن الصامت ، رضي اللّه عنه ، قال : ((الأبدال في هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمن ، كلما مات رجل أبدل اللّه تبارك وتعالى مكانه رجلاً)) .

درجة الحديث : ضعيف ، وإسناده منقطع ، ورواه أحمد بن حنبل في ((مسنده)) ، وعلق عليه بقوله : وهو منكر .

٩- لفظ آخر لحديث عبادة بن الصامت جاء فيه : ((لا يزال في أمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض ، وبهم تمطرون ، وبهم تنصرون)) .

درجة الحديث : ضعيف ، وفيه من لا يعرف ، رواه الطبراني .

١٠- كما تفرد الحكيم الترمذي في ((نوادر الأصول)) بحديث عن الأبدال يرويه عن أبي الدرداء ، رضي اللّه عنه ، وتفرد به يدل على سقوطه ، كما روي عن حذيفة ، رضي اللّه عنه ، بلا سند أيضًا .

١١- حديث عمر بن الخطاب ، رضي اللّه عنه : درجة الحديث : موضوع ، فيه متهم بالزندقة ، ومن يضع الحديث .

١٢- وحديث معاذ بن جبل ، رضي اللّه عنه : درجة الحديث : موضوع ، والسلمي نفسه اتهم به ، فقد كان يضع الأحاديث للصوفية .

ويقول الألباني في ((الأحاديث الضعيفة)) : واعلم أن أحاديث الأبدال لا يصح منها شيء ، وكلها معلولة ، وبعضها أشد ضعفًا من بعض . اهـ .

مما سبق يتبين لنا أن جملة أحاديث الأبدال التي يحاول رواتها نسبتها إلى النبي ﷺ تنحصر درجتها بين الحديث الموضوع المكذوب على النبي ﷺ ، وبين الحديث الضعيف جدًا ، والذي لا يجوز الاحتجاج به ، حيث لا تقوم به حجة في دين اللّه ، عز وجل ، كما لا يجوز نقله للناس أو العمل به ، ويبقى بعد ذلك مجموعة من الأخبار يتناقلها الصوفية فيما بينهم ، نتعرض لها من خلال بيان الغرض من الأبدال ، ومهمتهم التي يكلفون بها ، كما نتعرض للمراتب المساعدة التي اخترعتها الصوفية كالنجباء والنقباء وغيرهم .

وللحديث بقية إن شاء اللّه .

عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة

عبد مهندس / محمود المراكبي

مراتب الأولياء

ثانيًا : وظائف أبدال الصوفية :

لم يخترع الصوفية الأبدال والأقطاب دون أن يكون لهم أسباب لوجودهم ووظائف يقومون بها ، وسنتعرف على خطورة الاختراع إذا عرفنا الهدف والغاية .

١- الأبدال وسائط بين الصوفي وربه :

يتناقل الصوفية أثرًا موضوعًا رواه الخطيب البغدادي في ((تاريخ بغداد)) (٣: ٧٥) عن الكتاني أنه قال : النقباء ثلاثمائة ، والنجباء سبعون ، والبدلاء أربعون ، والأخيار سبعة ، والعمد أربعة ، والغوث واحد ، فمسكن النقباء المغرب ، ومسكن النجباء مصر ، ومسكن الأبدال الشام ، والأخيار سياحون في الأرض ، والعمد في زوايا الأرض ، ومسكن الغوث مكة ، فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ابتهل فيها النقباء ، ثم النجباء ، ثم الأبدال ، ثم الأخيار ، ثم العمد ، فإن أجيبوا ، وإلا ابتهل الغوث ، فلا تتم مسألته حتى تجاب دعوته .

وأبسط دلالة لهذا الأثر أنه يهدم الأساس الأول للإسلام ، وهو انعدام الواسطة بين الله وبين عباده ، فالله تبارك وتعالى يقول : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، بينما يضع الكتاني متاهات الروتين الباطني ، فدعاء العامة لا يصل إلى الله ، ولا يرفع إليه مباشرة ، بل لا بد أن يبتهل فيه النقباء الذين يسكنون المغرب ، ثم يأتي دور النجباء من مصر ، ثم يتدخل الأبدال من أولياء الشام ، ثم يبتهل السياحون في الأرض ، ثم العمد في زوايا الأرض ، وفي النهاية يدعو الغوث ، فلا يتم دعاؤه إلا استجيب له ، وهذا الشكل الهرمي لمملكة الباطن جديد مُحدث في الإسلام ، ولعله مأخوذ من النظام الهرمي المتدرج في الكنائس .

وقد بنت الصوفية على هذه الأفكار موضوعًا مبتدعًا في الدين ما أنزل الله بها من سلطان ؛ ألا وهو موضوع ديوان التصريف والمملكة الباطنية ، وسيكون لنا وقفة مع هذا الموضوع .

٢- الأبدال والأوتاد أمان لأهل الأرض :

يقول ابن عربي في رسائله : (يرى بعض أئمة الصوفية أن الأوتاد الذين يحفظ الله بهم العالم أربعة لا خامس لهم ، وهم أخص من الأبدال ،

والإمام أخص منهم ، والقطب أخص الجماعة ، والأوتاد الأربعة في الكون يمثلون : عيسى ، وإدريس ، وموسى ، وهارون ، والخضر ، عليهم السلام ، وهم وزراء الغوث ، ومساعدوه في أمور الحكومة الباطنية ، ويحفظ الله بهم الجهات الأربع : الجنوب ، والشمال ، والشرق ، والغرب ، والأوتاد قد بلغوا ووصلوا وثبتت أقدامهم وأركانهم ، أما الأبدال فإنهم يتقلبون من حال إلى حال) . [« معجم ألفاظ الصوفية » للشرقاوي (٦٢)] .

ولا نعرف كيف يمثل الأوتاد خمسة أنبياء فيهم الخضر ، عليه السلام ، ثم كيف يمثل الأوتاد الخضر ، والصوفية تؤمن بحياته إلى اليوم ، ومن الإسرائيليات التي تروى عن كعب الأحبار قوله : (لم يزل في الأرض بعد نوح عليه السلام أربعة عشر يدفع بهم العذاب) [أبو نعيم في « حلية الأولياء » عن كعب الأحبار (٦: ٢٠)] .

ويروى عن إبراهيم المتبولي أنه كان يقبض على لحيته ويقول : ما تقاسي مصر بعد هذه اللحية أنا أمان لها . [« طبقات الشعراني » (٢: ٧٨)] .

٣- الأبدال يتشكلون :

يعتقد الصوفية في قدرات الأبدال على التشكل والتواجد في

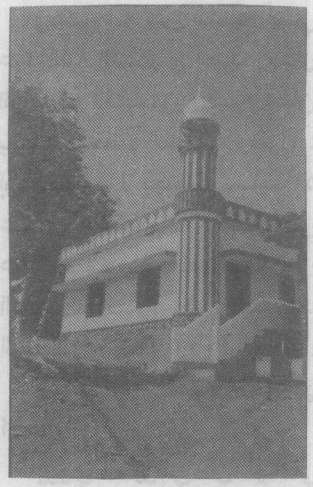

أكثر من مكان في نفس الوقت ، لذا يقول اليافعي : (إنما سمي الأبدال أبدالاً ؛ لأنهم إذا غابوا تبدل في مكانهم صور روحانية تخلفهم ، والولي إذا تحقق في ولايته مُكنَ من التصور في صور عديدة ، تظهر روحانيته في وقت واحد في جهات متعددة ، ولا يلزم من ذلك وجود شخص في مكانين في وقت واحد ؛ لأن ذلك إثبات تعدد الصور الروحانية لا الجسمانية) . [« الحاوي للفتاوي » للسيوطي (٢: ٤٧٢)] .

ويروي الشعراني في « طبقاته » : (إن القطب إذا تقطب يحمل هموم أهل الدنيا كلها كالسلطان الأعظم ، بل أعظم ، وكان الشيخ يتطور - أي يتشكل - في بعض الأوقات حتى يملأ الخلوة بجميع أركانها ، ثم يصغر قليلاً قليلاً ، حتى يعود إلى حالته المعهودة ، ولما علم الناس بذلك سد الطاق التي كانت تشرف على الخلوة) [(٢: ٨٦)] .

ويقول عن الشيخ أبي علي : (إنه كان من كمَّل العارفين وأصحاب الدوائر الكبرى ، وكان كثير التطور ، تدخل عليه بعض الأوقات تجده جنديًا ، ثم تدخل عليه فتجده سبعًا ، ثم تدخل عليه فتجده فيلاً ، ثم تدخل فتجده صبيًا ، وهكذا) [(٢: ٨٠)] .

كما يقص الشعراني قصة عن شيخ ظهر للناس في ثلاثين موضعًا في نفس اللحظة ، وليس العجب في ذلك فقط ، وإنما الأعجب في سياق الحكاية نفسها ، يحكي الشعراني عن محمد الحضري أنه خطب الجمعة ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : وأشهد أن لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام ، فقال الناس : كَفَرَ ، فسلّ السيف ونزل ، فهرب الناس كلهم من الجامع ، فجلس عند المنبر إلى أذان العصر ، وما تجرأ أحد أن يدخل ، ثم جاء بعض أهل البلاد المجاورة ، فأخبر أهل كل بلد أنه خطب - أي الشيخ الحضري - عندهم وصلى بهم ، قال : فعددنا له ذلك اليوم ثلاثين خطبة ، وهذا ونحن نراه جالسًا عندنا في بلدنا . [(٢: ٩٨)] . ولا بأس أن نروي مساهمة أبي اليزيد البسطامي في موضوع

الأبدال ، فقد قيل له يومًا : إنك من الأبدال السبعة الذين هم أوتاد الأرض فقال : أنا كل السبعة . [أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١٠: ٣٧)] .

ثالثًا : دعوة توصل إلى مقام الأبدال :

يقول الدكتور عبد الفتاح عبد الله بركة : إن أول من قال بالأبدال هو معروف الكرخي ، المتوفى في سنة ٢٠٠ هـ ، فقد روي عنه قوله : (من قال في كل يوم عشر مرات : اللهم صل على أمة محمد ، اللهم فرج عن أمة محمد ، اللهم ارحم أمة محمد ، كتب من الأبدال) [« الحاوي للفتاوي » للسيوطي (٢: ٤٧٢)] .

وتفتح هذه الدعوة مجال الوصول إلى مراتب الأبدال ، والاجتماع بالخضر عليه السلام ، إذا التزم بالشروط السابقة .

رابعًا : شروط اجتماع الصوفي والخضر :

يقرر الشيخ علي النبتيني شروط هذا اللقاء بقوله : (لا يجتمع الخضر عليه السلام بشخص إلا إذا اجتمعت فيه ثلاث خصال ؛ فإن لم تجتمع فيه فلا يجتمع به قط ، ولو كان على عبادة الملائكة ، الخصلة الأولى : أن يكون العبد على سننه في سائر أحواله ، والثانية : أن لا يكون له حرص على الدنيا ، والثالثة : أن يكون سليم الصدر لأهل الإسلام لا غل ولا غش ولا حسد) .

وحكي له عن الشيخ أبي عبد الله التستري أحد رجال الرسالة القشيرية أنه كان يجتمع بالخضر عليه السلام ، ويقول : إن الخضر لا يجتمع بأحد إلا على وجه التعليم له ، فإنه غني عن علم العلماء ، لما معه من العلم اللدني . [« طبقات الشعراني » (٢: ١١٣)] .

خامسًا : دور الخضر في تعيين الأبدال :

يروي السيوطي عن اليافعي عن بعض أصحاب الشيخ عبد القادر الكيلاني قصة غريبة تجعل للخضر دورًا في اختيار الأبدال ، حيث يقول : خرج الشيخ عبد القادر من داره ليلة فانفتح له باب المدرسة ، فخرج وخرجت خلفه ، فإذا نحن في بلد لا أعرفه ، فدخل فيه مكانًا شبيهًا بالرباط ، فإذا فيه ستة نفر ، فبادروا بالسلام عليه ، والتجأت إلى سارية هناك ، وسمعت أنينًا ، فلم نلبث إلا قليلاً ، حتى سكن الأنين ، ودخل رجل وذهب إلى الجهة التي سمعت فيها الأنين ، ثم خرج يحمل شخصًا على عاتقه ، ودخل آخر مكشوف الرأس طويل الشارب ، وجلس بين يدي الشيخ ، فأخذ عليه الشيخ الشهادتين ، وقص شعر رأسه وشاربه ، وألبسه طاقية وسماه محمدًا ، وقال لأولئك النفر : قد أمرت أن يكون هذا بدلاً عن الميت ، قالوا : سمعًا وطاعة ، ثم خرج الشيخ وتركهم ، وخرجت خلفه ، وشيئًا غير بعيد وإذا نحن عند المدرسة في بغداد ، فأقسمت على الشيخ أن يبين لي ما رأيت ، فقال : أما البلد فنهاوند ، وأما الستة فهم الأبدال ، وصاحب الأنين سابعهم ، وكان مريضًا ، فلما حضرته وفاته جئت أحضره ، وأما الرجل الذي خرج يحمل شخصًا فأبو العباس الخضر عليه السلام ، ذهب به ليتولى أمره - أي يجهزه للدفن - وأما الرجل الذي أخذت عليه الشهادتين ، فرجل من أهل القسطنطينية كان نصرانيًا ، وأمرت أن يكون بدلاً عن المتوفى ، فأتي به فأسلم على يدي وهو الآن منهم . [« الحاوي للفتاوى » (٢: ٤٧٠)] .

ويستدل الصوفية على بقاء الخضر حيًا إلى الآن بمثل هذه الحكايات التي يصعب حصرها ، التي تتناول اجتماعهم به ، وكتب القوم تطفح بكرامات من اجتمع بالخضر ، ومن كان الخضر يحضر مجلسه ، إلى غير ذلك من القصص والحكايات ، فحياة الخضر إلى اليوم ليس موضوعًا ثانويًا ، لا يضر التصديق به ، أو إنكاره عند الصوفية ، وفي حقيقة الأمر لقد أصبحت فكرة بقاء الخضر عمود الرحى الذي تدور حوله مجموعة من الأفكار المترابطة ، لا يُقبل أن يؤمن الصوفي ببعضها ويكفر ببعض ، فمن رد موضوعًا واحدًا ينفرط له عقد الفكر الصوفي بالكلية .

عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة

بقلم عقيد متقاعد / محمود المراكبي

الطريقة الجيلانية والأقطاب

قد يعتقد من لم يعايش الطرق الصوفية أن القول بوجود القطب يقول به بعض الصوفية دون البعض ، ولكنا نكاد نجزم بأن كل طريقة صوفية لا تعتقد بوجود الأقطاب فحسب ، وإنما تؤمن يقينًا أن شيخ الطريقة هو القطب الغوث الفرد الجامع ، بل إن بعض المشايخ يقولون لمريديهم : نزهوا مشايخكم عن مقام القطبانية ، كما نسب مثل ذلك للشاذلي وغيره ، ولا يتسع المجال هنا لتتبع أقوال مشايخ الطرق الصوفية المختلفة عن القطب ، فالحصر لضخامته يصعب على أي باحث ، ونهدي إلى فضيلة شيخ الأزهر وعلمائه الأجلاء ، وأعضاء المجلس الأعلى للطرق الصوفية ، ونستفتي أيضًا فضيلة مفتي الديار المصرية فيما يعتقده التجانية كمثال لما في كتب القوم من ضلالات ، ونطالبهم بإصدار الفتاوى الشرعية ، وإعلانها في وسائل الإعلام حتى يتمكن رجل الشارع البسيط - في مصر والسودان وغيرهما من دول إفريقيا - أن يعرف حكم الدين في مثل هذه الشطحات ، حيث يزعم التجاني مؤسس الطريقة التجانية أن مقامه عند الله أفضل من جميع الصحابة ، رضي الله عنهم ، حيث يقول : (إن مقامنا عند الله في الآخرة لا يصله أحد من الأولياء ، ولا يقاربه من كبر شأنه ، ولا من صغر ، وأن جميع الأولياء من عصر الصحابة إلى النفخ في الصور ليس فيهم من يصل مقامنا) . [((رماح حزب الرحيم)) : (٢- ٥)] .

ثالثًا : الجيلانية الشيخ والطريق :

إن من الأمثلة المحيرة في مجال التصوف ذلك التباين الشديد بين ما تجده في كتب الطريقة الجيلانية ، وبين ما كتبه العلماء المحققون من ثناء على شيخ الطريقة عبد القادر الجيلاني ، ولم يحظ كثير من رجال التصوف بمثل ما حظي به شيخ الجيلانية .

شيخ الجيلانية :

ترك عبد القادر الجيلاني كتبًا طيبة منها : ((الفتح الرباني)) ، و((الغنية لطالبي طرق الحق)) ؛ ذكر فيها الموعظة الحسنة ، ودعا فيها إلى فضائل الأعمال ، ولا تجد فيها الشطط المنتشر في كتب الصوفية ، يدعو في (ص ٢: ١٦٣) المريد بقوله : (أن يكون على عقيدة السلف الصالح أهل السنة القويمة سنة الأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين ، والأولياء والصديقين ، وعليه التمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما أمرًا ونهيًا ، أصلاً وفرعًا ، فيجعلهما جناحيه يطير بهما في الطريق الواصل إلى الله ، عز وجل ، ثم الصدق ، ثم الاجتهاد ، حتى يجد الهداية والرشاد) .

ولقد أثنى على الشيخ عبد القادر الجيلاني علماء عصره ، وسطروا في كتبهم كثيرًا من مناقبه ، وأهمها حرصه الشديد على التمسك بالكتاب والسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى أنه يدعو في كتابه ((فتوح الغيب)) (٢٨) كل سالك أن يكون عبد الآمر - الآمر هنا هو الله ورسوله - لا عبد الهوى ، كالطفل مع الظئر والميت مع الغاسل ، والمريض المقلوب على جنبيه مع الطبيب .

وقد تحولت عبارته هذه عند الصوفية إلى أن المريد ينبغي أن يكون مسلمًا لشيخه كالميت بين يدي الغاسل .

ويصف شيخ الإسلام ابن تيمية في ((الفتاوى)) (١٠: ٤٤٨) رحمه الله الجيلاني بقوله : إنه من أعظم مشائخ زمانهم ، آمرًا بالتزام الشرع ، والأمر والنهي ، وتقديمه على الذوق والقدر ، ومن أعظم المشايخ بترك الهوى والإرادة النفسية .

ويقول أبو الفرج بن الجوزي في تاريخه ((المنتظم)) (١٠: ٢١٩) : تكلم عبد القادر على الناس بلسان الوعظ ، وظهر له الصيت بالزهد ، وكان له سمت وصمت ، وضاقت مدرسته بالناس ، فكان يجلس عند

سور بغداد مستندًا إلى الرباط ، ويتوب عنده في المجلس خلق كثير ، فعمرت المدرسة ووسعت وتعصب في ذلك العوام ، وأقام فيها يدرس ويعظ إلى أن توفي .

ويقول الذهبي في ((سير الأعلام)) ترجمة الجيلاني (٢٠: ٤٤١) : قال السمعاني : كان عبد القادر من أهل جيلان ، إمام الحنابلة وشيخهم في عصره ، فقيه صالح ديّن خيّر ، كثير الذكر دائم الفكر ، سريع الدمعة .

ثم يختم قوله بقوله : وفي الجملة الشيخ عبد القادر كبير الشأن ، عليه مآخذ في بعض أقواله ودعاويه ، والله الموعد ، وبعض ذلك مكذوب عليه .

الطريقة الجيلانية :

ولما كان بين الجيلاني والذهبي حوالي قرنين من الزمان ، فإن عبارة (وبعض ذلك مكذوب عليه) ، تدل على أن أتباعه خالفوا تعاليمه ، والغريب أن تأتي المخالفات في أغلب الأحيان على يدي الأتباع الذين يزعمون أنهم ورثة الشيخ ، وسدنة معابده ، ويُقال : إن حفيدًا للشيخ الجيلاني قد قام بهذه المهمة أسوأ قيام ، فأضاف على تراث جده ما لم ينزل الله به من سلطان ، وقد تتابع التحريف والشطح عبر السنين ، حتى أنك إذا اطلعت على ما في كتب الطريقة الآن لوليت منهم فرارًا ، ولملئت عليهم شفقة وأسفًا وحزنًا ، وإليك بعض ما في كتبهم من ضلال ، ومنها قصيدة يرويها المريدون وينسبونها بالطبع للشيخ ، ويطبعونها في العديد من كتبهم ، مطلعها :

سقاني الحب كاسات الوصال
فقلت لخمرتي نحوي تعالي

ومن أبياتها يقول فيها الشيخ عبد القادر بزعمهم[1] :

وولاني على الأقطاب جمعا
فحكمي نافذ في كل حال
نظرت إلى بلاد الله جمعا
كخردلة على حكم اتصالي
فلو ألقيت سري فوق نار
لخمدت وانطفت في سر حالي
ولو ألقيت سري فوق ميت
لقام بقدرة المولى مشالي
ولو ألقيت سري في جبال
لدكت واختفت بين الرمالي
بلاد الله ملكي تحت حكمي
ووقتي قبل قبلي قد صفا لي

وينسبون إلى الشيخ قوله : (قدمي هذه على رقبة كل ولي لله) ، ومن الغريب أن يتبارى الأتباع في تفسير قول الشيخ ، وحاله وقت أن قال ذلك ، ويفرد الشطنوفي ما يقرب من عشرين صفحة من الحجم الكبير يثبت فيها صحة قول الشيخ ، ويروي أسماء من سمعوا مقولته هذه ! ومن حنا رأسه من الأولياء الأحياء والأموات ، وتعظيم الأولياء له بعد أن صرح بهذا القول ، وقد تناقلت هذا القول كتب كثيرة من كتب المتأخرين منهم اليافعي والقادري وغيرهم ، وينسبون للجيلاني قصيدة في الشطح يسمونها الوسيلة ، تطفح بالكفر والزندقة ، جاء فيها :

ذراعي من فوق السماوات كلها
ومن تحت بطن الحوت أمددت راحتي
وأعلم نبات الأرض كم هو نابت
وأعلم رمل الأرض كم هو رملة
وأعلم علم الله أحصي حروفه
وأعلم موج البحر كم هو موجة
ملكت بلاد الله شرقًا ومغربا
وإن شئت أفنيت الأنام بلحظتي
ولولا رسول الله بالعهد سابقا
لأغلقت بنيان الجحيم بعظمتي

ثم يخاطب مريده في ((الفيوضات الربانية)) جمع وترتيب إسماعيل القادري (٥٩: ٦١) بقوله :

مريدي لك البشرى تكون على الوفا
إذا كنت في هم أغنك بهمتي
مريدي تمسك بي وكن بي واثقًا
لأحميك في الدنيا ويوم القيامة
أنا لمريدي حافظ ما يخافه
وأنجيه من شر الأمور وبلوة
وكن يا مريدي حافظًا لعهودنا
أكن حاضر الميزان يوم الوقيعة

ويدعوهم في (ص ٥٥) ، وفي ((فتوح الغيب)) لأداء فريضة الحج في بيته ، فيقول في قصيدة أخرى :

حجوا إليّ فداري كعبة نصبت
وصاحب البيت عندي والحمى حرمي

---

(١) وردت هذه القصيدة في العديد من كتب الصوفية المطبوعة في مصر وليبيا وغيرهما ، ومنها ((الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية)) جمع وترتيب إسماعيل القادري (٤٦) ، وكتاب ((فتوح الغيب)) الذي يرويه الجيل الثاني من المريدين عن الجيلاني (٢٣٠) ، وكذلك كتاب ((السفينة القادرية)) طبعة طرابلس .

ثم يقول عن نفسه في (ص ٥٤) ، و((فتوح الغيب)) (٢٣٣) مترفعًا عن مقام القطبانية :

قالت الأولياء جمعا بعزم
أنت قطب على جميع الأنام
قلت كفوا ثم اسمعوا قولي
إنما القطب خادمي وغلامي
كل قطب يطوف بالبيت سبعا
وأنا البيت طائف بخيامي

ويزعمون أن شيخهم أخبر عن بركات قبره وضريحه بعد موته في (ص ٤٤) ، و((فتوح الغيب)) (٢٢٦) ، ما يلي :

ضريحي بيت الله من جاء زاره
يهرول له يحظى بعز ورفعة
وسري سر الله سار بخلقه
فلذ بجنابي إن أردت مودتي
وأمري أمر الله إن قلت كن يكن
وكل بأمر الله فاحكم بقدرتي

ويُعلم خلفاء الطريق المريد كيف يستغيث بالشيخ الأكبر عبد القادر الجيلاني (ص ٤٢، ٤٣) إذا أهمه أمر أو حزبه ما يكدره ، فما عليه إلا : (أن يصلي ركعتين ليلة الثلاثاء ، ويقوم بعد الصلاة ، ثم يخطو إحدى عشر خطوة جهة العراق إلى يمين القبلة ، ويقول في الخطوة الأولى : يا شيخ محيي الدين ، وفي الثانية : يا سيد محيي الدين ، وفي الثالثة : يا مولانا محيي الدين ، وفي الرابعة : يا مخدوم محيي الدين ، وفي الخامسة : يا درويش محيي الدين ، وفي السادسة : يا خواجة محيي الدين ، وفي السابعة : يا سلطان محيي الدين ، وفي الثامنة : يا شاة محيي الدين ، وفي التاسعة : يا غوث محيي الدين ، وفي العاشرة : يا قطب محيي الدين ، وفي الحادي عشر : يا سيد السادات عبد القادر محيي الدين ، ثم يقول : يا عبيد الله ، أغثني بإذن الله يا شيخ الثقلين ، أغثني وأمددني في قضاء حوائجي) .

ولا شك أن الدس واضح جلي ولغته فارسية وموطنه شمالي إيران ، وليس أمام المنصف إلا أن يصدق أقوال علماء الأمة عن الشيخ عبد القادر ، رحمه الله ، فلو علم عنه علماؤنا ما أسلفناه ، ما سكتوا عنه ، وفي نفس الوقت نحذر الناس من سموم الشرك التي تجري مجرى الدم في العروق في أوراد الطريقة المنسوبة له ، وعلى أتباع الطريقة ومشايخها أن يتوبوا إلى الله من هذا الضلال ، وأن يتبعوا سبيل المؤمنين الذين لا يأتمرون إلا بكتاب الله عز وجل وسنة النبي ﷺ ، وأن يجتنبوا الابتداع وتقليد كل ناعق ، فإنما يدعون أصحابهم ليكونوا من أصحاب السعير ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ورد في كتاب ((الفيوضات الربانية في المآثر القادرية)) (صفحات : ٥، ٦، ٩، ١١) : حديثًا يدور بين شيخ الطريقة وبين الله عز وجل ، ويسمونه بالغوثية ، وينسب بعض الباحثين[1] مخطوطة الغوثية لعبد القادر الجيلاني دون غيره من الصوفية ، وقد توارثها أبناء الطريقة جيلاً بعد جيل ، حتى صارت الغوثية أصلاً في الطريق ، ويعتقد المريدون أن هذا الحديث جرى بين شيخهم وبين الله بطريق الإلهام القلبي والكشف المعنوي ؛ أي من العلم الباطن - حسب المصطلح الصوفي للعلم الباطن - ويهدف الحوار إلى بث عقيدة الحب الإلهي ووحدة الوجود والطواف حولهما عن طريق مجموعة من الأسئلة يطرحها الجيلاني بصفته الغوث الأعظم ، ويجيب عنها الله جل جلاله تبدأ بما يلي : قال الغوث الأعظم المستوحش من غير الله ، المستأنس بالله ، قال الله تعالى : يا غوث الأعظم ، قلت : لبيك يا رب الغوث ، قال : كل طور بين الناسوت والملكوت فهو شريعة ، وكل طور بين الملكوت والجبروت فهو طريقة ، وكل طور بين الجبروت واللاهوت فهو حقيقة ، يا غوث الأعظم ، ما ظهرت في شيء كظهوري في الإنسان .

سألت - أي الجيلاني - يا رب : من أي شيء خلقت الملائكة ؟ قال لي : يا غوث الأعظم : خلقت الملائكة من نور الإنسان ، وخلقت الإنسان من نوري ، ثم قال لي : يا غوث الأعظم ، الإنسان سري وأنا سره ، لو عرف الإنسان منزلته عندي لقال في كل نفس من الأنفاس : ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ ، ثم قال لي : يا غوث الأعظم ، الاتحاد حال لا يعبر عنه بلسان المقال ، فمن آمن به قبل وجود الحال فقد كفر ، ومن أراد العبادة بعد الوصول فقد أشرك بالله العظيم ، يا غوث الأعظم ، لا تنظر إلى الجنة

---

(١) ومنهم الأستاذ يوسف زيدان الذي نشر مخطوطة الغوثية في ديوان عبد القادر الجيلاني بعد إثبات صحة نسبتها للجيلاني عن طريق النقد الداخلي للنص ، وقدم في مقدمة التحقيق أسانيد قوية لإثبات الغوثية له ، نقلاً عن الغوثية حلقة مجهولة في تطور النثر الصوفي للأستاذ يوسف زيدان والمنشورة في مجلة فصول في خريف ١٩٩٣، مجلد ١٢، العدد ٣.

وما فيها ، تراني بلا واسطة ، لا تنظر إلى النار وما فيها ، تراني بلا واسطة ، يا غوث الأعظم ، أهل الجنة مشغولون بالجنة ، وأهل النار مشغولون بي ، وأهلي مشغولون بي ، يا غوث الأعظم ، إن لي عبادًا من أهل الجنة يتعوذون من النعيم ، كأهل النار يتعوذون من الجحيم ، ثم قال لي : يا غوث الأعظم ، أنا قريب من العاصي بعدما يفرغ من العصيان ، وأنا بعيد من المطيع إذا فرغ من الطاعات ، ثم قال لي : يا غوث الأعظم ، ليس لصاحب العلم عندي سبيل بعد إنكاره ؛ لأنه لو ترك العلم عنده صار شيطانًا .

لا تعكس هذه الغوثية الشيطانية أي مفهوم من مفاهيم الإسلام ، بل هي تنافي حقائق الدين وتهدم أصوله ، فالقرآن يقرر أن خلق الإنسان من طين بمراحل معروفة تكرر بيانها في آيات القرآن المحكمات ، والملائكة خلق من النور ، والجيلاني الغوث يقول لأتباعه : إن الإنسان خلق من نور الله ، والملائكة من نور الإنسان ، والغوثية تقرر الاتحاد وترك التكاليف ، ووحدة الوجود ، وأن الإنسان لو أدرك حقيقته لعلم أنه الله فلا حرج أن ينادي لمن الملك اليوم ؟ والغوثية بألفاظها هذه تُرسخ للمريدين مقالة الحلاج المشهورة : (ما في الجبة إلا الله) .

كما ورد أيضًا في ورد الجيلاني في الصلاة على رسول الله ﷺ ما يلي : (وأزكي تحياتك فضلاً وعددًا على أشرف الخلائق الإنسانية ومجمع الحقائق الإيمانية ، وطور تجلياتك الإحسانية ، ومهبط الأسرار الرحمانية ، واسطة عقد النبيين ، ومقدم جيش المرسلين ، وقائد ركب الأنبياء المكرمين ، وأفضل الخلق أجمعين ، حامل لواء العز الأعلى ، ومالك أزمة المجد الأسنى ، شاهد أسرار الأزل ، ومشاهد أنوار السوابق الأول ، وترجمان لسان القدم ، ومنبع العلم والحلم والحكم ، مظهر سر الجود الجزئي والكلي ، وإنسان عين الوجود العلوي والسفلي ، روح جسد الكونين ، وعين حياة الدارين) . [((مجموع الأوراد الكبير)) : (٢٠)] .

تحاول كل طريقة أن تورد هذه المفاهيم في العديد من النصوص حتى يترسخ في عقيدة أتباعهم أركان وحدة الوجود ، ويشارك الجيلاني باقي الطرق في رغبته في الغرق في عين بحر الوحدة ، فيقول الشيخ : (وصلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وأغرقنا في عين بحر الوحدة السارية في جميع الموجودات) . [((مجموع الأوراد الكبير)) : (٣٧)] .

ويؤكد عقيدة وحدة الوجود بقوله : (اللهم صلّ على سيدنا محمد بحر أنوارك ومعدن أسرارك ، ولسان حجتك ، وعروس مملكتك ، وخزائن رحمتك ، وطريق شريعتك ، المتلذذ بتوحيدك ، إنسان عين الوجود ، والسبب في كل موجود ، عين أعيان خلقك ، المُقَدَّم من نور ضيائك صلاة تدوم بدوامك) . [((مجموع الأوراد الكبير)) : (٢٥)] .

(وصلّ وسلم وبارك على عين الأعيان والسبب في وجود كل إنسان ، وصلّ وسلم وبارك على من شيد أركان الشريعة للعالمين ، وأوضح أفعال الطريقة للسالكين ، ورمز في علوم الحقيقة للعارفين) . [((مجموع الأوراد الكبير)) : (١٠٥)] .

وللطريقة الجيلانية دعاء يسمونه دعاء الجلالة ، وينسبونه للشيخ عبد القادر الجيلاني أيضًا ، يقولون فيه : (اللهم إني أسألك بسر الذات ، وبذات السر ، هو أنت وأنت هو ، احتَجَبْتُ بنور الله وبنور عرش الله ، وبكل اسم الله من عدوي وعدو الله) . [((مجموع الأوراد الكبير)) : (١٢)] .

هل هناك تصريح صوفي أوضح من هذا التصريح ؟ فالجيلاني يخاطب الله ويسأل بسر الذات ، والمراد به محمدًا ﷺ ، كما تشير بذلك النصوص السابقة ، (وبذات السر هو أنت ، وأنت هو) . هذه الأوراد توزع اليوم على المريدين الجدد ، ومشيخة الطرق الصوفية ترعى شئون هذه الطرق ، وتنظم لها الموالد ، وتعتمد الخلفاء والحضرات ، ولعلنا نكون قد أثبتنا للدكتور / مهنا ؛ أن المسألة ليست فرعية كقضية الأقطاب ، والتي لا ولن يترتب عليها كفر ولا إيمان ، وإنما فقط للتدليل على أنها مسألة خلافية تندرج في الفروع والهوامش ، فإذا كان التوحيد فرعًا أو هامشًا تكون قد أصبت في قولك ، ولعلنا أيضًا نكون قد أثبتنا لشيخكم / محمد زكي إبراهيم ؛ أن الأمر ليس حفريات تاريخية في مقابر الأفكار ، وإنما الأمر في حقيقته أخطر كثيرًا مما يُظن .

والله من وراء القصد .

عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة

الغلو في شأن المشايخ

بقلم عميد متقاعد :

محمود المراكبي

الحمد لله واهب النعم ، تفضل على عباده ، فهداهم إلى عقيدة التوحيد ، وبعث إليهم رسله وأنبياءه ليبينوا للناس ما نزل إليهم ، واصطفى من بني آدم محمدًا ﷺ ، وجعله رحمة للعالمين ، وأتم به الرسالة ، وختم به الدين ، ونشهد أنه بلغ الرسالة ، وجاهد في سبيله حتى أتاه اليقين ، فتركنا على المحجة البيضاء ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، نسأل الله حسن الخاتمة وصلاح الدنيا والآخرة وبعد :

فقد تحدثنا في المقالات السابقة عن ثلاث موضوعات ، كان أولها : تتبع تطور الفكر الصوفي ، ابتداءً من الزهد والتقشف إلى الشطح والسكر والفناء ذلك المقام الصوفي المبتكر الذي مهد لظهور الموضوع الثاني ، ألا وهو وحدة الوجود ، وقد تتبعنا فيما سبق بيانه مراحل هذه النظرية المبتدعة في الإسلام والقديمة عند الهنود وعقائدهم القديمة ، واستكمالاً لهذا الموضوع وضعنا تحت الدراسة وعلى ضوء من الكتاب والسنة أوراد حوالي عشرين طريقة صوفية من أشهر وأكبر الفرق الصوفية في مصر ، وقد أوضحنا بتوفيق الله تعالى مواضع الغلو والزلل في هذه الأوراد ، تلك المواضع التي أوصل الصوفية فيها الرسول الخاتم إلى ما قاله النصارى في عيسى ابن مريم عليه السلام ، وبهذا تكون الصوفية قد وقعت فيما حذرنا منه سيدنا محمد ﷺ ، ولهذا ختمنا حديثنا في الموضوع الثاني ببيان شاف عن الحقيقة المحمدية عند السلف الصالح ، ثم تطرق بنا الحديث إلى مملكة الباطن ومقامات الأولياء ، وتناولنا تعريف الصوفية لمراتب الأبدال والأقطاب ومقام الغوثية ، واليوم نستكمل الحديث حول الآداب التي يفرضها مشايخ الطرق من مريديهم ، وهذا ما يؤكد ظاهرة الغلو الصوفي في المشايخ ، ولا بد لنا من توطئة بين يدي الموضوع تقارن بين غلو الشيعة وغلو الصوفية ، فنقول بحول الله وطوله :

يغالي الشيعة في أئمتهم لاعتقادهم أن طبيعة الإمام مختلفة عن طبيعة البشر ، فالناس خلقوا من طينة الأرض ، ثم نفخت فيهم الأرواح ، أما طينة الأئمة فهي طينة من كنز مكنون تحت العرش ، وأرواحهم نور من نور الله ، عز وجل ، لذلك جاءت أوصاف الأئمة في كتب شيعتهم بأنهم نور الله ووجه الله وما سبق الإشارة إليه ، وبالتالي فإن الاختلاف مع الشيعة اختلاف أصلي وأساسي ، حيث يتبع القوم عقيدة مختلفة في جوهرها عن حقيقة الإسلام ، وهذا ما يجعلنا لا نخوض في دراستنا هذه في أفعال الأئمة وأحوالهم ؛ لأنها في النهاية ترفعهم إلى مصاف الآلهة ، وهذا ما تؤكده طبيعتهم في مفهوم أتباعهم .

إن المتأمل في اعتقاد الصوفية في مشايخهم قد يظن - للوهلة الأولى - أن فجوة الاختلاف مع الشيعة واسعة ، أما المتأمل والدارس فيرى هذه الهوة لا تعدو أن تكون فجوة شكلية ، ونحن مضطرون إلى أن نعالج هذا

الموضوع بأسلوب مختلف عن تناولنا لعقيدة فرق الباطنية ، فالصوفية لا يزعمون أن طبيعة مشايخهم مثل طبيعة الأئمة ، بل هم يرونهم أولياء الله فقط ، ولكننا إذا تتبعنا أفعال المشايخ وأحوالهم وآداب صحبة المريد معهم ، يتبين لنا - بتوفيق الله عز وجل - أن الغلو ملة واحدة ، مهما تعددت الأهواء والطرق والنِّحَل ، ونجد الالتقاء واضحًا بين الشيعة والصوفية ، وحين جعل الصوفية من لقاء موسى والخضر ، عليهما السلام ، الحجة والدليل والبرهان ، ومن حوارهما استقوا دستور الآداب الصوفية ، وتَبَوء الخضر عليه السلام مكانة عظيمة في الفكر الصوفي فهو شيخ الصوفية الأكبر ، بل إن له دورًا مستمرًا ، فشيخ الطريقة في الظاهر نائبًا عن الخضر ، وفي الباطن هو صورة الاستمداد للعلم الباطني ، فظن كل شيخ أنه الخضر عليه السلام ، ولن يُسقي المريد من العلم الباطني مهما بلغ في السلوك إلا بواسطة استمداده من الخضر بواسطة شيخه ، لذلك يحدد أحمد بن أبي الحواري علامات المريد الصادق ، فيقول : (من علامة المريد الصادق أنه لو قال له شيخه : ادخل التنور ، دخل ، ثم إذا دخل لا يحترق ، فإن احترق فهو كاذب)[1] .

ومن هذه المفاهيم صاغ القوم آداب المريد مع شيخه :

□ آداب المريد مع الشيخ :

للشيخ مكانته الكبرى في الفكر الصوفي ، ومن ثم اخترع المشايخ مجموعة من الآداب وصنفوا فيها الكتب ونظموا لها الأشعار ، ولا يكاد يخلو أي كتاب صوفي في تناول هذا الموضوع الذي استنبطوه من قصة موسى والخضر ، عليهما السلام .

يوضح أبو علي الدقاق أهمية أدب المريد مع شيخه فيقول : من علامة المريد الصادق حفظ قلب شيخه عليه ، لما هو عليه من شدة الأدب والسياسة والمحبة لشيخه ، ومن علامات الكاذب الاعتراض على شيخه ولو بقلبه ، وأجمع الأشياخ كلهم على أن عقوق الأستاذ لا توبة عنها ، فكل من صحب شيخًا واعترض عليه فقد نقض عقد الصحبة ، وخرج عن طريقته وانقطعت العلاقة بينهما ، وسنعرض فيما يلي عددًا من النصوص التي تبين حجم هذا الموضوع :

□ منظومات شرح الآداب :

من أشهر العبارات التي يتناقلها الصوفية للتعبير عن قمة آداب المريد بين يدي شيخه أن يكون المريد بين يديه كالميت بين يدي الغاسل ، وأول من قال هذه العبارة هو : الشيخ عبد القادر الجيلاني ، ونص عبارته : (ينبغي على المريد أن يكون بين يدي الكتاب والسنة كالميت بين يدي الغاسل) . إلا أن المشايخ حرفوا ورفعوا الشرع ممثلاً في الكتاب والسنة واستبدلوه بالشيخ ، وانتشرت هذه العبارة بين الصوفية حتى إنها أصبحت ركنًا من أركان الآداب الصوفية .

وقد ورد في كتاب ((تحفة الإخوان في آداب الطريق)) لأحمد الدردير (٣٨) قصيدة تحث المريد على التأدب مع شيخه ، منها ما يلي :

إن كنت تقصد أن تحظى بصحبته
فاسلك على سنن طابت مساعيه
واخلص ودادك صدقًا في مُحبته
والزم ثرى بابه واعكف بناديه
واستغرق العمر في آداب صحبته
وحصل الدر والياقوت من فيه
وابذل قواك وبادر في أوامره
إلى الوفاق وبالغ في مراضيه
واحذر بجهدك أن تأتي ولو خطأ
ما لا يجب وباعد عن مناهيه
وكن محب محبيه وناصرهم

(١) نقلاً عن العهد الوثيق لمن أراد سلوك أحسن طريق لمحمود محمد خطاب السبكي (٦٦) .

والزم عداوة من أضحى يعاديه
واعلم يقينًا بأن اللّه ناصره
وإن لم يكن ناصر فاللّه يكفيه
وأ نزل الشيخ في أعلى منازله
واجعلـــه قبلة تعظيم وتنزيه
ولست تفعل هذا إن ظننت به
نقصًا ولا خللاً فيما يعانيه
واترك مرادك واستسلم له أبدا
وكـــن كميت مخلى في أياديه
وليس ينفع قطب الوقت ذا خلل
في الاعتقاد ولا من يواليه

الشيخ هنا يربي لا يعلم المريد كيف يتعامل مع الناس جميعًا ، وإنما يعلمه كيف يتحزب لشيخه ويسالم من يسالمه ويعادي من يعاديه ، كأنها حرب السويس ، وفي نفس الوقت تتكرر عبارة وكن بين يدي الشيخ كميت بين يدي الغاسل ، حيث لا إرادة ولا حركة إلا بإذن الشيخ ، كما ورد في مجموعة أوراد مشيخة عموم السادة البيومية (ص ٢٩) نصيحة للمريد وكيف يعامل شيخه ، وتحذيره من الاعتراض ومغبته ، حيث يقول الشيخ شعرًا :

وكن عنده كالميت عند مغسلٍ
يقلبـــه ما شاء وهو يطاع
ولا تعترض فيما جهلت من أمره
عليـــه فإن الاعتراض تنازع
وسلم له فيما تراه وإن يكن
علـــى غير مشروع مخادع

ففي قصة الخضر الكريم كفاية بقتـــل الغـــلام والكليم يدافع
فلما أضاء الصبح عن ليل سره
وسل حسام للمحاجج قاطع
أقام له العذر الكليم وإنه
كذلك علم القوم فيه يدافع

□ الآداب في إجـــــازة المشيخة :

عندما يرقى المريد إلى رتبة مشيخة الطريق فإن شيخه يكتب له إجازة بمشيخة الطريق ودعوة الخلق إلى طريق الحق ، وغالبًا ما تتضمن هذه الإجازة على آداب الطريق ، ومن ذلك ما جاء في إجازة مشيخة الطريقة الخلوتية العونية العيونية ، والذي يعتبر بيانًا أكثر تفصيلاً لما أوردناه نظمًا عن آداب المريد مع شيخه - نسوقها بعد إعادة ترتيبها - حيث يقولون : فأما الآداب التي تُطلب من المريد في حق شيخه فهي كثيرة جدًا ، منها :

١- أن يحسن فيه الظن في كل حال .

٢- أن لا يتجسس على أحوال الشيخ من عبادة أو عادة ، فإن في ذلك هلاكه .

٣- أن لا يذكره بخير عند أعدائه خوفًا من أن يكون وسيلة لقدحهم فيه .

٤- أن يحب من أحبه الشيخ ويكره من يكرهه .

٥- أن لا يزوره إلا على طهارة ؛ لأن حضرة الشيخ من حضرة اللّه .

٦- تقديمه على غيره وعدم الالتجاء إلى غيره من الصالحين ، فلا يزور وليًا من أهل العصر ولا صالحًا إلا بإذنه ، ولا يحضر مجلس غيره إلا بإذنه ، ولا يسمع منْ سواه حتى يتم سقيه من ماء سر شيخه .

٧- عدم الاعتراض عليه في أي شيء فعله ، ولو كان ظاهره أنه حرام .

٨- تعظيمه وتوقيره باطنًا وظاهرًا ؛ لأنه دليله وبه وصوله إلى المقصود ؛ لأن من سلك طريقًا بغير دليل تاه وضل ، وربما هلك مع الهالكين .

٩- أن يحفظه في غيبته كحفظه في حضرته .

١٠- أن يقدم محبته على محبة غيره ما عدا اللّه ورسوله ، فإن محبتهما هي المقصودة بالذات ، ومحبة الشيخ وسيلة لها .

١١- أن يلازم الورد الذي رتبه له ، فإن مدد الشيخ في ورده ، فمن تخلف عنه فقد حرم المدد ، وهيهات أن يصح في الطريق .

١٢- أن يعتقد أن كل بركة حصلت له من بركات الدنيا والآخرة من بركة شيخه .

١٣- أن يلاحظه في قلبه في جميع أموره .

١٤- أن يستمد المريد بقلبه عند شروعه في الذكر من شيخه ، وأن يرى استمداده من شيخه هو استمداد حقيقة من النبي ﷺ .

وسنعيد ترتيب هذه الآداب حسب درجة الغلو فيها ، فهي تبدأ بآداب شرعية مثل : حسن الظن ، وعدم التجسس على الناس ، ثم تتدرج إلى عدم إنكار المنكر ، ثم تخصيص الشيخ بأنه المصدر الذي يستقي منه المريد منهج العبادة وهو الورد ، إلى أن تجعل الشيخ وسيطًا بينك وبين ربك في الإمداد ، وتلقي البركات ، مع حجب السالك إلى اللّه تعالى من أسباب العلم وطرق تحصيله ومنها : تحذير المريد من لقاء الصالحين والعلماء ، وهذه نقطة حيوية في الفكر الصوفي ، وينقل عبد الوهاب الشعراني في الأنوار القدسية في معرفة قواعد وآداب الصوفية (٢: ١٢) أن الشيخ علي وفا يشرح خطورة محبة الصالحين والاستماع إليهم بقوله : لما كان الحق تعالى : ﴿ لاَ يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء : ٤٨] ، فكذلك الأشياخ لا يغفرون أن يُشرك بهم ، تخلقًا بنظر مسمى أخلاق اللّه ، عز وجل ، فإذا رأيت أيها المريد شيخك يتشوش منك إذا أشركت في محبته شيخًا آخر ، فإياك أن تسيء به الظن ، بل اشهد أن ذلك من أخلاق اللّه ، عز وجل ، الذي يقول : ﴿ إن اللّه لاَ يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ ، ظهر على لسان وليه : ويضيف السبكي في العهد الوثيق لمن أراد سلوك أحسن طريق (ص٨٣) ما يلي :

١- أن لا يجلس المريد بحضرة الشيخ إلا كجلوسه للصلاة ، إلا لضرورة ، وليحذر من الإكثار من مجالسته ، فإن المريد ربما ذهبت حُرْمَةُ شيخه من قلبه بكثرة مجالسته له ، فيهون عليه بذلك قدره فيُحرم بركته ، وأن لا يديم النظر إلى وجهه ، فمن أدمن النظر إلى وجه شيخه فقد خلع ربقة الحياء من عنقه ، وربما حرم بركته .

٢- أن يجتهد المريد في إكرام كل من يلوذ بالشيخ ولا سيما أولاده ، إذا غاب .

٣- أن لا يتغير المريد على شيخه إذا نَقَّصَهُ بين إخوانه ، أو فعل به أي فعل ؛ لأن الشيخ لا يفعل مع المريد ذلك إلا لمصلحة يَقْصُرُ عن إدراكها عقله .

٤- أن يمتثل المريد أمر شيخه إذا منعه من فعل مباح ، وإذا احتج المريد على الشيخ بأقاويل العلماء في جواز فعل المباح لم يفلح أبدًا ، وإذا تركه المريد يحتج عليه ، ولم يزجره عن ذلك ، فقد مكر به وأخرجه عن صحبته .

وتضيف النصوص السابقة إلى الآداب الصوفية تقديسًا جديدًا للشيخ ، سواء بعدم مجالسته أو النظر إليه ، وللشيخ الحق في نهي المريد عن المعروف ، وليس للمريد أن يناقشه أو يتعرف على حكمة هذا المنع ، وبهذا يتأكد أن كل شيخ يعتبر نفسه في مقام الخضر عليه السلام .

وللحديث بقية ، واللّه ولي التوفيق .

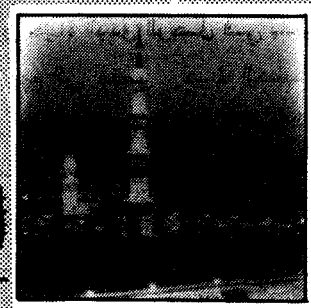

عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة

بقلم عميد متقاعد / محمود المراكبي

آداب المريد مع شيخه في السلوك الصوفي

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وعلى آله وصحبه وعلى عباد الله الصالحين أجمعين ، وعلينا معهم برحمتك يا كريم ، وبعد :

فاستكمالاً لحديثنا عن آداب المريد مع شيخه ، والتي قسمها الصوفية إلى آداب ظاهرة ، وأخرى باطنة ، وبيانها كالتالي :

■ **الآداب الظاهرة :**

للشعراني باع طويل في اختراع آداب ينبغي للمريد أن يعمل بها حين يعامل شيخه ، ومنها قوله : (إن طريق الوصول إلى الحقيقة هو السلوك على يد شيخ عارف بميزان كل حركة وسكون ، بشرط أن يسلمه نفسه يتصرف فيها وفي أموالها وعيالها كيف شاء ، مع انشراح قلب المريد لذلك كل الانشراح) .

ثم يحذر من مخالفة الشيخ في كتابه ((الميزان الكبرى)) (ص ٢٠) قائلاً : (وأما من يقول له شيخه : طلق امرأتك ، أو أسقط حقك من مالك ، أو وظيفتك مثلاً فيتوقف ، فلا يشم من طريق الوصول إلى عين الشريعة المذكورة رائحة ، ولو عَبَدَ اللّه ألف عام) .

ويكرر ابن عجيبة نفس المفاهيم الصوفية عن آداب المريد مع شيخه في الطريقة الشاذلية فيقول في كتاب ((إيقاظ الهمم في شرح حكم ابن عطاء اللّه السكندري)) (ص ١٣٦) : أما الآداب التي تكون مع الشيخ ، فمرجعها إلى ثمانية أمور : أربعة ظاهرة ، وأربعة باطنة .

■ **أما الآداب الظاهرة فهي :**

١- امتثال أمره وإن ظهر له خلافه ، واجتناب نهيه وإن كان فيه حتفه ، فخطأ الشيخ أحسن من صواب المريد .

٢- السكون والوقار في الجلوس بين يديه ، فلا يضحك بين يديه ، ولا يرفع صوته عليه ، ولا يتكلم حتى يستدعيه للكلام ، أو يفهم عنه بقرائن الأحوال ، كحال المذاكرة بخفض صوت ورفق ولين ، ولا يأكل معه ولا بين يديه ، ولا ينام معه أو قريبًا منه ، ثم يستشهد بشيخ له يقول : ولا ينام في فراشه ، ولا يجلس في موضع جلوسه ، ولا يتكلم في مجلس الشيخ ولو كلمة واحدة ، والكلام فيه سوء الأدب أكثر من كل شيء ، كل ما يشبه هذه الأوصاف يؤدي لعدم التعظيم والازدراء بجانب الشيخ ، وذلك هو الخسران المبين ، والعياذ باللّه من السلب بعد العطاء ، والطرد بعد الإقبال .

٣- المبادرة إلى خدمته بقدر الإمكان بنفسه أو بماله أو بقوله ، فخدمة الرجال سبب للوصال لمولى الموالي .

٤- دوام حضور مجلسه ، فإن لم يكن فتكرير الوصول إليه ، إذ بقدر تكرير الوصول إليه يقرب الوصول ، فمدد الشيخ جار كالساقية ، فإذا غفل عن الساقية تخرم وانقطع الماء .

■ **الآداب الباطنة :**

أما الآداب الباطنة فهي :

١- اعتقاد كماله ، وأنه أهل للشيوخة والتربية ، لجمعه بين شريعة وحقيقة ، وبين جذب وسلوك ، وأنه على قدم المساواة بالنبي ﷺ .

٢- تعظيمه ، وحفظ حرمته غائبًا وحاضرًا ، وتربية محبته في قلبه ، وهو دليل صدقه ، وبقدر التصديق يكون التحقيق . وانعزاله عن عقله ورياسته وعلمه وعمله إلا ما يرد عليه من قِبَل شيخه ، كما فعل الشاذلي عند ملاقاته بشيخه ، فهي سنةٌ في طريقته ، فكل من أتى شيخه في هذه الطريقة الشاذلية فلا بد أن يغتسل من علمه وعمله قبل أن يصل إلى شيخه ، لينال الشراب الصافي من بحر مدده الوافي .

٣- عند الانتقال عنه - أي الشيخ - إلى غيره ، وهذا عندهم من أقبح كل قبيح ، وأشنع كل شنيع ، وهو سبب تسويس بذور الإرادة ، فتفسد شجرة الإرادة لفساد أصلها ، وهذا كله مع شيوخ التربية كما تقدم ، وأما شيوخ أهل الظاهر فلا بأس أن ينتقل عنهم إلى أهل الباطن إن وجدهم ، ولا يحتاج إلى إذن ، واللّه أعلم .

ويروي الشعراني في « الأنوار القدسية في معرفة قواعد وآداب الصوفية » (٢: ١٢) قائلاً : سمعت علي المرصفي يقول : « يجب على المريد أن يعتقد في شيخه أنه على شرع من ربه وبينة من أمره ، ولا يزن أحواله بميزان عقله هو ، فقد يأتي الشيخ صورة مذمومة في الظاهر وهي محمودة في الباطن ، كما وقع للخضر مع موسى عليهما السلام » .

ويقول في موضع آخر : (يجب على المريد أن يرى الخلق كالأطفال في حجر الشيخ ، يربيهم ويفعل معهم ما هو أصلح لهم ، فمثل هذا الاعتراض عليه كالاعتراض على الخضر عليه السلام فيما فعله مع موسى عليه الصلاة والسلام ، فإن قول الخضر : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ [الكهف : ٨٢] ، مثل قول نبينا ﷺ : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [الأنعام : ٥٠] ، فكما أن الخضر هو شيخ الأولياء في علوم الحقيقة بحكم النيابة لرسول اللّه ﷺ ، فعلم أنه لا ينبغي الاعتراض إلا على من يبلغ حد الكمال من المتمشيخين بأنفسهم) .

■ **خطورة آداب الصوفية :**

إن آداب الصوفية التي يطالب المشايخ المريدين باتباعها تتضمن سمومًا قادحة تهلك العقيدة السمحة ، والتوحيد الخالص ، وأخطر ما فيها هو الآتي :

١- الاكتفاء بالشيخ وتعظيمه ، والتحذير من سماع العلم من غيره ، أو حتى زيارة العلماء والصالحين ، وألا يقرأ

كتابًا في العلم إلا بإذن الشيخ ، بل إن أكثر المشايخ يطلب من المريد أن يحرث ما تعلمه من علم قبل أن يلقنه العهد ، وقد حدث هذا مع الشاذلي وشيخه ابن بشيش ، وكذا الشعراني وشيخه الخواص ، وابن المبارك وشيخه الدباغ وغيرهم .

٢- عدم الاعتراض على الشيخ ، ولو أتى فعلاً حرامًا ، أو قولاً مخالفًا للشريعة .

٣- التوقف عن فعل المعروف إذا أمره الشيخ .

٤- تقديس الشيخ ؛ فليس للمريد أن يتكلم أو يأكل أو يضحك في حضرته ، بل لا يجلس في فراشه ، ولا ينظر في وجهه .

٥- استمداد المريد من شيخه وبركته تعم المريد في دنياه وأخراه .

٦- ملازمة ورد الشيخ ، والويل لمن تركه ، فلن يفلح أبدًا .

٧- أن لا يتزوج المريد امرأة رأى الشيخ ماثلاً إلى التزوج بها ، ولا امرأة طلقها الشيخ أو مات عنها .

كيف يطلب المشايخ من أتباعهم ما لم يطلبه رسول الله ﷺ من أصحابه ؟ بل إنهم يطلبون منهم ما نهى النبي ﷺ عنه ، حتى إنه ﷺ لعن الرجل الذين يتيمز بين إخوانه .

■ **اكتفاء المريد بشيخه :**

تمثل حقيقة آداب الصوفي مع شيخه - التي عرضناها من قبل - نظامًا متكاملاً يضمن إحكام سيطرة الشيخ على المريد ، فالخطوة الأولى أن يسد الشيخ على المريد أسباب تحصيل العلم ، فغير مسموح للمريد أن يقرأ كتابًا ، أو يلقى شيخًا صالحًا أو يحضر مجلسه ، ولا يسمع من عالم إلا بإذن الشيخ ، ولن يعدم الشيخ أن ينفر المريد من أي خاطر يراوده نحو تحصيل العلم ، بل هم يقولون للمريد : إن العلم حجاب ، وعلم الظاهر قشور ، والعلم الحقيقي الباطني لن يناله المريد إلا بعد أن يُسلم نفسه لشيخه كالميت بين يدي الغاسل ، تطالب التربية الصوفية المريد أن يحرث علمه السابق ، حتى يعد نفسه لتلقي العلم اللدني ، فالمطلوب من المريد أن يستمر على صلته وصحبته لشيخه ، وحضور الحضرات وقراءة الأوراد ، ففي ذلك نجاة المريد وتأهيله ليصبح من أهل الخصوص ، وكثيرًا ما سمعنا في الحضرات أن المريد إذا تلقن الطريق ، وأعطاه شيخه العهد ، فإن ركعتين يصليها المريد تفوق عبادة أربعين سنة من عبادة العامة ، وما اهتم المشايخ بهذه النصوص إلا ليجعلوا المريدين لا يحرصون إلا على حضور الحضرات والالتزام بالأوراد والاكتفاء بهما فقط .

ومن أهم الآداب الصوفية أن يرى المريد كمال شيخه وأن ينزهه عن مقام القطبانية ، وألا يرى شيخًا أعلى قدرًا ومقامًا من أستاذه في الطريق ، ونادرًا ما تجد عارفًا أو صوفيًا تتلمذ على يدي أكثر من شيخ ، وهذا المسلك على النقيض تمامًا من مسلك علماء الأمة النوابغ ، على اختلاف علومهم في القرآن والحديث والفقه ، وغير ذلك من العلوم الأصلية ، وقد بلغ عدد شيوخ أحدهم المئات في بعض الأحيان ، ولا يستطيع المتتبع أن يستقصي عدد من روى عنهم المصنفين للسنن والصحاح وغيرها ، فالبخاري ومسلم وأحمد بن حنبل - على سبيل المثال - تتلمذ كل منهم على الكثير من المشايخ ، بل كانوا يسافرون البلدان ويقطعون الفيافي والصحراء ليعلو أحدهم بإسناد حديث يحفظه بإسناد نازل ، وما حذرهم أحد من كثرة التردد على العلماء .

■ **عقوبة الاعتراض على الشيخ :**

إن القارئ لكتب التصوف ، وخاصة الكرامات وطبقات المشايخ يدرك من أول وهلة أن أبرز أهدافها تحذير المريدين من الاعتراض على المشايخ ، سواء في حياتهم أو بعد

مماتهم ، لذا يقول أبو عبد الرحمن السلمي : من قال لأستاذه : لِمَ ؟ لا يفلح أبدًا[1] .

ولهذا فقد تأصل في وجدان الصوفية مفهوم من اعترض انطرد ، وليس الطرد المقصود هو إخراج المريد من أمام شيخه ، أو حتى من طريقته ، وإنما الأمر أخطر من ذلك بكثير ، فهو في حقيقته قريب من الطرد الكنسي والحرمان من دخول ملكوت المسيح يوم الدينونة عند النصارى ، وهذا يشرحه الشعراني في ((طبقاته الكبرى)) (١: ١٦٢) بقوله : (إن رجلاً أنكر حضور مولد أحمد البدوي ، فسُلِبَ الإيمان ، فلم تكن فيه شعرة تحن إلى دين الإسلام ، فاستغاث بأحمد البدوي فقال - أي البدوي -: بشرط ألا تعود ، فقال : نعم ، فَرَدَّ عليه ثوب الإيمان ، ثم قال له : ماذا تُنكر علينا ؟ قال : اختلاط الرجال والنساء - في الموالد - فقال له أحمد البدوي : ذلك واقع في الطواف ، ولم يمنع أحد منه ، ثم قال له : وعزة ربي ما عصى أحد في مولدي إلا تاب وحسنت توبته ، وإذا كنت أرعى الوحوش والسمك في البحار وأحميهم من بعضهم بعضًا ، أفيعجزني اللّه عز وجل عن حماية من يحضر مولدي) !!

وقد يتعجل قارئ صوفي فيقول : إن هذه الرواية مدسوسة وظاهر بطلانها ، ولم يقلها الشعراني ، والرد على ذلك : أنه إذا كانت الرواية منكرة فلِمَ نقلها عنه كثير من أكابر الصوفية ، ومنهم الشبلنجي في كتابه ((نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار)) (ص ٢٤٠) ، ونسبها للشعراني في ((طبقاته)) ، فلو كانت مدسوسة على الشعراني أو البدوي فلِمَ ينقلها المشايخ في كتبهم وينقلونها لكم !!

هذه الكرامة المزعومة ينسج الشعراني وغيره مئات من القصص والحكايات على منوالها ، والصوفية تعتبر الأحلام عن البدوي أو غيره تشريع في حد ذاته ، ومن المؤكد أن الأفكار والمفاهيم التي تساق لها مثل هذه الحكايات تخالف أصول الإيمان ، مثل إقامة الموالد ، وسلب الإيمان عمن ينكرها ، ثم الاستغاثة بصاحب الضريح ، ثم الحديث مع الموتى ، واشترط البدوي على الرجل عدم الإنكار ، ثم تكرم البدوي برد الإيمان بعد أن سلبه ، ثم قَسَمٌ غليظ من البدوي صاحب الضريح - يتضمن الإعلان عن ربوبيته للأسماك في البحار والتزامها بأوامره - فكيف لا يضمن تأمين العصاة عنده ، وكيف تضرهم المعصية وهم في معية ضريحه المقدس !! وبالتالي يضمن أن تعقب هذه المعاصي توبة نصوح ، وفي ذلك رخصة كبرى في مجالسة النساء في الموالد ، وتصريح لشاربي الحشيش ، ولاعبي القمار ، وفناني السيرك على سلامة موقفهم ، طالما يشاركون في الموالد ويساهمون في إحيائها .

ويحكي يوسف إسماعيل النبهاني صاحب كتاب ((جامع كرامات الأولياء)) (١: ٥١٢) أن رجلاً يدعي ابن اللبان اعترض يومًا على أحمد البدوي ، فسُلب القرآن والعلم والإيمان ، فلم يزل يستغيث بالأولياء ، فلم يقدر أحد أن يدخل في أمره ، فدلوه على (الشيخ) ياقوت العرش ، فمضى إلى ضريح أحمد البدوي وكلمه في قبره ، وأجابه قائلاً : أنت أبو الفتيان ، رد على هذا المسكين رأس ماله ، فقال : بشرط التوبة ، فتاب ورد عليه رأس ماله ، وهذا كان سبب اعتقاد ابن اللبان في ياقوت العرش .

ولما اعترض ابن دقيق العيد على ترك أحمد البدوي للصلاة وقال له : إنك لا تصلي ، وما هذا من سنن الصالحين ، فقال البدوي : اسكت ، وإلا أغبر

---

(١) نقلاً عن ((العهد الوثيق لمن أراد أحسن طريق)) للسبكي (ص ٦٩) ، ويعرف الأستاذ أبو سهل الصعلوكي التصوف بقوله : (التصوف الإعراض عن الاعتراض) . نقلاً عن كتاب ((فرق معاصرة)) إعداد غالب بن علي عواجي (٥٩٦) .

دقيقك ، ودفعه ، فإذا هو بجزيرة متسعة جدًا ، فضاق ذرعًا ، حتى كاد أن يهلك ، فرأى الخضر عليه السلام فقال : لا بأس عليك ، إن مثل البدوي لا يُعترض عليه ، لكن اذهب إلى هذه القبة وقف ببابها ، فإنه سيأتك العصر ليصلي بالناس ، فتعلق بأذياله لعله يعفو ، ففعل فدفعه ، فإذا هو بباب بيته[1] .

والمعنى المقصود من ذكر هذه الكرامة أن الناس تظلم المشايخ والأقطاب الذين لا يصلون ، بينما هم في الحقيقة يصلون في الجزر المتسعة أو تحت الأرض أو عند العرش ، والويل كل الويل لمن يعترض على ترك مشايخ الصوفية للفرائض ، فلقد أعذر من أنذر .

ويروي الشعراني في « الطبقات » (٢: ٨٨) : أن عليًا المرصفي قال : يجب على المريد أن يعتقد في شيخه أنه على شرع من ربه ، وبينة من أمره ، ولا يزن أحواله بميزان عقله هو ، فقد يأتي من الشيخ صورة مذمومة في الظاهر ، وهي محمودة في الباطن ، كما وقع للخضر مع موسى ، عليهما السلام . اهـ .

وكثير من مشايخ الطرق الصوفية يستفتح كتاب الأوراد بالتحذير من الاعتراض على المشايخ ، ومنها « مجموع رواتب المرغني » (ص٩) ، حيث نظم شيخ الطريقة الختمية المرغنية في أول ورده ما يلي :

لا تعترض واعتقد تكتب مع الأحباء
ولا تكن مُنكرًا يُغلق عليك الباب
الأولياء في الورى أخفاهم الوهاب
كليلة القدر أخفاها على الطلاب

ثم يستشهد الشيخ بشعر لابن عربي يقول فيه :

نحن حزب اللّه من يغلبنا
جَدُّنا جد وَجَدٌّ هزلنا

ويعرفنا الشبلي علامة صدق المريد فيقول : (من علامة صدق المريد اعتقاده أن شيخه جاسوس على قلبه ، يدخل في قلبه ، يعلم ما عنده ، ويخرج من حيث لا يحتسب) . « العهد الوثيق » للسبكي (٦٨) .

فمن يدخل قلب مريده وجب مراقبته ، وعدم الاعتراض عليه ، بل والخوف منه ، فقد ورد عن حمدون القصار أنه قال : (من علامة صدق المريد إذا دخل على شيخه كأنه داخل على سلطان جائر يخاف سطوته) . « العهد الوثيق » للسبكي (٥٧) .

بل إن مخالفة الشيخ في أبسط الأمور قد تؤدي إلى أوخم العواقب ، فقد قال شقيق البلخي لمريد صائم يومًا : أفطر معنا اليوم ولك أجر يوم ، فقال : لا ، فقال الشيخ : لك أجر جمعة ، فقال المريد : لا ، فقال الشيخ : لك أجر شهر ، فقال المريد : لا ، فقال الشيخ : لك أجر سنة ، فقال المريد : لا ، قال الشيخ : دعوه ، فقد سقط من رعاية اللّه تعالى ، فخرج المريد من عندهم فسرق فقطعت يده . « العهد الوثيق » للسبكي . (٧١) .

إن المريد إذا أذعن لشيخه وسلم له قياده ، وتأدب بآداب الصوفية التي وضعوها وصاغوا قوالبها بمعرفتهم ، وأصبح بين يدي شيخه كالميت بين يدي الغاسل لا إرادة له ولا حراك ، تراه وقد تعطل عقله ، وتحجر فهمه ، تجده ينهل من الأحاديث الموضوعة ، ويستغرب صحيح السنة المطهرة ، ويأولها ليخرج مضمونها عن مراده ، والأمثلة على ذلك كثيرة لا يتسع موضوعنا لذكرها .

والخلاصة أن المريد يحول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى اعتراض على أحوال الناس ، والطامة الكبرى لو كان هؤلاء الناس من أرباب الطرق !! وللحديث بقية .

واللّه ولي التوفيق .

---

(١) « جامع كرامات الأولياء » ليوسف النبهاني (١: ٥١٢) ، وأوردها الشبلنجي في « نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار » (ص ٢٣٩) .

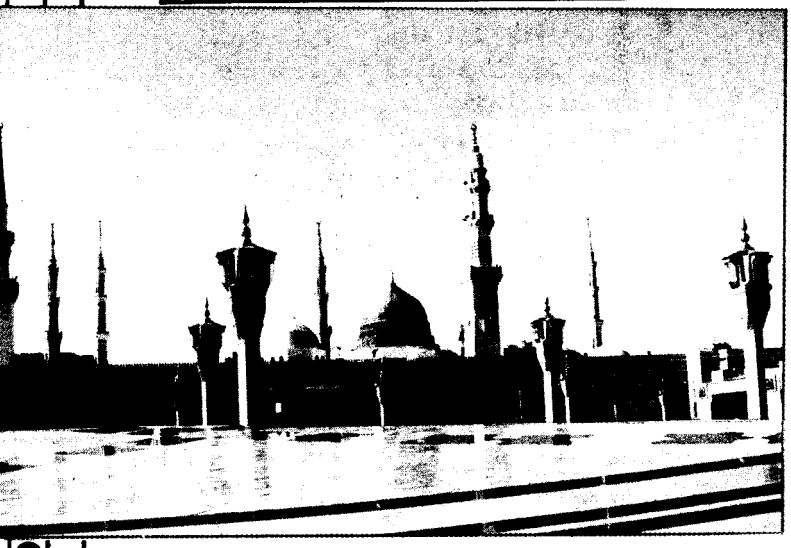

مدد الشيخ

بقلم عميد متقاعد / محمود المراكبي

الحمد لله السابق فضله على جميع من خلق ، والقائل في محكم التنزيل : ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٠] ، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه . وبعد :

فمن أكثر الألفاظ انتشارًا بين أبناء الطرق الصوفية : (مدد يا سيدي فلان) ، وكلمة : (مدد) يراد بها : أن فلان هذا هو مصدر الإمداد بالبركات والأنوار والفيوضات والفتوحات ، وأن طلب المدد من الشيخ يحتاج إلى : إخلاص ، وصدق ، وحب ، وما إلى ذلك من أمور ، والشيخ - عندهم - بصفته ولي من أولياء الله ؛ فقد أوكل الحق ، تبارك وتعالى ، إليه إمداد أبناء الطريق ، ولا بد للمريد من التيقن أن مدد شيخه واصل إليه لا محالة ، خاصة عند الشدائد ، سواء في الدنيا أو عند الموت والسؤال في القبر ، ثم ينعم المريد بحماية شيخه يوم الهول الأكبر .

وقد زعم بعض المشايخ أنهم لا يمدون أبناء طرقهم فحسب ، أو الصوفية وأتباعها ككل ، بل إنهم يتعهدون العالمين ، ومنهم أبناء الطريقة الدسوقية والتجانية التي ننقلها عن ((الياقوتة الفريدة في الطريقة التجانية لمحمد بن عبد الواحد محمد النظيفي ٨)) بعض مناقب شيخهم أبا الفيض التجاني يقولون فيه :

وإني كنيته أبا الفيض إنه
يمد جميع العالمين بفيضة
فكل ولي كيف كان ببحره
أمد بقدر ما له من فضيلة
من أول نشأة العوالم كلها
إلى النفخ يسقي كل فرد وذرة
فما فاض من ذات النبي محمد
تلقته ذات الختم دون وسيطة
كما تتلقى كل فيض من أنبيا
ورسل عليهم جميعًا تحيتي
فمنها تفرقت فيوض الخليقة
فما ذرة إلا وفازت بقسمة

لا نستطيع أن نعلق على هذه الترهات ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وكيف تقبل أتباع هذه الطرق إملاء الشيطان بهذا القدر من الشرك والكفر ، وكيف سمحت لهم عقولهم بتصديق هذه المزاعم التي ترفع شيخهم إلى رتبة الربوبية !!

مدد الشيخ في الدنيا :

إذا حجب الشيخ المريد وعزله عن العلم وأسبابه ، حذره من توجيه الأسئلة في مجلسه ، طالبه أن يفسح له صدره ولا يخالفه ، حتى إذا قال ما ينكره عليه الشرع ، أو فعل الحرام عيانًا جهارًا ، طالبه أن يحسن الظن في شيخه ، ويعتقد أن بركته هي التي ساقت إليه خيرات الدنيا والآخرة ، وأعرف شيوخًا للطرق يقولون لمريديهم : كلما زادت خدماتكم لشيخكم اتسعت أرزاقكم !! ومن يناله ضر يقول له الشيخ : ذلك جزاء عصيانك أو تقصيرك !! وقال شيخ أعرفه لمريد مشاغب سُجن في قضية رشوة اتهم فيها : إن هذا السجن كان من غضب الشيخ عليه ، فاستحق المريد دخول السجن ، فكأنها قرصة أذن من الشيخ ، ثم قال له بالحرف الواحد : ((وإن عدتم عدنا)) !!

إن المريد مطالب بحسن الاعتقاد في شيخه ، مع بالغ التعظيم والتنزيه ، وأن يرفعه فوق مقام القطبانية ، فكل شيخ قطب لمريده ، بل إن شئت قلت : هو الخضر بالنسبة له ، فشيخه هو العبد الرباني الذي يقول للشيء : كن فيكون ، وهو عضو بارز في ديوان التصريف ، فلقاء المريد وتلقيه عن شيخه يمنحه حماية ظاهرة وباطنة ، ولا تنتهي هذه الحماية بنهاية حياة الشيخ أو المريد ، بل هي ممتدة في عالم الأرواح إلى قيام الساعة ، فلا غرابة أن يصرح إبراهيم الدسوقي بقوله : (أشهدني الله تعالى ما في العلى وأنا ابن ست سنين ، ونظرت في اللوح المحفوظ وأنا ابن ثمان سنوات ، وفككت طلسم السماء وأنا ابن تسع سنين ، ورأيت في السبع المثاني حرفًا معجمًا حار فيه الجن والإنس ففهمته ، وحمدت الله رب العالمين على معرفته ، وحركتُ ما سكن ، وسكنت ما تحرك بإذن الله وأنا ابن أربع عشرة سنة) . ((الطبقات الكبرى)) للشعراني : (١: ١٢٨) .

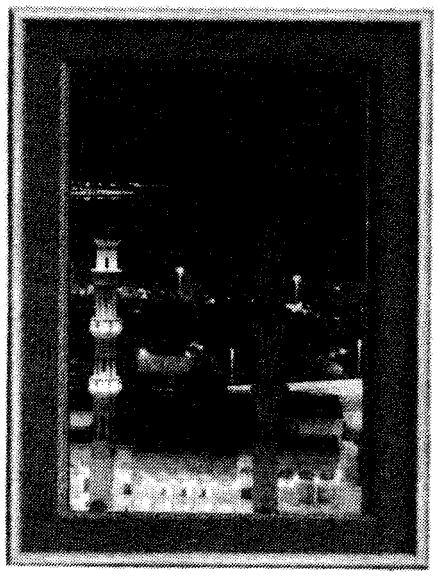

تحكي هذه الرواية مراحل حياة إبراهيم الدسوقي حتى شرخ الشباب ، أما شأنه في عالم الأرواح فتقصه علينا هذه الحكاية التي نظمها عن نفسه ، وينقلها عنه أحبابه في الطريق :

أنا كنت مع نوح أشاهد في الورى
بحارًا وطوفانًا على كف قدرتي
وكنت مع إبراهيم مُلقى بناره
وما بَرْدَ النيران إلا بدعوتي
أنا كنت مع راعي الذبيح فداءه
وما نزل الكبشان إلا بفتوتي
أنا كنت مع يعقوب مُلقى بناره
وما بَرئت عيناه إلا بتفلتي

فإذا بلغ تصرف الدسوقي في حماية الأنبياء هذا المدى ، فهو ربان سفينة نوح ، ومن بركة دعائه بردت النيران على إبراهيم الخليل ، وبفتوته أنقذ الله إسماعيل من الذبح ، وبإمداده برئت عينا يعقوب عليه السلام ، فكيف لا يركن إليه أبناء الطريق ؟ ولا غرو أن يقول الدسوقي في قصيدة أخرى :

كل كرم لله في الأرض ملكي
منه فضلا سبحانه من قدير
يا وزيري جُزت السماء بأمي
وأبي كان صحبتي وسميري
عاينتني الأملاك وقت مسيري
حين تخفى الأنوار من ضوء نوري
طاب وقتي بين الرجال وأنسي
فاح ريح بطيبه كالعبير
يا وزيري يكفيك من سر سري
حول ربعي في الليل ذكر الطيور[11]

ولا تنتهي الكرامات المزعومة للمشايخ ، ومنها ما يرويه الشعراني في ((طبقاته)) (١: ١٣٥) عن

---

(١) ((الحزب الكبير والصغير)) لإبراهيم الدسوقي ص (١٧) .

الشيخ عبد الرحيم القناوي الذي : (كان إذا شاوره إنسان في شيء يقول : أمهلني حتى أستأذن فيه جبريل عليه السلام ، فيمهله ساعة ، ثم يقول له : افعل ، أو لا تفعل ، على حسب ما يقول جبريل) !!

وبعض المشايخ لا يحتاج إلى ساعة حتى يستفتي جبريل ؛ لأنه مطلع على اللوح المحفوظ ، ومنهم الشيخ جاكير الذي يقول : (ما أخذت العهد قط على مريد حتى رأيت اسمه مكتوبًا في اللوح المحفوظ) .

وقد لاحظ الشيخ إبراهيم المتبولي أن أحد أبنائه في الطريق لا يتقدم بالمعدل الذي يريد ، فسأله قائلاً : (ما لي أراك كثير العبادة ، ناقص الدرجة ، لعل والدك غير راض عنك ؟ فقال : نعم ، قال : تعرف قبره ؟ فقال : نعم ، قال : اذهب بنا إلى قبره لعله يرضى ، قال الشيخ يوسف الكردي راوي هذه الرواية : فوالله لقد رأيت والده يخرج من القبر ينفض التراب عن رأسه حين ناداه الشيخ ، فلما استوى قائمًا ، قال الشيخ : الفقراء جاءوا شافعين ، تطيب خاطرك على ولدك هذا ، فقال : أشهدكم أني قد رضيت عنه ، قال : ارجع مكانك ، فرجع قبره) . ((الطبقات الكبرى)) للشعراني (٢: ٧٨) .

إن الشيخ المتبولي بهذا التصرف يتصدى لأصل القضية ، ويعالجها من جذورها ! ولا يمنعه موت الرجل أن يبعثه ويسترضيه على ولده فيرضى عنه فيتحسن سلوك ولده في الطريق !! أي ذهن مشوش صاغ هذه الحكاية ؟ وأي سذاجة تلك التي دفعت الشعراني إلى الاحتجاج بها ؟ وأي جاهل يخشى من الخطر عليه إن هو أنكر هذه البلاهة وتلك البلايا ؟!

مدد الشيخ عند الموت :

بعد رسوخ فكرة مدد الشيخ في الفكر الصوفي كما أسلفنا توسع الأمر ليشمل وقوف الشيخ إلى جانب مريده والدفاع عنه في أحلك المواقف ، ألا وهي لحظات قبض الروح ، وسنرى أيضًا دور الشيخ عند سؤال المريد وفتنته في قبره ، ومن أغرب الروايات التي يمكن أن يقرأها المرء في كتب القوم ما يرويه الشعراني في ((طبقاته الكبرى)) قائلاً : (مرض ابن للشيخ محمد الشربيني ، وأشرف على الموت ، وحضر عزرائيل عليه السلام لقبض روحه ، فقال الشيخ لعزرائيل : ارجع إلى ربك فراجعه ، فإن الأمر نُسِخ ، فرجع عزرائيل ، وشفي ولده ، وعاش بعدها ثلاثين عامًا) !!

وبهذا نرى كيف أنقذ الشيخ الشربيني ملك الموت من ارتكاب خطأ كبير ، فأمر قبض روح ولده نسخ ، ولم يعلم به ملك الموت وعلمه الشربيني ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وربما تكون القصة التالية أكثر غرابة من سابقتها ، حيث يُروى أن : (الشيخ مدين مرض مرة أشرف فيها على الموت ، فوهبه الشيخ محمد الشويمي من عمره عشر سنوات ، (ثم مات الشيخ مدين بعد هذه السنوات العشر) في غيبة الشيخ الشويمي ، فجاءه وهو على المغتسل ، فقال : كيف مت ؟ وعزة ربي لو كنت حاضرك ما خليتك تموت ، ثم شرب ماء غسله كله) . ((الطبقات الكبرى)) للشعراني (١: ٩٤) .

ويروي يوسف النبهاني في ((جامع كرامات الأولياء)) (٢: ٢٤٥) : أن عبد الله باعلوي دَفَنَ مريدًا له ، ثم جلس على قبره ساعة ، فتغير وجهه ، ثم ضحك واستبشر ، فسُئل عن ذلك ، فقال : (إن الرجل لما سأله الملكان عن ربه ، قال : شيخي عبد الله باعلوي ، فَتَعِيْتُ لذلك ، فسألاه أيضًا فأجاب بذلك ، فقالا له : مرحبًا بك وبشيخك عبد الله باعلوي) !! ويعلق بعض الصوفية قائلاً : هكذا ينبغي أن يكون الشيخ يحفظ مريده حتى بعد موته .

إذن ليس من العجيب من أن ينتشر بين الصوفية أن أهم دور يلعبه الشيخ في حياة المريد هو تثبيته عند سؤال الملكين في القبر ، وانظر يا أخي إلى إجابة المريد عندما سُئل : من ربك ؟ حيث قال : شيخي فلان ، والغريب أن يقص الشيخ هذه الكرامة على أبنائه ليعلمهم كيف يكون سؤال الملكين ، ويلقنهم الرد الصوفي المناسب .

ويقرر أبو المواهب عبد الوهاب الشعراني تلك المفاهيم حين يقول : (من الأولياء من ينفع مريده الصادق بعد موته ، أكثر مما ينفعه حال حياته ، ومن العباد من تولى الله تربيته بنفسه بغير واسطة ، ومنهم من تولاه بواسطة بعض أوليائه ولو كان في قبره ، فيربي مريده وهو في قبره ، ويسمع مريده صوته من القبر) .

ويكرر الشعراني نفس المفاهيم في ((الطبقات الكبرى)) (١: ٩) ، فتراه يجامل علماء الشريعة بقوله : (إن أئمة الفقهاء أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد يشفعون في مقلديهم ، ويلاحظون أحدهم عند طلوع روحه ، وعند سؤال منكر ونكير ، وعند النشر والحشر والحساب والميزان والصراط ، ولا يغفلون عنهم في موقف من المواقف) .

ثم يستطرد قائلاً : (إذا كان مشايخ الصوفية يلاحظون أتباعهم ومريديهم في جميع الأهوال والشدائد في الدنيا والآخرة ، فكيف بأئمة المذاهب الذين هم أوتاد الأرض ، وأركان الدنيا ، وأمناء الشارع على أمته) .

مدد الشيخ بعد الموت :

يعتقد الصوفية أن المريد ببركة شيخه قد يقطع المقامات ويرقى الدرجات بعد موته وهو في عالم البرزخ ، كما أن المشايخ إذا ماتوا يتصرفون وهم في قبورهم في أحوال مريديهم ، وأعرف خليفة من خلفاء الشيخ يُظْهِرُ لمريديه أنه لا يتحرك إلا إذا استأذن شيخه الذي مات منذ عقدين من الزمان ، ومن جرأة الرجل أن يُقسم أن شيخه لا يفارقه طرفة عين ، وقد أقام الدنيا ولم يقعدها بعد عندما قال له بعض قرنائه : (إن الشيخ مات ودفن) . فراح يؤكد لهم أن الشيخ يحيى معه ولا يفارقه ، وأنه يتلقى عنه مشافهة ، ولا يتركه في صغير ولا كبير ، لذا تراه يشير إلى هذه القضية في قصيدته المسماة بـ ((العيونية)) في ((ديوان الأسير)) لصلاح الدين القوصي في مدح شيخه محمد إبراهيم أبو العيون (١٨٣) ، فيقول :

وقلت لهم يقينًا إن شيخي
معي كالليث يربض بالعرين
وليس كما زعمتم غاب عني
ولست مصدقًا إلا عيوني
وبعد الله ثم رسول ربي
فلست بمرتج إلاه عوني
له أمر ونهي في فؤادي
وإرشاد لفعل أو سكون
يلي أمري بأسرار ونور
وألوان المعارف والفنون
فما مات الذي بالحي يحيا
وإن كالناس ذاق من المنون

لهذا يُعظم الصوفية القبور ، فالشعراني في ((درر الغواص في فتاوى الخواص)) (٢: ٨١) يجعل للأضرحة دوريات للحراسة يسميهم أصحاب النوبَة ، ويقول في إحدى شطحاته : إنه استأذن هو وأخوه أفضل الدين شيخها الخواص في زيارة القرافة ، فقال لهما : (ما معكما دستور ، فإن أصحاب النوبة اليوم من بلاد المشرق ، ما هم من أهل مصر ، فنسينا قول الشيخ وذهبنا ، فحصل لنا انحراف في القلب ، ما كنا إلا هلكنا ، أما أنا ففارقته من بعض النواحي ، فلقيت واحدًا من أصحاب النوبة ، فما كانت روحي إلا أن زهقت ، وأما أخي أفضل الدين فاجتمع بأربعة نفر منهم على الهيئة التي وصفها لنا الشيخ ، فمنهم اثنان سألا له العافية ، والآخران حصل منهما المثاقلة ، فقال لهما : الله ورسوله أقوى منكما فذهبا ، فلما رجعنا وحكينا للشيخ ذلك ، قال : الحمد لله الذي ما صدفكما إلا هؤلاء ، ولو صدفكما أحد من كبار أصحاب النوبَة لهلكتما ؛ لأنه لا طاقة لأحد بهم ، فلو توجهوا لجبل لهدموه) .

مدد الشيخ يوم القيامة :

يستخدم كثير من المشايخ الكرامات والمناقب لإثبات قدرتهم على نفع المريد في الدنيا والآخرة ، وسنضرب مثالاً من الطريقة التجانية ، حيث يقول التجاني في ((الدرة الخريدة)) (٤: ٢٦) : (ومن أخذ الورد المعلوم الذي هو لازم الطريقة ، أو عمن أذنته يدخل الجنة هو ووالده ، وأزواجه وذريته المنفصلة عنه ، لا الحفدة بلا حساب ولا عقاب ، بشرط ألا يصدر منهم سب ولا بغض ولا عداوة ، وبدوام محبة الشيخ ، بلا انقطاع إلى الممات) .

ويقول أحد خلفاء التجاني في ((رماح حزب الرحيم)) (١: ٥١) عن شيخه : (وليس لأحد من الرجال أن يدخل كافة أصحابه الجنة بغير حساب ، ولو عملوا من الذنوب ما عملوا ، وبلغوا من المعاصي ما بلغوا ، ووراء ذلك ما ذكره لي فيهم وضمنه لي ﷺ أمر لا يحل ذكره ، ولا يُرى ولا يُعرف إلا في الآخرة) .

وقال مؤلف ((بغية المستفيد)) (٢٧٣) : (إن من جملة ما ذكره سيده (التجاني) من فضل هذا

الورد العظيم عن نبينا المصطفى الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم ، أن كل من أخذه عن الشيخ أو عمن عنده الإذن الصحيح في التلقين ، يكون مقامه ومستقره من فضل الله تعالى في أعلى عليين بجوار سيد المرسلين ، وإمام المتقين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين ، ويغفر الله له تعالى بفضله من ذنوبه الكبائر والصغائر ، وتؤدى عنه التبعات من خزائن الرب المجيد القادر ، ولذلك كان آمنًا من أن يروعه هول المحشر ، أو يؤلمه ضنك القبر ، وأزواجه وأولاده المنفصلون عنه دنية ، وكذا أبواه داخلون معه في هذا الخير الجزيل ، بشرط ألا يصدر بغض من الجميع في هذا الشيخ الجليل ، وجانبه الأعز المنيع) .

إن ما ذكرناه من إيمان المريدين بمدد مشايخهم أمر ثابت في معظم الطرق الصوفية ، فالشاذلي قد اختار المريدين من اللوح المحفوظ ! والجيلاني يحمي مريده في كل المواقف وأصعب الأحوال في الدنيا والآخرة ! ومدد البدوي عند القوم لا يشمل المريدين فقط ، بل كل من زار ضريحه ، وإن ارتكب الكبائر ! وهذا النجاتي يتعهد عائلة المريد بالرضوان الأكبر فقط إذا أحبوه ولم يعترضوا عليه !!

الفتح الصوفي :

تبدو هاوية علوم الباطن عند الصوفية عميقة الأغوار حين يتحدثون عن الفتح الأكبر ، ولا يمنع الناس من هذا الفتح إلا حجاب النفس ، فمن قام بتأديبها ونفى عنها الأغيار ، يأتيه الفتح ، ويصف الدباغ في ((الإبريز)) (ص ٩) كيف حدث له الفتح بدقة شديدة ، فيقول : (فاشتد عليَّ الحال ، وجعل صدري يضطرب اضطرابًا عظيمًا ، حتى كانت ترقوتي تضرب لحيتي ، فقلت : هذا هو الموت من غير شك ، ثم خرج من ذاتي شيء كأنه بخار الكسكاس ، ثم جعلت ذاتي تتطاول حتى صارت أطول من كل طويل ، ثم جعلت الأشياء تنكشف لي وتظهر كأنها بين يدي ، فرأيت جميع القرى والمدن والمداشر ، ورأيت كل ما في هذا البر ، ورأيت النصرانية (مريم عليها السلام) تُرضع ولدها وهو في حجرها ، ورأيت جميع البحور ، ورأيت الأرضين السبع وكل ما فيهن من دواب ومخلوقات ، ورأيت السماء وكأني فوقها وأنا انظر ما فيها ، وإذا بنور عظيم كالبرق الخاطف الذي يجيء من كل جهة ، فجاء هذا النور من فوقي ومن تحتي وعن يميني وعن شمالي وعن أمامي وخلفي ، وأصابني منه برد عظيم ، حتى ظننت أني مت ، فبادرت ورقدت على وجهي لئلا أنظر إلى ذلك النور ، فلما رقدت رأيت ذاتي كلها عيونًا ، والعين تبصر ، والرأس تبصر ، والرجل تبصر ، وجميع أعضائي تبصر ، ونظرت إلى الثياب التي عليَّ ، فوجدتها لا تحجب ذلك النظر الذي سرى في الذات ، فعلمت أن الرقاد على وجهي والقيام على حد سواء ، ثم استمر عليَّ ساعة ، وانقطع وصرت بمثابة الحالة الأولى التي كنت عليها أولاً) .

ومن التكاليف التي يتحملها أصحاب الفتح الصوفي أن يقوموا بدوريات على الكون للاطمئنان على سير الأمور ، وها هو الشعراني يفرد لكراماته مجلدًا ضخمًا يسميه : ((لطائف المنن)) المعروف بـ ((المنن الكبرى)) ، ويشرح في (ص ١٧٤) مهمته التفتيشية اليومية على الكون التي كلف بها بعد أن رُزق الفتح فيقول : (وصورة طوافي كل ليلة على مصر ، وجميع أقاليم الأرض ، وأنني أشير بإصبعي إلى أزقة المدائن والقرى والبراري والبحار ، وأنا أقول : الله ، الله ، الله . فأبدأ بمصر العتيقة ، ثم القاهرة ، ثم بقراها ، حتى أصل إلى مدينة غزة ، ثم القدس ، ثم إلى الشام ، ثم إلى حلب ، ثم إلى بلاد العجم ، ثم البلاد التركية ، ثم بلاد الروم ، ثم أعدي من البحر المحيط إلى بلاد المغرب ، فأطوف عليها بلدًا بلدًا ، حتى أجيء إلى الإسكندرية ، ثم أعطف منها إلى دمياط ، ثم منها إلى أقصى الصعيد ، ثم إلى أقصى بلاد العبيد ، ثم إلى بلاد الرجر ، وهي إقطاع جدي الخامس ، ثم أعطف إلى بلاد التكرور ، وبلاد السكوت ، ومنها إلى بلاد النجاشي ، ثم إلى أقصى بلاد الحبشة وهي سفر عشر سنين ، ثم منها إلى بلاد الهند ، ثم إلى بلاد السند ، ثم إلى بلاد الصين ، ثم أرجع إلى بلاد اليمن ، ثم إلى مكة ، ثم أخرج من باب المعلى إلى الدرب الحجازي إلى بدر ، ثم إلى الصفراء ، ثم إلى مدينة النبي ﷺ ، فأستأذنه عند باب السور ، ثم أدخل حتى أقف بين يديه ﷺ ،

فأصلي وأسلم عليه وعلى صاحبيه ، وأزور البقيع ، ثم أقول : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۞ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٠- ١٨٢] ، وما أرجع إلى داري بمصر إلا وأنا ألهث من شدة التعب ، كأني حاملاً جبلاً عظيمًا ، ولا أعلم أحدًا سبقني إلى مثل هذا الطواف ، وكان ابتداء حصول هذا المقام لي في سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ، فرأيت قبور المشايخ من فوق أضرحتهم إلا ضريح أحمد البدوي ، وضريح إبراهيم الدسوقي ، فإن المحفة (لعله يقصد بساط الريح) نزلت بي من تحت عتبة كل من أحدهما ، ومرت من تحت قبره) .

وهكذا نرى مهمة الأقطاب وديوان التصريف وأحوال المشايخ عقيدة أصيلة عند الصوفية ، لم يفتريها عليهم أعداؤهم ، وإنما كتبوا حروفها بأنفسهم وسطروها في كتبهم ، وليس غريبًا أن نجد تماثلاً كاملاً بين قطب الصوفية وإمام الشيعة وحجة الإسماعيلية وبابها ، ومن هذا كله ندرك دقة العبارة التي كتبها الدكتور الغنيمي في أطروحته للدكتوراه ، والتي يقول فيها : (إن المصدر الشيعي والإسماعيلي هو أصل لكل أفكار التصوف الإسلامي) ، ونحن نضيف إليها : إن جذور التصوف استقت من الشيعة والإسماعيلية وامتدت أيضًا إلى الفلسفة الأفلاطونية ، والعقيدة المسيحية ، وأفكار الفلسفة اليهودية) .

إلا أن أخطر آداب الصوفية ضررًا على عقيدة المسلم - وهي المقصودة في رأيي من كل هذا - هي الأوراد ، فالمشايخ لم يكتفوا بتحريم الحلال وتحليل الحرام كما فعل الأحبار والرهبان باليهود والنصارى ، وإنما حصروا المريدين في أوراد ألفوها من عند أنفسهم ، واستعملوا أسلوب التدريج في تلقينها للمريد ، فالورد في أول الطريق يتضمن آيات قرآنية وأدعية نبوية ، وبالتالي لا يرى المريد في طريقه ما ينكره ، وإذا شرح العلماء مزالق الصوفية ، خاطبك المريد السالك في أول سلوكه ، بأن طريقه ليس فيه ما يزعمونه ، فإذا ظهر من المريد الهمة والالتزام بالحضرات والأدب مع الشيخ ، رقاه إلى مرتبة أعلى وكلفه بأوراد أكثر ، وهكذا على ثلاث أو سبع أو أحد عشر مرتبة حسب الطريق الذي يسلكه المريد ، وتبدأ الأوراد بالإشارة ، ثم بصريح العبارة عن حقيقة مفاهيم الصوفية وعقيدتها ، وهي : وحدة الوجود ، والحقيقة المحمدية ، والذكر بالأسماء السريانية ، وقراءة قصائد التوسل بالمشايخ وسلسلة رجال الطريق وآل البيت وهكذا ، حتى يجد المريد نفسه في النهاية - إلا من رحم ربي - يتعبد الله عز وجل بأشياء ما أنزل الله بها من سلطان ، ومن موجبات الفتن أن تكثر رؤى المريد وأحلامه في هذه المرحلة ، فلا يخلو الأمر من منامات يلتقي فيها بالمشايخ ، ويرى فيها المراتي التي يثبت بها من الطريق الذي يسلكه ، وربما ظن أنه أصبح من الأولياء ، وقد رأيت أمثلة كثيرة لأناس لا يعرفون من الدين أحكام الطهارة ، ولا كيف تصح عبادتهم لله عز وجل ، ثم تراه بعد أن يُلَقَّن الطريق وتواترت عنده الاحلام والمنامات لبس ثوب الأولياء ، وراح يحدثك عن المهدي المنتظر ، ومتى سيظهر وعلاماته ، وربما راح يخبر الناس بالغيب والكشف حسب الاصطلاح الصوفي ، ولو سقت له الدليل من الكتاب والسنة لا يقابلك في نهاية الأمر إلا بثقته المطلقة في شيخه والأحلام التي رأها هو أو رأها غيره من المريدين ، وتصبح الأوهام والأحلام وأحاديث النفس في النهاية الحجة والدليل على صدق سلوكه ويقينه بصحة طريقه ، لو ناقشت أحدهم وشرحت له أنواع الرؤى وقسمتها إلى ثلاثة أنواع في الحديث المتفق عليه الذي أخرجه البخاري في كتاب الرؤيا ، باب : القيد في المنام ، ومسلم في ((صحيحه)) ، والترمذي والنسائي وابن ماجه عن رسول الله ﷺ الذي يقول فيه : ((الرؤيا ثلاث : فرؤيا حق ، ورؤيا يحدث بها الرجل نفسه ، ورؤيا تحزين من الشيطان)) لا يجد المريد لذلك صدى في نفسه ، ويلوي هو أو شيخه معاني الآيات ومقاصد الحديث حتى يعرض لك عكس المراد من الدليل ، ولا يسمح لنفسه إلا بالزوغان والانفلات ، وفي النهاية لا يستند الطريق الصوفي إلا على مجموعة من الأحلام ، وكثير من الكرامات والأحوال ، ومكاشفات المشايخ والظنون والأوهام ، وبالتالي حل الكشف والإلهام محل الكتاب والسنة . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة

الأضرحة عند الصوفية

بقلم عميد متقاعد / محمود الراكبي

الحمد لله الذي هدانا إلى الإسلام ، ووجه قلوبنا إلى توحيده وإفراده بالألوهية والربوبية ، ودلنا كتابه وسنة نبيه على الصراط المستقيم ، وسبيله الموصل إلى رضوانه العظيم ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، من تمسك بسنته فقد هدي إلى السبيل القويم ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فقد قَلَبَ الصوفية الهدف من زيارة القبور رأسًا على عقب ، فبدلاً من الزيارة للاعتبار وتذكر الموت ، نجد الضريح ليس مجصصًا فقط كما نهت الأحاديث ، وإنما ترى الضريح الآن محاطًا بسياج من الذهب أو الفضة الخالصة ، ومضاء بألوان السرج الحديثة والإضاءة المختلفة ، ومرتفعًا عن الأرض ، يطوف الناس حوله ويقبلون الضريح وأعتابه ، ويطلقون البخور ، ويطيبون المكان بمختلف ألوان الطيب ، فلا أعتقد أن الزائر لهذا المكان يخطر على باله الموت والبلى ، أو لحد الميت في التراب ، لا ينير قبره إلا عمله الصالح ، وفي نفس الوقت تحول هدف الزائر من الدعاء للميت إلى طلب الدعاء من الميت ، وبعد أن شد الناس الرحال إلى أضرحة المشايخ ، وطلبوا منهم قضاء الحوائج والتوسط لتحقيق المراد ، ومن ثَم زال هدف الشرع الحكيم من زيارة القبور !!

ويجب النظر إلى اهتمام الصوفية بالأضرحة على أساس غلو المريدين في مشايخهم ومقدرتهم على التصريف واجتماعاتهم في الديوان ، ولذلك فزيارة القبور تحصيل حاصل على فهم الصوفية عن الأبدال والأوتاد والأقطاب ، فالزائر في حقيقة الأمر لا يخطر على باله أهداف الإسلام من زيارة القبور ، فهو لا يزور قبرًا ، وإنما يزور قطبًا صوفيًا له صفات وقدرات منحتها له المفاهيم الصوفية التي عرضناها بالتفصيل في المقالات السابقة ، ولذلك لا يلتقي هدي من يريد اتباع النبي ﷺ مع بدع وضلال من يقلد شيخًا من مشايخ الصوفية ، فالأمر في حقيقته مختلف تمامًا ، ولذلك يحرص المشايخ ويخطط الأحياء منهم لبناء قبورهم على شكل ضريح ، بحيث يصبح له مقام بعد موته ، ومنهم من لا ينفق على بناء ضريحه من خالص ماله ، وإنما هذه مهمة الأتباع والمريدين ، وقد كان أحد خلفاء الشيخ حريصًا كل الحرص على بناء ضريح له بعد هلاكه ليدفن فيه، لذا فقد أشاع بين أتباعه ومريديه أكثر من مرة أنه علم قرب انقضاء أجله ، ثم دعى مهندسًا معماريًا من مريديه ، وطلب منه أن يبني له ضريحًا على شكل ضريح تاج محل ، ويستعد تمامًا لتنفيذه بأسرع وقت ممكن ، حتى إذا وافته المنية دفن في مسجد التحرير بمصر الجديدة ، وقد أعان الله تعالى

أحد الأحباب فوقف لهذا الأمر بالمرصاد حتى استحال على الشيخ تنفيذ أفكاره ، ومن ساعتها وهو يعتبرنا من ألد أعدائه .

اختصاص أضرحة الصوفية :

يؤمن الدكتور الشرقاوي بأهمية الأضرحة وأسرارها الباطنية ، لذا فقد ألف كتابًا أسماه ((الحكومة الباطنية)) ، ثم ذكر في الفصل الذي أسماه ((الجامعة السطوحية)) (نسبة إلى السطوح الذي أقام فيه أحمد البدوي) ، عن مقام البدوي ودرجته الباطنية ، يقول فيه : ومن البحث الميداني اتضح أن عدد الأولياء بمدينة طنطا نفسها ثلاثة وثلاثين وليًا ، يختص كل منهم بكرامة معروفة ، ويمتاز بها عن غيره من الأولياء :

❁ البدوي : برغم وجود ضريح البدوي بالمنطقة ، فإن هذا لا يمنع الناس من الاعتقاد في أتباعه ووزرائه من الأولياء ، وعلى العكس من ذلك تمامًا ، فإن مريدي البدوي في اعتقاد العامة أيسر في استجابة الطلبات ، وفي حل المشاكل ، ونصرة المظلوم ، وفك المربوط ؛ لأن البدوي في اعتقادهم قطب عظيم (وأن مدده عال) ، وأنه للوصول إليه يتطلب شفاعة بعض أنصاره وأتباعه .

❁ عبد العال الأنصاري : هو خليفة البدوي ، وواسطته والشفيع لديه ، ولذلك فإن الناس الذين يزورون ضريح البدوي لا يفوتهم قراءة الفاتحة وزيارة ضريحه الموجود بجامع البدوي ، بل طلب حاجتهم منه ، باعتباره خليفة البدوي وتلميذه ونائبه .

❁ عز الرجال : مشهور عنه شفاء أمراض الأطفال ، ولذلك تأتي إليه النساء من كل حدب وصوب ، حاملات أطفالهن المرضى بغية الشفاء ، وهو معروف عنه شفاء الأطفال من المس الروحي ، وغيره من الأمراض العصبية . وهو مغربي الأصل ، ويقام له مولد ويزار وتزداد شهرته سنة بعد أخرى .

❁ مرزوق : من أهل النجدة ؛ ومن كراماته أنه لا يقصده مظلوم إلا وينصره ، وكثير من النساء يذهبن بعد صلاة الجمعة إلى مقامه ، ويقمن بكنس الضريح على الظالم ، وهذا يعني كنسه من الدنيا !!

❁ محمد انبهي : كان عارفًا بعلم الحرف ، ودعوته مستجابة ، يُقال : إن مسجده الحالي ما زال يصلي فيه البدوي حتى الآن !!

❁ علي الحاملي : مشهور عنه زواج العانس ، ولذلك يردد الزوار - من النساء طبعًا - قولهم : سيدي يا حاملي ، جوزني وأنا أجيب لك شمعة طولي !!

❁ أحمد البابلي - الذي كان مقرنًا في حضرة البدوي -: يشتهر عنه نصرة المظلوم ، ويردد الزوار : يا بابلي ، كن بابًا لي ؛ أي بابًا له إلى مقام البدوي !!

❁ يونس : يشتهر عنه ((ماضيها)) بقضاء الحوائج ، ويظهر ذلك في التعبير الشائع بين الناس : يا ماضيها اقضيها .

❁ محمد رمضان : كان من الأبدال ، فيظهر في أكثر من مكان في وقت واحد ، وكان يشفي الأمراض ، ويحضر الفاكهة في غير أوانها ، ويكشف الحجاب ، ويفرج الكرب عن المكروبين !!

❁ محمد أبو شوشة : مكشوف عنه الحجاب ، وعنده القدرة على شفاء المرضى ، وإدخال الرضا والراحة النفسية في قلوب المتصلين به ، وذلك عند مجالسته أو ملازمته ، ويشتهر عنه عطفه وبره على الفقراء .

❁ الشيخة صباح : من كراماتها الكثيرة شفاء المرضى ، خاصة النساء من العقم ، وإحضار الفاكهة في غير أوانها ، وتلقين المريدين الطريق إلى الله ، وإظهار خوارق العادات ، وأنها كانت ترى في الحج في مكة والمدينة وهي في طنطا لم تبارحها !!

كما يذكر مؤلف ((الحكومة الباطنية)) بركات الشيخ أحمد الحجاب ، ثم يذكر بركات البدوي على التجار والزراع من أهل المنطقة !!

وهكذا يبشر الدكتور الشرقاوي بازدهار الموالد في السنوات المقبلة ، نسأل الله أن يخيب ظنه ، وتعليقنا على كلام الدكتور ؛ أنه لو ألف كتاب ((الحكومة الباطنية)) الشعراني أو اليافعي أو الدباغ أو الخواص لهان الأمر ، أما أن يكتبه حاصل على الدكتوراة ، دون أن ينبه الناس على حجم الضلال في مفاهيم الدراويش ، وينتصر ولو مرة واحدة لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، فهذا ليس له إلا معنى واحد ؛ هو أننا ما زلنا في عصور الظلام ، وأن كبوة المسلمين ما زالت قائمة ، فما انتصر أحد القراء لدين الله تعالى ، وربما سمح له الأزهر بنشر كتابه ، وراح يحاسب هذا المؤلف على ما قدمت يداه ،

وسطره بقلمه .

إن هذا البحث الميداني الذي أجراه الشرقاوي كان من الممكن أن يكون أفضل كتاب لسنوات قادمة ، لو أنه أنفق من وقت إعداده جزءًا يسيرًا من الوقت يدرس فيه أحاديث رسول الله ﷺ عن الأضرحة والقبور وموقف الإسلام منها ليعرف مدى الجاهلية التي يقع فيها جمهور البسطاء من أهل مصر ، لو أن المؤلف نبه على مظاهر الشرك ، ودل الناس على ربهم ، ووجههم إلى الاستعانة بالله وحده وعدم الاستغاثة بسواه . لو حول كتابه إلى إجراءات مطلوبة من المسئولين عن بيان الدين في مجتمعنا هذا ، وكتب في الصحف وظهر في التلفاز ، وخاطب العالم والجاهل ، لكانت له مساهمة عظيمة في رفع هذا الابتلاء عن ربوع هذه الديار ، ولكن الكارثة كل الكارثة أن ينتصر لهذه الجاهلية دون أن يتمعر وجهه غضبًا لله تعالى ، رجل في قمة الشهادات العلمية في الديار المصرية ، والحقيقة أن الرجل يدعو لهذه الأفكار ، ويهدف من كتابه إلى تثبيت الخائفين ، وإيمان المتشككين ، كما سطر بنفسه في إهداء الكتاب الذي أشرنا إليه آنفًا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الموالد وما يقع فيها :

لن نطيل الحديث هنا ؛ لأن العقلاء من الصوفية يستنكرون ما يحدث في الموالد ، ويريدون أن تتوقف هذه المهازل الأخلاقية ، ودعاوى الثقافة الجماهيرية التي تنتشر في الموالد ، وقد أصبحت الموالد تدر دخلاً اقتصاديًا كبيرًا لأصحاب الفنون من الراقصات والمنشدين والمطربين الشعبيين ولاعبي الأكروبات وأهل السيرك ، كما يتجمع العاطلون والمجاذيب وطلاب المتعة المحرمة ، بل تجار المخدرات ولاعبو القمار ، فالموالد بهذا الشكل لا دخل لها بالدين ، بل أصبحت كاحتفالات الناس بشم النسيم ، حيث يكثر الفسيخ والخس وغير ذلك ، أما ما يعنينا هنا وما يتحمله الصوفية في المقام الأول هو تلك الحضرات التي تقام على هامش أعمال المولد ، حيث يجتمع أبناء كل طريقة ويأخذون مساحة صغيرة للغاية لكثرة الطلب على المساحات من أبناء الطرق ، ويقيم كل شيخ ما يسمى بالخدمة ، ويعين أحد الأحباب لخدمة الزائرين للضريح من أبناء الطريق طوال مدة المولد ، وتجد كل جماعة تستأجر مُكبرات الصوت لإذاعة الحضرات وخطب الشيخ ، فإذا ذهبت إلى هناك وجدت ضجيجًا يختلط فيه المنشدون بقارئي الأوراد مع أصوات الذاكرين بخطب المشايخ ، مع أصوات الباعة والمروجين للفنون وغيرهم ، فأين الدين من ذلك ؟!

إن هذا الكم من الضجيج يعده أصحاب العلم الحديث نوعًا من أنواع التلوث البيئي ، فما بالك باختلاط الرجال والنساء في الحضرات ، وهذا يحدث من بعض الطرق باسم المولد وحب صاحب الضريح ، وإنا لنرجو الله تعالى أن يرفع عن مصر هذا البلاء الذي خلفته الشيعة الإسماعيلية وراءها بعد احتلالهم لمصر ما يزيد على قرنين من الزمان .

وربما لم يشاهد كثير من الصوفية ما يحدث عند قبور أئمة الشيعة وفي موالدهم ، والتي تتميز بالجمع بين الزيارة والمتعة في آن واحد ، ففي العراق يُخير الشيعي حين يزور مقام أحد الأئمة هل غرضه زيارة فقط ، أم زيارة ومتعة ، فإذا اختار الجمع بين الأمرين فإن شيخًا يصحبه في الزيارة ليدعو له ويكرر الشيعي خلفه ، فإذا فرغ من الزيارة أخذه إلى إحدى العمارات المجاورة ، حيث يتخير امرأة تسره ، ثم يتزوجها زواج المتعة مرة أو يومًا أو أكثر ، حسبما يطيب له المقام ، وتعد هذه المتعة عند الشيعة عبادة لها أجر عظيم ، فهم يروون حديثًا شيعيًا يقولون فيه : ((من تمتع مرة فله أجر الحسن ، ومن تمتع مرتين فله أجر الحسين)) . فالمتعة عند الشيعة دين يتعبدون به ، ولكن المؤكد أن الصوفية تسير على درب الشيعة ، شبرًا بشبر .

التوسل والاستغاثة بالمشايخ :

كثير من العلماء يفتي في قضية التوسل والاستغاثة بالمشايخ والصوفية ، دون أن يتعرض لكل ما تعرضنا له من مفاهيم من اعتقاد المريدين في مشايخهم ، ومن ينظر إلى الأمر على اتساعه يدرك أن الشرك المصاحب للتوسل بالأقطاب والأوتاد والاستغاثة بهم يُعَد أمرًا هينًا إذا ما قارناه بعقيدة المريدين عن قدرات مشايخهم ، ومددهم في الدنيا وعند الموت وبعد الموت ، وبالتالي تصبح قضية التوسل نتيجة منطقية لمراحل متتابعة من انحدار الفكر الصوفي ، الذي يودي بصاحبه في غياهب الشرك ، ويبعده عن حقائق الإسلام وبساطته الشديدة ، ولو أن الناس علموا ما أشرنا إليه وما

أوضحناه من حقيقة الشيخ في الفكر الصوفي ، ما استغربوا قصائد التوسل التي تطفح بها الطرق الصوفية ، ولكل طريق سلسلة مشايخ ، ولهم توسلات بكل شيخ منهم ، وعادة ما تكون هذه القصيدة مكتوبة حسب التسلسل التاريخي للمشايخ ، ومن أمثلة هذه القصائد قصيدة توسل بالسادة الخلوتية ، يقول مؤلفها محمود أفندي عوني :

بسم الإله وحمده استفتاحنا
إذ باسمه السامي سمت أرواحنا
وبنور مشكاة الوجود وسره
إنسان عين الكل طه نبينا
متوسلين بأهله سلسلة الطريق
الخلوتي اقبل يا مجيب دعاءنا
بأمين سر الوحي جبريل الذي
سر الطريقة من علاك تلقنا
بالمصطفى الهادي البشير محمد
من جاء بالشرع الشريف وأعلنا
بإمام أهل القرب صهر المصطفى
بحر الكمال أبي المعالي علينا
بالمرتقى الحسن التقي البصري من
حاز الشريعة والطريقة شيخنا
وبحبيب العجمي مرشد عصره
شمس المعارف والعوارف والسنا

ونكتفي بهذا القدر من القصيدة ، وبهذا المثال ، حيث يكاد لا يخلو طريق من قصائد التوسل ، وهكذا تسلسل القصيدة مع مشايخ الطريق واحدًا بعد الآخر ، وكل منهم يلقب بألقاب المناصب والمقامات ، ولا يخفى أن التوسل بدأ بالله ، ثم بجبريل الذي يعدونه أول من تلقن الطريقة الخلوتية عن رب العزة ، ثم نقلها إلى النبي ﷺ ، كما نلاحظ وصف علي بأنه إمام أهل القرب بحر الكمال ، وطبعًا لا يخفى إغفال القصيدة لأبي بكر وعمر وعثمان ، رضوان الله عليهم .

ملخص ما جاء في غلو الصوفية من المشايخ :

١- تتدرج الآداب الصوفية للمريد مع شيخه تدرجًا متتاليًا تبدأ بالشرك الأصغر ، ثم تهوي في حبائل الشرك الظاهر والأكبر ، وفي النهاية يتجاوز الغلو كل مدى ، ويصبح الشيخ محور السلوك الصوفي ، ويسلم المريد انقياده له ، وهذا أمر حتمي لازم للانتفاع ببركات الشيخ ونفحاته في الدنيا والآخرة .

٢- أخطر ما في هذه الآداب هو إخراج الشيخ عن دائرة قياس أفعاله بميزان الشرع ، فلا يستطيع أحد أن يحاسبه على تجاوزاته وإتيانه المنكر ، أو ابتعاده عن المعروف ، حتى وإن عطل الفرائض ، وقعد عن الصلوات ، ومن يجرؤ على تذكير الشيخ بالله إذا كان النظر إلى وجهه والحديث أو الأكل معه أو الجلوس بين يديه من كبائر العقوق للمقام الصوفي الكبير ، والأخطر من هذا أن المريد يجب أن يعتقد في شيخه أنه القطب ، والغوث ، بل هو الخضر عليه السلام بنفسه ، وأن الشيخ يستقي علومه مباشرة من مطالعته للوح المحفوظ .

٣- يعتقد المريد اعتقادًا راسخًا بأن الشيخ يمده من قَبْل مولده وإلى ما بعد الحساب والجنة والنار ، وكلما اعتقد المريد أن كل خير سيق إليه في دنياه أو أخراه إنما هو من مدد الشيخ وبركة صحبته ، وكلما هوى في الكبائر ، بل نال الشرك الأكبر بعينه ، وبالتالي تحولت الصوفية إلى منابر تدعو المريدين للإشراك بالله تعالى ، والتوسل والاستغاثة بسلسلة المشايخ الأحياء والأموات .

٤- يتلقى الصوفي عن شيخه كيف يذكر الله تعالى في الحضرة ، فإذا بالشيخ يطالبه أن يضع شيخه نصب عينيه وفي قلبه أثناء ذكره لربه .

٥- يُعَلم جهلة الصوفية مريديهم ويلقنونهم وهم أحياء ماذا يقولون للملائكة الكرام الذين يسألون الناس ويفتنونهم في قبورهم ، فإذا سألهم الملك : من ربك ؟ يقول المريد له : شيخي فلان ، فينصرف عنه الملائكة . كما تفتح منزلة الشيخ في الفكر الصوفي أبواب الأضرحة على مصراعيه .

٦- تجاوز الصوفية كل التحذيرات النبوية المتعلقة بالقبور ، حتى أصبحت الموالد وزيارة الأضرحة أمرًا يحتاج لمن ينظم للمريدين مواعيد الزيارات ، ولم تدّخر مجلة التصوف وسعها في التنبيه على الموالد المختلفة في محافظات الجمهورية .

* * *

عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة

الخضر في الفكر الصوفي

بقلم عميد متقاعد :
محمود المراكبي

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ [الكهف : ١] ، نحمده سبحانه ، حيث أنزل إلينا : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : ٣] ، له الحمد سبحانه ، حيث جعل القرآن تبيانًا لكل شيء ، وأكد سبحانه ذلك بقوله : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، ثم الحمد لله كل الحمد ، حيث تعهد بحفظ القرآن ، ولم يوكل ذلك إلى غيره ، وأرسل إلينا خاتم أنبيائه وخاصة رسله وأصفيائه سيدنا محمد ﷺ ، الذي جاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، بلّغ رسالة ربه ونصح لقومه ، شرح لهم الدين وبيّنه لهم أوضح تبيين ، وفصل لهم حقائقه، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] .

وأشهد أن نبينا ﷺ اختار الرفيق الأعلى بعد أن أكمل رسالته وأتم أركانها ، وأحل حلالها وحرم حرامها ، وأقر منهجها ومهد طريقها ، وما ترك سبيلاً يقرب إلى الله إلا ودلنا عليه ، وما خاف على أمته من ذنب صغير أو كبير إلا وحذرها منه ، وأشهد أصحابه على ذلك يوم الحج الأكبر ، فشهدوا أنهم تلقوا عنه الدين واضحًا جليًّا لا لبس فيه ولا غموض ، ليله كنهاره ، فما ترك أمته إلا على المحجة البيضاء ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيد ولد آدم المبعوث رحمة للعالمين ، الشفيع يوم الهول الأكبر ، صاحب لواء الحمد يوم المثول بين يدي الله عز وجل والعرض ، فاللهم اجز عنا نبيك أفضل ما جزيت نبيًّا عن قومه ، واحشرنا يا مولانا في زمرته وتحت لوائه ، وصلِّ اللهم عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا ، أما بعد :

فتعد قصة موسى والخضر ، عليهما السلام ، من القصص الغنية التي شغلت المسلمين عامة ، والصوفية والباطنية خاصة ، حتى جعلوا منها عمود الرحى الذي تدور حوله أفكارهم ومعتقداتهم ، بل إنهم قسموا الدين إلى ظاهر وباطن ، اعتمادًا على الوقائع التي أجراها الله تبارك وتعالى

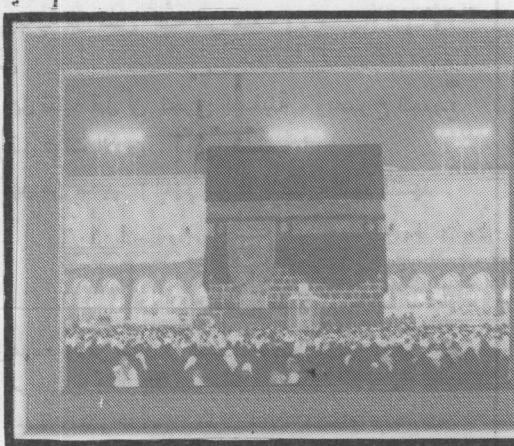

على يدي العبد الصالح ، وقد شغلتني هذه القصة منذ سنة ١٩٧١ م ، كما شغلت غيري من السالكين إلى اللّه عز وجل ، وكان يشدني أي كتاب يتناول هذه القصة ، وقد اطلعت على أكثر الكتب المطبوعة للمؤلفين المعاصرين أو القدامى ؛ مثل : ((الزهر النضر في نبأ الخضر)) لابن حجر العسقلاني ، و((الميزان الخضرية)) للشعراني ، و((الخضر عليه السلام وشأنه في الأنام)) لحسين السلواوي ، و((حياة الخضر)) لمحمود شلبي . وغيرها مما لا يتسع المجال لحصرها ، بخلاف أمهات الكتب التي بحثت الموضوع من جوانب متعددة ، وكانت تستوقفني أخبار هذا اللقاء المتناثرة في أمهات كتب التفسير والحديث الشريف ، وكتب الرقائق والتصوف وغيرها ، وقد لاحظت أن هذه الكتب تتناول القصة مجردة عن النتائج التي بنيت عليها ، كما أن مؤلفيها إما صوفي مؤيد لحياة الخضر وولايته ، وإما منكر معارض للصوفية ، ولم أجد في هذه الكتب ما يشفي غليلي ويغطي جوانبه بما يحسم القضية ، وهذا لا يتأتى إلا بمناقشة أفكار كل طرف وأدلته ، وقياسها على هدي الكتاب والسنة ، ثم مناقشة الآثار المترتبة على هذه الأفكار .

وقد بدأ اهتمامي بهذه القصة لأنها تمثل حجر الأساس عند الصوفية ، وكل من يعتقد بتقسيم الدين إلى ظاهر وباطن ، ومن أهم عناصر هذه القصة معرفة من هو الخضر ؟ وهل هو حي حتى اليوم ؟ وما هي مهمته ؟ أهو نبي أم ولي ؟ وما الهدف من لقائه موسى ؟ وبالتالي ما هو العلم اللدني ؟

وسنتناول بتوفيق اللّه تعالى هذه الأسئلة بالدراسة والتحليل خلال المقالات التالية ، حتى نصل إلى البيان الموافق لفهم السلف الصالح عن هذه القضايا .

أولاً : اسم العبد الصالح :

ولتكن بداية دراستنا هذه معرفة اسم العبد الصالح ؛ والمعروف أن القرآن الكريم لم يذكر اسمًا للعبد الذي لقي موسى عليه السلام ، وإنما أشارت الآيات إلى وصفه بالصلاح واختصاصه بعلم من لدن الحق تبارك وتعالى ، في حين نصت السنة النبوية المطهرة أن اسمه الخَضِر ، وسبب تسميته يرويه البخاري وأحمد والترمذي وابن حبان ، حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ ، حيث يقول : ((إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء)) . واتفق في الصحاح على أن كنيته أبو العباس.

وعن مجاهد قال : (إنما سمي الخضر ؛ لأنه أينما صلى اخضر حوله) . ((قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس)) لأبي إسحاق النيسابوري المعروف بالثعالبي (٢٢٠) .

ثانيًا : بدء أمر الخضر :

لم يتوقف المغرمون بغرائب الأمور عند القدر الذي صرحت به مصادر الدين الأصلية ، بل شغلوا أنفسهم بأمور كثيرة لا تقدم ولا تؤخر في صلب قصة موسى والخضر ، عليهما السلام ، منها ما هو بدء أمر الخضر ؟ ويجيبنا على هذا التساؤل الحكيم الترمذي في كتابه ((ختم الأولياء)) ، فبعد أن وصف الأولياء وأوضح علاماتهم نراه يقول : اتفاق الألسنة بالثناء عليهم ، إلا من ابتلي بحسدهم ، استجابة الدعوة وظهور الآيات : مثل طي الأرض ، والمشي على الماء ، ومحادثة الخضر عليه السلام ، الذي تُطوى له الأرض ، برها وبحرها ، وسهلها وجبلها ، في طلب مثلهم والشوق إليهم ، وللخضر عليه السلام قصة عجيبة في شأنهم ، وقد عاين شأنهم في البدء ، ومن وقت المقادير ، فأحب أن يدركهم ، فأعطي الحياة حتى بلغ من شأنه أنه يحشر مع هذه الأمة وفي زمرتهم ، حتى يكون تبعًا لمحمد ﷺ ، وهو رجل من قرن إبراهيم الخليل ، وذي القرنين كان على مقدمة جنده ، حيث طلب ذو القرنين

عين الحياة ففاتته ، وأصابها الخضر في قصة طويلة . ((ختم الأولياء)) للحكيم الترمذي (٣٦٢) .

ويقول الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق في كتابه ((الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة)) : إن الحكيم الترمذي أول من افترى القصص الصوفية للخضر ، انظر صفحة (٢١٨) .

وتقرر هذه القصة أمورًا غريبة ؛ أهمها بدء شأن الخضر في يوم كتابة المقادير ، وحبه للصالحين هو سبب بقائه إلى قيام الساعة ، وأنه عاش في زمن إبراهيم الخليل ، وأنه شرب من ماء الحياة .

ثالثًا : نسب العبد الصالح :

ومما اختلف الناس فيه اختلافًا كثيرًا قولهم حول القضايا الآتية : نسب الخضر ومن يكون ؟ متى ولد ؟ وكم عاش من السنين ؟ هل وافته المنية ، أم ما زال يحيا إلى اليوم ؟ هل سيموت قبل قيام الساعة مباشرة ؟ قد اختلفت أقوالهم وفاقت العشرة أقوال لم تتفق على أول تساؤل يعرفنا من هو الخضر ؟ وسنورد الآن هذه الآراء ، ثم نناقشها تفصيليًا فيما بعد ، فقد قالوا : الخضر هو :

١- ابن آدم عليه السلام لصلبه نسئ له في أجله حتى يقتل الدجال .

٢- ابن قابيل واسمه خضرون .

٣- ابن نوح عليه السلام .

٤- من ولد العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل .

٥- ابن أرميا بن خلقيا .

٦- ابن فرعون ، وقيل : ابن بنت فرعون .

٧- من سبط هارون عليه السلام .

٨- هو المعمر بن مالك بن عبد الله بن الأزد .

٩- هو اليسع .

١٠- أمه رومية وأبوه فارسي ، وقيل : من ولد فارس .

ويا ترى أي الأقوال السالفة هي الصواب ، هذا ما سنعرفه فيما يلي :

حياة الخضر عليه السلام :

يقرر القول الأول من الأقوال العشرة التي ذكرناها آنفًا أن حياة الخضر عليه السلام ممتدة منذ آدم عليه السلام إلى قيام الساعة ، ولا شك أنها حياة أطول من أن نتأملها دفعة واحدة ؛ لذا سندرس الأقوال التي وردت عن هذه الحياة بعد تقسيمها إلى مراحل ثلاث :

١- حياة الخضر قبل الطوفان .

٢- حياة الخضر بعد الطوفان .

٣- حياة الخضر بعد بعثة النبي ﷺ .

وسنحاول دراسة هذه المراحل على ضوء الكتاب والسنة ، فنعرض الآيات القرآنية ، ثم الأحاديث النبوية ، وأقوال الصحابة والتابعين ، مع تخريج الآيات من القرآن الكريم ، وكذا نخرج الحديث وبيان موضعه من مصادر السنة المعتمدة .

أولاً : حياة الخضر قبل الطوفان :

تضاربت الأقوال الثلاثة الأول حول حياة الخضر عليه السلام قبل الطوفان ، فقالوا : أبوه آدم ، ومنهم من قالوا : أبوه قابيل . وقال آخرون : إنه ابن نوح عليه السلام !!

القول الأول : الخضر ابن آدم :

رواه ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٥: ١٤٥) ، والدارقطني في ((الأفراد)) من طريق رواد بن الجراح ، وعقب بقوله : وهذا حديث محال عن ابن عباس . ثم تتبع رواة الحديث بقوله : رواد بن الجراح ضعيف . وقال البخاري : رواد لا يكاد أن يقوم به حديث .

كما ذكره النسائي في ((الضعفاء)) ترجمة رقم (١٩٤) ، وقال : (ليس بالقوي ، روى غير حديث منكر ، وكان قد اختلط) . قال : حدثنا مقاتل بن سليمان عن الضحاك ، عن ابن عباس أنه قال : الخضر بن آدم لصلبه ونسئ له

أجله حتى يقتل (وفي رواية : حتى يكذب) الدجال . ومقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني ، هو أبو الحسن البلخي ، المفسر ، كذبوه وهجروه ، توفي سنة ١٠٥ هـ ، وقال عنه الذهبي في « المغني في الضعفاء » ترجمة رقم (٦٤٠٠) : هالك ، كذبه وكيع والنسائي ، ذكره العقيلي في « الضعفاء » ، وترجم له ابن حجر في « التهذيب » (١٠: ٢٥١) ترجمة رقم (٥٠٣) ، وذكره الدارقطني في « الضعفاء » ترجمة رقم (٥٢٧) ، وقال : (خراساني يكذب ، وقد كذبوه وهجروه) . قد أكثر العلماء في تجريح مقاتل بن سليمان ؛ فقد قال النسائي عنه : (لا شيء البتة) . وقال وكيع بن الجراح : (مقاتل كذاب) ، وقال ابن معين : (ليس حديثه بشيء) . وقال السعدي وإبراهيم بن يعقوب الجوزجاني : (مقاتل كان دجالاً جسورًا) ، وقال أبو حاتم : متروك الحديث ، وقال أبو داود : (تركوا حديثه) . وقال زكريا الساجي : (كذاب متروك الحديث) . وقال النسائي : (هو من الكذابين المعروفين يضع الحديث) . وقال عمرو بن علي الفلاس : (مقاتل كذاب متروك الحديث) . وقال يحيى بن معين : (ليس حديثه بشيء) .

وقال أحمد بن سيار : هو متروك الحديث ، ومهجور القول ، وكان يتكلم في الصفات بما لا تحل الرواية عنه . أما الضحاك فهو ابن مزاحم ، وكان شعبة : (لا يحدث عن الضحاك وينكر أن يكون لقي ابن عباس) . وقال يحيى بن سعيد : (الضحاك عندنا ضعيف) . ويقول ابن حجر العسقلاني في « الروض النضر » صفحة (١٩) : (ورواد ضعيف ، ومقاتل متروك ، والضحاك لم يسمع من ابن عباس) . راجع « تهذيب التهذيب » (٤: ٣٩٨) .

درجة الحديث : ضعيف ومنقطع وغريب ، وقيل : إسناده موضوع .

القول الثاني : الخضر بن قابيل بن آدم :

ذكره أبو حاتم سهل بن عثمان السجستاني في كتاب « المعمرين » ، قال : حدثنا مشيختنا منهم أبو عبيدة وغيره ، قالوا : (إن أطول بني آدم عمرًا الخضر ، واسمه خضرون بن قابيل بن آدم) . درجة الخبر : إسناده معضل ، كما وصفه ابن حجر في « الزهر النضر » صفحة (١٩) ، وللتعريف بالإسناد المعضل نقول : أعضل بمعنى أعيا وأوهن ، وذلك لوجود سقط راويين غير متتاليين في السند ، والسقط الأول في بداية السند ، حيث أبهم الراوي الشيخ الذي تلقى عنه الحديث ، والسقط الثاني في إرساله الخبر من شيخه أبي عبيدة دون أن ينسبه إلى تابعي أو صحابي أو يرفعه إلى النبي ﷺ ، ومثل هذا السند لا ينظر إليه ، والسند المعضل يعد من أوهى أنواع ضعف الإسناد .

القول الثالث : الخضر بن نوح عليه السلام :

وهذا القول من الإسرائيليات التي رواها كل من ابن قتيبة والطبري والنووي وابن عساكر عن وهب بن منبه ، وورد فيها أن اسم الخضر بليا أو إيليا بن ملكان ، وقيل : كلمان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، رواه الطبري في « تاريخه » (١: ١٨٦) ، وابن عساكر (٥: ١٤٥) ، وابن عربي في « الفتوحات المكية » (٣: ٣٣٦) ، ذكره ابن حجر في « الزهر النضر » صفحة (١٩) ، وقال : وهذا حديث معضل .

ويحاول أصحاب هذه الآراء تفسير سبب تعمير الخضر ومخالفة حياته لسنة الله تبارك وتعالى مع موت البشر .

هل عاش الخضر قبل الطوفان :

يبرر القائلون أن الخضر ابن لآدم عليه السلام رأيهم هذا ، بقصة ذكرها ابن إسحاق في « المبتدأ » قال : (حدثنا أصحابنا أن آدم لما

حضره الموت جمع بنيه وقال : إن اللّه منزل على أهل الأرض عذابًا فليكن جسدي معكم في المغارة حتى تدفنوني بأرض الشام ، فلما وقع الطوفان قال نوح لبنيه : إن آدم دعا اللّه أن يطيل عمر الذي يدفنه إلى يوم القيامة ، فلم يزل جسد آدم حتى كان الخضر هو الذي دفنه وأنجز اللّه له ما وعده ، فهو يحيا إلى ما شاء اللّه أن يحيا) .

وسند القصة معلق ولا يُعرف قائلها ، ولا نقلت عمن ؟ ومثل هذه الحكايات لا تعد علمًا ، كما أن متن القصة ينطوي على ما يلي :

١- أيخالف آدم عليه السلام سنة اللّه عز وجل في التعجيل بدفن الموتى ؟

٢- كيف يخشى آدم عليه السلام من دفنه ويأمر بترك جسده في مغارة أكثر من عشرة قرون ، وما الذي منع الطوفان أن يغمر المغارة ؟!

٣- لو قال آدم لبنيه : لا تدفنوني ، أيجرؤ الناس بعد ذلك على دفن موتاهم ويعرضونهم للعذاب الذي حذر منه أبوهم آدم !

٤- كيف لم يبادر نوح نفسه أو بنوه إلى دفن آدم عليهما السلام حتى يظفر أحدهم بطول العمر ، كما تعد الرواية !!

٥- القول أن الخضر بن آدم عليهما السلام يستلزم معاصرة الخضر لرسالة نوح ، عليهما السلام ، وإيمانه بها ، ثم ركوبه السفينة ونجاته من الطوفان وبقاؤه حيًا بعد وفاة نوح عليه السلام ، وهذا يتعارض مع القرآن الكريم الذي يقرر أن الناجين من الطوفان هم فقط ذرية نوح ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ [الصافات : ٧٧] ، فالقول بأن الخضر ابن لآدم من صلبه قول على اللّه بغير علم ، وليس له دليل ثابت من الكتاب والسنة ، ومن المعلوم أن دين اللّه تبارك وتعالى لا يستند على حكايات القصاص !!

ثانيًا : حياة الخضر بعد الطوفان :

تشير الأقوال الثمانية - التي ذكرها ابن حجر العسقلاني في ((الإصابة)) وفي ((الزهر النضر)) - إلى حياته بعد الطوفان نناقشها فيما يلي :

١- الخضر بن عمائيل بن النون بن العيص بن إسحاق ؛ حكاه ابن قتيبة أيضًا ، وكذا سمى أباه عمائيل مقاتل ، ورواه ابن عساكر ، ونقله عنه ابن كثير وابن حجر .

٢- الخضر بن أرميا بن خلقيا : رواه محمد بن إسحاق بن يسار ، عن وهب بن منبه ، وقد ورد ذلك القول لابن جرير الطبري .

٣- الخضر بن فرعون أو ابن بنته : رواه محمد بن أيوب عن أبي لهيعة ، وقال ابن الجوزي : وهما ضعيفان ، يتسم هذا الخبر بالغرابة والسذاجة ؛ إذ كيف يكون الخضر ابن فرعون ، أو ابن بنته ولا يعرفه موسى عليه السلام وهو الذي نشأ في بيت فرعون وبين أفراد أسرته ، ثم ما الداعي إلى سفر موسى وفتاه إلى مَجْمَع البحرين للقاء الخضر ؟!

٤- الخضر من سبط هارون : روي عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن ابن عباس ، وإسناده ضعيف جدًا ، ويعلق ابن حجر على هذا الخبر بقوله : وهو بعيد .

٥- الخضر بن معمر بن مالك بن عبد اللّه بن أزد : رواه إسماعيل بن أبي أويس .

٦- الخضر هو إلياس : روي عن مقاتل ، وروى ابن عساكر بإسناده إلى السدي أنه أخوه ، ويقول ابن حجر : وحكي عن مقاتل أيضًا ، وهو بعيد أيضًا .

٧- أمه رومية وأبوه فارسي : رواه الثعلبي في ((العرائس)) ، والسهيلي وابن عساكر وابن كثير .

٨- أنه من ولد فارس : أخرجه الطبري عن ضمرة بن ربيعة ، عن ابن شوذب .

فإلى الملتقى ، إن كان في العمر بقية .

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين .

عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة

الحمد لله الذي هدانا إلى التوحيد وجعلنا أمة وسطًا ، لا نعرف الإفراط ولا نؤمن بالتفريط ، وجعلنا على ملة إبراهيم حنيفًا ، وما كان من المشركين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، علمه ربه وأدبه خالقه أحسن تأديب ، أمَّا بعد :

فقد تحدثنا في المقالة السابقة عن الخَضر في الفكر الصوفي ، وقلنا : إن هذا موضوع سيستغرق منا العديد من المقالات التي سنحاول فيها - بتوفيق الله تعالى - أن نلقي الضوء على مكانة الخضر ، ودوره الذي اخترعه الباطنية عمومًا ، والصوفية على وجه الخصوص ، ونستكمل حديثنا لنتعرف على حياة الخضر التي يريد لها البعض أن تكون أبدية على غير السنة الإلهية في حياة بني آدم ، ومنهم من يرى في نبي الله إلياس عليه السلام شريكًا للخضر فيما اختص به ، كما لذي القرنين جانب آخر تشير إليه رواية منسوبة إلى كعب الأحبار يقول فيها : (إن الخضر كان وزير ذي القرنين ، وإنه وقف معه على جبل الهند ، فرأى ورقة فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، من آدم أبي البشر ، إلى ذريته ؛ أوصيكم بتقوى الله ، وأحذركم كيد عدوي وكيد إبليس ، فإنه أنزلني هنا ، فقال : فنزل ذو القرنين فمسح جلوس آدم وكان مائة وثلاثين ميلاً) .

ولا يخفى ما في هذه الرواية من الشطط ، فكيف يكون جلوس آدم عليه السلام مائة وثلاثون ميلاً ؟!

أسطورة عين الحياة :

تكثر الروايات المدونة في الكتب عن أسطورة عين الحياة التي شرب منها الخضر ، فكانت سببًا في حياته ، وقد أشار إليها ابن عربي وغيره في كتاباتهم . ونروي عن السهيلي حكاية طويلة نختصرها خشية الملل ، يقول فيها : كان أبو الخضر ملكًا وأمه فارسية واسمها الهاء ، وأنها ولدته في مغارة ، وأنه وجد هناك شاة ترضعه ... ثم تحكي القصة كيف رباه رجل غير أبيه ، إلى أن التقى بأبيه ، ثم فر منه إلى أن وجد عين الحياة فشرب منها ، فهو حي إلى أن يخرج الدجال ، فإنه الرجل الذي يقتله الدجال ثم يحييه . اهـ .

إلاَّ أن أشهر أساطير شرب الخضر من عين الحياة رواها خيثمة بن سليمان من طريق جعفر الصادق عن أبيه ، نقلاً عن « الإصابة في تمييز الصحابة » (١: ٤٣٠) ، ويكرره شيخ الصوفية الأكبر ابن عربي في « الفتوحات » (٣: ٣٣٦) ، نذكر منها : (أن ذا القرنين كان له صديقًا من الملائكة فطلب منه أن يدله على شيء يطول به عمره ، فدله على عين الحياة ، وهي داخل الظلمات ، فسار إليها والخضر في مقدمته ، فظفر بها الخضر دونه) .

وفي رواية مطولة لنفس القصة تتناول العلاقة بين الخضر وذي القرنين تقول : (حين طلب ذو القرنين من الملك أن يدله على شيء يطول به

الحياة الأبدية للخضر

بقلم عميد متقاعد / محمود المراكبي

عمره ، فأجابه الملك بقوله : إن للّه عينًا تسمى عين الحياة ، مَن شرب منها شربة لم يمت أبدًا ، حتى يكون هو الذي يسأل ربه الموت ، فقال ذو القرنين : فهل تعلم موضعها ؟ قال : لا ، غير أنا نتحدث في السماء أن للّه ظلمة في الأرض لم يطأها إنس ولا جان ، فنحن نظن أن تلك العين في تلك الظلمة ، فجمع ذو القرنين علماء الأرض فسألهم عن عين الحياة ، فقالوا : لا نعرفها ، قال : فهل وجدتم في علمكم أن للّه ظلمة ؟ فقال عالم منهم : لِمَ تسأل عن هذا ؟ فأخبره ، فقال : إني قرأت في وصية آدم ذكر هذه الظلمة ، وأنها عند قرن الشمس ، فتجهز ذو القرنين ، وسار اثنتي عشرة سنة ، إلى أن بلغ طرف الظلمة ، فإذا هي ليست بليل ، وهي تفور مثل الدخان ، فجمع العساكر وقال : إني أريد أن أسلكها فمنعوه ، فسأله العلماء الذين معه أن يكف عن ذلك لئلا يسخط اللّه عليهم ، فأبى ، فانتخب من عسكره ستة آلاف رجل على ستة آلاف فرس أنثى بكر ، وعقد للخضر على مقدمته في ألفي رجل ، فسار الخضر بين يديه وقد عرف ما يطلب ، وكان ذو القرنين يكتمه ذلك ، فبينما هو يسير إذْ عارضه وادٍ ، فظن أن العين في ذلك الوادي ، فلما أتى شفير الوادي استوقفه أصحابه وتوجه ، فإذا هو على حافة عين من ماء ، فنزع ثيابه ، فإذا ماء أشد بياضًا من اللبن وأحلى من الشهد ، فشرب منه وتوضأ واغتسل ، ثم خرج ، فلبس ثيابه وتوجه ومر ذو القرنين فأخطأ الظلمة) .

هذه القصة رواها ابن عساكر في ترجمة ذي القرنين من طريق خيثمة بن سليمان قال : حدثنا أبو عبيدة ابن أخي هناد ، حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا أبي جعفر عن أبيه ، وأوردها ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (٢: ١٠٧) ، وقد ترجم الذهبي لسفيان بن وكيع بن الجراح في ((المغني في الضعفاء)) ترجمة رقم (٢٤٨٩) ، وقال : ضُعّف . وقال أبو زرعة : (كان يُتّهَم بالكذب) . وقيل : كان صدوقًا ابتلي بوراقه (وهو من يكتب له الحديث) أفسد حديثه ، وأدخل فيه ما ليس عنده ، فكلم في ذلك فلم يراجع . (راجع ((ميزان الاعتدال)) للذهبي (٢: ١٧٣) ، ترجمة رقم (٣٣٣٤)) .

❋ خاتمة أسطورة عين الحياة :

لا شك أن هذه الأسطورة لا يقبلها العقل والفطرة السليمة ، وهي من جنس حكايات العجائز عن الغول والشاطر حسن ، كما أنها تتضمن مخالفات عديدة ، نوجزها فيما يلي :

١- أن حديثًا يدور بين الملائكة في السماء عن ظلمة في الأرض - فيها بئر - لم يطأها إنس ولا جان .

٢- الملائكة مشغولة بعين الحياة ، وتظن أنها في الظلمة .

٣- أن لآدم وصيةً مكتوبة ، قرأها أحد علماء ذي القرنين .

٤- تحديد وصية آدم للظلمة ، وأنها عند قرن الشمس ، وبرغم تقدمنا التقني إلا أننا ما زلنا لا نجد

في الأرض ظلمة ليست بليل وتفور مثل الدخان .

يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني : إن الروايات التي تزعم أن الخضر شرب من عين الحياة ، كلها من الإسرائيليات التي يرويها وهب بن منبه وغيره ، كما ضعَّف في كتابه ((الإصابة)) كل هذه الروايات ، وقال : هي ضعيفة جدًا .

● لقاءات الخضر وإلياس عليهما السلام

يحدثنا القرآن الكريم عن إلياس عليه السلام في آيات مباركات ، منها قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۞ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۞ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۞ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۞ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۞ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ۞ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٢٣- ١٣٢] .

تقرر هذه الآيات نبوة إلياس عليه السلام ، وتصفه أنه من المخلصين والمحسنين ، ومن عباد الله المؤمنين ، برغم أن القرآن لم يميزه على غيره من الرسل ، إلا أن الأساطير والإسرائيليات التي روجت لحياة الخضر امتدت إلى إلياس ، عليهما السلام ، وجمعت بينهما ، بل وجعلت منهما شقيقين .

يروي ابن عساكر بسنده إلى السدي : (أن الخضر وإلياس أخوان ، وكان أبوهما ملكًا ، فقال إلياس لأبيه : إن أخي الخضر لا رغبة له في الملك ، فلو أنك زوجته لعل يجيء منه ولد يكون المُلك له ، فزوجه أبوه بامرأة حسناء بكر ، فقال لها الخضر : إنه لا حاجة لي في النساء ، فإن شئت أطلقت سراحك ، وإن شئت أقمت معي تعبدين الله عز وجل وتكتمين عليَّ سري ، فقالت : نعم ، وأقامت معه سنة ، فلما مضت السنة دعاها الملك ، فقال : إنكِ شابة وابني شاب ، فأين الولد ؟ فقالت : إنما الولد من عند الله ، إن شاء كان ، وإن شاء لم يكن ، فأمره أبوه فطلقها ، وزوجه بأخرى ثيبًا قد ولد لها ، فلما زُفت إليه قال لها كما قال للتي قبلها ، فأجابت إلى الإقامة عنده ، فلما مضت السنة سألها الملك عن الولد ، فقالت : إن ابنك لا حاجة له بالنساء ، فتَطلبه أبوه فهرب ، فأرسل وراءه فلم يقدروا عليه .

فيقال : إنه قتل المرأة الثانية لكونها أفشت سره ، فهرب من أجل ذلك ، وأطلق سراح الأخرى ، فأقامت تعبد الله في بعض نواحي تلك المدينة ، فمر بها رجل يومًا فسمعته يقول : بسم الله ، فقالت له : أنى لك هذا الاسم ؟ فقال : إني من أصحاب الخضر ، فتزوجته فولدت له أولادًا ، ثم صار من أمرها أن صارت ماشطة بنت فرعون ، فبينما هي يومًا تمشطها ، إذْ وقع المشط من يدها ، فقالت : بسم الله ، فقالت بنت فرعون : أبي ؟ فقالت : لا ، بل ربي وربك ورب أبيك ، الله ، فأعلمت أباها ، فأمر بنقرة من نحاس فأحميت ، ثم أمر بها فألقيت فيه ، فلما عاينت ذلك تقاعست أن تقع فيها ، فقال لها ابن معها صغير : يا أمه ، اصبري فإنك على الحق ، فألقت نفسها في النار ، فماتت رحمها الله) . رواه ابن عساكر عن السدي (٥: ١٥١) ، والألوسي في ((روح المعاني)) (٥: ٣١٩) ، وابن كثير في ((البداية)) (١: ٣٠٨) .

هذه قصة واهية مفككة ملفقة تمامًا ، فهي تنسب الكيد والدسيسة لإلياس عليه السلام ، حيث طلب من أبيه أن يزوج أخاه الخضر ، ولا رغبة له في الزواج ، وتنسب الكذب والقتل والهرب للخضر ، وتنسب الجبروت والظلم لأبيه ، والقصة تطفح منها الدعوة إلى الرهبانية والعزوف عن النساء ، كما تزعم القصة أن الملك ((أبا الخضر)) أطلق سراح زوجة ابنه الأخرى ، فأقامت في بعض نواحي المدينة ، فتزوجها رجل وصارت ماشطة بنت فرعون ، ولا نعرف كيف تحول الملك إلى فرعون !! وما دَخل الخضر وإلياس بابنة فرعون وماشطتها ؟ ومن العجيب أن يروي الثعالبي هذه القصة متداخلة مع قصة الإسراء والمعراج ، ونترك نقلها خشية الملل .

● لقاءات مزعومة بين الخضر وإلياس

تحدد الروايات الثلاث التالية مواعيد اللقاءات الدورية بين الخضر وإلياس ، عليهما السلام ، ويرويها جميعًا ابن عساكر من ثلاث أسانيد مختلفة تلتقي في طريق واحد عن عبد العزيز بن أبي رواد ، وهو متهم بالكذب ، كما قرر علماء الجرح والتعديل ، وتروي هذه الأخبار تلك الصحبة العجيبة بين الخضر وإلياس ، عليهما السلام ، تحدد أولى هذه الروايات معدل اللقاء ، فتقول :

١- (الخضر وإلياس يصومان شهر رمضان ببيت المقدس ، ويوافيان الموسم في كل عام) . رواه ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٥: ١٥٦) من طريق علي بن الحسين بن ثابت الدوري ، عن هشام بن خالد ، عن الحسن بن يحيى الخشني ، عن عبد العزيز بن أبي رواد ميمون .

درجة الحديث : هذا إسنادٌ ضعيف .

٢- وتحدد الرواية الثانية شرابهما طوال العام ، فتقول : إن إلياس والخضر يصومان شهر رمضان ببيت المقدس ، ويحجان في كل سنة ، ويشربان من ماء زمزم شربة واحدة تكفيهما إلى مثلها من قابل (أي العام القادم) . رواه ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٥: ١٥٦) من طريق هشام بن خالد ، عن الحسن بن يحيى الخشني ، عن عبد العزيز بن أبي رواد ميمون . ويعلق بقوله: والحديث رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في ((زوائده على الزهد)) .

درجة الحديث : وهذا إسنادٌ معضل .

٣- وتحدد رواية ثالثة ما يفطران عليه طوال شهر رمضان المبارك ، فتقول : (يجتمع الخضر وإلياس ببيت المقدس في شهر رمضان من أوله إلى آخره ، ويفطران على الكرفس ، ويوافيان الموسم كل عام) . رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في ((زوائده على الزهد)) عن مهدي بن جعفر ، عن ضمرة ، عن السري بن يحيى ، عن عبد العزيز بن أبي رواد ، وقال السخاوي في ((المقاصد الحسنة)) : هو حديث معضل (٢٧) .

درجة الحديث : ضعيفٌ ، وإسناده معضل .

٤- وفي رواية أخرى : (أن الخضر في البحر ، واليسع في البر يجتمعان كل يوم عند الردم الذي بناه ذو القرنين بين الناس وبين يأجوج ومأجوج ، ويحجان ويعتمران كل عام ، ويشربان من زمزم شربة تكيفهما إلى قابل) .

درجة الحديث : وهذا حديث واه ، وقيل : موضوع . وقالوا : إسناده ضعيف جدًا ، وفي رواته متروكان ، قال الحارث بن أبي أسامة في ((مسنده)) : حدثنا عبد الرحيم بن واقد ، حدثني محمد بن بهرام ، حدثنا أبان عن أنس ، يعقب ابن حجر العسقلاني بقوله : عبد الرحيم وأبان متروكان ، وإسناده ضعيف جدًا ، وربما كان من الموضوعات على أنس ، فإن أبان كان يسمع كلام الحسن فيرفعه عن أنس عن النبي ﷺ . ((الإصابة)) (١: ٤٣٦) ، وأبان هو ابن أبي عياش ، قال عنه أحمد : (متروك الحديث) . وقال يحيى بن معين : (متروك) . وقال مرة : (ضعيف) . وذكره البخاري في ((الضعفاء الصغير)) (٣٢) ، وأورده السخاوي في ((المقاصد)) ، وقال عنه : (واه ، واعتقاد هؤلاء أن الخضر في البحر ربما استفادوه من قوله تعالى في سورة ((الكهف)) : ﴿ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ [الكهف : ٦٠]) .

٥- ويروي الثعالبي : (الخضر من ولد فارس ، وإلياس من بني إسرائيل ، يلتقيان في كل عام في الموسم) . رواه الثعالبي في ((العرائس)) (٢٢٤) : عن محمد بن المتوكل ، عن ضمرة بن عبيد الله بن سوار ، ومحمد بن المتوكل هو ابن أبي السري العسقلاني من الطبقة العاشرة ، ذكره الذهبي في ((المغني في الضعفاء)) (٥٩٣٨) ، وقال : (صدوق) ، وقال أبو حاتم : لين ، وهو صدوق عارف له أوهام كثيرة .

وروى أيضًا عن عمرو بن دينار قوله : (إن الخضر وإلياس لا يزالان حيين في الأرض ما دام القرآن فيها ، وإذا رُفع القرآن ماتا) . رواه الثعالبي في ((العرائس)) (٢٢٤) عن أبي بكر بن أحمد بن محمد بن يعقوب ، قال : أخبرنا يزيد بن سمعان بن حبان الواسطي ، وأخبرنا علي بن المنذر عن سفيان بن عيينة ، عن عمر بن دينار قال : وأحمد بن محمد بن يعقوب هو أبو بكر الفارسي الوراق الكاغدي ، قال ابن أبي الفوارس : ضعيف جدًا فيما يدعي عن ابن منيع ، وكان رديء المذهب أيضًا . الذهبي في ((الميزان)) (١: ١٥٣) ترجمة رقم (٦٠٦) .

درجة الحديث : أورده العلامة السخاوي في كتابه ((المقاصد الحسنة)) (حديث ٢٧، ص٦٢) قصة اجتماع الخضر وإلياس ، عليهما السلام ، وعلق عليها بقوله : إلى غير ذلك مما هو ضعيف كله ؛ مرفوعه وغيره ، ولا يثبت منه شيء .

وللحديث بقية إن شاء الله .

عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة

الحلقة الثانية

الحياة الأبدية للخضر

بقلم عميد متقاعد / محمود المراكبي

الحمد لله الذي هدانا إلى التوحيد وجعلنا أمة وسطًا ، لا نعرف الإفراط ولا نؤمن بالتفريط ، وجعلنا على ملة إبراهيم حنيفًا ، وما كان من المشركين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، علمه ربه وأدبه خالقه أحسن تأديب ، أمَّا بعد :

فقد تحدثنا في المقالة السابقة عن الحياة الأبدية للخَضر في الفكر الصوفي ، وعن أسطورة عين الحياة ، ولقاءات الخضر وإلياس ، عليهما السلام . واليوم نكمل حديثنا عن الحياة الأبدية للخضر في الفكر الصوفي ، فنقول مستعينين بالله :

● **أين يقيم الخضر وإلياس الآن ؟!**

يا تُرى أين يقيم حاليًا الخضر وإلياس في ظن من يؤمنون بحياتهم ؟ هذا ما يخبر به هذا الحديث الموضوع عن رسول الله ﷺ قال : « يجتمع البري والبحري وإلياس والخضر كل عام بمكة » . ويروى عن الحسن البصري أنه قال : (وُكِّل إلياس بالفيافي ، والخضر بالبحور ، وقد أعطيا الخلد في الدنيا إلى الصيحة الأولى ، وإنهما يجتمعان في موسم كل عام) . السخاوي في « المقصد الحسنة » حديث رقم (٢٧) ، وعلق بقوله : (وهو ضعيف كله ، ورواه ابن الجوزي في « الموضوعات الكبرى » من طريق أحمد بن عمار عن محمد بن مهدي بن هلال عن ابن جريج ، ثم قال : وابن عمار متروك عند الدارقطني ، ومهدي بن هلال مثله) .

وذكر الدارقطني في « الضعفاء والمتروكين » ترجمة رقم (٤٧) ، والذهبي في « المغني في الضعفاء » ترجمة رقم (٣٨٧) ، وفي « الميزان » ترجمة رقم (٤٩٧) . وقال ابن حبان : مهدي بن هلال (يروي الموضوعات) ، وذكره البخاري في « الضعفاء الصغير » (٣٦٣) ، وقال : (قال يحيى بن سعيد : مهدي غير ثقة) ، وكذبه ابن معين ، وقال عنه : (صاحب بدعة) ، وذكره الذهبي في « المغني في الضعفاء » ترجمة رقم (٦٤٦٦) ، وقال : (تركوه وكذبه بعضهم) ، وابن جريج هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، أصله رومي

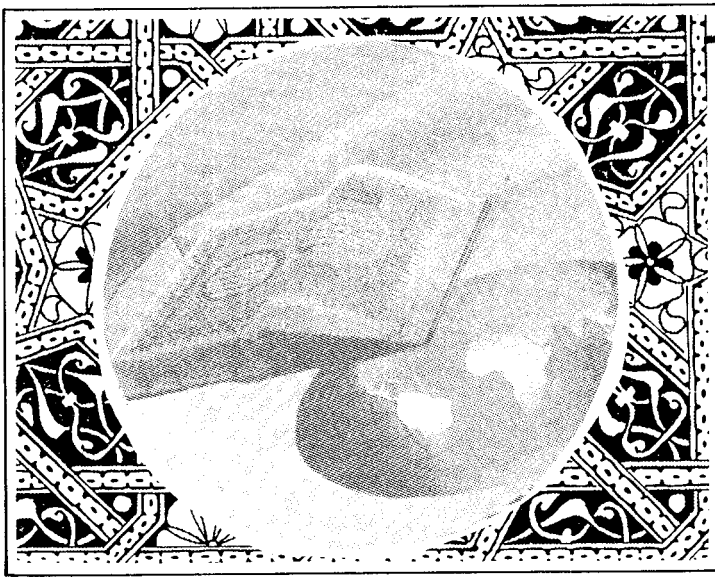

نصراني ، أسلم على ما عنده من معارف مسيحية وأخبار إسرائيلية ، ومن العلماء من وثقه ، ومنهم من اتهمه بالتدليس ، قال الدارقطني : تجنب تدليس ابن جريج ، فإنه قبيح التدليس ، لا يدلس إلا فيما سمعه من مجروح ، وقال عنه أحمد بن حنبل : بعض الأحاديث التي يرسلها ابن جريج أحاديث موضوعة ، كان الإمام مالك يرى أن ابن جريج لا يبالي من أين أخذ الحديث ، وقد روي عنه أنه قال : ابن جريج محتطب بليل .

وفي رواية عن كعب الأحبار : (أن الخضر على منبر من نور في البحر) .

ويروى عن ابن عباس الخبر مذكور في جزء المزكي شيخ الشافعي ، وهو حديث لا يصح ، وفي إسناده الحسن بن رزين ليس بشيء ، كما أخرجه الدارقطني في « الأفراد » قال : ثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة ، ثنا محمد بن أحمد بن زيد ، ثنا عمرو بن عاصم ، ثنا الحسن بن رزين عن عطاء ، عن ابن عباس : لا أعلمه إلا مرفوعًا ، قال الدارقطني : لم يحدث به عن ابن جريج غير الحسن بن رزين . قال أبو جعفر العقيلي في « الضعفاء الكبير » (١: ٢٢٤) : لم يتابع عليه مسندًا ولا موقوفًا ، وهو مجهول في النقل ، وحديثه غير محفوظ ، قال الحافظ ابن المنادي : هو حديث واهٍ بالحسن بن رزين ، وترجم الذهبي في « الميزان » فقال : الحسن بن رزين عن ابن جريج ليس بشيء ، وهو منكر ، والحسن فيه جهالة (١: ٤٩٠) ، وأورده ابن الجوزي في « الموضوعات الكبرى » (١: ١٩٥) ، وروى ابن عساكر نحوه من طريق علي بن الحسن الجهضمي ، وهو كذاب ، عن ضمرة بن حبيب المقدسي عن أبيه عن العلاء بن زياد القشيري عن عبد الله بن الحسن عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب مرفوعًا ، قال : يجتمع كل يوم عرفة بعرفات : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، والخضر . وذكر حديثًا موضوعًا فيه عدة مجاهيل لا يُعرفون ، تركنا إيراده قصدًا ، يعلق السخاوي في « المقاصد الحسنة » (ص ٦٢) عن طرق هذا الحديث عن مهدي بن هلال ، وعن ابن جريج بقوله : (وهو منكر من الوجهين ، وثانيها أشد وهاء) ، ومهدي كان يضع الأحاديث ، وأورده الكناني في « تنزيه الشريعة المرفوعة » (١: ٢٣٥) .

وفي رواية لابن عباس تروي تفصيلات أكثر عن هذا اللقاء جاء فيها : (يلتقي الخضر وإلياس في كل عام في الموسم ، فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه ، ويتفرقان عن هؤلاء الكلمات :

بسم اللّه ما شاء اللّه لا يسوق الخير إلا اللّه
بسم اللّه ما شاء اللّه لا يصرف السوء إلا اللّه
بسم اللّه ما شاء اللّه ما كان من نعمة فمن اللّه
بسم اللّه ما شاء اللّه لا حول ولا قوة إلا باللّه

وقال ابن عباس : (من قالهن حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات أمنه اللّه من الغرق والحرق والسرق ، قال : ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب) .

● درجة الحديث : واهٍ شديد الوهن ، منكر من وجهيه ، ذكره العلماء في الموضوعات ، وهذا الدعاء يردده كثير من الصوفية في أورادهم ، ويقول المشايخ لأتباعهم قصة افتراق الخضر وإلياس على هذا الدعاء ، ومن هذه الطرق :

● **الطريقة الخلوتية العونية العيونية :**

وتعليقنا على هذه الغرائب أنها تضم متناقضات عجيبة ؛ إذ كيف يعيش الخضر في البحر ، وإلياس في البر ، ثم يجتمعان يوميًا عند الردم ، كما ورد في الروايات السابقة ، وما هو دورهما وأهمية وجودهما يوميًا عند الردم ؟!

ومع هذا يتركانه طوال شهر رمضان ويعتكفان في بيت المقدس ، ولا نعرف إن كانا لا يزالان يعتكفان فيه بعد احتلاله ومحاولات حرقه من الصهاينة ! أم تراهم انتقلوا إلى مسجد آخر !!

ثم ما حكمة اعتكافهما في بيت المقدس دون بيت اللّه الحرام ؟ ولا زلنا لا نفهم سر الكرفس الذي لا يفطران إلا عليه ، وسر مخالفتهم لسنة رسول اللّه ﷺ في كل شيء ، حتى في الإفطار !!

وبرغم كثرة قصص عين الحياة وحكايات دفن آدم عليه السلام التي يروج لها مَن تستهويه غرائب الأمور ، إلا إننا لم نجد رواية واحدة تشرح لنا سبب تعمير إلياس عليه السلام ، وفي نفس الوقت يربط هؤلاء بين الخضر وإلياس ، حتى إنهما لا يكادان يفترقان .

● **مناقشة لقاءات الخضر وإلياس :**

ولا يفوتنا قبل أن ننتقل إلى موضوع آخر أن نعلق على هذه اللقاءات المزعومة بين العبد الصالح الخضر ونبي اللّه إلياس :

١- كيف لا يحتمل موسى صحبة الخضر ، عليهما السلام ، ويفارقه بعد ثلاث وقائع ، ويستمر إلياس عليه السلام في صحبة دائمة للخضر ، وإلى أن تقوم الساعة ، ومع هذا لا يشير القرآن إلى هذه الخصوصية ، فاحتمال إلياس أولى بالذكر من فراق الخضر لموسى ، عليهما السلام ، بعد ثلاث وقائع فقط .

٢- إلياس عليه السلام نبي مرسل بنص القرآن ، فهل تقولون بنبوة الخضر ؟

٣- ما هي مهمة إلياس الآن ؟ هل هو نبي أم ولي ؟

إن من يقول بولايته يدخل نفسه في سلسلة من التساؤلات :

● كيف تحول إلياس عليه السلام من النبوة إلى علم الباطن حتى صار كالخضر ؟

● أين الدليل على رفع النبوة عنه ؟ فإذا انعدم الدليل ، فهل ما زال نبيًا حتى الآن ؟

● هل ما زال إلياس عليه السلام يبلغ شريعته إلى الناس حتى الآن ؟

● أم تراه اتبع خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات ربي وسلامه عليه ؟

إذا أجاب الباطني أن إلياس عليه السلام ما زال يبلغ رسالته إلى اليوم فقد اقترف إثمًا كبيرًا ، وأوقعه جهله في مأزق عظيم ، حيث أنكر ختام النبوة والرسالة بنبينا محمد ﷺ ، وهذا كفر يحتاج إلى الاستتابة والرجوع إلى الإسلام من جديد ، أما إذا أجاب بقوله : لقد ترك إلياس رسالته واتبع نبينا محمد ﷺ طالبناه بالدليل الصحيح على ذلك ، ثم كيف شغل الباطنيون أنفسهم بلقاء الخضر ومحمد ﷺ ، ولم يرد خبر واحد ولو ضعيف أو حتى موضوع عن محاولة لقاء مماثل بين إلياس ومحمد ﷺ ، ثم أين لقاءات إلياس عليه السلام بالصحابة والصوفية ؟ أم تراه ترك ذلك للخضر عليه السلام وحده ، ثم كيف يترك البري (إلياس) لقاءات الناس إلى البحري (الخضر) ، ألم يكن من الأيسر أن يتبادل الخضر وإلياس ، عليهما السلام ، أماكنهما في هذه القصص ؟!

نسأل اللّه العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة .

عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة

الخضر والصوفية

بقلم عميد متقاعد / محمود المراكبي

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليمًا كثيرًا ، فما زلنا نتحدث عن فكرة الخضر وحياته إلى اليوم في الفكر الصوفي ، وروينا في المقال السابق بعض مرويات الصوفية في كتبهم ، فلا يكاد يخلو كتاب من كتب الكرامات ، سواء التي كتبها الناس عن المشايخ أو التي سطروها بأنفسهم ، ولا يتعجب القارئ الكريم ، فقد لا يُصَدّق أن رجلاً يكتب كتابًا يسرد فيه كراماته ، والحقيقة أن ذلك موجود بالفعل ، فها هو الشعراني يكتب كتابه ((لطائف المنن)) المعروف باسم ((المنن الكبرى)) ، ويُصَدّر كتابه هذا بسبب كتابته عن نفسه وتزكيته لها وحصر كراماته بأن الباعث له على ذلك خشية أن يدس عنه الناس كرامات لم يفعلها ، فأراد أن يحصر كراماته في حياته خشية أن يمدح بما لم يفعل ، ثم راح الرجل يكتب مئات الصفحات التي يبدأها غالبًا بقوله : ومما مَنّ الله تعالى به عليّ أنني فعلت كذا وكذا ، ويذكرنا حالنا وقت قراءة هذا الرجل في كثير من الأحيان ، بالخواجة ((بيجو)) وحيرته مع شطحات ((أبي لمعة)) .

❋ **ملازمة الخرائب تربية باطنية :**

يقول عبد القادر الجيلاني : (أقمت في صحراء العراق وخرائبه خمسًا وعشرين سنة مجردًا سائحًا لا أعرف الخلق ولا يعرفونني ، يأتيني طوائف من رجال الغيب والجان أعلّمهم الطريق إلى الله عز وجل ، ورافقني الخضر عليه السلام في أول دخولي العراق وما كنت عرفته ، وشرط أن لا أخالفه ، وقال لي : اقعد هنا ، فجلست في الموضع الذي أقعدني فيه ثلاث سنين يأتيني كل سنة مرة ، ويقول لي : مكانك حتى آتيك ، قال : ومكثت سنة في خرائب المدائن آخذ نفسي بطريق المجاهدات ، فآكل المنبوذ ، ولا أشرب الماء ، ومكثت فيها سنة أشرب الماء ولا آكل المنبوذ ، وسنة لا أشرب ولا آكل ولا أنام) .

[((الطبقات الكبرى)) للشعراني (١١١/١)] ، ومن عجب أن يترك الجيلاني بني آدم خمسًا وعشرين سنة ويتفرغ لتعليم رجال الغيب والجان الطريق ، ثم يأتيه من لا يعرفه ، فيأمره ويطيع ، فيأكل سنة من البقايا وما يرميه الناس في المهملات ولا يشرب الماء ، ثم سنة ثانية وثالثة حَرَمَه النوم ، ولا تعرفنا القصة متى علم أن الذي يطيعه هو الخضر ، أبَعْد الأعوام الثلاثة ؟ أم بعد أن كلفه بأمور أكثر غرابة ؟

❋ **الخضر يطير في الهواء !!**

حكي عن إبراهيم الخواص أنه قال : كنت في البادية جالسًا مستجمع الهم ، وقد مضت عليّ أوقات لم أتناول فيها الطعام ، فبينا أنا كذلك إذا بالخضر عليه السلام مارًا في الهواء ، فلما رأيته طأطأت رأسي وغمضت بصري ، ولم أنظر إليه ، فلما رآني جلس إلى جنبي ، فرفعت رأسي ، فقال لي : يا إبراهيم ، لو أعرتني الطرف ما جئت إليك . [((اللمع)) لأبي نصر السراج الطوسي (٢٢٤)] .

❋ **الصوفية يترفعون عن صحبة الخضر :**

سُئل الخواص عن أعجب ما رأى ؟ فقال : رأيت منها الكثير ، ولكن ليس فيها ما أعجب من أن الخضر عليه السلام طلب مني أن يصحبني فلم أجبه ! قيل : لِمَ ؟ قال : لأني كنت أطلب رفيقًا خيرًا منه ، ولكني خشيت أن أعتمد عليه دون الحق ، وتضر صحبته بتوكلي ، وأتخلف بالنافلة عن الفريضة . [الهجويري في كشف المحجوب (ص ٣٦٥) ، وكررها مطولة في (ص ٥٣٠) ، وحكاها بشكل ثالث في (٥٨٨)] .

يا عجبًا لهؤلاء كيف يصدقون أن مشايخهم يترفعون عن صحبة الخضر عليه السلام ، بينما موسى الكليم يقطع المسافات ويلقى التعب والنصب لتنفيذ أمر الله له ولقاء الخضر .

❋ **الخضر يدل تائهي الصوفية :**

وكان أبو إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل الخواص يقول : (لقيت الخضر عليه السلام في بادية فسألني الصحبة ، فخشيت أن يفسد عليَّ توكلي بالسكون إليه ففارقته ، ثم يستطرد قائلاً : عطشت في بادية في طريق الحجاز ، فإذا براكب حسن الوجه على دابة شهباء فسقاني الماء ، وأردفني خلفه ، ثم قال : انظر إلى نخيل المدينة فانزل واقرأ على صاحبها مني السلام وقل : أخوك الخضر يقرأ عليك السلام) . [« الطبقات الكبرى » للشعراني (٨٤/١)] .

ويا عجبًا من جرأة أهل الشطح ، الخضر عليه السلام يطلب صحبة الخواص ويرفض الرجل خشية أن يفسد عليه توكله ، ثم يسير في الصحراء بلا زاد أو راحلة حتى إذا عطش يأتيه الخضر فيسقيه ويردفه خلفه ويوصله إلى المدينة ، والخواص لا يعرفه .

أما كان أولى له أن يستن بسنة رسول الله ﷺ في الهجرة حيث أعد زاده وعدته ورتب دابته واستأجر الدليل ، أيخالف الخواص سنة رسول الله ﷺ ثم يزعم لقاء الخضر عليه السلام ، وكأن مهمة الخضر هي سقي الصوفية وتوصيلهم مكافأة على مخالفتهم هدي نبيهم ﷺ !!

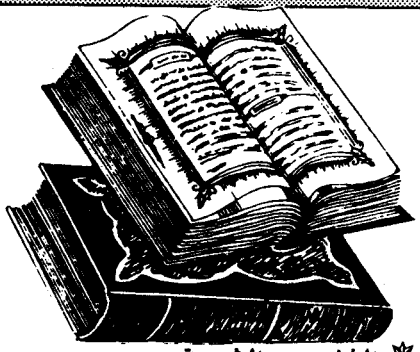

❋ **الخضر يحب الشوربة :**

وكان الشيخ عبد الله القرشي يجتمع كثيرًا بالخضر عليه السلام ، وكان يطبخ طعام القمح كثيرًا ، فقيل له في ذلك ، فقال : (إن الخضر عليه السلام زارني ليلة فقال : اطبخ لي شوربة قمح ، فلم أزل أحبها لمحبة الخضر عليه السلام لها) . [« الطبقات الكبرى » للشعراني (١٣٧/١)] .

ليس الغرض من حكاية الشيخ حب الخضر للشوربة أو ثنائه عليها ، وإنما المقصود أن يوهم أتباعه أنه يجالس الخضر ويأكل معه ، وأنه يتبع الخضر في كل أموره حتى حبه للشوربة ليس من نفسه إنما اتباع وتقليد للخضر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

❋ **الخضر تابع للحفني :**

ويروي الشعراني صاحب « الطبقات الكبرى » (٩٢/٢) عن الشيخ الحفني : (أن الخضر عليه السلام كان يحضر مجلسه مرارًا يجلس على يمينه ، فإن قام الشيخ قام معه ، وإن دخل الخلوة شيعه إلى باب الخلوة) . ويقول أبو الحسن الشاذلي : (لقيت الخضر عليه السلام في صحراء عيذاب فقال لي : يا أبا الحسن ، أصحبك الله اللطف الجميل ، وكان لك صاحبًا في المقام والرحيل) . [« الطبقات الكبرى » للشعراني (٤/٢)] .

❋ **الخضر يعين الأبدال :**

يروي السيوطي عن اليافعي عن بعض أصحاب الشيخ عبد القادر الجيلاني قصة غريبة تجعل للخضر دورًا في اختيار الأبدال ، حيث يقول : (خرج الشيخ عبد القادر من داره ليلة فانفتح له باب المدرسة ، فخرج وخَرَجْتُ خلفه ، فإذا نحن في

بلد لا أعرفه ، فدخل فيه مكانًا شبيهًا بالرباط ، فإذا فيه ستة نفر ، فبادروا بالسلام عليه ، والتجأت إلي سارية هناك ، وسمعت أنينًا ، فلم نلبث إلا قليلا حتى سكن الأنين ، ودخل رجل وذهب إلى الجهة التي سمعت فيها الأنين ، ثم خرج يحمل شخصًا على عاتقه ، ودخل آخر مكشوف الرأس طويل الشارب ، وجلس بين يدي الشيخ فأخذ عليه الشيخ الشهادتين ، وقص شعر رأسه وشاربه ، وألبسه طاقية وسماه محمدًا ، وقال لأولئك النفر : قد أمرت أن يكون هذا بدلاً عن الميت ، قالوا : سمعًا وطاعة ، ثم خرج الشيخ وتركهم ، وخرجت خلفه ، ومشينا غير بعيد ، وإذا نحن عند المدرسة في بغداد ، فأقسمت على الشيخ أن يبين لي ما رأيت ، فقال : أما البلد فنهاوند ، وأما الستة فهم الأبدال ، وصاحب الأنين سابعهم وكان مريضًا ، فلما حضرته وفاته جئت أحضره ، وأما الرجل الذي خرج يحمل شخصًا فأبو العباس الخضر عليه السلام ، ذهب به ليتولى أمره ، وأما الرجل الذي أخذت عليه الشهادتين ، فرجل من أهل القسطنطينية كان نصرانيًا ، وأمرت أن يكون بدلاً عن المتوفى ، فأتي به فأسلم على يدي وهو الآن منهم) . هذا الخبر الذي ينقله السيوطي عن كتاب ((كفاية المعتقد)) لليافعي ، راجع ((الحاوي للفتاوي)) (٤٧/٢) ، يلقي بروح اليأس في طريق المريدين ، فالتعيين لمناصب الأبدال ليس بالإخلاص في الأوراد أو كثرة حضور الموالد والحضرات ، والاعتكاف عند الأعتاب ، بل هو اختيار القطب الذي لم يجد في تلك القصة من يصلح لهذا المقام فاختار نصرانيًا ، لم يغتسل بعد غسل الإسلام .

❋ يخبر بمقام الصوفية عند ربهم :

يقول أبو الحجاج الأقصري : سمعت شيخنا عبد الرزاق يقول : (لقيت الخضر عليه السلام سنة ٥٨٠ هـ فسألته عن شيخنا أبي مدين فقال : هو إمام الصديقين في هذا الوقت ، وسره من الإرادة ذلك آتاه الله تعالى مفتاحًا من السر المصون بحجاب القدس ، ما في هذه الساعة أجمع لأسرار المرسلين منه) . [((الطبقات الكبرى)) للشعراني (١٣٣/١)] .

ويروي القشيري في رسالته ((القشيرية)) عن بلال الخواص وننقلها عن السيوطي في كتابه ((الحاوي للفتاوي)) (٤٦٩١/٢) قال : (كنت في تيه بني إسرائيل ، فإذا رجل يماشيني فتعجبت ، فألهمت أنه الخضر عليه السلام ، فقلت له : بحق الحق من أنت ؟ قال : أخوك الخضر ، قلت : أريد أن أسألك ، قال : سل ، قلت : ما تقول في الشافعي ؟ قال : هو من الأوتاد ، قلت : وما تقول في أحمد بن حنبل ؟ قال : رجل صديق ، قلت : ما تقول في بشر الحافي ؟ قال : لم يخلق بعده مثله ، قلت : بأي وسيلة رأيتك ؟ قال : ببَرَكة أمك) .

■ شروط اجتماع الصوفي والخضر :

يروي الشعراني في ((الطبقات الكبرى)) أنه سمع الشيخ علي النبتيتي وهو يقول : (لا يجتمع الخضر عليه السلام بشخص إلا اجتمعت فيه ثلاث خصال ، فإن لم تجتمع فيه فلا يجتمع به قط ، ولو كان على عبادة الملائكة :

- الخصلة الأولى : أن يكون العبد على سننه في سائر أحواله .
- الثانية : أن لا يكون له حرص على الدنيا .
- الثالثة : أن يكون سليم الصدر لأهل الإسلام لا غل ولا غش ولا حسد .

وحكي له عن الشيخ أبي عبد الله التستري أحد رجال الرسالة ((القشيرية)) أنه كان يجتمع بالخضر عليه السلام ويقول : إن الخضر لا يجتمع بأحد إلا على وجه التعليم له ، فإنه غني عن علم العلماء لما معه من العلم اللدني) . [((الطبقات الكبرى)) للشعراني (١١٣/٢)] .

ثم ينسب نفس الحكاية في كتابه ((الميزان الخضرية)) لشيخه علي الخواص فيقول : (وأخبرني ((سيده)) علي الخواص أن للاجتماع بالخضر عليه السلام ثلاثة شروط ، ومن لا تجتمع فيه لا يجتمع به ، ولو كان على عبادة الثقلين :

- الأولى : أن يكون على سُنّة ، لا يتدين ببدعة .
- الثاني : أن لا يكون له حرص على الدنيا ، فلو خبأ عنده رغيفًا إلى غد لم يجتمع به .
- الثالث : أن يكون سليم الصدر للمسلمين ،

فلا يكون في قلبه غل ، ولا حسد ، ولا كبر على أحد منهم .

قال : وكان أبو عبد الله (البشري) - أحد رجال رسالة القشيري - يجتمع به (الخضر) كثيرًا ، فوقع أنه قال لزوجته : ضعي هذا الدرهم إلى غد ، فانقطع عن رؤيته إلى أن مات ، ثم رآه في المنام من بعد ، فقال له : ما ذنبي ؟ فقال له : أما علمت أنا لا نصحب من يخبئ رزق غد) . [« الميزان الخضرية » للشعراني (١٦)] .

❋ الخضر مقام وليس شخص :

يرى بعض الصوفية أن الخضر مقام يصل إليه العارفون وليس صاحب موسى ، ويقولون : (إن لكل زمان خضرًا ، وأنه نقيب الأولياء ، وكلما مات نقيب أقيم نقيب بعده مكانه ويسمى الخضر ؛ ولهذا يختلف الصوفية في وصف الخضر ، فمنهم من يراه كهلاً أو شيخًا أو رجلاً أو شابًا ، وهو يؤكد اختلاف المرئي) .

يشير أبو العزايم إلى المتنافسين على مرتبة الخضر ، فيقول : (في هذا العصر أفراد وأبدال وأقطاب وعلماء وما شاكلهم ، كلهم يتنافسون في أن ينالوا مرتبة الخضر عليه السلام ، ولكن ما نالها من طريق الفضل إلا الخضر) . [« في رحاب أنصار الحق » لمحمود ماضي أبو العزايم (١٦٤)] .

يقول القاشاني رأيًا آخر : الخضر : كناية عن البسط ، وإلياس كناية عن القبض ، وأما كون الخضر عليه السلام شخصًا إنسانيًا باقيًا من زمان موسى عليه السلام إلى هذا العهد ، أو روحانيًا يتمثل بصورته لمن يرشده فغير محقق عندي ، بل قد يتمثل له بالصفة الغالبة عليه ، ثم يضمحل وهو روح ذلك الشخص أو روح القدس) [« اصطلاحات الصوفية » للقاشاني ، تحقيق د . محمد كمال إبراهيم (١٦٠)] .

وجاء في « معجم مصطلحات الصوفية » للدكتور عبد المنعم الحفني (٩٠) في مادة خضر : الخضر: يعبر به عن البسط ، فإن قواه المزاجية مبسوطة إلى عالم الشهادة والغيب ، وكذلك قواه الروحية .

❋ تعقيب هام :

لا يتسع المقام لذكر كل الصوفية الذين يزعمون رؤية الخضر ، وننقل عن الشعراني في « طبقاته الكبرى » وغيرها من مؤلفاته في ترجمة مشايخ الصوفية ، أن ممن اجتمع بالخضر : ذو النون المصري ، والشيخ عبد الرزاق ، وإبراهيم الخواص ، وأبو اليزيد البسطامي ، وإبراهيم بن أدهم ، وأبو الحسن الشاذلي ، وأبو العباس المرسي ، وياقوت العرشي ، وعلي الضرير النبتيتي ، وعلي الخواص ، وأفضل الدين ، ومحمد المنير وغيرهم ، ولا تنتهي الأمثلة من كتب الشعراني ، بل ومصنفات أبي نعيم والقشيري وابن عربي والجيلي والشبلنجي والسرهندي واليافعي وغيرهم ، لا تخلو من الإشارة إلى اجتماع الأولياء والخضر عليه السلام .

وقد يرى البعض أن هذه لا ضرر من الاستماع إليها ، ولكنها في حقيقة الأمر تهدف إلى تزكية رجال التصوف ، فأين الشافعي وعلمه بزعمهم ؟! وأين الإمام أحمد بن حنبل وفقهه وحفظه للحديث ، ثم مواقفه لحماية العقيدة من بشر الحافي ، ثم إذا تأملنا لقاءاتهم الخضر عليه السلام نلاحظ أمرًا هامًا أن كل مروياتهم تختلف عن أفعاله الثلاث مع موسى عليهما السلام ، ولا نجد قصة واحدة تلقي ضوءًا عن شخصية الخضر عليه السلام تصلح أن نضيفها إلى ما قصه القرآن عنه ، بل على العكس تمامًا نجد قصص الصوفية تسيء إليه وتنقص من قدره ، فنراه يأمر الجيلاني بالاعتزال ثلاث سنوات ليس له طعام إلا المنبوذ من الطعام ، ولو كان هدفه تهذيب نفسه لأمره بالاعتكاف الشرعي في رمضان في المسجد ، ثم نرى الخضر يعرض نفسه على الخواص ليصحبه فيأبى ، ثم يماشي الحفني تابعًا له ، ثم يعلم ابن الحواري رقية مخالفة لهدي النبي ﷺ .

إن حياة الخضر إلى اليوم ليست موضوعًا ثانويًا في الفكر الصوفي ، بحيث لا يضر الصوفي التصديق به أو إنكاره ، بل لقد أصبح في حقيقة الأمر عمود الرحى الذي تدور حوله مجموعة من الأفكار ، فأصبحت حزمة من المبادئ المترابطة ، لا يُقبل أن يؤمن الصوفي ببعضها ويكفر ببعض ، فمجرد رد الصوفي لموضوع واحد ينفرط عقد الفكر الصوفي بالكلية .

وإلى اللقاء في العدد القادم إن شاء الله .

القول المبين في حياة الخضر

بقلم أ / محمود المراكبي

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه ، أما بعد :

فقد ذكرنا في المقال السابق بعضًا من الأقوال التي راجت في الكتب ، واشتهرت عن حياة الخضر عليه السلام وطولها وامتدادها من نبوته لآدم عليه السلام وحتى يكذب الدجال ، وهذه الأسطورة لو كانت صحيحة لكانت حياته من أعظم الآيات والعجائب ، فالله تبارك وتعالى ذكر أن رسالة نوح عليه السلام بلغت ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وجعلها آية ، فكيف لا يذكر من استحياه آلاف السنين ، وفي ذلك آية من أعظم آيات الربوبية .

ونناقش فيما يلي قضية حياة الخضر عليه السلام ، ونعرض بتوفيق الله تعالى فيما يلي الأدلة التي تقطع الشك باليقين في قضية حياة الخضر عليه السلام :

❋ أولاً : الدليل من القرآن الكريم :

إن الذين يزعمون حياة الخضر عليه السلام يقولون على الله بغير علم ، ويحذرنا الحق تبارك وتعالى بقوله : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٨٠] ، وقوله : ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٩] ، كذلك قوله : ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٨] ، فلو كان الخضر عليه السلام حيًا لثبت ذلك بالكتاب والسنة وإجماع الأمة ، فهذا كتاب الله تعالى ، فأين حياة الخضر فيه أو غيره من البشر ، والآية القرآنية تقرر : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٤] ، فإن كان الخضر عليه السلام بشرًا فقد دخل في هذا العموم لا محالة ، ولا يجوز تخصيصه بالخلود إلا بدليل صحيح ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٨١] ، عن علي بن أبي طالب قال : « لم يبعث الله عز وجل نبيًا : آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد ؛ لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، ويأمره فيأخذ العهد على قومه » . [أخرجه ابن جرير الطبري في تفسير آل عمران (٣: ٢٣٦)] .

فالخضر إما نبي فقد دخل في هذا الميثاق ، فلو كان حيًا في زمن نبي الله ﷺ لكان أشرف أحواله الوفاء بعهد الله ، وأن يأتي مبايعًا لرسول الله ﷺ مؤمنًا بما أنزل الله عليه وناصرًا له ومؤيدًا ، وهذا موسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل وكليم الله لو كان حيًا في زمن سيدنا محمد رسول الله ﷺ ما تأخر لحظة ، ففي الحديث الشريف : « لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، أما والله ، لو كان موسى بن عمران حيًا ما وسعه إلا اتباعي » . [« زاد المسير في علم التفسير » لأبي الفرج بن الجوزي (١: ٤١٦)] . وفي رواية أخرى : « والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني » . [« تفسير غرائب القرآن » للنيسابوري

(٣: ٢٣٣)] .

وطالما لم يبايع الخضر عليه السلام سيدنا محمدًا ﷺ فهو إما أن يكون ليس بنبي ، وبالتالي غير مكلف بالبيعة ، أو أن يكون قد ذاق الموت ؛ لقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] شأنه في ذلك شأن كل البشر .

❋ ثانيًا : الدليل من السنة المطهرة :

هذه سنة رسول الله ﷺ فأين النص على حياته وخلوده ، وقد استعرضنا الروايات الموضوعة فما وجدنا فيها حديثًا واحدًا يرقى إلى درجة الحديث الحسن ، وكل ما ورد أشبه بالحكايات والقصص الخيالية لا ينبغي أن تروى إلا على سبيل التعجب !

اتفق الشيخان البخاري ومسلم ورواه أبو داود وأحمد في تخريج حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : صلى بنا النبي ﷺ العشاء في آخر حياته ، فلما سلم قام فقال : « أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد » . وفي رواية انفرد بها أحمد في « مسنده » : « لا يأتي على الناس مائة سنة وعلى الأرض عين تطرف ممن هو اليوم حي » . [أخرجه البخاري وأحمد في مسند جابر بن عبد الله] . وفي رواية ثالثة : « أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإن على رأس مائة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد » . [أخرجه مسلم وأحمد في مسند جابر بن عبد الله] . وفي رواية رابعة انفرد بها مسلم أن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ قبل موته بشهر أو نحو ذلك : « ما من (ما منكم من) نفس منفوسة اليوم تأتي عليها مائة سنة وهي حية يومئذ » . ويروي جابر بن عبد الله أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بشهر يقول : « تسألونني عن الساعة ، وإنما علمها عند الله ، وأقسم بالله ما على الأرض نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة » . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : لما رجع النبي ﷺ من تبوك سألوه عن الساعة فقال النبي ﷺ : « لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم » .

يعلق ابن الجوزي قائلا : هذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر .

ونقول : لقد أثبتنا بطلان دعوى حياة الخضر ولقائه النبي ﷺ ، وبفرض أنه عاش حتى عصر النبوة فإن هذه الأحاديث تقرر أنه لم يعش بعد مائة سنة من وفاة النبي ﷺ أحد كان حيًا وقت قول النبي ﷺ وقد توفي آخر الصحابة أبو الطفيل عامر بن واثلة عام ١١٠هـ .

❋ قولهم : الخضر ولي وليس بنبي :

نقول : الخضر لو كان وليًا ، فهو إذن صحابي أو تابعي لنبي سبقه ، وبالتالي بلغه أمر نبيه بوجوب بيعة النبي الخاتم ﷺ ، فما الذي حجبه عن النبي ﷺ حتى يخاطبه من خلال أنس رضي الله عنه ، يبقى أن يقولوا : إنه ولي وغير مكلف بالبيعة ، نقول : إذا فاتته البيعة فلم إصراره على عدم الصحبة ، إن الصديق أبا بكر أفضل البشر بعد

الأنبياء صلوات الله عليهم جميعًا ، وهذا ما يقرره الحديث الشريف : « ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر » . [رواه ابن تيمية في « الفتاوى الكبرى » (٤: ٣٣٩)] .

فكيف يتخلف الخضر عن شرف صحبة رسول الله وآله والمهاجرين والأنصار ؟! وأين كان الخضر يوم بدر ورسول الله ﷺ يناشد ربه قائلاً : « اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم » ، فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك يا رسول الله ، قد ألححت على ربك . [أخرجه البخاري] .

وفي رواية للبخاري : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض بعد اليوم » .

لقد قاتل المؤمنون يوم بدر وشارك معهم جبريل عليه السلام ، فعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب » .

فلو كان الخضر عليه السلام حيًا لكان شهوده يوم بدر أرجى أعماله عند ربه ، فهذا جبريل عليه السلام يسأل رسول الله ﷺ قائلاً : « ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : من أفضل المسلمين ، قال : وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة » . [أخرجه البخاري] . وفي رواية قال : « خيارنا » .

وقد قيل : إن أفخر بيت قالته العرب ما قاله حسان بن ثابت في قصيدة له يقول فيها :

وثبير بدر إذ يرد وجوههم

جبريل تحت لوائنا ومحمد

يقول أبو الفرج بن الجوزي : فلو كان الخضر عليه السلام حيًا لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته وأعظم غزواته . [عجالة المنتظر في شرح حال الخضر لابن الجوزي نقلاً عن ابن كثير في البداية والنهاية (١: ٣١٢)] .

ويعلق شيخ الإسلام ابن تيمية على قول الصوفية : « الخضر نقيب الأولياء » بقوله : من ولاه النقابة ، وأفضل الأولياء أصحاب محمد ﷺ وليس فيهم الخضر ، وعامة ما يُحكى في هذا الباب من الحكايات بعضها كذب ، وبعضها مبني على ظن رجل ؛ مثل شخص رأى رجلاً ظن أنه الخضر ، فقال : إنه الخضر ، وكما أن الرافضة ترى شخصًا تظن أنه الإمام المنتظر المعصوم ، أو تدعي ذلك ، وروي عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال : من أحالك على غائب فما أنصفك ، وما ألقى هذا على ألسنة الناس إلا الشيطان . [الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٧: ١٠٢)] .

هذه الأحاديث تجعلنا نطمئن إلى موت الخضر عليه السلام في زمن موسى عليه السلام أو بعده بقليل . أما أن يكون حيًا ويتخلف عن بدر وأحد وسائر غزوات النبي ﷺ لنصرة دين الله عز وجل فهذا ما لا يقبله عقل ولا يستريح إليه بال ، فإن قيل : إنه كان حاضرًا في هذه المشاهد كلها ولم يره أحد ، نقول : إن هذا الزعم يخرجه عن بشريته ويجعله ملكًا أو من الجن ، فإن قيل : إنه بشر لا يراه الناس ، نقول : إن هذا تخصيص لا دليل عليه ووهم لمجرد الجدال والمراء ، ثم ما هي فائدة الاختفاء بينما ظهوره أعظم لأجره ، وأظهر لمعجزته ، وأعلى لقدره ومرتبته ، ثم أليس أهل بدر أعلى مقامًا من فتى موسى عليه السلام ومن أصحاب السفينة وأهل القرية ؟ وكيف يحتجب عن أصحاب رسول الله ﷺ ويراه هؤلاء ؟

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى .

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية
العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس : ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٣١٣
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت . ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣

القول المبين في حياة الخضر

الحلقة الثانية

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وعلى آله وصحبه ، أما بعد :

فقد تكلمنا في المقال السابق عن قضية حياة الخضر عليه السلام ، وقمنا بعرض الأدلة التي تقطع الشك باليقين في قضية حياته ، ونكمل حديثنا مستعينين بالله .

ثالثا : إجماع المحققين من علماء الأمة :

أما إجماع المحققين من علماء الأمة وسلفها الصالح ، فلم يقل الصحابة والتابعون وأئمة الفقه والمحدثون بحياة الخضر أو لقائه أو خلوده ، وإنما دارت أقوالهم حول تكذيب ذلك ونفي خلوده ، فيقولون :

١- يقول ابن عساكر : وهذه الروايات والحكايات هي عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم ، وكل الأحاديث المرفوعة ضعيفة جدًا ، لا يقوم بمثلها حجة في الدين ، والحكايات لا يخلو أكثرها من ضعف في الإسناد . [ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥: ١٦٤)] .

٢- قال ابن المنادي : بحثت عن تعمير الخضر وهل هو باق أم لا ؟ فإذا أكثر المغفلين مغترون بأنه باق من أجل ما روي في ذلك ، قال : والأحاديث المرفوعة في ذلك واهية ، والسند إلى أهل الكتاب ساقط لعدم ثقتهم ، قال : وما عدا ذلك كله من الأخبار كلها لا يخلو حالها من أحد أمرين : إما أن تكون أُدخِلَت على الثقات استغفالاً ، أو يكون بعضهم تعمد ذلك .

٣- وقال أبو الفرج بن الجوزي في « الموضوعات الكبرى » : والدليل على أن الخضر ليس بباق في الدنيا أربعة

أشياء : القرآن ، والسنة ، وإجماع المحققين من العلماء ، والمعقول .

ويقول أيضًا : وجميع الأخبار في ذكر الخضر واهية الصدور والأعْجَاز ، لا تخلو من أمرين : إما أن تكون أُدْخِلَت بين حديث بعض الرواة المتأخرين استغفالاً ، وإما أن يكون القوم عرفوا حالها فرَوَوْها على جهة التعجب ؛ فنسبت إليهم على وجه التحقيق ، قال : وأكثر المغفلين مغرورون بأن الخضر باق ، والتخليد لا يكون لبشر .

٤- ذُكر عن البخاري ، وعلي بن موسى الرضا : أن الخضر مات ، وأن البخاري سُئل عن حياته فقال : وكيف يكون ذلك ؟ وقد قال النبي ﷺ : « أرأيتكم ليلتكم هذه ؟ فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن على ظهر الأرض أحد » .

٥- وممن قال إن الخضر مات : إبراهيم بن إسحاق الحربي ، وأبو الحسين بن المنادي ، وهما إمامان ، وسُئل إبراهيم الحربي عن تعمير الخضر وأنه باق ؟ فقال : من أحال على غائب لم ينتصف منه ، وما ألقى هذا بين الناس إلا شيطان ، وكان ابن المنادي يقبح قول من يقول إنه حي . [« المنار المنيف في الصحيح والضعيف » لابن قيم الجوزية (ص ١٣١)] .

٦- وحكى القاضي أبو يعلى موته عن بعض أصحاب أحمد .

٧- ويحسم شيخ الإسلام ابن تيمية الأمر بقوله : والصواب الذي عليه المحققون أن الخضر ميت ، وأنه لم يدرك الإسلام ، ولو كان موجودًا في زمن النبي ﷺ لوجب عليه أن يؤمن به ويجاهد معه ، كما أوجب الله ذلك عليه وعلى غيره ، ولكان يكون في مكة والمدينة ، ولكان يكون حضوره مع الصحابة للجهاد معهم وإعانتهم على الدين أولى به من حضوره عند قوم كفار ليرقع لهم سفينتهم ، ولم يكن مختفيًا عن خير أُمة أُخرجت للناس ، وهو قد كان بين المشركين ولم يحتجب عنهم . اهـ .

وإذا كان الخضر حيًّا دائمًا فكيف لم يذكر النبي ﷺ ذلك قط ، ولا أخبر به أمته ، ولا خلفاؤه الراشدون ؟

٨- ويقرر السيوطي أن كل ما ورد في شأن الخضر وحياته موضوع لا أصل له .

❊ رابعًا : الدليل من المعقول :

سبق أن ناقشنا بالتفصيل الزعم عن حياة الخضر ، ونوجز الحديث هنا أن القول بحياته ومعاصرته النبي ﷺ ولا يأتيه مبايعًا على رءوس الأشهاد ، بحيث يصل إلينا الخبر متواترًا صريحًا لا لبس فيه ، ينطوي على إساءة بالغة للخضر عليه السلام ، حيث إن ظهوره ومساندته لدعوة رسول الله ﷺ تجعل أهل الكتاب يدخلون في دين الله أفواجًا ، فالخضر عليه السلام بزعمهم عاصر جميع أنبياء بني إسرائيل بدءًا من موسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى عليهم جميعًا الصلاة والسلام ، وبذلك فهو شاهد عيان على التحريف والغلو والتفريط الذي حدث في الرسالات السابقة ، فظهوره ومبايعته للنبي ﷺ يجعله قادرًا على تصحيح التوراة والإنجيل وتطهيرهما من دنس التبديل والتغيير ، وبالتالي يرون الحق ولا يختلفون فيه ، وهل يقبل المنطق الإيماني أن يتأخر الخضر عليه السلام عن هذه المهمة ، ويستبدلها بصحبة الخوَّاص والجيلاني !!

ولو كان الخضر عليه السلام باقيًا إلى الآن لكان تبليغه الأحاديث النبوية الصحيحة ، وإنكاره للأخبار الواهية والموضوعة ، وبيانه لما فسد من البدع والشيع

والأهواء ، وقتاله مع المسلمين ضد عدوهم ، وشهوده الجمع والجماعات ، وتسديده لآراء العلماء ونصحه للحكام ، وتقريره للأدلة وما يستجد من أحكام أفضل من اختفائه عن العيون ، واجتماعه بمن لا يعرف حالهم .

فقارن يا أخي المسلم بين ما ينتظر الخضر عليه السلام من مهام لو كان حيًا وبين المهام التي افتراها القائلون بحياته .

خامسا : من المرئي في قصص لقاء الخضر ؟

لا بد من تفسير واضح لكل من يقول : جاءني الخضر أو شاهدته يقظة لا منامًا ، هل يكذب هؤلاء الناس مع أنهم يصلون ويتعبدون ومنهم من يكثر من النوافل ؟ ومن الذي يأتيهم ، مع أن الخضر عليه السلام مات منذ أمد بعيد ؟ ويجيب على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في « الفتاوى الكبرى » (٢٤٩/١) بقوله : والخضر الذي يأتي كثيرًا من الناس إنما هو جني تصور بصورة إنسي ، أو إنسي كذاب ، ولا يجوز أن يكون ملَكًا مع قوله أنه الخضر ، فإن المَلَك لا يكذب ، وإنما يكذب الجني والإنسي ، وأنا أعرف ممن أتاه الخضر وكان جنيًا ، لُبس على من يراه .

وفي المجلد ٢٧ من مجموع الفتاوى (١٨/٢٧) يقول : وكذلك الذين يرون الخضر أحيانًا هو جني رآه ، وقد رآه غير واحد ممن أعرفه ، وقال : إنني الخضر ، وكان ذلك جنيًا لُبِّسَ على المسلمين الذين رأوه .

ويزيد ابن تيمية الأمر إيضاحًا بقوله : ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق إما حي أو ميت ، فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به ويقضي بعض حاجة ذلك المستغيث ، فيظن أنه ذلك الشخص أو ملك على صورته ، وإنما هو شيطان أضله لمَّا أشرك بالله ، كما كانت الشياطين تدخل الأصنام وتكلم المشركين ، ومن هؤلاء من يتصور له الشيطان ، ويقول له : أنا الخضر ، وربما أخبره ببعض الأمور وأعانه على بعض مطالبه ، كما جرى ذلك لغير واحد من المسلمين واليهود والنصارى وكثير من الكفار بأرض المشرق والمغرب ، يموت لهم الميت فيأتي الشيطان بعد موته على صورته ، وهم يعتقدون أنه ذلك الميت ، ويقضي الديون ويرد الودائع ، ويفعل أشياء تتعلق بالميت .

ويستطرد قائلاً : وهذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة ، هم درجات ، والجن الذين يقترنون بهم من جنسهم وهم على مذهبهم ، فالجن فيهم الكافر والفاسق والمخطئ ، فإن كان الإنسي كافرًا أو فاسقًا أو جاهلاً دخلوا معه في الكفر والفسوق والضلال ، وقد يعاونونه إذا وافقهم على ما يختارونه من الكفر ، مثل الإقسام عليهم بأسماء من يعظمونه من الجن وغيرهم . [مجموع الفتاوى لابن تيمية (١١: ٢٨٧)] .

ويعلق الآلوسي البغدادي في « روح المعاني » تعليقًا طيبًا يقول فيه : إن غاية ما يتمسك به القائلون بحياة الخضر حكايات منقولة يخبر بها الرجل أنه رأى الخضر ، فهل للخضر علامة يعرف بها من رآه ؟ وكيف له أن يفتر بقول الأشباح والأطياف : أنا الخضر ومعلوم أنه لا يجوز تصديق قائل ذلك بلا برهان من الله تعالى ، فمن أين للرائي أن المُخبر له صادق ولا يكذب ؟ وكيف يستسيغ العقل والقلب السليم أن الخضر فارق موسى بن عمران كليم الرحمن عليهما الصلاة والسلام ولم يصاحبه ، وقال : هذا فراق بيني وبينك ، ثم يرضى لنفسه بمفارقة موسى

عليه السلام ، ثم يجتمع بجهلة العباد الخارجين عن الشريعة الذين لا يحضرون جمعة ولا جماعة ولا مجلس علم ، وكل منهم يقول : قال لي الخضر وأوصاني الخضر ، فيا عجبًا له يفارق الكليم ويدور على صحبة جاهل لا يصحبه إلا شيطان رجيم ، سبحانك هذا بهتان عظيم . [الآلوسي البغدادي في « تفسير روح المعاني » (٥: ٣٢٦)] .

❋ **وخلاصة القول** : أن من يدعي صحبة الخضر والاجتماع به في اليقظة إما جاهل ، أو مبتدع في الدين ، وليحذر المسلمون من هذا الصنف من الناس الذين يدّعون الولاية ، ويلتفون في حلق الذكر ، لا يذكرون اللّه بتلاوة القرآن أو تعلم العلم النافع كما أمرهم ، وإنما يتمايلون ويتراقصون ويبتدعون طرقًا ما أنزل اللّه بها من سلطان .

❋ سادسا : تجربة الكاتب مع بعض من يرون الخضر :

كثرت حكايات الصوفية والدراويش والمجاذيب عن لقاناتهم واجتماعهم يقظة بالخضر عليه السلام ، وقد عايشت رجلين ممن يدعون الاجتماع بالخضر في اليقظة ، وقد سألت أحدهما وكان يدعى الشيخ عامر عن كيفية رؤيته للخضر ؟ وكيف عرف أن الذي يراه هو الخضر ؟ وأين رأى الخضر ؟

وقد كانت إجابات الشيخ مفاجأة تامة لي ، فقد رأى شبحًا في مقصورة سيدنا الحسين في الليلة الكبيرة يضحك له من بعيد ، ففهم أنه يستدعيه إليه ، فترك مكانه في المقصورة وقصد ناحية هذا الشبح ، فلما وصل إليه لم يجده ، بل وجده قد ذهب حيث مكانه الأول ، يقول الشيخ عامر : فوقر في قلبي أنه الخضر ، وعلمت هيئته التي ظل يأتيني بها سنوات طويلة .

ولما سألته : هل قال لك هذا الشبح في أي يوم من الأيام : إنه الخضر ؟

يقول الشيخ عامر : لا ، لم يحدث في أي مرة أن قال : إنه الخضر ، ولا عرّف نفسه بصفته العبد الصالح صاحب موسى ، كل ما هنالك أن الشيخ عامر ظن في نفسه عندما رأى هذا الشبح في المرة الأولى أنه الخضر ، ومنذ ذلك الوقت وهو يعامله على ذلك ، ولا يتجرأ أن يسأل نفسه أو شبحه هذا : من أنت ؟

سألت الشيخ عامر : هل رأيته يأكل أو يشرب ؟ وهل مسكته يومًا وأدركت أنه لحم ودم ؟

فأجاب الشيخ : لا ، إنه لا يأكل ولا يشرب ، وليس بشرًا ، وإنما هو ملك من الملائكة .

وهنا كانت المفاجأة ، فالرجل يعتقد أن الخضر ملك من الملائكة ، وأنه يأتيه عندما يريده أو يكون في ضائقة ويحتاج إلى عون منه ، والرجل سعيد بهذا الوهم ، وأنه أصبح من خاصة الأولياء الذين يجتمعون يقظة بالخضر ، وكل أمر يتلقاه عن شبحه هذا يؤديه على أكمل وجه ، فليس عنده أوجب من طاعة الخضر على الوجه الأمثل ، وكلما طال أمد اللقاءات كلما استقر قدمه في علم الباطن ، وارتفع مقامه ، فموسى لم يحتمل إلا ثلاث وقائع ، وهذا يصاحبه منذ سنوات ، والرجل لم ير من الخضر أفعالاً كما رأى موسى عليه السلام ، وكل ما هنالك أنه يتلقى تعليمات من الخضر ، ولما سألته عن هذه التعليمات ، أخبرني أنها معلومات عن زواره وزائراته ، وعن الأعمال والأسحار التي يقوم بفكها ، وإبطال مفعولها ، وطرد الجن الذين يمسون الناس ويخرجهم منهم وينهاهم عن لبسهم مرة أخرى ، وبهذا ترى الأمر تحول إلى تعامل مع الجن لا غير .

أما الرجل الثاني الذي التقيت به وكان يزعم أنه يجتمع يقظة بالخضر عليه السلام ، فقد كان أمره أكثر عجبًا ، وكان يحكي لنا كيف كانت بدايته مع الخضر ، حيث جاءه في المرة الأولى وأجرى له عملية جراحية في عينيه أصبح بعدها قادرًا على أن يتعامل مع الخضر ، ولما كثرت صحبتي لهذا الرجل الذي كان يعمل طبيبًا في ذلك الوقت ، واطمئن إلى أنني أثق فيه صَارَحَني يومًا بإحدى كراماته التي وقعت على يديه ، وكانت دهشتي بالغة حين صارحني أنه ارتكب أقبح الفواحش طاعة لخاطر ورد على قلبه ، ألقاه عليه من يسميه الخضر ، فقطعت صلتي به ، وانتهت علاقتي به ، ومنعته من حضور الحضرات ، وحذرت الناس من التعامل معه ، دون أن أصرح لهم بما صارحني به .

وقد أثارت أفعال هذين الرجلين وأحوالهما فضولي الشديد للمعرفة ودراسة الأمر برمته ، وقد بدأت هذه الدراسة منذ عقدين من الزمان ، وتشعبت وتنوعت وتعمقت حتى عقدت النية على التصدي لهذه القضية . واللّه وحده من وراء القصد ، وعليه التوكل والاعتماد .

الإعلام بسير الأعلام

بقلم الشيخ : مجدي عرفات

حواريّ رسول اللّه ﷺ وابن عمته صفية ، ابن العوام بن أسد بن عبد العزى ، عالم المدينة أبو عبد اللّه القرشي الأسدي المدني الفقيه أحد الفقهاء السبعة الذين جمعهم القائل في قوله :

وإذا قيل مَن في العلم سبعة أبحر رواياتهم عن العلم ليست بخارجة
فقل هم عبيد اللّه عروة قاسم سعيد أبو بكر سليمان خارجة

- **مولده** : ولد سنة ثلاث وعشرين - قال الذهبي : وهو قول قوي - وقيل : ولد لست سنين خلت من خلافة عثمان .
- حدّث عن أبيه بشيء يسير ، وعن أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق وعن خالته عائشة أم المؤمنين ، ولازمها وتفقه بها وعن غيرهم .
- وحدّث عنه أبناؤه يحيى وعثمان وهشام ومحمد ، وعنه أبو سلمة بن عبد الرحمن وابن شهاب وصفوان بن سليم وأبو الزناد وخلق كثير غيرهم .
- **سعة علمه** : قال هشام بن عروة عن أبيه : ما ماتت عائشة حتى تركتها-قبل ذلك بثلاث سنين . اهـ .
- قُلْتُ : أي حوى ما عندها من علم قبل وفاتها بثلاث سنين .
- قال الزهري : كان إذا حدثني عروة ثم حدثتني عمرة صدق عندي حديث عمرة حديث عروة ، فلما تبحرتهما إذا عروة بحر لا تكدره الدلاء .
- وقال هشام : واللّه ما تعلمنا جزءًا من ألفي جزء أو ألف جزء من حديث أبي .
- قال الزهري : سألت ابن صُعير عن شيء من الفقه فقال : عليك بهذا ، وأشار إلى ابن المسيب فجالسته سبع سنين لا أرى أن عالمًا غيره ، ثم تحولت إلى عروة ففجرتُ به ثَبَج بحر .

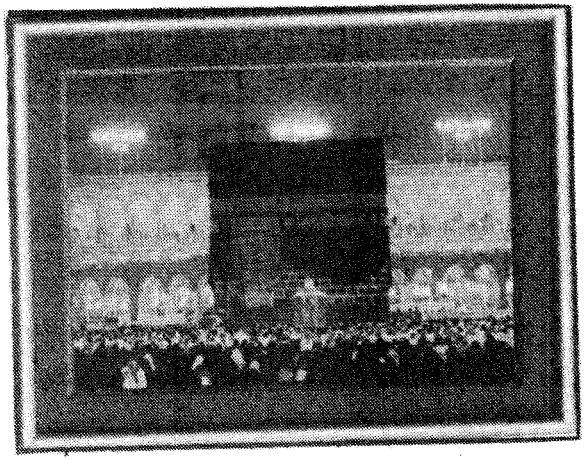

مهمة الخضر

بقلم أ : محمود الراكبي

الحلقة الأولى

الحمد لله واهب النعم ، يستر العيب ، ويغفر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ذي الطول ، رحمته سبقت غضبه ، ووسعت كل شيء ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلينا معهم بكرمك يا أكرم الأكرمين ، وبعد :

فإذا أردنا أن نتعرف على مهمة الخضر عليه السلام ، وهل هو رسول أم نبي أم ولي ؟ نحتاج قبل أن نعرض أقوال علماء الأمة في هذه القضية أن نتعرف على مراتب البشر بين يدي الله والتفاضل بين درجاتهم ، بهدف بيان فهم السلف الصالح ، رضوان الله عليهم ، والاتفاق على الأسس التي تساعد على تضييق الخلاف .

إن أشرف مقامات العبادة عند الله عز وجل هو المقام المحمود المعروف بالوسيلة الذي أعده الله تبارك وتعالى لسيدنا محمد ﷺ ، ولا ينبغي إلا له ، ثم يأتي مقام أولي العزم من الرسل وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم جميعًا الصلاة والسلام . ثم تأتي منزلة الرسل والأنبياء ، ثم مرتبة عباد الله الصالحين وأوليائه المتقين ، وينبغي ألا يشذ أحد من المسلمين في فهمه عن الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فالإيمان الحق لا يتم إلا بالإيمان بالرسل والكتب التي جاءوا بها من عند الله ، لذلك نعرض فيما يلي الفارق بين مقام الرسالة والنبوة والولاية حتى نستطيع الإجابة على سؤال محدد عن مهمة الخضر عليه السلام ، هل هو ملك من الملائكة ؟ أم رسول ، أم نبي ، أم ولي من الأولياء لا يرقى لمرتبة النبي ؟ نقول وبالله التوفيق :

أولا تعريف الرسالة :

١- الرسول في اللغة : هو الذي يتابع أخبار الذي بعثه ، وسمي الرسول رسولاً ؛ لأنه ذو رسالة ، ومهمة الرسول البلاغ عن ربه وبيان سبل الهدى وطريق الرشاد ، وتفصيل أصول الدين وتوضيح أحكامه وأوامره ونواهيه التي يرحم الله بها الطائعين ، وتقوم بها الحجة على الكافرين والمعاندين ، وقد أطلعنا القرآن الكريم لحكمة يعلمها سبحانه على قصص عدد من الرسل ، ولم يخبرنا عن غيرهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [غافر : ٧٨] .

٢- ورسالة الرسول : دعوته الناس إلى ما أوحي إليه ، ورسالة المُصلح ، ما يتوخاه من وجوه الإصلاح . والرسالة : اسم عام يشترك فيه الملائكة ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَآئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٥] ، فالملائكة رسل يرسلهم الله عز وجل بأمره إلى عباده الصالحين ، قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَآئِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ [فاطر : ١] .

٣- والرسالة قد تأتي بمعنى التسليط والتقييض ، كما يرسل الله تبارك وتعالى الشياطين على الكافرين تزيدهم ضلالاً على ضلال ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم : ٨٣] .

٤- وأشرف أنواع الإرسال أن يبعث الله عز وجل بشرًا رسولاً يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الصفات اللازمة للأنبياء والمرسلين أن يتصفوا « بالصدق والأمانة والتبليغ والفطانة » ، ولا يشترط في الرسول أن يأتي قومه بشريعة جديدة ، والدليل على ذلك أن يوسف عليه السلام كان رسولاً أرسله الله تبارك وتعالى في أهل مصر على ملة إبراهيم الخليل عليه السلام ، فقال لقومه : ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [يوسف : ٣٨] ، وقررت الآيات الكريمة رسالة يوسف عليه السلام في قول الحق تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ [غافر : ٣٤] .

ثانيًا : تعريف النبوة :

النبوة : اسم مشتق من أنْبَأ فلان غيره يُنْبِئُهُ إنباءً إذا أخبره بخبر ذي شأن ، والأنبياء جمع نبي وهو ذَكَرٌ من بني آدم أوحى الله تعالى إليه بأمر ، والوحي هو وسيلة الإنباء ، والنبي يتلقى وحي ربه بعدة طرق حصرتها الآية الكريمة ، حيث يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ [الشورى : ٥١] ، فالوحي ينحصر في هذه الطرق الثلاث :

الطريقة الأولى : أن يلقي روح القدس في قلب النبي ، أو ينفث في رُوعه ، دون أن يراه ، والروع القلب والعقل والذهن والخلد ، ففي الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال : « إن روح القدس نفث في رُوعي : إن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » . وفي رواية : « إن روح الأمين نفث في روعي » . والمُرَوِّعُ في اللغة : المُلْهم الذي يلقى في قلبه الصواب والصدق . والنفث يقع للنبي في يقظته ومنامه ، فمن الثابت أن رؤيا الأنبياء حق ، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول : « الرؤيا الصالحة جزء من ست وأربعين من النبوة » . « الرؤيا الصالحة (في رواية : الحسنة) جزء من أربعين جزءًا من النبوة » . هكذا ورد عن جابر بن عبد الله في رواية أحمد والترمذي . وأخرج مسلم في صحيحه ومالك في الموطأ وأحمد في مسنده وغيره من رواية أبي هريرة : « جزء من ست وأربعين » . كما وردت بألفاظ أخرى في رواية عبادة بن الصامت وابن عمر وابن عباس وأنس بن مالك . راجع « الفتح الرباني برتيب مسند أحمد الشيباني » (١٧: ٢١٠) .

الطريقة الثانية : هي الخطاب من وراء حجاب ، كأن يسمع موسى كلام الله في البقعة المباركة من الوادي المقدس ، أو من وراء حجاب الشجرة أو النار ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [القصص : ٣٠] ، فجاء خطاب الحق تبارك وتعالى من حجاب الشجرة في البقعة المباركة من الوادي ، وأيضًا سماع رسول الله ﷺ خطاب ربه في المعراج ، حين وصل إلى نهاية معراجه ، حيث دنا أمين الوحي جبريل عليه السلام فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فشاهد رسول الله ﷺ أمين الوحي على هيئته وصورته التي خلقه الله عليها ، حيث يقول القرآن الكريم : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۞ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ۞ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ [النجم : ١٣- ١٥] ، ثم خاطبه ربه من وراء حجب الكبرياء والعظمة ، وأمره بالصلاة وفرضها على أمته .

الطريقة الثالثة : أن يرسل الله عز وجل أمين الوحي سيدنا جبريل عليه السلام رسولاً منه سبحانه

وتعالى إلى النبي ، يبلغه بمراد ربه ومنهج عبادته ، سواء خلت نبوته من المعجزة أو تحدى النبي قومه بمعجزة تقوم مقام قول الحق تبارك وتعالى ، « صدق عبدي فيما أنبأ عني » . ولا توجد طريقة أخرى يمكن إضافتها لهذه الطرق ، وهذا المعنى واضح تمامًا في أسلوب الحصر الذي عبرت به الآية القرآنية : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء ﴾ [الشورى : ٥١].

الفرق بين النبي والرسول :

ذهبت المعتزلة إلى أنه لا فرق بين النبي والرسول ، والقرآن والسنة يؤكدان الفرق بينهما ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج : ٥٢] ، ولو كان النبي والرسول درجة واحدة ما جاء الخطاب بما يقتضي المغايرة ، كما أكد حديث البراء بن عازب الذي رواه البخاري الفرق بينهما ، حيث قال رسول الله ﷺ للبراء : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضجع على شقك الأيمن ، وقل : اللهم أسلمت نفسي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبنبيك الذي أرسلت ، فإن مت مت على الفطرة ، فاجعلهن آخر ما تقول » . قلت - أي البراء بن عازب -: أستذكرهن وبرسولك الذي أرسلت ، قال : لا وبنبيك الذي أرسلت . [رواه البخاري] . فلو كان النبي والرسول مقامًا واحدًا ما أكد رسول الله ﷺ على ذلك ، لذا اجتهد العلماء في بيان الفرق بين النبي والرسول ، فقالوا :

١- إن الرسول أمر بتبليغ الوحي إلى الناس ، والنبي لم يؤمر بتبليغه ، وهذا يعارض الحديث الصحيح الذي رواه مسلم ، حيث يقول رسول الله ﷺ : « إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم » . [أخرجه مسلم] .

وأيضًا يناقض مهمة التبليغ التي هي صفة لازمة للأنبياء ، ولا يعقل أن يكون الوحي الموحى به إلى النبي ، ولا ينتفع به قومه .

٢- يرى كثير من العلماء أن الفرق بين النبي والرسول هو : أن الرسول هو من أوحي إليه بشرع جديد ، والنبي هو المبعوث لتقرير شرع من قبله . [روح المعاني للآلوسي البغدادي (١٧: ١٥٧)] .

٣- إن الرسول من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه ، والنبي لم ينزل عليه كتاب ، وإنما أمر أن يدعو إلى كتاب مَن قبله .

٤- إن الرسول صاحب معجزة وكتاب ، وشرع نسخ ما قبله ، ومن لم يكن مستجمعًا لهذه الخصال فهو النبي .

٥- إن من جاءه الملك ظاهرًا ، وأمره بدعوة الخلق فهو الرسول ، ومن لم يكن كذلك ، بل رأى في النوم كونه نبيًا ، أو أخبره أحد من الرسل بأنه نبي ، فهو النبي . [التفسير الكبير للفخر الرازي (٢٣: ٤٩)] .

ويفرق شيخ الإسلام ابن تيمية في « الفتاوى الكبرى » (١١: ١٨٠- ١٨٢) بين العبد الرسول والملك النبي بقوله : (خيَّر الله سبحانه محمدًا بين أن يكون عبدًا رسولاً وبين أن يكون نبيًا ملكًا ، فاختار أن يكون عبدًا رسولاً ، فالنبي الملك مثل داود وسليمان ونحوهما عليهما الصلاة والسلام ، قال الله تعالى على لسان سليمان عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۞ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ ۞ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ ۞ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ۞ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص : ٣٥- ٣٩] أي : أعط من شئت واحرم من شئت لا حساب عليك ، فالنبي الملك يفعل ما فرض الله عليه ، ويترك ما حرم الله عليه ، ويتصرف في الولاية والمال بما يحب ويختار من غير إثم عليه ، أما العبد الرسول فلا يعطي أحدًا إلا بأمر ربه ، ولا يعطي من يشاء ، ويحرم من يشاء ، بل روي عنه ﷺ أنه قال : « إني والله لا أعطي أحدًا ولا أمنع أحدًا ، إنما أنا قاسم ، أضع حيث أمرت » ، والمقصود هنا أن العبد الرسول هو أفضل من النبي الملك) . اهـ .

وللحديث بقية - إن شاء الله تعالى - حول تعريف الولاية ، والأولياء في القرآن . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة

مهمة الخضر

الحلقة الثانية

بقلم أ. محمود المراكبي

ثالثًا : تعريف الولاية :

الولي في اللغة هو الناصر والمعين ، وولي اليتيم من يتولى أمره ويقوم بكفايته وكفالته ، والولي الصديق والنصير ، والولْيُ : القرب والدنو ، والمولى : الصاحب والقريب ، والولاية في الدين وصف لأهل الإيمان والتقوى ، والولاية هي أرفع منازل أهل اليمين ، وهي مقام أهل الإحسان الذين يراقبون الله عز وجل ويخافون عذابه ويرجون رحمته ، والولاية الحقيقية هي في الاستقامة مع الإخلاص وصدق المتابعة ، قال تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [يونس : ٦٢- ٦٤] ، والولي محب لله عز وجل متبع لرسوله ﷺ ناصر ونصير لشرع ربه ، مجاهد لأعداء الله بنفسه وماله ، وخاذل للشيطان وحزبه ، ومالك لنفسه جامح لهواها ، فهو القريب لمولاه .

فالولي ينتصر لله ورسوله باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، فهو عبد تقي نقي يخلص في طاعة مولاه ويعبده على بصيرة وعلم ، ويخشى ربه وعذابه ، ويرجو رحمته وثوابه ، يلتمس رضا مولاه ، لا يحيد عن سنة رسول الله ﷺ ، حبب الله إليه الإيمان حتى تمكنت شعبُه في قلبه ، يكره المعصية كراهيته للشرك والكفر .

وقد اتفق سلف الأمة وعلماؤها أن الأنبياء أفضل من الأولياء مطلقًا ، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا فريق من الصوفية والباطنية ، فقالوا : إن الولاية أفضل من النبوة ، وهذا شيخ الصوفية الأكبر ابن عربي يقول نظمًا :

مقام النبوة في برزخ
فويق الرسول ودون الولي

ولبيان الفرق بين مقام النبي ومقام الولي لا بد أن نستعرض أحوال الأولياء في الكتاب والسنة ، فقد ضرب القرآن الكريم أمثلة للأولياء ، كما عرفنا رسول الله ﷺ أشرف أولياء الأمة الإسلامية ، نعرض هذه الأمثلة فيما يلي :

الأولياء في القرآن :

يصف لنا القرآن الكريم مقام الولاية ، وما يتحلى به الولي من سمات ، وكيف يجعل الله له من كل ضيق فرجًا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن أمثلة الأولياء نختار منها :

صاحب سليمان عليه السلام :

قال تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل : ٤٠] . يقرر القرآن الكريم حقيقة هذه المعجزة التي جرت لسليمان عليه السلام على يد أحد أتباعه ، إنما هو الفهم والعلم الذي ناله صاحب سليمان من الكتاب ، وذلك قوله تعالى : ﴿ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ ، فما كان الرجل مبتدعًا في دين الله ولا خارجًا عن المنهاج الذي أنزله الله تبارك وتعالى على داود وسليمان عليهما السلام ، ولعل سليمان عليه السلام أراد أن يظهر فهم صاحبه بين أتباعه من الجن والإنس حين طلب منهم إحضار عرش بلقيس ، والله أعلم .

أم موسى عليهما السلام :

صرح القرآن الكريم أن أم موسى

قد تلقيت وحيًا عن ربها ، قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] .

وفي آية أخرى : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ۞ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ [طه : ٣٨، ٣٩] ، هذه آيات مباركات تنص صراحة على أن أم موسى تلقت الوحي عن اللّه ، ولما بدأت في تنفيذ أمر اللّه تبارك وتعالى وألقت رضيعها في النهر ، سارعت إليها العناية الإلهية ، وجاءها مدد من اللّه يربط على قلبها .

۞ مريم ابنة عمران، رضوان اللّه عليها :

التي خاطبتها الملائكة عدة مرات ؛ منها قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران : ٤٥] ، وقوله عز من قائل : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم : ٢٥] ، ولا نعرف اسمًا لخطاب الملائكة إلى مريم إلا الوحي .

۞ ذو القرنين :

الذي مكنه اللّه تبارك وتعالى في الأرض وآتاه من كل شيء سببًا ، ومن ولايته لربه أن أوحى اللّه إليه : ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۞ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ [الكهف : ٨٦، ٨٧] ، وهنا يختار ذو القرنين تطبيق منهج اللّه عز وجل ، فمن ظلم وأفسد يُقام عليه حد ربه ، وأما من أحسن فله الجزاء الكريم ، فالولي لا يرتاح قلبه إلا بتطبيق الشريعة والوقوف عند حدودها ، كما أن نصرة الضعيف ومساندته ، ودفع بغي الجبابرة من شيم الصالحين ، لذلك بادر ذو القرنين إلى بناء سد يحول بين المفسدين وهجماتهم البربرية على الضعفاء ، وقيل : إن ذي القرنين نبي . واللّه أعلم .

إن أمثلة الولاية في القرآن تشرح لنا أحوالهم ، فهذا ينقل عرش بلقيس من اليمن إلى نبي اللّه سليمان عليه السلام ، وأم موسى تلقي بوليدها في اليم ، ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها تلد عيسى عليه السلام من غير أب ، وذو القرنين يبني سدًا ، ويقيم حدود اللّه في قوم آخرين ، ومع هذا لا يزعم أحد بنبوة هؤلاء !

۞ الأولياء في السنة :

وتعرفنا سنة النبي ﷺ أولياء الأمة وترتيبهم .

۞ أولهم: الصديق رضي اللّه عنه :

صاحب النبي ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار الذي نصر اللّه به الدين وحفظه ، وهذا رسول اللّه ﷺ يطلب، من عائشة رضي اللّه عنها استدعاء أبي بكر وهو في مرض الموت يقول ﷺ : « ادعي لي أبا بكر أباك وأخاك حتى أكتب كتابًا فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل أنا أولى ويأبى اللّه والمؤمنون إلا أبا بكر » . رواه مسلم .

ويصف رسول اللّه ﷺ منزلة أبي بكر رضي اللّه عنه بقوله : « إن من أمَنّ الناس عليَ في صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذًا خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام ومودته » . متفق عليه ، وأخرجه الترمذي وأحمد بن حنبل والدارمي .

۞ ثاني الأولياء : الفاروق عمر بن الخطاب ، رضي اللّه عنه :

صاحب رسول اللّه ﷺ الذي أعز اللّه به الدين وحازت مناقبه على كل سبق وكمال ، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : « أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة - وفي رواية : وشبابها - من الأولين والآخرين ما خلا - وفي رواية : بعد - النبيين والمرسلين » . أخرجه الترمذي وابن

ماجه في سننه وعبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائده على المسند .

ومن مناقب الفاروق ما يرويه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لقد كان فيما قبلكم من الأمم مُحَدَّثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر » . وفي رواية أخرى : « لقد كان فيمن قبلكم من بني إسرائيل رجال يُكَلَّمُون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن من أمتي منهم أحد فعمر » . أخرجه البخاري وأحمد بن حنبل في المسند .

وفي رواية أبي سعيد الخدري قال : وكيف يحدَّث ؟ قال رسول الله ﷺ : « تتكلم الملائكة على لسانه » . أخرجه البخاري .

ويشرح ابن حجر العسقلاني معنى المُحَدَّث بقوله : الرجل الصادق الظن ، وهو من ألقي في روعه شيء من قبل الملأ الأعلى فيكون كالذي حدثه غيره به ، وقيل : من يجري الصواب على لسانه من غير قصد ، وفي حديث عائشة رضي الله عنها : (المحدث الملهم بالصواب) . وفي رواية مسلم : (هي الإصابة من غير نبوة) ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله وضع الحق - وفي رواية : جعل الحق - على لسان عمر يقول به - وفي رواية - على لسان عمر وقلبه » . رواه ابن سعد في « الطبقات » .

وقد بلغت موافقات عمر للوحي أكثر من عشرة مواقف ، ما بين موافقات الوحي لآراء لفظية أو معنوية منها ، نظمها السيوطي في قصيدة قطف الثمر في موافقات عمر منها ما جاء في أسارى بدر وفي تحريم الخمر ، ورفض صلاة الجنازة على المنافقين ، وغيرته على نساء رسول الله ، بخلاف ما ورد على لسان عمر نفسه ، حيث يقول : (وافقت الله في ثلاث ، أو وافقني ربي في ثلاث : قلت : يا رسول الله ، لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى ، وقلت : يا رسول الله ، يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب ، قال : وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه ، فدخلت عليهن قلت : إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسول الله ﷺ خيرًا منكن ، حتى أتت إحدى نسائه قالت : يا عمر ، أما في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ، فأنزل الله تبارك وتعالى قوله : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ ﴾ [التحريم : ٥]) . متفق عليه ، ورواه الترمذي وأحمد بن حنبل في المسند ، والدارمي وابن ماجه .

ولا شك أن شهادة رسول الله ﷺ التي يقول فيها : « يا ابن الخطاب ، والذي نفسي بيده ، ما لقيك الشيطان سالكًا فجاجًا قط إلا سلك فجًا غير فجك » . متفق عليه ، وأخرجه أحمد بن حنبل في « المسند » .

هذه الشهادة هي أعظم دليل على منزلة ولي الله الفاروق عمر بن الخطاب ، فالصواب يجري على لسانه والشيطان يسير في واد ليس فيه عمر ، ومع هذا لا ينقص من ولايته لله أن يُخطئ ، فالعصمة لا تكون إلا لنبي .

إن أعلى الأولياء قدرًا بعد الأنبياء أبو بكر ، ثم عمر رضي الله عنهما ، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ، حيث صح عن النبي ﷺ أنه قال : « أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين ، إلا النبيين والمرسلين » . (روي عن علي بن أبي طالب وأنس وأبي جحيفة رضي الله عنهم ، وأخرجه الترمذي وحسنه ، وفي الباب عن ابن عباس ، وأخرجه أحمد بن حنبل في « المسند » وابن ماجه) .

هذا الحديث يؤكد أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما أعلى الأولياء قدرًا ، ليس على مستوى أمة الإسلام ، وإنما سيدا أولياء الأولين والآخرين ، ومنهم : آصف ، وأم موسى ، ومريم ، وذو القرنين ، رضي الله عنهم أجمعين ، ومع هذا لم ينل أي منهم مرتبة النبوة .

فلا بد إذن من بيان الفرق الجوهري بين النبي والولي ، حتى نستطيع أن نعرف مهمة الخضر عليه السلام ، وهذا الفرق يتعلق بنوع الخوارق التي تفصل بين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء ، وهذا ما سنناقشه بإذن الله تعالى في المقال التالي .

المعجزة والكرامة

بقلم :

أ . محمود المراكبي

الحمد للّه الكبير المتعال ، سبحانه وتعالى هو الولي النصير ، أكرم من أطاعه من عباده بالتقوى وأعزهم بالفوز والنصر المبين ، وأهان من عصاه وأذلهم في الدنيا والآخرة ، فما لهم من أولياء وما لهم من ناصرين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. أما بعد : فما زال الحديث متصلاً حول مهمة الخضر عليه السلام هل هو نبي أو ولي ؟ وقبل أن نجيب على هذا السؤال علينا أن نتعرف أولاً على أنواع الخوارق . ويمكن تقسيم ما يظهر على الخلق من الأمور الخارقة للعادة إلى ثلاث مراتب :

❁ المرتبة الأولى : آيات الأنبياء ومعجزاتهم :

والمعجزة ، والإعجاز : إفعال من العجز الذي هو زوال القدرة عن الإتيان بالشيء من عمل أول رأي أو تدبير ، وهي خاصة بالأنبياء صلوات اللّه وسلامه عليهم ، دون غيرهم من الناس ، وهي تقوم مقام قول اللّه تبارك وتعالى : « صدق عبدي فيما بلّغ عني » . والمعجزة يتحدى بها النبي لنشر الدين ، ويُثبت بها أصحابه في الدين ، ومن ذلك : القرآن الكريم ، والإسراء والمعراج .

ومنها ما يتحدى المشركين كانشقاق القمر ، ومنها ما يحقق حاجة المسلمين ، كنبع الماء من بين أصابعه ﷺ .

❁ المرتبة الثانية : كرامات الصالحين :

أتباع الأنبياء والمرسلين ، والكرامة : عمل خارق للعادة يجريه الحق تبارك وتعالى على يدي وليه التقي الصالح ، للدلالة على كرامته عند ربه . وهي موقوفة على الولي . ويكون كتمانها واجبًا عليه ، وإن أراد إظهارها وإشاعتها زالت وبطلت . وربما تكون موقوفة على الدعاء والتضرع ، وفي بعض الأوقات يعجز عن إظهارها ، ويقول أصحاب الكرامات : إن ما حصل لهم إنما هو باتباعهم للأنبياء ، ولو لم نتبعهم لم يحصل لنا هذا ، وما يجري على أيديهم إنما هو من جنس ما يجري للأنبياء ، وهذا النوع من الخوارق يعين صاحبه على مباحات ، ككرامات الصحابة والتابعين ، والتي نذكر منها نقلاً بتصرف عن « الفتاوى الكبرى » لشيخ الإسلام ابن تيمية :

● إظهار العلاء بن الحضرمي المشي على الماء ، ودعاؤه بأن يسقى قومه ويتوضئوا عند فقد الماء ، فأجاب اللّه دعاءه .

● وخطاب عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه من فوق منبر النبي ﷺ في المدينة لسارية رضي اللّه عنه ، وهو في الشام . وذلك أن أمير المؤمنين عمر أرسل جيشًا وأمّر عليهم رجلاً يسمى « سارية » ، فبينما عمر يخطب فجعل يصيح على المنبر : يا سارية الجبل ، يا سارية الجبل ، فقدم رسول الجيش ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لقينا عدوًا فهزمونا ، فإذا بصائح : يا سارية الجبل ، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم اللّه .

● وهذا أبو مسلم الخولاني يخاطبه الأسود العنْسي بعد أن ادعى النبوة فيقول له : أتشهد أني رسول اللّه ؟ قال : ما أسمع ، قال : أتشهد أن محمدًا رسول اللّه ؟ قال : نعم ، فأمر بنار فألقي فيها فوجدوه قائمًا يصلي فيها وقد صارت عليه بردًا وسلامًا ، وقدم المدينة بعد وفاة النبي ﷺ

فأجلسه عمر بينه وبين أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين ، وقال : الحمد لله الذي لم يمتني حتى أرى من أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الله .

● ومنها ما يتحدى بها صاحبها أن دين الإسلام حق كما فعل خالد بن الوليد حين حاصر حصنًا منيعًا ، فقالوا له : لا تسلم حتى تشرب السم ، فشربه ولم يضره .

● ومنها استجابة دعاء العبد التقي الصالح كسعد بن أبي وقاص الذي كان مستجاب الدعوة ، وقد استجاب الله دعاءه وفتح الله له العراق ، وهزم جيوش كسرى .

● وكغلام بني إسرائيل الذي أنبأنا النبي ﷺ قصته في حديث طويل ما معناه أنه كان يأتي الساحر ليتعلم منه السحر وكيف كان يتخلف عن مجلس الساحر ويعرج على الراهب يتعلم على يديه التوحيد ، ولما اكتشف أمره لم يقدروا على قتله ، فطلب الغلام منهم أن يجمعوا الناس ، وقال لهم : ارموني بسهم وسموا باسم الله ، فإني أموت ، فلم فعلوا ذلك آمن الناس برب الغلام .. ومثل ذلك كثير .

❁ المرتبة الثالثة : خوارق الكفار والفجار والسحرة والكهان :

وهي عمل غريب يحصل لبعض المشركين ، وأهل الكتاب والضلال من المسلمين ، وأصحاب الرياضات والمجاهدات ، وهي أعمال مبنية على تمويه لا حقيقة له ، وتعتمد على الحيل ، ويعين هذا النوع من الخوارق صاحبها على محرمات مثل الفواحش والظلم والشرك والقول الباطل ، فهذا من جنس خوارق السحرة والكهان والكفار والفجار .

❁ الفرق بين المعجزة والكرامة وخوارق الكهان :

نلخص فيما يلي ما ذهب إليه علماء الأمة ومنهم ابن تيمية في كتبه : النبوات والفتاوى الكبرى وغيرها :

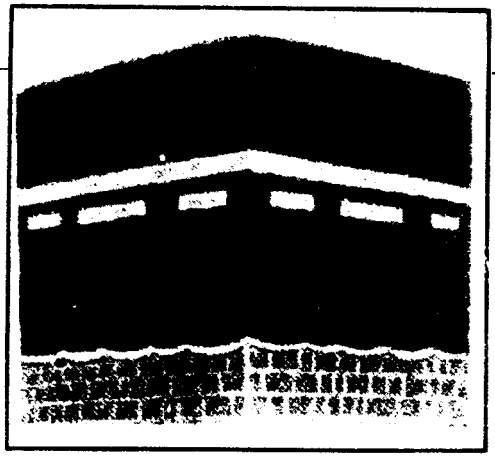

١- الفرق بين خوارق الكهان ومعجزات الأنبياء :

● لا بقاء لخوارق الكهان كعصيّ سحرة فرعون ، بينما المعجزة باقية كعصا موسى .

● أن خوارق الكهان لا حقيقة لها ولا معنى ، وقد تعتمد على الآلات أو الحيل وخفة اليد والشعوذة ، أو تكون من إعانة الشياطين لبني آدم ، فإن الكاهن يخبره الجن ، والساحر تعينه الشياطين ، بينما معجزة النبي لا تنال بحيلة ولا يتوصل إليها بواسطة الآلات .

● أن العوام يعجزون عن الإتيان بالخوارق ، أما الحذاق والأذكياء فلا يعجزون عنها ، بينما معجزة النبي فيعجز الخواص والعوام على القيام بمثلها .

● أن خوارق السحرة متداولة بين الناس في جميع الأزمان غير مختصة بوقت دون وقت ، أما المعجزة فمختصة بزمان النبوة ، خارجة عن العرف ، خارقة للعادة .

● أن خوارق أهل الضلال يمكن نقضها بخوارق عكسها ، ولا سبيل للنقض إلى المعجزة .

٢- الفرق بين المعجزة والكرامة :

هناك اختلاف بين الفرق الإسلامية على طبيعة المعجزة والكرامة ، والفرق بينهما نذكر فيما يلي أقوال بعض الفرق في ذلك :

● تقول المعتزلة : لا تخرق العادة إلا لنبي ، وبالتالي كذّبوا بكرامات الصالحين وخوارق

السحرة .

● تقول الجهمية : إن خرق العادة جائز مطلقًا ، وكل ما خرق لنبي من العادات يجوز أن يخرق لغيره من الصالحين ، بل ومن السحرة والكهان ، لكن الفرق أن هذه تقترن بها دعوى النبوة وهو التحدي ، وأن كل ما خرق لنبي يجوز أن يخرق للأولياء .

وهذا قول لا يقدم فرقًا معقولاً بين المعجزة والكرامة .

● الصوفية وغيرهم من الناس يفرقون بين معجزة النبي وكرامة الولي بفروق ضعيفة ، مثل : إن الفرق بين معجزة النبي وكرامة الولي أن الكرامة يخفيها صاحبها ولا يتحدى بها ، وهذا قول غير دقيق ، فكرامات الأولياء يظهرها اللّه ولا يخفيها أصحابها ، كما حدث مع الصحابة والتابعين وتناقلته الأمة جيلاً بعد جيل ، والحقيقة أن معجزة الأنبياء التي بها تثبت نبوتهم وبها وجب على الناس الإيمان بهم ، فهي أمر يخص الأنبياء لا يكون للأولياء ولا لغيرهم ، بل يكون من المعجزات الخارقة للعادات الناقضة لعادات جميع الإنس والجن غير الأنبياء ، ولا يقدر أحد من مكذبي الرسل أن يأتي بمثل الأنبياء . [« النبوات » لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٣٢٨)] .

والمراد بهذا النوع من المعجزات : القرآن الكريم ، والإسراء والمعراج ، وانشقاق القمر ، وفلق البحر .

● أن المعجزة مختصة بالنبي دائمًا ، ووقت إظهار الآيات مرتبط بالوحي وبمشيئة اللّه تعالى ، ويقرن بالتحدي ، وتحصل بالدعاء ، ولا تكون ثمرة المعاملات المُرْضية ، ولا يمكن تحصيلها بالكسب والجهد ، ويكون أثر المعجزة باقيًا بحسب إرادة النبي .

● الكرامة لا يقصد بها التحدي ، وإنما هي دليل على صحة الدين ، وصدق الاتباع ، وأصلها من جنس المعجزة .

● أن الكرامة تعين صاحبها على المباح من الأمور ، كالبركة في الطعام والشراب ، واستجابة الدعاء ، كدعاء سعد بن أبي وقاص على من ادعى عليه كذبًا وزورًا .

● نظرًا لرفعه مقام النبي على مقام الولي فلا بد أن يمتاز الفاضل بما لا يقدر المفضول على مثله ؛ إذ لو أتى بمثل ما أتى لكان مثله لا دونه ، وبالتالي تكون الكرامة أقل أثرًا من المعجزة .

وهذه الكرامات لا ترفع صاحبها ولا تخفضه ، وكرامات الأولياء تدل على صحة الدين الذي جاء به الرسول ولا تدل على أن الولي معصوم ، ولا على أنه يجب طاعته في كل ما يقوله ، ومن هنا ضل كثير من النصارى وغيرهم ، فإن الحواريين - وهم ليسوا بأنبياء - كانت لهم كرامات ، كما تكون الكرامات لصالحي هذه الأمة ، فظن أتباعهم أن كراماتهم تستلزم عصمتهم ، فاتبعوهم في كل ما يقولون ، وهذا غلط وتلبيس خطير ، فإن النبي وجب قبول كل ما يقول لكونه ادعى النبوة ، ودلت المعجزة على صدقه وتأييد اللّه له ، والعصمة وصف لازم للنبوة ، وبالتالي وجب متابعته في كل ما يُوحى إليه به .

❁ ثانيًا الكرامة لها أصل في المعجزة :

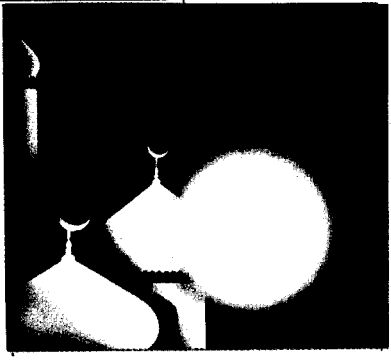

يرى العلماء ومنهم الإمام الشاطبي أن الكرامة التي لا أصل لها في المعجزات تعد باطلة ، ويقرر ذلك في الموافقات في أصول الشريعة قائلاً : ومن الفوائد في الأصل أن ينظر إلى كل خارقة صدرت على يدي أحد ، فإن كان لها أصل في

كرامات الرسول عليه الصلاة والسلام ومعجزاته فهي صحيحة ، وإن لم يكن لها أصل فغير صحيحة ، وإن ظهر ببادئ الرأي أنها كرامة ، إذ ليس كل ما يظهر على يدي الإنسان من الخوارق بكرامة ، بل منها ما يكون كذلك ، ومنها ما لا يكون كذلك ، وبيان ذلك بالمثال أن أرباب التصريف بالهمم ، والتقربات بالصناعة الفلكية والأحكام النجومية ، قد تصدر عنهم أفاعيل خارقة ، وهي كلها ظلمات بعضها فوق بعض ، ليس لها في الصحة مدخل ، ولا يوجد لها في كرامات النبي ﷺ منبع ؛ لأنه إن كان ذلك بدعاء مخصوص فدعاء النبي ﷺ لم يكن على تلك النسبة ، ولا تجري فيه تلك الهيئة ، ولا اعتمد على قران في الكواكب ، ولا التمس سعودها أو نحوسها ، بل تحرى ولجأ إليه ، معرضًا عن الكواكب ، وناهيًا عن الاستناد إليها ؛ إذ قال : « أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ... » الحديث القدسي . [« الموافقات » للشاطبي (٢: ٢٦٢)] .

ثالثًا : المعجزة عمل ليس في قدرة الإنس والجن :

ودليلنا على أن الجن لا يقدر على الآية أو المعجزة ، أن الله تبارك وتعالى أرسل الرسل ومعهم المعجزات إلى الإنس والجن ، فلا بد أن تكون المعجزة خارجة عن مقدورهم أيضًا ، قال تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـذَا ﴾ [الأنعام : ١٣٠] ، أما ما يأتي به الكاهن أو الساحر فغايته ما سمعه من جني استرق السمع ، مثل الذي يستمع إلى حديث قوم وهم له كارهون .

ويمكن تقسيم الآيات إلى نوعين :

جنس من نوع العلم .

وجنس من نوع القدرة :

١- نوع من باب العلم :

وهو ما يخبر به الرسول من أنباء الغيب الذي اختص الله به نفسه . مثل علمه بما سيكون من تفصيل الأمور الكبار على وجه الصدق ، قال تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۞ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ [الجن : ٢٦، ٢٧] بأمور مستقبلية لا يعلمها إلا الله ؛ كغزو قوم من أمته بالبحر ، ومنهم الصحابية الجليلة « أم حرام » ، التي بشرها رسول الله ﷺ بمشاركتها جيشًا يغزو ويركب البحر ، فكان أن شاركت في فتح قبرص - في ولاية معاوية رضي الله عنه - وتوفيت ودفنت بها رضي الله عنها . وشهادة عمر وعثمان وعلي وقتل عمار ، وقيام الحسن بالإصلاح بين فئتين كبيرتين من المسلمين ، وغيرها مما وقع وسيقع إلى قيام الساعة . وهذا النوع من الإنباء بالغيب خص الله به الرسل فقط ، ﴿ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ﴾ ، حيث تكفل الله حفظ غيبه بعصمة نبيه ، وذلك قوله : ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾.

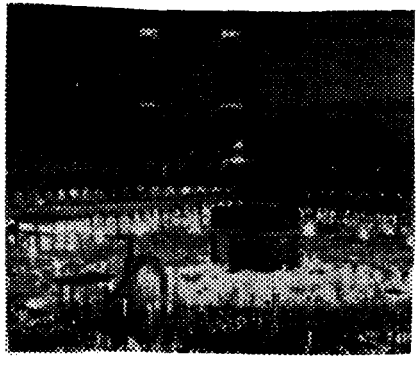

٢- نوع من باب القدرة :

وهو القيام بأفعال لا يقدر عليها الإنس والجن مثل ما أعطاه الله لسليمان عليه السلام من تسخير الرياح والطير ، وشق القمر للنبي ﷺ ، وشق البحر لموسى عليه السلام ، وتكثير الطعام والماء للنبي وللمسيح عليهما الصلاة والسلام ، ويستطيع

الإنس والجن إحضار الطعام أو المتاع مما يغيب عن الناس ، وأيضًا نقل المال من مكان إلى غيره ، كما نقل الهدهد ما غاب عن عين سليمان وعلمه ، وينقسم النوع الأخير من المعجزات إلى ثلاثة معان هي :

- إيجاد معدوم : كخروج الناقة من الجبل بدعاء صالح عليه السلام .
- إعدام الموجود : كإبراء الأكمه والأبرص بدعاء عيسى عليه السلام .
- تحويل حال الموجود : كقلب عصا موسى ثعبانًا . [« بصائر ذوي التمييز » للفيروزآبادي (١: ٦٧)] .

❁ رابعًا : تميز الأنبياء على الأولياء :

ومما سبق يتبين أن الأنبياء يتميزون على الأولياء بخصلتين هما :

١ - **العصمة** : وهي حفظ الله تبارك وتعالى للنبي من ارتكاب الإثم ، فلا يليق بالنبي أن يرتكب النقائص من الأفعال أو الفواحش ، هذا في غير الوحي ، أما العصمة في الوحي فهي أن لا يقدر الشيطان أن ينفذ إليه أو يكون له حظ منه ، وإلا نقل النبي رسالة ربه ناقصة أو مشوشة ، وهذا ما ينفيه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج : ٥٢] .

٢ - **المعجزة** : وهي خاصة بالأنبياء ، وتشمل نوعي العلم والقدرة ، بينما الكرامة للأولياء ، وهي ميراثهم من متابعة الأنبياء ، وتكون من جنس معجزة النبي ، ما عدا الإخبار بالغيب ، الذي يستلزم عصمة لا تكون إلا لنبي .

وقد يكون من المتمم لهذا الفصل أن نُفرق بين كرامات الأولياء أصحاب الأحوال الرحمانية وبين أحوال أهل البدع والأهواء أصحاب الأحوال الشيطانية ، وأبلغ من أظهر هذا الفرق شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - حيث يقول : (فالأحوال الرحمانية وكرامات أوليائه المتقين يكون سببها الإيمان ، فإن هذه حال أوليائه ، قال تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٦٢، ٦٣] ، وتكون نعمةً لله على عبده المؤمن في دينه ودنياه ، فتكون الحجة في الدين والحاجة في الدنيا للمؤمنين ، مثلما كانت معجزات نبينا محمد ﷺ كانت الحجة في الدين والحاجة للمسلمين ، مثل البركة التي تحصل في الطعام والشراب ، كنبع الماء من بين أصابعه ، ومثل نزول المطر بالاستسقاء ، ومثل قهر الكفار ، وشفاء المريض بالدعاء ، ومثل الأخبار الصادقة ، والنافعة بما غاب عن الحاضرين، وإخبار الأنبياء صدق لا كذب فيه فأولياء الله هم الذين يتبعون رضاه بفعل المأمور ، وترك المحظور ، والصبر على المقدور .

أما أصحاب الأحوال الشيطانية ، فهم من جنس الكهان يكذبون تارة ، ويصدقون أخرى ، ولا بد في أعمالهم من مخالفة للأمر ، قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٢٢١، ٢٢٢] ، ولهذا يوجد الواحد من هؤلاء ملابسًا الخبائث والنجاسات والأقذار التي تحبها الشياطين ومرتكبًا للفواحش أو ظالمًا للناس في أنفسهم وأموالهم . [« الفتاوى الكبرى » لابن تيمية (١: ٨٥)] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الخضر بين الحقيقة والخرافة

بقلم:
أ. محمود المراكبي

الحمد لله الذي خلق الإنسان علمه البيان ، والصلاة والسلام على من أُوتي جوامع الكلم ، فصار بيانه أتم بيان ، والصلاة والسلام على آل بيته الأبرار وعلى صحابته الأخيار .. وبعد :

فقد مهدنا في المقالات السابقة تمهيدًا كافيًا نستطيع معه بتوفيق الله تعالى أن نعرض أقوال علماء الأمة وإجاباتهم على سؤال : هل الخضر ملك أم نبي أم ولي ؟

✱ أولاً : الخضر مَلَك :

يقول رأي غريب : إن الخضر ملك من الملائكة ، وليس بشرًا كما يتبادر إلى فهم الكثيرين ، وهذا الرأي حكاه الماوردي ، قال : إن الخضر ملك من الملائكة يتصور في صورة الآدميين . [نقلاً عن « الإصابة في تمييز الصحابة » لابن حجر العسقلاني (٤٢٩/١)] .

ويصف النووي هذا الرأي بقوله : هذا غريب وباطل . [« صحيح مسلم بشرح النووي » (١٣٦/١٥)] .

ولا أعتقد أننا نحتاج إلى مزيد من البيان حول فساد هذا الرأي ؛ إذ لو كان الخضر ملكًا لصرح بذلك القرآن والسنة ، ولما كان هناك وجه للغرابة والإعجاز في القصة .

✱ ثانيًا : الخضر ولي :

ذهب إلى ولاية الخضر الفرق الباطنية وأغلب الصوفية ، ويقرر أبو القاسم القشيري في رسالته : (لم يكن الخضر نبيًا ، وإنما كان وليًا) ، ثم ينفي العصمة عن الأولياء بقوله : (فإن قيل : فهل يكون الولي معصومًا ؟ قيل : أما وجوبًا كما يقال في الأنبياء فلا ، وأما أن يكون محفوظًا فلا يُصِر على الذنوب ، فلا يمتنع ذلك في وصفهم) . وخلاصة رأيه ومعه جماعة من الصوفية : أن الخضر ولي معصوم .

ويقول الدباغ في « الإبريز » : (الخضر ليس بنبي ، وإنما هو عبد أكرمه الله بمعرفته ، وأمده بالتصرف في رعيته ، وأعطاه من تمام التصرف وكمال المعرفة ، ما يعطى للغوث من هذه الأمة المحمدية ، وأدرك ذلك الخضر بلا شيخ ولا سلوك ، بل أمده الله تعالى بذلك ابتداءً ، فهذه درجته ، وهي لا تبلغ مبلغ النبوة ولا الرسالة) .

ثم يستطرد قائلاً : (وكل غوث وقطب وغيرهما

من أصحاب التصريف لا يفعلون شيئًا ولا يتصرفون في حادث إلا بأمر اللّه ، وليس ذلك بنبوة ولا رسالة ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

ونعرض الفرق بين وحي النبوة وإلهام الأولياء عند الصوفية :

✱ وحي الصوفية :

يُفرق الشعراني - في « اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر » - بين وحي الأنبياء ووحيهم المزعوم لأقطابهم ويشرح كلام ابن عربي في ذلك قائلاً : إن وحي الأنبياء لا يكون إلا على لسان جبريل يقظة ومشافهة ، وأما وحي الأولياء فيكون على لسان ملك الإلهام وهو على ضروب ، منه ما يكون متلقى بالخيال كالمبشرات في عالم الخيال ، وهو الوحي في المنام ، فالمتلقى حينئذ والنازل كذلك والوحي به كذلك ، ومنه ما يكون خيالاً في حس على ذي حس ، ومنه ما يكون معنى يجده الموحى إليه في نفسه من غير تعلق حس ولا خيال ممن نزل عليه .

كما يحدد الشعراني صور تنزل وحي الإلهام على قلوب الأولياء بقوله : إن صورته أن الحق تعالى إذا أراد أن يوحي إلى ولي من أوليائه بأمر ما تجلى إلى قلب ذلك الولي في صورة ذلك الأمر ، فيفهم الولي من ذلك التجلي بمجرد مشاهدته ما يريد الحق تعالى أن يُعلم ذلك الولي به من تفهيم معاني كلامه أو كلام نبيه ﷺ ، فهناك يجد الولي في نفسه علم ما لم يكن يعلم من الشريعة قبل ذلك .

ويستطرد الشعراني ويجيب على تساؤل : هل يكون الإلهام بلا واسطة أحد ؟ قائلاً : نعم قد يُلهم العبد من الوجه الخاص الذي بين كل إنسان وبين ربه عز وجل ، فلا يعلم به ملك الإلهام ، لكن علم هذا الوجه يتسارع الناس إلى إنكاره ، ومنه إنكار موسى على الخضر عليهما السلام ، وعذر موسى في إنكاره أن الأنبياء ما تعودوا أخذ أحكام شرعهم

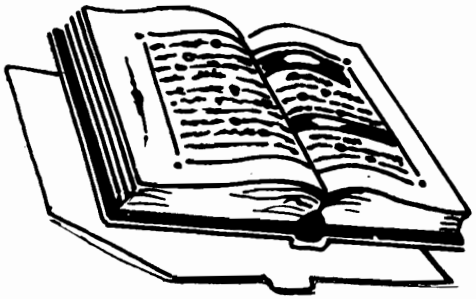

إلا على يد ملك - لا يَعرف شرعًا من غير هذا الطريق - فعلم أن الرسول والنبي يشهدان الملك ويريانه رؤية بصر عندما يوحى إليهما ، وغير الرسول يحس بأثره ولا يراه ، فيلهمه اللّه تعالى بواسطته ما شاء أن يلهمه أو يعطيه من الوجه الخاص بارتفاع الوسائط ، وهو أجَلُّ الإلقاء وأشرفه إذا حصل الحفظ لصاحبه ، ويجتمع في هذا الرسول والولي أيضًا .

✱ ثالثًا : الخضر نبي :

وهذا الذي عليه جمهور أهل السنة وعلمائهم ، وهذه أقوالهم :

● يقول القرطبي في تفسيره « الجامع » : الخضر نبي عند الجمهور .

● ويقول أبو حيان في « البحر المحيط » (١٥٣/٦) وابن كثير : وقد استدل بهذا على أن الخضر كان نبيًا .

● وقال ابن الجوزي في « زاد المسير » (١٦٨/٥) : كثير من الناس ذهب إلى أنه نبي .

● ويرى ابن حجر العسقلاني في « الإصابة » (٤٢٩/١) : وكان بعض أكابر العلماء يقول: أول عقد يحل من الزندقة اعتقاد كون الخضر نبيًا .

● ويرى الفخر الرازي في « التفسير الكبير » (١٤٨/٢١) : الأكثرون أن ذلك العبد كان نبيًا .

● ويقول أبو إسحاق الشاطبي في

« الموافقات » (٢/٢٩٦) : وأما قصة الخضر عليه السلام وقوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ [الكهف : ٨١] ، فيظهر به أنه نبي ، وذهب إليه جماعة من العلماء استدلالاً بهذا القول .

● ويؤكد الألوسي في « روح المعاني » (٥/٣٢٠) : أن الجمهور على أن الخضر نبي وليس برسول ، وشواهده من الآيات والأخبار ، كثيرة وبمجموعها يكاد يحصل اليقين .

إن اتفاق هؤلاء العلماء الأعلام على نبوة الخضر يجعلنا نبحث عن الحجج والأدلة التي بنوا عليها اتفاقهم ، خاصة وقد شذ عن ذلك الصوفية والباطنية ، بل إن هناك فريق من الصوفية يخالفون عامة المشايخ في شأن الخضر عليه السلام ومهمته .

✱ الخضر نبي عند بعض الصوفية :

ومن الصوفية من يرى أن الخضر نبي وليس بولي ، ويصرح الشعراني في كتابه « الميزان الخضرية » (ص ٨) برأيه أن الخضر نبي ، حيث يقول : (فتوجهت إلى الله تعالى ، وسألته أن يجمعني على أحد عنده علم ذلك ، فَمَنَّ الله تعالى عليَّ ، وتفضل وأجاب سؤالي ، وجمعني على سيدنا ومولانا أبي العباس الخضر عليه السلام ، وذلك سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة ، بسطح جامع الغمري ، حين كنت ساكنًا فيه ، فشكوت إليه حالي ، فقلت له : أريد أن تعلمني يا نبي الله ميزانًا أجمع بها بين مذاهب المجتهدين ومقلديهم ، وأردها كلها إلى الشريعة ، فقال عليه الصلاة والسلام : ألق سمعك وافتح عين قلبك ..) .

وهناك رأي عجيب ذكره الثعلبي في « عرائس المجالس » (ص ٢٢٤) ، حيث يقول : والصحيح أنه نبي معمر محجوب عن الأبصار .

✱ دلائل نبوة الخضر :

الخضر عليه السلام نبي من الأنبياء ، ويستطيع المتأمل للأوصاف الكريمة التي جاءت بها آيات القرآن الكريم ، أن يجد فيها البيان والتفصيل الذي يحسم قضية نبوة الخضر عليه السلام ، والتي منها :

✱ أولاً : رحمة الخضر :

يصف القرآن الكريم عطاء الله عز وجل للخضر عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا ﴾ [الكهف : ٦٥] ، وقد وصف الله تبارك وتعالى النبوة بأنها رحمة في مواضع كثيرة ، منها ما جاء على لسان شعيب عليه السلام : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ [هود : ٢٨] ، لاحظ التطابق التام في المعنى بين قوله تعالى في حق الخضر عليه السلام : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا ﴾ ، وقوله تعالى على لسان شعيب : ﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ ﴾ .

لما علمت قريش ببعثة رسول الله ﷺ قال الوليد بن المغيرة : لو كان ما يقوله محمد حقًا لنزل عليَّ ، أو على أبي مسعود عروة بن مسعود الثقفي ، أجابه القرآن الكريم قائلاً : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف : ٣١، ٣٢] ، يبين القرطبي في

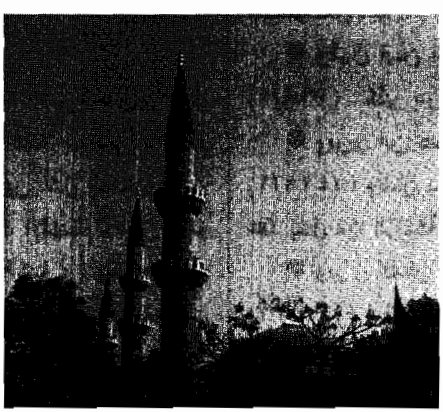

تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » (٥٩٠٣) : المراد من الرحمة في هذه الآية « يعني النبوة » ، ولما كانت نبوة محمد ﷺ للناس عامة وصفه القرآن الكريم بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

✱ ثانيًا : ارتباط الرحمة بالعلم :

ومما يؤكد أن الرحمة في حق الخضر نبوة ارتباطها بالعلم ، قال تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف : ٦٥] ، وهذا يقتضي تلقي الخضر هذا العلم عن اللَّه بلا واسطة بشر ولا تعليم معلم أو نبي آخر أو مرشد عارف ، بل هو علم من عند اللَّه عز وجل .

✱ ثالثًا : الخضر يتلقى الوحي :

يشرح الخضر عليه السلام أسرار أفعاله بقوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ [الكهف : ٨٢] ، وهذا القول يناظر قول القرآن الكريم على لسان رسول اللَّه ﷺ : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأحقاف : ٩] ، فأفعال الخضر تنبع من مصادر ثلاثة : الرحمة ، والعلم عن اللَّه ، والوحي .

✱ رابعًا : اطلاع الخضر على بعض الغيب :

أخبر الخضر عليه السلام أنه خرق السفينة حتى يحفظ مال أصحابها المساكين ، وهذا نوع من الغيب وأيضًا فقد علم أن الملك الظالم سيمر في المستقبل على السفن وسيؤممها ، وسيرى هذه السفينة وسيفكر في الاستيلاء عليها ، ثم سيشاهد عيبها فيقرر تركها ، وهذا علم بغيب الصدور ، سيحدث لهذا الملك في المستقبل . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [فاطر : ٣٨] .

وعندما قتل الخضر الغلام قام بمعجزة تجمع بين العلم والقدرة ، فَقَتْلُ الغلام وإطلاع موسى على كُفر الغلام لا يستطيعه إلا نبي قد أوحي إليه ذلك ، فتحقيق الخاتمة من العلوم الإلهية التي لا يُطلع اللَّه الناس عليها إلا إذا كانوا أنبياء أُوحي إليهم بذلك ، فلم يحدث أنَّ وليًّا من الأولياء بشر بالجنة أو قطع بكفر غلام لم يكلف ، وإذا فعل فمن يضمن صحة قوله ، والأوضح من ذلك أن يخبر الخضر الكليم موسى عليهما السلام أن اللَّه سيبدل والديه غلامًا وسيكون بارًّا بهما ، قال تعالى : ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف : ٨١] ، ولما بنى الجدار كان مطلعًا على نوعين من العلم :

الأول : حين علم أن تحت الجدار كنزًا .

والثاني : علمه أن الجدار لغلامين يتيمين في المدينة ، وأن أباهما كان صالحًا ، هذا يقدر عليه أي مقيم في هذه المدينة ، أما علم الغيب الذي عند اللَّه ولا يطلع عليه إلا من ارتضى اللَّه من رسول ، فهو استمرار أجل الغلامين ، وبقاء الجدار قائمًا حتى ذلك الوقت ، وعدم انهياره إلا في توقيت يضمن وجود الغلامين بعد أن يبلغا أشدهما ، ولا يوجد غيرهما من الناس حتى لا يقع نزاع حول الكنز .

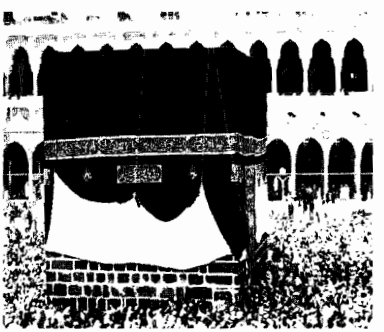

وللحديث بقية إن شاء اللَّه تعالى .

الحلقة الأخيرة

هل الخضر ملك؟ أم ولي؟ أم نبي؟

بقلم: أ. محمود المراكبي

الحمد لله الذي خلق الإنسان علمه البيان، والصلاة والسلام على من أُوتي جوامع الكلم، فصار بيانه أتم بيان، والصلاة والسلام على آل بيته الأبرار وعلى صحابته الأخيار، وبعد:

نكمل حديثنا عن الخضر عليه السلام، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

خامسًا: عصمة الخضر:

ورُبَّ قائل من الباطنية أو الصوفية يقول: نحن نتفق على كل هذه المقدمات ونختلف على النتيجة، نحن نقول: إن الخضر عليه السلام- شأنه شأن ذي القرنين- وَلِيٌّ أوتي رحمة وعلمًا ووحيًا، لكنه ليس بنبي، فأَثْبِت لنا العكس؟

نقول والله الموفق: قولكم بولاية الخضر عليه السلام ينقص قدره ويرفع عنه العصمة، بينما قولنا بنبوته إثبات لعصمته، فالاختلاف إذن محصور في الإقرار بعصمته، إذا قلتم بعصمته لزمكم الإقرار بنبوته، أما قولكم بولايته يلازمه انتفاء عصمته، وتدني منزلته عن جميع الأنبياء، ونذكركم بأن أشرف الخلق بعد الأنبياء أبو بكر الصديق، ليس بمعصوم، وقد كان مترددًا في جمع القرآن الكريم؛ حتى لا يفعل ما لم يأمر به النبي ﷺ، وظل عمر الفاروق يُلِح عليه حتى شرح الله صدره لذلك، وعندما أصاب علي بن أبي طالب في بعض المواقف لم يتحرج الفاروق أن يمدح علم أبي الحسن، وكلاهما غير معصوم.

إن ما سبق بيانه يساعدنا الآن على إدراك الفرق الكبير بين قتل ذي القرنين للظالمين، وقتل الخضر للغلام، وهو ما أظهره القرآن الكريم تمامًا، فذو القرنين يعذب الذين ظلموا وأفسدوا في الأرض، وهو مطالب بإثبات جرم كل منهم أمام الناس حتى ينزل عليه ما يستحقه من عذاب، فمنزلة ذي القرنين هنا كمنزلة الإمام العادل الذي يتقدم السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، أما قتل الخضر للغلام فقد عبر عنه موسى بقوله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ (الكهف: ٧٤)، ولا شك أنه فِعْلٌ منكر في جميع الشرائع والأعراف؛ لذلك لم يكن أمام الخضر إلا أن ينسب الأمر إلى وحي الله له، مع بيان وجه الرحمة في هذا القتل.

نبوة الخضر.. وواقعة قتل الغلام!!

ولا شك أن قول الباطنية بولاية الخضر إقرار منهم أنه دون منزلة أبي بكر وعمر رضوان الله عليهم، فكيف يُقْدِم على خرق السفينة وإزهاق الأرواح وقتل الأبرياء بمجرد الإلقاء في خلده، وخاطره ليس بمعصوم، ولهذا استدل العلماء ومنهم ابن كثير في «البداية والنهاية» (١: ٣٠٦)، وابن الجوزي في «عجالة المنتظر» بواقعة قتل الغلام على نبوته وقالوا: إن الخضر عليه السلام أقدم على قتل الغلام، وما ذاك إلا بما أوحي إليه من الملك العلاّم، وهذا دليل مستقل على نبوته، وبرهان ظاهر على عصمته؛ لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خلده؛ لأن خاطره ليس بواجب العصمة، إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق.

ويقول ابن حجر في «الإصابة» (١/٤٣): ومما يستدل به على نبوة الخضر ما أخرجه عبد بن حميد من طريق الربيع بن أنس قال: (قال موسى لما لقي الخضر: السلام عليك يا خضر، فقال: وعليك السلام يا موسى، قال: وما يدريك أني موسى؟ قال: أدراني بك الذي أدراك بي). والربيع بن أنس يروي عن أنس بن مالك، وروى له الأربعة، قال عنه العجلي: «بصري صدوق»، وقال أبو حاتم: «صدق»، وقال النسائي: «ليس به بأس»، وقال يحيى بن معين: «كان يتشيع فيفرط»، وذكره ابن حبان في «الثقات». (راجع «تهذيب التهذيب» (٣: ٢٠٧ ترجمة رقم ٤٦١).

ويقول الإمام الشاطبي في «الموافقات» (٢: ٢٩٧) بعد أن قرر نبوة الخضر عليه السلام: ويجوز للنبي أن يحكم بمقتضى الوحي من غير إشكال، وإن سلم فهي قضية عين، ولأمر ما، وليست جارية في شرعنا، والدليل على ذلك أنه لا يجوز في هذه الملة لولي، ولا لغيره ممن ليس بنبي أن يقتل صبيًا لم يبلغ الحُلُم، وإن عَلِمَ أنَّه طُبع كافرًا، وأنه لا يؤمن أبدًا، وأنه لو عاش أرهق والديه طغيانًا وكفرًا، وإن أُذِنَ له في عالَم الغيب في ذلك، لأن الشريعة قد قررت الأمر والنهي، وإنما

الظاهر في تلك القصة أنها وقعت على مقتضى شريعة أخرى.

سادسًا: عناصر النبوة في القصة:

لقد اشتملت قصة موسى والخضر عليهما السلام على جميع عناصر النبوة، فالنبوة تقتضي وجود نبي يتلقى وحيًا عن ربه، وآية دالة على هذه النبوة، وإخبار من الله عز وجل بصدق النبي، ثم قوم- ينقص عددهم أو يزيد- يتلقون هذه النبوة، وكل هذه العناصر ثابتة في هذا اللقاء، فالله عز وجل أخبر موسى عليه السلام بالسفر إلى مجمع البحرين للقاء عبد الله الصالح، والوحي ثابت إلى الخضر عليه السلام، والآية الدالة الجامعة لهما هي إحياء الحوت وسربانه في البحر عجبًا، والقوم هنا موسى عليه السلام وفتاه، فما الغرابة في ذلك؟

فإن قلت: هل يرسل الله رسولاً إلى غيره من الأنبياء يَتَلَقَّوْن عنه رسالة عن ربه؟

نقول: نعم إن في قصة أصحاب القرية التي ذكرها القرآن الكريم الإجابة، حيث أرسل الله عز وجل رسولين إلى القرية ثم أرسل نبيًا ثالثًا معززًا لهما، وناقلاً عن ربه، قال تعالى: (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ. إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ) (يس: ١٣، ١٤).

علم موسى والخضر من مشكاة واحدة!!

كما ورد في السنة ما يقرر نفس المعنى قول رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليسمع الصوت فيكون نبيًا»

ويروى عنه ﷺ ما معناه: «كان فيمن سبق يبعث النبي إلى الرجل والرجلين»، وإلى هذا المعنى أشار الخضر عليه السلام بقوله لموسى عليه السلام: «يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه». وفي آخر الحديث يقول رسول الله ﷺ: «وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصور من هذا البحر»، ويشير هذا الحديث إلى أن علم موسى والخضر عليهما السلام من مشكاة واحدة وبحر واحد، قد اختص كل منهما بجزء لا يعلمه الآخر، وقد ذهب فريق من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام نبي أرسل إلى قومه فاستجابوا له، ومنهم إسماعيل بن أبي زياد ومحمد بن الحسن الرماني، ثم ابن الجوزي، ولا يوجد ما ينفي هذا الرأي، فليس هناك ما يمنع وجود أكثر من نبي في وقت واحد، فقد عاصر كثير من الأنبياء غيرهم، مثل: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط الذي هاجر حين أرسله ربه إلى قوم آخرين، وترك الخليل إبراهيم عليه السلام مع قومه، كما عاش داود وسليمان، وعاش يعقوب ويوسف، وأيضًا موسى وهارون وشعيب، وأخيرًا زكريا وعيسى ويحيى صلوات الله عليهم أجمعين. قال تعالى: (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ)، فموسى وهارون عليهما السلام أرسلهما الله إلى بني إسرائيل، ولا شك أن أممًا أخرى تعيش على الأرض آنذاك، ومعنى أن يسافر موسى وفتاه سفرًا طويلاً لقيا فيه النصب والتعب، أنهما تركا ديار بني إسرائيل ووصلا إلى قوم آخرين.

الخضر عليه السلام نذير تلك الأمة!!

فما الذي يمنع أن يكون الخضر عليه السلام هو نذير تلك الأمة ونبيهم، ويرجح هذا الرأي أن الخضر عليه السلام كان معروفًا في قومه بالصلاح، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «... حتى إذا ركبا في السفينة وجدا معابر صغارًا تحمل أهل هذا الساحل إلى الساحل الآخر عرفوه، فقالوا: عبد الله الصالح، قال: قلنا لسعيد خضر؟ قال: نعم، لا نحمله بأجر. وفي رواية: فحملوهم بغير نَوْل. وفي صحيح مسلم: فانطلق الخضر وموسى يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة فكلماهم أن يحملوهما، فعرفوا الخضر فحملوهما من غير نول. وفي «مسند أحمد»: أن أصحاب السفينة وصفوا الخضر عليه السلام بقولهم: عبد الله الصالح؛ لذلك لا يحملونه بأجر، فلو كانوا في ديار بني إسرائيل لعرف أصحاب السفينة موسى عليه السلام، بينما المعروف هنا هو العبد الصالح، والغريب هو موسى عليه السلام.

ولا خلاف على أن الصلاح وصف قرآني مقرون بالأنبياء، قال تعالى في وصف أنبيائه: (وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ)، وفي حق إبراهيم الخليل: (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ).

وفي حق لوط: (وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)، وكذا في قوله تعالى: (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ. وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ)، وهذا سليمان عليه السلام يدعو ربه بقوله: (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ).

فتوى شرعية هامة

صادرة عن اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

السؤال: هل الخضر صاحب موسى عليه السلام حي يرزق للآن؟ وهل هو نبي؟ وهل ذكر ذلك صراحة في الأحاديث النبوية الصحيحة ما هي حقيقة الأمر؟

الجواب: الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه... وبعد:

فالخضر نبي من أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، والصحيح أنه مات كغيره من البشر..، الصحيح من قولي العلماء ما ذهب إليه الجمهور من أن الخضر عليه السلام قد مات؛ لظاهر العموم في قوله تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ).

القول الصريح عن حقيقة الضريح

الحلقة الأولى

الحمد للّه حمد الشاكرين، وأشهد أن لا إله إلا اللّه، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، وأستغفره استغفار المذنب الذليل، راجي عفو مولاه الكريم، سائلا إياه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يقبلنا بحلمه العظيم.

وأُصلي وأسلم على سيدنا محمد بن عبد اللّه، الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، بعثه ربه ليخرج الناس من ظلمات الجهل والشرك، إلى أنوار العلم والتوحيد، فالفائز من سار على دربه واتبع سنته، وعاش محسنا ومات مُقرا للّه عز وجل بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة، وأصلي وأسلم على جميع الأنبياء والمرسلين، ووارض اللهم عن الصحابة الأنصار والمهاجرين، وعلى آل البيت الأطهار المكرمين، وعباد اللّه الصالحين وعنا معهم برحمة مولانا الكريم، أما بعد؛

فقد عقدت النية على كتابة هذه المقالات، حين تكشفت لي حقائق لا يعلمها كثير من الناس، ومنها: الارتباط الوثيق بين الفرق المنحرفة عن الصراط المستقيم والأضرحة، فالأضرحة ومشاهد الأئمة عند الشيعة، والأقطاب والأولياء في الفكر الصوفي، يمثلان عمود الرحى تدور حوله كثير من المعتقدات، وردهم دائما ينحصر في اتهامنا بعدم محبة آل البيت، أو الهجوم على الأولياء، ولابد لكل منصف أن يفرق بين النتائج المستخلصة من دراسة الحقائق التاريخية، الموصلة إلى أدق الإجابات، وحسم القضايا التي تباينت فيها الاتجاهات، وبين الانتصار والمحبة لآل البيت رضوان اللّه عليهم أجمعين، فنحن نشهد اللّه على حبهم، ونعتقد سمو مكانتهم، ونؤمن أن فاطمة رضوان اللّه عليها سيدة نساء العالمين ما خلا مريم بنت عمران، وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وأن علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين، والمبشر بالجنة، وصاحب الكرّات والمجاهد في سبيل اللّه حتى أتاه اليقين.

إن كتابة التاريخ تأثرت بالأهواء، وتدافعت فيها التيارات، حتى أنك تسمع للحدث الواحد روايتين على تناقض تام؛ فالمؤرخ قد يتشيع لفريق، فينتصر له، بينما الآخر على الطرف النقيض، فدراستنا عن حقيقة ضريح رأس الحسين والمشهد الزينبي في القاهرة، لا يحق لعاقل أن يستغلها في اتهامنا بأننا مع هذا الفريق أو ذلك التجمع، فاللّه من وراء القصد

إعداد
محمود المراكبي

وهو يهدي إلى سواء السبيل.

ولو حصرنا الهدف من هذا القول الصريح عن حقيقة الضريح في إماطة القناع عن وجه الحقيقة لهان الأمر، ولكن الهدف هو لماذا وُضع القناع؟ ومن صاحب المصلحة في وأد الحقيقة؟ ومن المنتفعون من وراء رواجها؟ ومن الذين سيهبون بقوة للهجوم على ما نصل إليه من نتائج؟ إن أصحاب المصالح تتعدد انتماءاتهم، وتتفاوت أهدافهم، ولن تجد في هجومهم فكرا علميا، ولكن سبا وشتما، واتهاما وتجرأ بالباطل، وهذا كله سرعان ما يتلاشى ككل زوبعة، وإذا جاء الحق، فليس للباطل مكان يرحل إليه؛ لأنه سيزهق من ساعته، نسأل المولى الكريم أن يجعلنا من أولياء الحق، ومن جند الانتصار للّه ولرسوله، وليس بعد ذلك من شرف، وما وراءها إلا رضوان من اللّه أكبر، والحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات.

ولسنا أول من اهتم بهذه القضية، فقد سبقنا إليها عدد من العلماء والباحثين، اجتهدوا لبيان الحق فيها، والسؤال عنها يدور منذ قرون بعيدة، فقد وجه أحد المسلمين في القرن السابع الهجري سؤالا إلى شيخ الإسلام ابن تيمية جاء فيه: "ما تقول السادة العلماء أئمة الدين وهداة المسلمين رضي اللّه عنهم أجمعين، وأعانهم على تحقيق الحق المبين، وإخماد شَغَب المبطلين: في المشهد المنسوب إلى الحسين (بمدينة القاهرة: هل هو صحيح أم لا؟ وهل حُمل رأس الحسين إلى دمشق، ثم إلى مصر؟ أم حُمل إلى المدينة من جهة العراق؟ وهل لما يذكره بعض الناس من جهة المشهد الذي كان بعسقلان من صحة أم لا؟ ومَنْ ذكر أمر رأس الحسين، ونقله إلى المدينة النبوية دون الشام ومصر؟ ومَنْ جزم من العلماء المتقدمين والمتأخرين بأن مشهد عَسقلان ومشهد القاهرة مكذوب، وليس بصحيح ؟ وليبسطوا القول في ذلك، لأجل مسيس الضرورة والحاجة إليه، مثابين مأجورين إن شاء اللّه تعالى".

فالموضوع إذن يشغل بال كثيرين ومن قرون عديدة، وربما ورث جمهور المسلمين الكثير من المعتقدات على أنها مسلمات، كما أن همومهم في حياتهم اليومية أولى بالانشغال من موضوعنا هذا،

ولكن الأمر يحتاج إلى إبراء الذمة، وتوضيح الحق لمن أراد، أو بحث عنه من أفراد الأمة، وقد يجد الإجابة الشافية عند ابن تيمية، فمن أراد الاطلاع عليها فليرجع إلى الفتاوى الكبرى التي جمعت بعضا من علم شيخ الإسلام.

والمشكلة في قومنا اليوم أنهم لا يقرءون، وبالتالي يستمر الخطأ ويبقى، وربما يستفحل مع الأيام، ويفقد الناس علم العلماء، حتى من يريد أن يكتب في موضوع معين لا يكلف نفسه البحث في أقوال من سبقه، فلا بد لأي كتاب من إضافة جديدة، وإلا انتفى الغرض العلمي من تأليفه، وأصدق دليل على قولي هذا كتاب "مراقد آل البيت" الذي ألفه الشيخ/ محمد زكي إبراهيم شيخ طريقة العشيرة المحمدية، وهي طريقة صوفية معروفة وشيخها رحمه الله كان معروفا في مصر، وله دوره في الدفاع عن الصوفية في كل مناسبة، ويشيد بتمسك طريقته بالكتاب والسنة، ورغم جهوده وغيره في إصلاح التصوف، ومحاربته لبعض البدع ومظاهر الشرك، إلا أن الرجل لم يرجع إلى ما كتبه ابن تيمية، ولم يقم بنقض أسانيده وحقائقه، وبالتالي من يقرأ كتابه يظنه جهدا علميا وتاريخيا طيبا، والحقيقة خلاف ذلك، فالكتاب يُعد أحد المفاسد التي تحتاج لجهود لإصلاحه، وتحتاج إلى نقد علمي، ومناقشة أدلته في مقابل أدلة شيخ الإسلام، مع بحث إضافي لتغطية نقاط غفل عنها ابن تيمية، والشيخ/ محمد زكي إبراهيم أيضا، وقد انتصر الرجل في كتابه مراقد آل البيت لوجود عدد لا بأس به من هذه المراقد في مصر، رغم أن ذلك يخالف الحقائق التاريخية، فتراه يدافع عن وجود قبر السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب رضوان اللّه عليهما في القاهرة، وأن رأس الحسين (قد نقلت من عسقلان إلى القاهرة، ويسوق الشيخ أدلته، وبراهينه التي اعتمد عليها، فقلت في نفسي: لو أن الشيخ قرأ فتوى ابن تيمية لأراح واستراح، ولكن الصوفية يتبعون سياسة المقاطعة الفكرية لآراء كل من خالفهم.

لذ
لك زادت
الرغبة في
قلبي للكتابة في هذا
الموضوع ليس لمناقشة
شيخ العشيرة المحمدية فيما جاء
في كتابه "مراقد آل البيت"، أو للرد على
أدلته وبراهينه فقط، ولا ليكون تعميقا لفتوى
ابن تيمية، أو نسخة حديثة منقحة من فتوى
شيخ الإسلام، تُصوب في نفس الوقت ما ذهب
إليه شيخ العشيرة، وإنما أردت أن أوفي
الموضوع حقه، وكان لا بد عند الكتابة في هذا
الموضوع من استيفاء هذه النقاط التالية:
التحقيق العلمي والتاريخي لقبري السيدة زينب
وسيدنا الحسين رضي اللّه عنهما، ثم تناول
موقف السنة من القبور والأضرحة، وهل لنا أن
نجمع بين ضريح ومسجد في مكان واحد ?مع
بيان لأحكام المذاهب الأربعة حول الموضوع، ثم
نناقش آراء المخالفين ودعاواهم بأنهم يحبون آل
البيت، ويودونهم اتباعا للمودة في القربى،
ونشرح اللبس الحاصل في حجج هؤلاء، ثم
تناول ما يترتب على اعتقاد الناس وجود
القبرين بمصر، ثم نناقش الظروف السياسية
لمقتل الحسين، التي تهيئ لخروجه من الحجاز
إلى العراق حتى الشهادة ?ونوضح موقف
الناس من خلافة أمير البلاد، وهل يجوز لأحد أن
يطلب البيعة لنفسه بعد انعقادها للخليفة الأول؟
وقبل أن يطلب أحد البيعة لنفسه: هل لأحد أن
يطلب الإمارة أصلا؟ وما حكم طلب الإمارة؟ إننا
ما زلنا نصلى حتى اليوم نار هذه القضايا، ثم
نتناول نصح الصحابة والتابعين للحسين، ثم
نفسر موقفه في محاولة منا لبيان الدافع
الحقيقي لخروجه، وتستمر الأحداث حتى يقتل
الحسين، وتبدأ قضية رأس الحسين وموضعها
اليوم.

ولمزيد من البيان كان لا بد من أن نقدم جميع
وجهات النظر ثم نناقشها، ولا بد من تعميق
التفكير في الحالة السياسية التي دعت
الفاطميين إلى نقل رأس الحسين إلى مصر،
وأيضا نناقش أدلة الأطراف المتأرجحين بين
الإثبات والنفي،
ثم نوضح رأي ابن
تيمية باعتباره أكثر
العلماء تفهما لأبعاد هذه القضية
وأعمق من تكلم فيها، ونشرح أوجه
اعتراضه على وجود الرأس في مصر، ثم
نحسم القضية بالرأي الصحيح، والقاطع في
شأنها بتوفيق اللّه تعالى.

ثم نستكمل الموضوع بالحديث عن السيدة
زينب رضوان اللّه عليها، ونناقش ظروف دخول
السيدة زينب إلى مصر كما يزعم المؤيدون، وهل
دخلت مصر فعلا أم تلك فرية أخرى من افتراءات
الباطنية ?وأين دفنت؟ وأقوال شهود العيان،
ونسترشد بحقائق التاريخ، حتى نتمكن من
مناقشة روايات دخولها لمصر، كما نوضح بعض
المشاهد الكاذبة، والمختلقة سواء في مصر، أو
غيرها من البلدان، والتي يحتاج حصرها،
وتتبعها إلى دراسة مستقلة تستوفي جوانب
الموضوع، وكان لزاما علينا قبل أن نختم
الحديث عن هذا الموضوع أن نشرح أشهر لقب
خلعه المصريون البسطاء على السيدة زينب
رضوان اللّه عليها ألا وهو رئيسة الديوان،
فنعرج على الديوان، ونتعرف على هذا العالم
السري الباطني العجيب.

ومسك الختام بيان حكم التصريف في ضوء
الكتاب والسنة، وحكم العلماء فيمن آمن
بتصريف الأولياء ، وقد تكون هذه النقطة من
أهم ما يجب الإلمام به حيث نوضح أنواع الشرك
التي يجب على المسلمين أن يتجنبوها لصيانة
دينهم، والحفاظ على عقيدتهم ،

وهذا ما سيتم نشره بتوفيق الله تعالى في
المقالات التالية تباعا

وأدعوه سبحانه أن يجعله علما نافعا
للمسلمين على مر السنين والأعوام، وحسما
صحيحا لمن شغلته الحقيقة فراح يبحث عنها،
كما أدعوه جل شأنه أن يجعله في ميزان
حسناتنا يوم القيامة واللّه تعالى ولي التوفيق.
ونسأله الهداية إلى سواء السبيل، وصلِّ اللّهم
على محمد عبدك ورسولك وعلى آله وصحبه
وسلم.

القول الصريح في حقيقة الضريح

الحلقة الثانية

الموت والقبر في الإسلام

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه وبعد:

فإن للأضرحة والقبور مكانتها الكبيرة في كل الملل والنِّحل المنحرفة عن الصراط المستقيم، ويستطيع المرء إذا اطلع على ما يحدث في الأديان والمجتمعات الأخرى أن يتأكد من ذلك.

ونستدل هنا بقول الدكتور/ موسى الموسوي الشيعي الذي يدعو إلى تصحيح مفاهيم قومه في كتابه "الشيعة والتصحيح"، حيث يقول: "لقد زرت مقابر الأولياء في كثير من البلاد الإسلامية، فرأيت الزائرين فيها على النمط الذي نراه في مشاهد أئمتنا، ودخلت كنائس المسيحيين في كثير من بلاد العالم، فرأيت الناس فيها يتبركون بتمثال المسيح وأقدام العذراء، وقد تركوا الله جانبا، ويطلبون منهما العون في الدنيا والآخرة. ودخلت معابد البوذيين والشنتو، ومعابد الهنود والسيخ، فرأيت ما رأيته من قبل في مشاهد المسلمين والمسيحيين معا من تقديم القربان، وطلب الحاجات، وتقبيل التماثيل، والركوع والخضوع والخشوع أمامها، وهكذا رأيت البشرية تعوم في سرداب من الأوهام"(١).

وتشترك الصوفية مع غيرها من الملل والنحل في تعظيم القبور والاحتفال بميلاد ساكنيها.

بينما الموت والقبور في دين الله تعالى له شأن آخر نستوضحه فيما يلي:

الموت في الإسلام ليس فناءً محضا، بل هو مرحلة من خمس مراحل تمر بها حياة كل إنسان، تلك المراحل التي بدأت بخلق الروح في الملأ الأعلى يوم أخذ الله من ظهر آدم وهو منجدل في طينته قبضة وأخرج منها أرواح المؤمنين إلى يوم القيامة، ثم قبض قبضة أخرى، وخلق حينئذ أرواح أصحاب الشمال، ثم أخذ العهد على جميع الأرواح يومئذ بسؤالها: ألست بربكم؟، فقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى

إعداد / محمود المراغي

شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف-١٧٢]، ثم أودعت الأرواح في حياة برزخية لا يعلمها إلا الله تعالى، وتأتي المرحلة الثانية بعد اجتماع منّ الرجل وماء المرأة في الرحم، وبأذن الله تعالى للجنين أن يجتمع في ظلمات الرحم، وبعد مائة وعشرين يوما ينفخ مَلَكٌ تلك الروح التي قدرها الله تعالى في هذا الجنين، فتستقر فيه، وتنتقل الروح من حياة البرزخ إلى ظلمة الرحم، إلى أن يولد المولود، فتبدأ

المرحلة الثالثة، وهي رحلة هذا الآدمي في الحياة الدنيا، حيث يجتمع فيها الروح والجسد، والعقل والقلب، والنفس، فتتنازع الرغبات مع شهوات النفس وهواها، وتلقي الدنيا بزخرفها على الحواس، مع عداوة قديمة مع إبليس، جعلت مهمته الحقد على ابن آدم، والسعي لإفساده، وسلاحه الوسوسة والتزيين، كل هذه الفتن تصطدم بالخوف والرجاء، وإخلاص العبودية لله عز وجل، ومع توالي الصراع، يحصد المرء في آخرته ما بذره في دنياه، ويستمر الحال حتى انقضاء أجله ووفاته، فتخرج الروح في بداية المرحلة الرابعة، وتعود ثانية إلى عالم البرزخ، حيث تستقر أرواح المؤمنين في الجنة، وتشقى أرواح الكافرين في النار، ويقبر الجسد في التراب مطلعا في نفس الوقت - بكيفية يعلمها الحق تبارك وتعالى- على مقامه في الجنة أو درجته في النار، والمرحلة الخامسة والأخيرة تبدأ بالبعث والنفخ في الصور، حيث تبعث الروح في بدن جديد صالح للحياة الآخرة، ينال فيها المؤمن ثواب طاعته، وينال العاصي العذاب الذي يستحقه جزاءً وفاقا على ما اقترف من الذنوب والآثام في الدنيا.

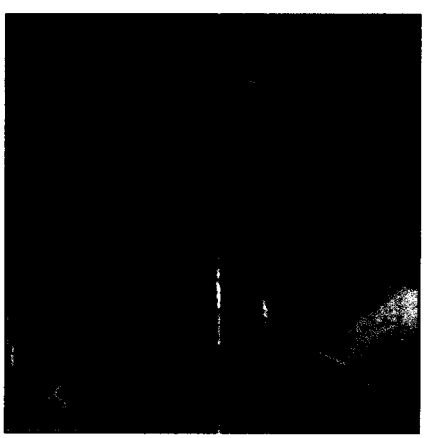

فالقبر إذن مرحلة تمهيدية لازمة لإعداد المرء لحياة الآخرة، والقبر رحم أكبر، يودع فيه الجسد، كما تودع النطفة في الرحم، ومهمة القبر أساسية كمهمة الرحم سواء بسواء، ففي الرحم يبدأ الإنسان نطفة، فعلقة، فمضغة، ثم تظهر العظام ويكسوها الله تعالى لحما، ويتم تهيئة بصر المولود وإعداد مجالات سمع الأذن لتلقي الترددات المناسبة للحياة الدنيا، وكذلك تضبط العين حتى تتلقى موجات معينة، وتستطيع أن تشاهد مدًى معينًا يناسب ما هو موجود في الدنيا، بينما يتولى القبر نزع البدن المادي الترابي عن الميت، لأنه لم يعد صالحا لأن يدخل به إلى الملأ الأعلى، فتتحلل خلاياه، وتنخر عظامه، وتبلى هيئته، ثم يستعد ما بقي من الميت وهو عجب الذنب لاستقبال أمر الله بالبعث والنشور.

فالقبر بهذا المنظور هو المكان الذي يخلع الإنسان فيه عن جسده الحواس التي أعدت مواصفاتها للتعامل مع الدنيا، ليستبدلها

بأخرى تكون جاهزة لاستقبال حواس مرحلة ما بعد البعث، التي تأتي مع النفخ في الصور، ففي تلك اللحظة يعاد تكوين الإنسان وتتجمع أجزاؤه، التي تستطيع التعامل مع الحياة الآخرة، سواء أكان المرء من أهل الجنة أم من أهل النار.

وكل ابن آدم مقبور ولا شك، والقبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، وقد نهى الإسلام في بداية الأمر عن زيارة القبور؛ لأن القوم حديثو عهد بشرك، ثم أذن النبي ﷺ في زيارتها بعد أن وضع ضوابطها، وحدد سننها، وكيف تكون كما حدد للزيارة أهدافها، وأمرنا بفعل طاعة معينة عند زيارة القبر، وتلك الأهداف هي:

*تُذَكِّر الموت؛ فالقبر هو الحقيقة المادية التي يتفق عليها المؤمن والكافر، والموت لا بد ملاق ابن آدم. ومن تأكدت له هذه الحقيقة يجد شعورا بالراحة والسكينة عندما يزور القبور، ولابد للزائر أن يتأمل مصير من سبقوه، ومآله بعد انقضاء أجله، فيجد في منظر القبر ما يدفعه لعقد النية على التوبة، والإقلاع عن المعاصي، والإقبال على الله، ومن هنا شرع الرسول ﷺ زيارة القبور، وفي لفظ آخر يقول ﷺ: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإن لكم فيها عبرة»(٢). ولا شك أن من تذكر الموت لابد أن يتأمل البعث والنشور، ثم المثول بين يدي الواحد الديان.

*تُزَهِّدُ في الدنيا؛ فمن يرى المقابر، وحال أهلها بعد أن كانوا سلاطين، وأمراء، وقادة، وفاتحين، وعظماء، وعلماء، وغير ذلك، علم أن نهاية ذلك كله إلى حفرة في الأرض، وبالتالي تهون عليه كل مصائب الدنيا، ويبقى أمامه التدبر في أحوالها، ويتأمل المصاب الأكبر بفقد الحياة، ومفارقة الأهل والأحباب.

مشروعية زيارة القبور

وقد ورد عن كثير من الصحابة، ومنهم: بريدة بن الحصيب، وأنس بن مالك، وابن مسعود، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وعائشة، وأم سلمة رضي الله عنهم التصريح بزيارة القبور، بألفاظ عديدة منها: أن رسول الله ﷺ، قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تزهد في الدنيا، وتذكر بالآخرة»(٣)، والعمل على هذا عند أهل العلم؛ فهم لا يرون بزيارة القبور بأسا، وهو قول عبد الله بن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق، ومن أدلة مشروعية الزيارة أيضا :

*قول أبي هريرة رضي الله عنه: خرج رسول الله ﷺ إلى المقابر، فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»(٤).

*وعن ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ بقبور المدينة، فأقبل عليهم بوجهه، فقال:

«السلام عليكم يا أهل القبور يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر)(٥).

*وحديث عائشة، قالت: فقدت النبي ﷺ من الليل، فإذا به في البقيع، فقال: (سلام عليكم دار قوم مؤمنين وأنتم لنا فرط(٦)، وإنا بكم لاحقون، اللهم لا تحرمنا أجرهم، ولا تفتنا بعدهم نسأل الله لنا ولكم العافية)(٧).

وفي لفظ آخر في صحيح مسلم، أن عائشة رضي الله عنها سألت النبي ﷺ عن كيفية الدعاء لأهل القبور، فقال ﷺ: (قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون).

وعلى زائر القبر طاعة هو مأمور بأدائها أثناء الزيارة، فقد علمتنا السنة العديد من الحقائق والمفاهيم التي حرص الإسلام على ترسيخها في أفئدة أتباعه، منها: الدعاء لصاحب القبر الذي انتقل إلى دار الحساب، فإذا كان طائعا، فإنه اليوم يلوم نفسه حيث لم يزدد طاعة لربه، ولو كان عاصيا، فإنه في أمس الحاجة إلى حسنة تمحو عنه سيئة، أو يرفع الله بها عنه عذابا، وقد ثبت أن النبي ﷺ، كثيرا ما كان يؤمر بزيارة البقيع والاستغفار لأهلها، وأيضا: تعلمنا من السنة أن الميت يتلهف على من يدعو له، وأن عمل أقاربه يعرض عليه، ومن هنا شرع الإسلام زيارة القبور للدعاء لأهلها -ونسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا من يترحم علينا إذا صرنا إلى ما صار إليه من كان قبلنا، كما ورد أن صاحب القبر يشعر بزواره ويسمع سلامهم عليه ودعاءهم له، وليس لزيارة القبور من هدف ثالث.

ولم يكن في عصر النبوة مسجدٌ بنى على قبر، أو قبر شيد فوقه مسجدٌ، ولهذا سن النبي ﷺ العديد من سنن القبور وكيفية إعدادها ليدفن فيها الموتى، وهذا ما سنعرفه بإذن الله تعالى في المقال التالي، والله الموفق.

---

(١) الشيعة والتصحيح للعلامة الدكتور موسى الموسوي الشيعي ٨٤

(٢) حديث ابن مسعود أخرجه البخاري ٣٦٩٦، والنسائي ٤٣٥١، ومالك في الموطأ حديث ٩١٩

(٣) حديث أنس وابن مسعود أخرجه أحمد في مسنده، وابن ماجه ١٥٦٠، وحديث بريدة بن الحصيب أخرجه مسلم ١٦٢٣، والنسائي ٢٠٠٥، وأبو داود ٢٨١٦، وأحمد ٢١٨٨٠، والترمذي ٩٧٤، وقال: حسن صحيح.

(٤) حديث أبي هريرة أخرجه مسلم ٣٦٧، والنسائي ١٥٠، وأبو داود ٢٨١٨، وابن ماجه ٤٢٩٦، ومالك في الموطأ ٥٣، وأحمد في مسنده ٧٦٢٧.

(٥) حديث ابن عباس أخرجه الترمذي ٩٧٣، وقال: حديث حسن غريب، وفي الباب عن بريدة وعائشة.

(٦) فرط: أي سابقون ومتقدمون.

(٧) حديث عائشة أخرجه مسلم ١٦١٨، والنسائي ٢٠١٠، وابن ماجه في سننه ١٥٣٥، وأحمد في مسنده.

القول الصريح في حقيقة الضريح

تحذيرات نبوية فيما يتعلق بالأضرحة والقبور

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه وبعد:

فلقد حَذَّر رسول الله ﷺ أمته من اتباع اليهود والنصارى وأفعالهم التي ابتدعوها من عند أنفسهم، فقد اهتموا بالصور والتماثيل، واتخذوا القناديل والشموع على الأضرحة، وخصصوا لها السدنة.

وقد خاف رسول الله ﷺ ذلك على أمته، حتى أنه في مرض الموت بلَّغ أصحابه فرادى وجماعات بخوفه من اتخاذ قبره عيدًا أو وثنًا، أو أن يبنوا عليه مسجدًا.

وتتابع الأحاديث وارتباطها بتوقيت مرض موت النبي ﷺ يؤكد خطورة الأمر، فكأن رسول الله ﷺ يوصي أمته وصية المفارق الحريص على إبلاغهم بأهم وأخطر أمر على الأمة.

وصدق رسول الله ﷺ، فرغم تحذيره غفل الناس، ووقعوا فيما خوفهم من تبعاته، وفتحوا على أنفسهم أبواب الشرك بصوره المتعددة، حتى أصبح بلاؤنا اليوم عظيما، ويكفي أن ترىٰ جملة من المظاهر البدعية والشركية التي لا يرضى عنها الله تعالى، ولا رسوله ﷺ، بمناسبة مولد الولي الفلاني، أو القطب العلاني، ولا يتحرك عالمٌ ولا متعلم لتصحيح الأمر وإرجاعه إلى العقيدة الصحيحة كما أُمرنا بها.

يقول الإمام الشوكاني: "وكم قد سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكي لها الإسلام، منها اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام، وعَظُم ذلك، فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضر، فجعلوها مقصدًا لطلب قضاء الحوائج، وملجأ لنجاح المطالب، وسألوا منها ما يسأله العباد من ربهم، وشدوا إليها الرحال، وتمسحوا بها واستغاثوا [ومنهم من سجد على أعتابها]، وبالجملة لم يدعوا شيئا مما كانت تفعله الجاهلية بالأصنام إلا فعلوه، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ومع هذا المنكر الشنيع لا نجد من يغضب لله، ويغار حمية للدين الحنيف.

وحتى نوضح خطورة الأمر فإننا نسوق الأدلة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ تلك التي تحذر الأمة من مواضع الشرك ومزالق الانحراف:

١- في النهي عن جمع المسجد والقبر في مكان واحد.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لله فَلا تَدْعُو مَعَ الله أَحَدًا﴾ [الجن-١٨]، ويفسر القرطبي هذه الآية، فيقول: "هذا توبيخ للمشركين في دعائهم مع الله غيره في المسجد الحرام، وقال مجاهد: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيَعهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيه والمؤمنين أن يخلصوا لله الدعوة إذا دخلوا المساجد كلها، يقول: فلا تشركوا فيها صنما وغيره مما يُعبد، وقيل: المعنى أفردوا المساجد لذكر الله، ولا تتخذوها هزوا، ومتجرا، ومجلسا، ولا طرقا، ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيبا".

وتوضح لنا الأحاديث المتواترة الثابتة عن النبي ﷺ، نوع الشرك الذي كانت اليهود والنصارى واقعة فيه، فقد روى جمع من الصحابة رضي الله عنهم أحاديث تنص كلها على تحريم اتخاذ القبور في المساجد، أو بناء المساجد على القبور، لأن في ذلك تقليدًا لفعل اليهود والنصارى وشركهم، ومن هذه الأحاديث:-

* حديث أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: آخر ما تكلم به النبي ﷺ: (واعلموا أن من شرار الناس الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد).

* حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: "لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، تقول عائشة: يحذر مثل ما صنعوا".

*حديث أبي هريرة، أن النبي ﷺ كان يكثر في دعائه من قوله: (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد، لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد).

إعداد / محمود المراكبي

*حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه، قال: "قال لي رسول الله ﷺ: أدْخِل عليَّ أصحابي، فدخلوا عليه، فكشف القناع، ثم قال:(لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد).

*حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال:(إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، ومن يتخذ القبور مساجد).

* حديث جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: (ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك).

* حديث عائشة، أن أم حبيبة وأم سلمة- رضي الله عنهن- ذكرتا للنبي ﷺ كنيسة بأرض الحبشة، وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها، فقال: (إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات، بنوا على قبره مسجدًا، وصوَّروا فيه تلك التصاوير، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة).

٢- النهي عن رفع القبور.

بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أبا الهيَّاج الأسدي قائلاً: "أبعثك على ما بعثني به النبي ﷺ، أن لا تدع قبرا مشرفا إلا سويته، ولا تمثالاً إلا طمسته".

* وقال الإمام الشافعي: "أكره أن يُرفع القبر إلا بقدر ما يُعرف أنه قبر، لكيلا يُوطأ ولا يُجلس عليه". وقال أيضا: "وأحب ألا يزاد في القبر من تراب وغيره، وإنما أحب أن يشخص على وجه الأرض شبرا أو نحوه، وأحب أن لا يبنى ولا يجصص، فإن ذلك يشبه الزينة والخيلاء، وليس الموت موضع واحد منهما، ولم أرَ قبور المهاجرين والأنصار مجصصة، وقد رأيت الأئمة بمكة يأمرون بهدم ما يبنى على القبور، ورأيت من الولاة من يهدم ما بني في المقابر، ولم أرَ الفقهاء يعيبون عليه ذلك".

* وقال الشوكاني: "والظاهر أن رفع القبور زيادة على القدر المأذون فيه محرم، وقد صرح بذلك أصحاب أحمد بن حنبل وجماعة من أصحاب الشافعي ومالك".

* وفتاوى العلماء: "أن من أوصى بعد موته أن يُرفع بناء قبره، أو تُوضع فوقه قبة، أو شيء من هذا القبيل، فإن الوصية باطلة، ولا يجوز العمل على تنفيذها لمخالفتها الأحاديث الصحيحة".

وكثير من البسطاء لا يهتدون بهذه الأحاديث ولا يعملون بها، ويقولون: إن قبر النبي ﷺ داخل الحرم المدني، فكيف تنهون عن بنيان الأضرحة والقبور داخل المساجد؟ والقوم على بساطتهم في العلم يستخدمون القياس، فلهؤلاء نقول: إن النبي ﷺ قُبر في بيت عائشة رضي الله عنها، ولا شك أنَ بيتها كان خارج المسجد، وظل القبر عشرات السنين خارج المسجد حتى وفاة الخلفاء الراشدين، وظل القبر خارج المسجد بعد توسعات عثمان بن عفان وحتى عام ٨٨ هـ وفي عهد الوليد بن عبد الملك أدخل القبر ضمن المسجد، وذلك في زمن متأخر عن عهد النبوة.

٣- النهي عن ستر القبور.

أما التجصيص: أي الطلاء بالجبس، ومثله تزويق القبر ونقشه، والبناء عليه ورفع القباب فمنهي عن ذلك كله لحديث جابر بن عبد الله قال: "نهى النبي ﷺ أن تجصص القبور، وأن يكتب عليها، وأن يبنى عليها، وأن توطأ".

٤- تحريم السرج على المقابر.

وروى ابن عباس رضي الله عنهما، قال:(لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج).

٥- كراهية الذبح عند القبور.

كان أهل الجاهلية يعقرون الإبل عند قبر الرجل الجواد، يقولون نجازيه على فعله؛ لذا فقد نهى الإسلام عن الذبح عند القبور منعا للتشبه بأهل الجاهلية. قال ﷺ: «لعن الله من ذبح لغير الله».

٦- النهي عن الصلاة إلى القبر أو عليه.

نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبر أو عليه، في العديد من المناسبات ومنها قوله:

* «لا تصلوا إلى قبر، ولا تصلوا على قبر».

* وفي حديث أنس، قال: «نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور».

٧- النهي عن الاستغاثة بالأولياء والنذر لهم.

إن العرب في الجاهلية لم يشركوا مع الله أحدا في أمر الربوبية، فلم يزعم أحد منهم أن أحدا مع الله خلق السموات والأرض، أو خلق الإنس والجن، وإنما كان شركهم في أمر الألوهية وفي مظاهر العبادة لله الواحد الأحد، ويقول علماء الحنفية فيمن نذر لغير الله: واعلم أن الذي يقع للأموات من أكثر العوام وما يؤخذ من الدراهم للشمع والزيت ونحوهما إلى ضرائح الأولياء

الكرام تقربا إليهم هو بالإجماع باطل وحرام.

* ويقول ابن عابدين: "قول العبد تقربا: يا سيدي فلان، إن رُدَّ عليَّ غائبي، أو عوفي مريضي، أو قضيت حاجتي فلك من الذهب، أو الفضة، أو من الطعام، أو من الشمع.. باطل وحرام، لوجوه منها: نذر لمخلوق، وهذا النذر لا يجوز لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق، ومنها أن المنذور له ميت والميت لا يملك".

٨- النهي عن شد الرحال إلى المساجد.

يرسخ الإسلام عقيدة طهارة الأرض، أحل الله عز وجل ترابها ليكون مسجدا للمسلم، وحيثما سجد فلا مانع ولا عائق، وأنه لا فضل لموضع على آخر باستثناء ثلاثة مساجد فقط، وهي: كما قال النبي ﷺ «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ والمسجد الأقصى».

أما ما سوى ذلك، فلم يثبت فضل لموضع آخر سوى مسجد قباء لحديث النبي ﷺ عن فضله، وهو بطبيعة الحال في المدينة المنورة، فمن شد الرحال إليها يثاب على زيارته لقباء، وليس من المعقول أن يشد أحد الرحال إلى مسجد قباء، ثم يغادر المدينة قبل زيارة مسجد رسول الله ﷺ وحين يخبر النبي ﷺ في حياته عن فضائل مسجده، فمن التعسف أن يقول أحد: إن المراد من فضله وجود قبره ﷺ فيه، فثابت ومعروف أن القبر كان خارج المسجد لسنوات طويلة، كما يحدد النبي مقدار الثواب بقوله ﷺ (صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام).

٩- النهي عن التألي على الله.

حين نسأل الناس لماذا صاحب هذا الضريح بالذات الذي حرمتموه من الدفن في مقابر المسلمين، ونسجتم حوله هذا الكم الهائل من المخالفات الشرعية؟ يقولون لنا: إنه ولي من أولياء الله الصالحين، له مقام عظيم عند الله عز وجل، وزيارته قربة وزلفى لله تعالى.

وقد لا يعرف كثير من الناس أن رسول الله ﷺ علمنا أن لا نزكي على الله أحدا، أو أن نمدحه في حياته، ففي الحديث:

* أن النبي ﷺ سمع رجلا يُثني على رجل ويطريه في المدحة، فقال: (لقد أهلكتم [أو قطعتم] ظهر الرجل)، فما بالنا بعد وفاته؟

* وورد أيضًا: (لما مات عثمان بن مظعون، قالت امرأة: هنيئا لك الجنة عثمان بن مظعون، فنَظَرَ رسول الله ﷺ إليها نَظَرَ غضبان، فقال: وما يدريك؟ قالت: يا رسول الله، فارسك وصاحبك، فقال رسول الله ﷺ والله إني رسول الله وما أدري ما يُفعل بي، فأشفق الناس على عثمان، فلما ماتت زينب ابنة رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ الحقي بسلفنا الصالح الخير عثمان بن مظعون، فبكت النساء.

وإلى لقاء إن شاء الله.

تنويه

الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فقد ورد في مقال «القول الصريح في حقيقة الضريح» شهر صفر ١٤٢٦هـ القول «بأن عمل أقارب الميت يعرض عليه، ولهذا شرعت زيارة القبور»، وتوضيحًا لهذا الأمر أقول: إن زيارة القبور كانت ممنوعة في أول الأمر بنهي النبي ﷺ، وذلك قبل أن تستقر العقيدة الصحيحة في النفوس، ولما زال ذلك أذن النبي ﷺ للأمة بزيارة القبور ليتذكر الزائر الآخرة فيكون ذلك سببًا في تهذيب نفسه وصلاح عمله، وشرع عند الزيارة السلام على أهلها والدعاء لهم، وهذا من الأمور المشروعة، التي جاءت على لسان رسول الله ﷺ ونحن نقف عند حدود النصوص الصحيحة الواردة في ذلك ولا نتجاوز هذا القدر إلى غيره مما لم يقم دليل عليه. ولا دليل على أن الميت يُعرض عليه عمل أهله.

ومما يؤكد على ذلك حديث الرسول ﷺ: «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكركم الآخرة».

القول الصريح في حقيقة الضريح

حكم الدين في الأضرحة

إعداد / محمود المراكبي

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه وبعد:

إن من الوهم أن يظن أحد أن الإشراك بالله تعالى يختلف حاله وحكمه باختلاف الدين الذي يعتنقه المشرك، فملة الشرك واحدة، وتحذير القرآن والسنة واضح في النهي عن اتباع اليهود والنصارى، فمن اتبعهم راضيا باختياره، فقد لحقهم في العقاب يوم الحساب، وليس أوضح من تحذير النبي ﷺ الذي يقول فيه لأمته:

لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى يعبدوا الأوثان.

*وعنه ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، فقيل: يا رسول الله، كفارس والروم؟ فقال: ومَن الناس إلا أولئك».

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة».

إن نبوءة النبي ﷺ تحقق كل يوم، فحين يحذرنا من القبور واتخاذها مساجد، نبني الأضرحة، وحين يحذرنا من رفع القبر، نقيم فوقه صندوقا عاليا، ونضع عليه عمامة كبيرة، وحين ينهانا عن تجصيصه وستره، نكسوه بالديباج، وحين ينهانا عن الكتابة فوقه، نكتب عليه بماء الذهب، وحين يحذرنا من إضاءة السرج، نضيء حوله ما ينير عمارة كاملة، ثم نقيم حوله سورا من الذهب والفضة الخالصة، وحين يأمرنا بألا نشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، نشد الرحال إلى ألف مسجد في كل منها قبر، وحين ينهانا أن نتخذ قبره عيدا، نجعل لكل ولي مولدا.

مذهب الحنفية:

صرح علماء الحنفية بالنهي عما هو من وسائل الشرك، كتجصيص القبور والبناء عليها، وتعليتها، والكتابة عليها، واتخاذها مساجد، وإسراجها، واستقبالها للصلاة والدعاء، واتخاذها أعيادا، وشد الرحال إليها، وحكم اتخاذ القبور مساجد عندهم هو الكراهة التحريمية، وهو اختلاف شكلي فقط، فالكراهة عندهم يُقصد بها التحريم، يقول محمد تلميذ أبي حنيفة النعمان: "لا نرى أن يزداد على ما خرج من القبر، ونكره أن يُجصص، أو أن يُطين، أو يُجعل عنده مسجدًا".

مذهب المالكية:

فمذهبهم التحريم، يقول القرطبي رحمه الله: "قال علماؤنا: وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد".

مذهب الشافعية:

ذهب الشافعية إلى أنه كبيرة؛ فقد قال الهيثمي: "الكبيرة الثالثة، والرابعة، والخامسة، والسادسة، والسابعة، والثامنة، والتاسعة، اتخاذ القبور مساجد، وإيقاد السرج عليها، واتخاذها أوثانًا، والطواف بها، واستلامها، والصلاة إليها".

وعقّب على ذلك الألوسي البغدادي بقوله: "وهذا كلام يدل على فهم وفقه في الدين".

مذهب الحنابلة:

هو التحريم، نص على ذلك الإمام أحمد وغيره، يقول ابن القيم: "لا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر، بل أيهما طرأ على الآخر مُنع منه، وعلى هذا فيهدم المَسجد إذا بُني على قبر، كما ينبش الميت إذا دفن في المسجد، ويكون الحكم للمسجد لنهي رسول الله ﷺ عن ذلك، ولعنه من اتخذ القبر مسجدًا، أو أوقد عليه سراجًا. ويعلل ابن القيم هذه الأحكام بقوله: "إنَّ النبي ﷺ نَهَى عن بناءِ المَساجِدِ على القُبُور، ولَعَنَ مَن فَعَلَ ذلك، ونَهَى عن تَجْصيص القُبُور، وتَشْرِيفِها، واتِّخاذِها مَساجِدَ، وعن الصَّلاةِ إلَيْهَا

وعندها، وعن إيقاد المصابيح عليها، وأمر بتسويتها، ونهى عن اتخاذها عيدًا، وعن شد الرحال إليها، لئلا يكون ذلك ذريعة إلى اتخاذها أوثانًا والإشراك بها، وحرم ذلك على من قصده، ومن لم يقصده، بل قصد خلافه سدًا للذريعة، فالكراهية مصدرها خوف فتنة تعظيم المخلوق، كما ذكر ذلك الشافعي، وغيره من سائر أئمة المسلمين، وقد نهى النبي ﷺ عن الصلاة عند طلوع الشمس، وعند غروبها؛ لأنه حينئذ يسجد لها الكفار، فنهى عن ذلك، لما فيه من المشابهة لهم، وإن لم يُقصد السجود إلا للواحد المعبود.

فكيف بالصلاة في المساجد التي على القبور؟! ومن هنا جاءت صلاة الجنازة بغير سجود سدا للذرائع حتى لا يعتقد أحد أننا نسجد لغير الله.

رأي ابن تيمية ومناظرته:

يقول ابن تيمية رحمه الله: "لما قدمت القاهرة اجتمع بي بعض فضلاء الرهبان، وناظرني في المسيح ودين النصارى، حتى بينت له فساد ذلك، وأجبته عما يدعيه من الحجة، وبلغني بعد ذلك أنه صنف كتابًا في الرد على المسلمين، وإبطال نبوة محمد ﷺ، وأحضره بعض المسلمين، وجعل يقرؤه عليَّ لأجيب عن حجج النصارى وأبين فسادها، وكان من أواخر ما خاطبت به النصراني، أن قلت له: أنتم مشركون، وبينت من شركهم ما هم عليه من العكوف على التماثيل والقبور وعبادتها، والاستغاثة بها، فقال لي: نحن ما نشرك بهم ونعبدهم، وإنما نتوسل بهم، كما يفعل المسلمون إذا جاءوا إلى قبر الرجل الصالح، فيتعلقون بالشباك الذي عليه، ونحو ذلك، فقلت له: وهذا أيضًا من الشرك، وليس هذا من دين المسلمين، وإن فعله الجهال فأقر أنه شرك، حتى أن قسيسًا كان حاضرًا في هذه المسألة، فلما قرأها قال: نعم، على هذا التقدير: نحن مشركون، وكان بعض النصارى يقول لبعض المسلمين: لنا سيد وسيدة، ولكم سيد وسيدة، لنا السيد المسيح والسيدة مريم، ولكم السيد الحسين والسيدة نفيسة".

إن بناء المساجد على المقابر ليس من دين الإسلام، بل هو منهي عنه بالنصوص الثابتة عن النبي ﷺ واتفاق أئمة الدين، بل لا يجوز اتخاذ القبور مساجد، سواء كان ذلك ببناء المسجد عليها، أو بقصد الصلاة عندها، بل أئمة الدين متفقون على النهي عن ذلك، وأنه ليس لأحد أن يقصد الصلاة عند قبر أحد، لا نبي ولا غير نبي، "وكل مَنْ قَالَ: إنَّ قَصْد الصلاة عند قبر أحد -أو عند مسجد بُني على قبر، أو مشهد، أو غير ذلك- أمر مشروع، [بحيث يَسْتَحِب ذلك، ويكون عنده أفضل من الصلاة في المسجد الذي لا قبر فيه]، فقد خالف إجماع المسلمين، بل ليس لأحد أن يصلي في المساجد التي على القبور، ولو لم يقصد الصلاة عندها".

رأي الشيخ سيد سابق:

يقول الشيخ السيد سابق في فقه السنة بعد أن نقل رأي الإمام الشوكاني: "فيا علماء الدين، ويا ملوك المسلمين، أي رُزء للإسلام أشد من الكفر، وأي بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله، وأي مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة، وأي مُنْكَر يجب إنكاره، إن لم يكن إنكارا لهذا الشرك البين الجلي؟!

لقد أسمعت لو ناديت حيا
ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو نارا نفخت بها أضاءت
ولكن أنت تنفخ في الرماد

وقد أفتى العلماء بهدم المساجد والقباب التي بنيت على المقابر، وقال ابن حجر في الزواجر: وتجب المبادرة لهدم المساجد والقباب التي على القبور، إذ هي أضر من مسجد الضرار؛ لأنها أسست على معصية رسول الله ﷺ لأنه نهى عن ذلك، وأمر بهدم القبور المشرفة، ويجب إزالة كل قنديل، أو سراج على قبر، ولا يصح وقفه ونذره"، ويستشهد الشيخ سيد سابق بفتوى علماء المسلمين في عهد الملك الظاهر حين عزم على هدم كل ما في القرافة من البناء، فاتفق علماء عصره على أنه يجب على ولي الأمر هدم ذلك كله، وهذه الفتوى يعرفها أهل العلم. انتهى كلام الشيخ سيد سابق.

وكما عُلِمَ أن هدم هذه القباب والمساجد المبنية على المقابر منوط بولاة الأمور، فلا يصح أن يتولى ذلك الأفراد، فيفعل كل فرد ما يريده مراعاة للمصالح ودرءًا للمفاسد وألا يوسد الأمر لغير أهله.

والحمد لله رب العالمين.

القول الصريح في حقيقة الضريح

دفع شبهات القبوريين

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه وبعد:

فقد تحدثنا في الحلقة الماضية عن حكم الدين في الأضرحة مستعرضين أقوال العلماء في ذلك على اختلاف مذاهبهم وما أدلى به العلماء حول المساجد والقباب التي بنيت على القبور، واليوم نستعرض دفع شبهات القبوريين.

أولا: حقيقة المودة في القربى

فلو شاع العلم الصحيح ما ذهب أحد إلى الضريح، ولبحث سدنتها عن وظيفة أخرى يكسبون منها في غير غضب الله، ويستدل من يحلل ارتكاب الموبقات حول الضريح، بقوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى-٢٣]، مفسرا المودة في القربى: أي مودة شجرة النبي ﷺ، ويرى البعض أن هذه الآية تدعو إلى الذهاب إلى أضرحة آل البيت، لأن مودتهم بعد وفاتهم لا تكون إلا بذلك، وهذا فهم مغلوط وغير صحيح لأن الآية تدعو مشركي قريش المكذبين بالنبي ﷺ أن يراعوا قرابته فيهم فيؤمنوا به ويصدقوا برسالته ويؤيد ذلك ما أخرجه البخاري، عن طاوس، عن ابن عباس، أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، قال سعيد بن جبير: قربى محمد [وفي رواية قرابة محمد]؛ فقال ابن عباس: «عَجِلْتَ! إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فنزلت: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة»(١)، ويقول الشعبي: أكثر الناس علينا في هذه الآية، فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها؛ فكتب أن رسول الله ﷺ كان أوسط الناس في قريش، فليس بطن من بطونهم إلا وقد ولده؛ فقال الله له: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، إلا أن تودوني في قرابتي منكم؛ وتراعوا ما بيني وبينكم فتصدقوني في "القربى" ها هنا قرابة الرحم؛ كأنه قال: "اتبعوني للقرابة إن لم تتبعوني للنبوة". وقال عكرمة: "وكانت قريش تصل أرحامها، فلما بُعِث النبي ﷺ قطعته، فقال: «صلوني كما كنتم تفعلون».

فالمعنى على هذا: قل لا أسألكم عليه أجرا لكن أذكركم قرابتي؛ ويؤكد صحة هذا التفسير أن سورة الشورى مكية. ولم تكن مودة شجرة النبي ﷺ وآل بيته - بالمعنى الذي نعرفه الآن - مطلبا في أول الدعوة، وقت نزول سورة الشورى، خاصة أن الحسن والحسين رضي الله عنهما ولدا بعد الهجرة بسنوات.

ثانيا: استدلال الصوفية بمسجد أهل الكهف

ليس غريبا أن يرد الشيخ/ محمد صديق الغماري بصفته صوفيا ومحدثا، أحاديث الأضرحة التي رواها البخاري ومسلم بأنها أحاديث شاذة ويدعي تعارضها مع القرآن الكريم، مستندا إلى أضرحة أهل الكهف، ولم ينفرد الرجل وحده بل إن كثيرا من الصوفية يقولون لك: يا أخي إن القرآن الكريم يحدثنا

مود المراك

عن أصحاب الكهف وقد اتخذ الناس على قبورهم مسجدا؟ فكيف تنهانا أنت عما أمر القرآن به؟ وكلامهم هنا غاية في اللبس والاختلاط، للأسباب الآتية:

١ - لا يجوز شرعا الميل عن سنة النبي الخاتم ﷺ استنادا على فعل أمة من الأمم السابقة، فنحن مأمورون باتباع محمد ﷺ دون غيره من الأنبياء، فديننا كامل وديننا خاتم، أرسى كل الأمور بشكل تفصيلي وواضح، وعلى هذا التمام في الدين رضيه الله لنا دينًا، ولن نحتاج للرجوع إلى غيره، ومن هنا رفض النبي ﷺ فعل عمر بن الخطاب حين رآه يقرأ التوراة، وقال قولته المشهورة: «والذي نفسي بيده لو أن موسى عليه السلام كان حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني»، وبهذا أخبر الحق تبارك وتعالى جميع الأنبياء حين أخذ عليهم العهد والميثاق بالإيمان بالنبي الخاتم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران-٨١] فأتباع موسى عليه السلام من اليهود، وأتباع عيسى عليه السلام من النصارى مطالبون بترك ما هم فيه واتباع شرع النبي ﷺ وليس العكس. فكيف يستدل المسلمون اليوم بأفعال اليهود، أو النصارى، كأن رسول الله ﷺ أمرنا باتباعهم؟

٢ - إن تحريم بناء المساجد على القبور أصل من أصول دين الله تعالى الذي بعث به كل الأنبياء والمرسلين، لذلك وقع تحذير الأنبياء لأقوامهم منه، فاليهود والنصارى يعرفون من أنبيائهم أن اتخاذ الأضرحة مساجد محرم، وفاعله ملعون، لذلك نرى المعاصرين لحادثة أهل الكهف، انقسموا إلى فريقين، فريق رأى ما يراه الأنبياء فيما يتعلق بالدفن وسننه، وفريق أفتى بالغلو في شأن أهل الكهف، فقالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف-٢١].

٣ - والقرآن الكريم حين ينقل لنا القصة بأسلوبه البياني الرائع، يخبرنا أن نزاعا وقع بين الناس، قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ [الكهف-٢١] فالتنازع بين فريقين، الفريق الأول: يرى أنه لا داعي لنقلهم إلى المقابر بل يجب أن يدفنوا حيث ماتوا وهذه سنة الله مع الأنبياء، وذلك بسد فوهة الكهف عليهم بينما يرى الفريق الآخر أن يتخذوا عليهم مسجدا، ويحدد القرآن أيضا أن الفريق الثاني القائلين باتخاذ المسجد عليهم، وإن كان عددهم قليل إلا أنهم هم الزعماء والكبراء أصحاب القرار، يقول الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف-٢١]، فكأن الآية القرآنية لا تُشرع لنا بناء المساجد على القبور، وإنما تقص علينا ما كان من أحداث وقعت منذ مئات السنين لا دخل للتشريع فيها.

ومن الثابت والمعلوم من الدين بالضرورة أن قصص صالحي الأمم السابقة التي رواها القرآن الكريم، للموعظة والاعتبار وليست للاتباع والاقتداء، أما الهدي فهو مقصور على ما تلقيناه عن سيد الأنبياء وخاتم المرسلين».

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

---

(١) حديث ابن عباس موقوف أخرجه البخاري في المناقب ٣٢٣٦ وفي تفسير القرآن سورة الشورى ،والترمذي ٣١٧٤ وأحمد ١٩٢٠ .

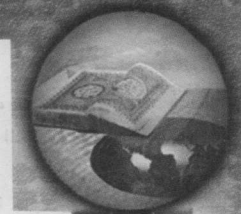

رأس الحسين ..

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

تمر الأيام، وتتابع الشهور، ويأتينا مولد الحسين رضي الله عنه، فيتوافد الآلاف لحضور الليلة الخاتمة، ويرتحل الأحباب والمريدون إلى أهم مولد في مصر، فتقام الحضرات، وتعقد الندوات، وتروج الأسواق، وتمتلئ صناديق النذور، وقد بدأ هذا التقليد في مصر حين زعم الفاطميون في منتصف القرن السادس الهجري وصول رأس الحسين إلى مصر، ومن المعروف أن الحسين رضي الله عنه قتل في كربلاء وقطع الفجرة رأسه الشريف، فلابد أن وراء تأخر وصول الرأس خمس مائة عام، وارتحالها من كربلاء إلى القاهرة، مأساة إنسانية وقصصا وأساطير تلعب فيها الأهواء الدينية، والأغراض والمكاسب السياسية والمادية دورا بارزا، ويلزمنا أن نكشف الستار من خلال مجموعة مشاهد ولذلك سنرجع إلى الوراء:

المشهد الأول

الزمان: ١٠ محرم سنة ٦١ هجرية، المكان كربلاء، موضع يعرف بالطف

تعس وشقي أحد هؤلاء: سنان بن أبي سنان أنس النخعي، أو شمر بن ذي الجوشن، أو رجل من مذحج، بقتل الحسين بن علي رضوان الله عليهما، وأحد سيدي شباب أهل الجنة، وأحد ريحانتي النبي ﷺ، وقطع رأسه خولي بن يزيد الأصبحي من حمير ، وهم أفراد من جيش بعث به عبيد الله بن زياد وأمر عليه عمر بن سعد بن أبي وقاص. وبعثوا بالرأس إلى الشقي عبيد الله بن زياد في الكوفة.

المشهد الثاني: الرأس في الكوفة

وصل الرأس الشريف من كربلاء إلى الكوفة، وشاهد العيان هو الصحابي الجليل أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ الذي يقول: " أَتَى عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ بِرَأْسِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَجُعِلَ فِي طَسْتٍ ، فَجَعَلَ يَنْكُتُ عَلَيْهِ ، وَقَالَ فِي حُسْنِهِ شَيْئًا" - كأنه يقبح وجه الحسين. قَالَ أَنَسٌ : " كَانَ أَشْبَهَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ مَخْضُوبًا بِالْوَسْمَةِ " هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. ثم أرسل عبيد الله بن زياد بالرأس ومن بقي من أهل بيت الحسين، ومنهم علي بن الحسين، وعمته زينب أخت الحسين رضوان الله عليهما إلى يزيد بن معاوية في دمشق. وهناك رأي يقول: إن عبيد الله بن زياد بعث بالرأس إلى المدينة مباشرة، والتاريخ والمنطق يرفضانه، فعبيد الله بن زياد ليس بصاحب قرار، إنما الأمر ليزيد بن معاوية في دمشق، ولو كان لعبيد الله أن يسير الرأس إلى المدينة لما بعث بمن بقي من آل الحسين إلى الشام، فلنستكمل مسيرتنا مع الرأس الشريف إلى دمشق.

المشهد الثالث: الرأس في دمشق

وهناك روايتان حول استقبال يزيد بن معاوية، لمن بقي من آل البيت، إحداهما تتناقلها الشيعة، وهي مليئة بالشماتة بقتل الحسين والكذب على يزيد، حتى إنهم نقلوا فعل عبيد الله بن زياد إلى يزيد، والرواية الثانية هي الثابتة عند أهل السنة، أنهم لما قدموا على يزيد أدخلهم على عياله، وأحسن استقبالهم، وظهر منه الندم على فعل عبيد الله وهذا يؤكده الطبري قائلا: "ولما حان وقت الرحيل إلى المدينة دعا يزيد بن معاوية علي بن الحسين، ثم قال له: لعن الله ابن مرجانة [عبيد الله بن زياد]، أما والله لو أني صاحبهما ما سألني (أي الحسين) خصلة أبدا إلا أعطيتها إياه، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت، ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن الله قضى ما رأيت، كاتبني وأنه كل حاجة تكون لك، قال: وكساهم، وأرسل معهم رسولاً وأوصى بهم ذلك الرسول"[١].

ويقول ابن الجوزي: إن يزيد بن معاوية قال لعلي بن الحسين: "إن أحببت وصلتك ورددتك إلى بلدك، قال: بل تردني إلى المدينة، فوصله ورده"[٢]، ويستطرد قائلا: "ثم بعث يزيد بهم إلى المدينة، وبعث برأس الحسين إلى عمرو بن سعيد بن العاص، وهو عامله على المدينة، فكفنه ودفنه بالبقيع عند قبر أمه فاطمة، هكذا قال ابن سعد"[٣].

ويقول الذهبي في سير أعلام النبلاء: "يقول ابن سعد، عن الواقدي، والمدائني، عن رجالهما، أن محفز بن ثعلبة العائذي قدم برأس الحسين على يزيد، فقال: أتيتك يا أمير المؤمنين برأس أحمق الناس وألأمهم، فقال يزيد: ما ولدت أم محفز أحمق وألأم، لكن الرجل لم يتدبر كلام الله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران-٢٦]،

مولد وصاحبه غايب الحلقة الأولى

إعداد/ د. محمود المراكبي

ثم بعث يزيد برأس الحسين إلى متولي المدينة، فدفن بالبقيع عند أمه"(٤).

يقول ابن الأثير في الكامل: "ثم أرسل ابن زياد رأس الحسين، ورءوس أصحابه مع زحر بن قيس إلى الشام إلى يزيد بن معاوية، ومعه جماعة"... كما يؤكد حزن يزيد عند سماعه مقتل الحسين بقوله: "فدمعت عينا يزيد، وقال: كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سمية، أما والله، لو أني صاحبه لعفوت عنه، فرحم الله الحسين، ولم يصله بشيء" (أي لم يكافئ القاتل على فعلته)(٥). ويقول ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب [متوفى سنة ٩٨١ هـ] والصحيح أن الرأس المكرم دفن بالبقيع إلى جنب أمه فاطمة، وذلك أن يزيد بن معاوية بعث به إلى عامله بالمدينة عمرو بن سعيد الأشدق، فكفنه ودفنه.

وتنقسم الآراء حول رأس الحسين، يقول الرأي الأول: إن الرأس دفن في دمشق، ومن القائلين بذلك ابن أبي الدنيا حيث يقول: "إن الرأس لم يزل في خزانة يزيد بن معاوية حتى توفي، فأخذ من خزانته، فكفن ودفن داخل باب الفراديس من مدينة دمشق"(٦). ويؤيده ابن كثير: "ويُعرف مكانه بمسجد الرأس اليوم داخل باب الفراديس الثاني"(٧).

والرأي الثاني يقول: إن السيدة زينب رضي الله عنها، لا يمكن أن تترك رأس أخيها عند يزيد، وترضى أن تسافر إلى المدينة بدونه، خاصة وقد تلقت زينب بنت الزهراء وعلي بن أبي طالب، رضوان الله عليم أجمعين ومن معها من آل البيت وعدا من يزيد بن معاوية بإجابة كل ما يطلبونه، ألا يطلب علي زين العابدين رأس أبيه، ألا تطلب الرباب بنت امرئ القيس رأس زوجها؟ أليس المطلب لجميع آل البيت أن يحملوا معهم رأس الحسين إلى المدينة ليدفنوه إلى جوار أمه أينسى آل البيت رأس عميد المنزل النبوي هكذا ويسافرون إلى المدينة؟! إن الفطرة السليمة تقتضي ألا ترتحل قافلة آل البيت إلى المدينة إلا والرأس معهم، إن أحدا لم يلتفت إلى هذه النقطة رغم أنها دليل وحدها، وحجة بذاتها، ويعضدها أن من عادات العرب أن تبعث برأس القتيل إلى قومه، كما أن هناك مصلحة ليزيد نفسه في رد الرأس إلى المدينة، ففي ذلك رسالة لكل من تسول له نفسه بالخروج عليه، وأيضا رسالة لعبد الله بن الزبير الذي يسير في نفس الخط الذي سار فيه الحسين، كل هذه القرائن والشواهد تؤكد مع الأخبار الصحيحة المنقولة عن انتقال الرأس إلى المدينة ودفنه بالبقيع إلى جوار أمه سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء رضوان الله عليها.

المشهد الرابع: الرأس في المدينة

يصف الحافظ أبو العلاء الهمداني مشهد وصول الرأس إلى المدينة بقوله: إن يزيد حين قدم عليه رأس الحسين بعث به إلى المدينة، فأقدم إليه عدة من موالي بني هاشم، وضم إليهم عدة من موالي أبي سفيان، ثم بعث بثَقَل(٨) الحسين ومن بقي من أهله معهم، وجهزهم بكل شيء، ولم يدع لهم حاجة بالمدينة إلا أمر بها، وبعث برأس الحسين (إلى عمرو بن سعيد بن العاص، وهو إذ ذاك عامله على المدينة، فقال عمرو: وددت أنه لم يبعث به إليّ، ثم أمر عمرو بن سعيد بالرأس فكفن، ودفن بالبقيع عند قبر أمه فاطمة عليها السلام، وهذا أصح ما قيل في ذلك، وروى محمد بن سعد، أن يزيد بعث برأس الحسين إلى عمرو بن سعيد نائب المدينة، فدفنه عند أمه بالبقيع"(٩). وينقل الزبير بن بكار وهو الحافظ النسابة(١٠) عن محمد بن حسن المخزومي النسابة مع علمه أنه شديد الضعف في الحديث، إلا أنه نقل عنه خبر حمل الرأس إلى المدينة، والزبير أعلم أهل النسب وأفضل العلماء لهذا السبب.

نكتفي بهذا القدر، ونستكمل حديثنا في العدد القادم إن كان في العمر بقية.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، لابن جرير الطبري: ٢٣٢، ٢٣ . (٢) المنتظم في تاريخ الأمم، لابن الجوزي ٥:٣٤٥ .
(٣) طبقات ابن سعد، والمنتظم في تاريخ الأمم، لابن الجوزي ٥:٣٤٤ . (٤) سير أعلام النبلاء، للذهبي ٣: ٣١٧ .
(٥) الكامل في التاريخ، لابن الأثير ٣: ٢٩٨ .
(٦) ابن أبي الدنيا من طريق عثمان بن عبد الرحمن عن محمد بن عمر بن صالح، وهما ضعيفان.
(٧) البداية والنهاية، لابن كثير ٥:٧١٣ . (٨) الثَّقَل: متاع المسافر وحشمه. (٩) البداية والنهاية، لابن كثير ٥:٧١٢ .
(١٠) الزبير بن بكار ولد سنة ١٧٢ هجرية، وتوفي سنة ٢٥٦ هـ، ويترجم له الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٢: ٣١٣ بقوله: العلامة الحافظ النسابة قاضي مكة وعالمها، وهو مصنف كتاب نسب قريش وهو كتاب كبير نفيس، وفي تهذيب التهذيب: قال الخطيب: كان ثقة ثبتا عالما بالنسب عارفا بأخبار المتقدمين، وماثر الماضين، ووثقه الدارقطني.

رأس الحسين في المدينة والمولد في القاهرة

إعداد: محمود المركبي

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد،

تقرر حقائق التاريخ أن القصة تنتهي عند وصول الرأس الشريف إلى مقبرة البقيع، والرأي الآخر هو بقاء الرأس في مسجد الفراديس في دمشق، أو ما يعرف اليوم بمسجد الرأس هناك، إلا أن قصة غريبة ظهرت بعد أكثر من أربعمائة عام، تزعم أن رأس الحسين مدفون في مدينة عسقلان في قبر مجهول لا يعلمه أحد.

وتأتي الحبكة الدرامية، والطبخة السياسية، والسبب المقنع، أن الفاطميين خافوا على رأس الحسين أن يقع في أيدي الصليبيين فنقلوه إلى مصر.

وتم لهم ذلك في ٨ من يوم الأحد جمادى الآخرة عام ٥٤٨ هـ، ووصل إلى القاهرة، في ظل الدولة الفاطمية الإسماعيلية- والتي تستمد مكانتها من دعوى كاذبة أنهم من نسل الطاهرة فاطمة الزهراء رضوان الله عليها، والدولة تعاني ضعفًا شديدًا- ويهدم هذه الرواية:

١- في أي وقت نقل الرأس من دمشق إلى عسقلان، وما السبب في ذلك؟ علما بأن واحدا من المحققين لم يقل بذلك.

٢- الحروب الصليبية تعصف بالأمة وسقطت القدس ضحى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢ هـ، فلم ترك الفاطميون الرأس الشريف ٥٦ سنة في عسقلان وأعادوه سنة ٥٤٨ هـ.

٣- ظلت الأمة خمسمائة عام ليس فيها مسجد للرأس في عسقلان، ولم يزره أحد من المؤرخين، ولا الرحالة المعروفين، فكيف بالله يظهر مسجد سنة خمسمائة ويظهر بأثر رجعي انتقال الرأس إليه؟

تفنيد القصة ونقض أركانها

أولا: بداية ظهور الرأس في عسقلان

١- يقول المقريزي: «دخل الأفضل بن بدر الجمالي [سنة ٤٩١ هـ] عسقلان، وكان بها مكان دارس فيه رأس الحسين بن علي، فأخرجه وعطره وحمله في سقط إلى أجلّ دار بها، وعَمَّرَ المشهد، فلما تكامل حمل الأفضل الرأس الشريف على صدره، وسعى به ماشيا إلى أن أحله في مقره، وقيل: إن

المشهد بعسقلان بناه أمير الجيوش بدر الجمالي، وكمله ابنه الأفضل»(١). ومعنى كلمة دارس في اللغة العربية، أي: لا أثر له، محته الرياح وعفا، أي: مكان متهدم ليس له ما يميزه عن غيره، فكيف علم أن هذه المقبرة المتهدمة فيها رأس الحسين؟

٢- يقول عارف تامر في تاريخ الإسماعيلية: «وبالإمكان أن نضيف إلى أعمال بدر الجمالي تشجيعه للعمران والبناء، فقد ذكر أنه جدد جامع العطارين بالإسكندرية، وأنشأ جامع المقياس، والجامع العتيق بإسنا، وجامع أمير الجيوش بأعلى المقطم، ومشهد الحسين بعسقلان»(٢).

٣- تشرح لنا الأستاذة الدكتورة سعاد ماهر عميد كلية الآثار من كتابها «أولياء الله الصالحون»، هذا اللغز بقولها: وجود النص التالي على منبر المشهد الخليلي بالقدس: «الحمد لله وحده، لا شريك له، محمد رسول الله، علي ولي الله، صلى الله عليهما، وعلى ذريتهما الطاهرة، سبحان من أقام لموالينا الأئمة مشهدا مجدا رفع راية، وأظهر معجزا بين كل وقت وآية، وكان من معجزاته تعالى إظهار رأس مولانا الإمام الشهيد أبي عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب- صلى الله عليه، وعلى جده، وأبيه، وأهل بيتهم- بموضع بعسقلان، كان الظالمون ستروه فيه، وإظهاره الآن شرف لأوليائه الميامين، وانشراح صدور شيعته المؤمنين، ورزق الله فتى مولانا، وسيدنا معد أبي تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلى الله عليه، وعلى آبائه، وأبنائه المطهرين». وواضح أن الكاتب المجهول لهذا النص من الفاطميين، أخذها البعض شهادة اعتماد لأي رأس مستخرج من مقبرة متهدمة وقدمه على أنه رأس الحسين، ولا نعرف أي تأصيل علمي هذا!

ثانيا: ابن الجمالي كان مهزومًا لا يقدر على بناء المشهد

ويقول ابن الأثير: «وفي رمضان من سنة٤٩٢ هـ بلغ المصريين ما تم على أهل بيت المقدس، فجمع الأفضل أمير الجيوش

«إن الفاطميين الذين انشغلوا بتشييد مشهد الحسين فروا أمام الفرنجة إلى مصر تاركين وراءهم رأس الحسين.»

العساكر، وحشد وسار إلى عسقلان، وأرسل إلى الفرنج ينكر عليهم ما فعلوا ويتهددهم، فأعادوا الرسول بالجواب ورحلوا على إثره، وطلعوا على المصريين عقيب وصول الرسول، ولم يكن عند المصريين خبر وصولهم، ولا حركتهم، ولم يكونوا على أهبة القتال، فنادوا إلى ركوب خيولهم، ولبسوا أسلحتهم، وأعجلهم الفرنج فهزموهم، وقتلوا منهم من قتل، وغنموا ما في العسكر من مال وسلاح، وغير ذلك، وانهزم الأفضل فدخل عسقلان، ومضى جماعة من المنهزمين فاستتروا بشجر الجميز، وكان هناك كثيرا، فأحرق الفرنج بعض الشجر، حتى هلك من فيه، وقتلوا من خرج منه، وعاد الأفضل في خواصه إلى مصر ونازل الفرنج عسقلان، وضايقوها فبذل لهم أهلها قطيعة عشرين ألف دينار، فعادوا إلى بيت المقدس»(٣).

يوشك المريب أن يقول خذوني: إن الفاطميين الذين ينشغلون بتشييد مشهد الحسين يفرون أمام الفرنجة إلى مصر تاركين وراءهم رأس الحسين لمدة خمسين عاما! أما كان الأجدر أن يحمله طلائع بن زريك، وهو

«من الثابت تاريخيًا أنه لم يدخل أحد من الجيل الأول من نسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه مصر. وهذا متفق عليه بين العلماء المحققين.»

ينسحب من المعركة؟! أليس في تركه للرأس هدمًا كاملاً لفكرة نقل الرأس إلى القاهرة خوفا من وقوعه في يد الصليبيين؟! فأين المنطق والعقل؟!

ثالثا: قدوم رأس إلى القاهرة

والمشهد يصفه لنا المقريزي، فيقول: « وصل بالرأس من عسقلان الأمير سيف المملكة تميم واليها كان، والقاضي المؤتمن بن مسكين»(٤). وبقي (الرأس) عاما مدفونا في قصر الزمرد حتى أنشئت له خصيصا قبة هي المشهد الحالي». نحن لا ننكر وقوع هذا المشهد، واختلافنا معه أن هذا الرأس لأحد الموتى في مقبرة عسقلان، ولا علاقة له برأس الحسين رضوان الله عليه.

ومن هذا البحث يتأكد صواب قاعدة تاريخية أساسية هي: «من الثابت تاريخيًا أنه لم يدخل أحد من الجيل الأول من نسل علي بن أبي طالب مصر»، وهي قاعدة متفق عليها بين العلماء المحققين، منهم الحافظ أحمد بن محمد السلفي [توفي سنة ٥٧٦ هـ] القائل: «لم يمت لعلي بن أبي طالب ولد لصلبه بمصر»، و الحافظ المؤرخ حسن بن إبراهيم بن زولاق الليثي المصري [ت: ٣٨٧ هـ] في قوله: «أول من دخل مصر من ولد علي: سكينة بنت علي بن الحسين». والمقريزي في الخطط وابن دقماق في الانتصار: «إن أول علوي قدم مصر محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي دخلها في إمارة يزيد بن حاتم المهلبي بمصر [سنة ١٤٥ هـ]. والحافظ المؤرخ أبو عبد الله محمد بن ناصر الدين الأنصاري [ت ٨١٤ هـ] لم أجد أحدًا من أرباب التاريخ من صحح مشهدًا بغير القرافة من أولاد علي إلا المشهد النفيسي؛ لأنها أقامت به في أيام حياتها وحفرت قبرها بيدها». والحافظ السخاوي: «إن المنقول عن السلف أنه لم يمت أحد من أولاد علي بن أبي طالب لصلبه في مصر».

ومن اللطيف أن أشير إلى مجموعة من الأحاديث المكذوبة الموضوعة التي تروى عن فضائل مقبرة عسقلان، ومنها أن رسول الله ﷺ «صلى عَلَى مقبرة فأكثر الصلاة عليها، فسئلَ عنها، فقال: أهل مقبرة عسقلان يزفون إلى الجنة كما تزف العروس إلى زوجها»، وهذه الأحاديث ذكرها السيوطي في اللآلئ المصنوعة، الشوكاني في الفوائد، وابن الجوزي في الموضوعات الكبرى، وأبو الحسن الكناني في تنزيه الشريعة، وابن حبان البستي في كتابه المجروحين.

وفي الختام نؤكد إن الله تبارك وتعالى لينزه آل بيت نبيه الأطهار وعلى رأسهم الحسين والسيدة زينب رضوان الله عليهم، من كل ما تشمله هذه الموالد من آثام وكبائر ومعاص.

وصل اللهم وسلم وبارك على المبعوث رحمة للعالمين.

الهوامش

١- الخطط والآثار للمقريزي ١: ٤٢٧

٢- تاريخ الإسماعيلية عارف تامر ٢:٣

٣- الكامل في التاريخ لابن الأثير ٨: ١٩٠

٤- الخطط والآثار للمقريزي ١:٤٢٧

حقيقة مشهد رئيسة الديوان

إعداد /
محمود المراكبي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد تبين لنا ولكثير من الباحثين أنه لم يرد ذكر قبر السيدة زينب الكبرى في العديد من روايات شهود العيان من الرحالة الذين رحلوا إلى مصر، ولا فيما دوّنه المؤرخون في كتبهم

ومنهم: عبد الرحمن بن الحكم«ت: ٢٥٧«الذي ألف عدة كتب في أخبار مصر، ومعاصره محمد بن الربيع الجيزي، وكذا القضاعي «ت: ٤٥٣»، وله تأليف في مزارات مصر سماه أنس الزائرين، وأحمد بن محمد السلفي «ت ٥٧٦» الذي يصرح بأنه لم يمت لعلي بن أبي طالب ولد لصلبه في مصر، والرحالة ابن جبير الأندلسي أثناء رحلته إلى القاهرة عام ٥٧٨ هـ، وابن أسعد الجواني «ت: ٦٠٠»، وله مزارات الأشراف، والرحالة السائح الهروي «ت ٦١١»، والرحالة ياقوت الحموي البغدادي «ت ٦٢٤ هـ»، وابن ميسر المصري «ت: ٦٧٧»، وله كتاب في تاريخ مصر، وابن تغري بردي «ت: ٧٠٤»، في كتابه النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، والرحالة ابن بطوطة المغربي فيما شاهده من المزارات الشريفة عند وصوله مصر سنة «٧٤٨ هـ»، والرحالة ابن دقماق المصري «٧٩٢ هـ» الذي قال في أخبار مصر وخططها كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار: «إن أول علوي دخل مصر هو علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن المثنى دخلها «١٤٥هـ»، وابن الناسخ المصري «ت: ٨٠٠» وكتابه مصابيح الدياجي وغوث الراجي، وهو مخطوط لم يطبع بعد، وابن الزيات الأنصاري «ت: ٨١٤»، وكتابه الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة، ذكر فيه قائمة المسميات بزينب المدفونات بمصر تضم «١١ »ممن اسمهن زينب، وليس فيهن زينب بنت علي بن أبي طالب، ونور الدين السخاوي «ت: ٨١٤»، وله كتاب تحفة الأحباب، ترجم للمدفونات بمصر، وذكر منهن «٤» مَن اسمهن زينب، وليست منهن زينب الكبرى، والمقريزي «ت: ٨٤٥»، وكتبه الخطط، واتعاظ الحنفاء بأخبار الفاطميين الخلفاء، الذي بين اللبس في القضية حين قال: وفي خارج باب النصر في أوائل المقابر قبر السيدة زينب بنت أحمد بن جعفر بن محمد بن الحنفية يزار، وتسميه العامة مشهد السيدة زينب»، وهذا التصريح يكشف منشأ خطأ العامة وانتشار هذا الوهم.

بالإضافة إلى الرحالة خليل بن شاهين الزاهري الإسكندري «ت ٨٧٣»، والقاضي ابن ظهيرة «ت: ٨٩١»، وكتابه الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، والحافظ السخاوي «ت: ٩٠٢»، وله كتاب منفرد في ترجمة زينب الكبرى، ولم يذكر أنها دفنت في مصر، والسيوطي «ت: ٩١١»، وله كتاب حسن المحاضرة، وكتاب «در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة» ترجم فيه مئات الصحابة، وسبع صحابيات ليس فيهن زينب الكبرى، له أيضا رسالة «العجاجة الزرنبية في السلالة الزينبية» لم يشر فيها إلى سفر زينب الكبرى إلى مصر، ودفنها في أراضيها.

ومن القرائن المهمة ما رواه ابن تيمية «ت: ٧٢٨» في إحدى مناظراته بمصر: «أن بعض النصارى يقول لبعض المسلمين: لنا سيد وسيدة، ولكم سيد وسيدة، لنا السيد المسيح والسيدة مريم، ولكم السيد الحسين والسيدة نفيسة»، ولو كان قبر السيدة زينب معلومًا عند المصريين آنذاك لكانت أولى بالذكر من السيدة نفيسة رضي الله عنها. خاصة وابن تيمية له بحث معروف حول رأس الحسين، إلا أن قضية مرقد السيدة زينب لم تشغله لأنها قضية أثيرت بعد موته بأكثر من قرنين من الزمان، ونخلص مما سبق إلى اتفاق كلمة المؤرخين على أن السيدة زينب بنت علي لم تدخل مصر، وبالتالي لم تدفن فيها.

من اخترع هذا القبر؟

أولا: خطأ وقع فيه الرحالة الكوهيني الذي دخل القاهرة في «١٤ محرم ٣٦٩ هـ» في خلافة أبي تميم نزار بن المعز لدين الله الفاطمي، فزار عدة مشاهد منها المشهد الزينبي، وقال: «دخلنا مشهد زينب بنت علي فوجدناه داخل دار كبيرة، وهو في طرفها البحري ليشرف على الخليج، فنزلنا إليه بدرج، وعاينا الضريح، فوجدنا عليه دربوزا،... ومكتوب على باب الحجرة هذا ما أمر به عبد الله ووليه أبو تميم أمير المؤمنين الإمام

العزيز باللّه صلوات اللّه عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المكرمين بعمارة هذا المشهد على مقام السيدة الطاهرة بنت الزهراء البتول زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب صلوات اللّه عليهما وعلى آبائها الطاهرين وأبنائها المكرمين».

ورد عليه البحّاثة السابقي بقوله: «إن هذا المشهد ليس للسيدة زينب الكبرى إذ لو كان لها مشهد بمصر بهذه الأبهة والفخامة التي يذكرها، فلماذا اختفى عن بقية الرحالين والمؤرخين، ولماذا اختفى أمره على معاصر الكوهيني المؤرخ الكبير الذي صرف همه في تحرير حوادث مصر خاصة، وهو ابن زولاق»ت: ٣٨٨ «، الذي كان حيا في مصر وقت زيارة الكوهيني، بينما ينكر دخول أي ولد لعلي لصلبه في مصر، ويقول أول من دخلها سكينة بنت علي بن الحسين، فالظاهر أن ما رآه الكوهيني هو مشهد زينب بنت يحيى المتوج بن الحسن الأنور ابن زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب، وبه قال شيخ الأزهر الشيخ محمد بخيت المطيعي. وتعليقنا على هذا التحليل أن«ما رآه الكوهيني يثبت بما لا يدع مجالا للشك التزوير المتعمد الذي تخطط وتنفذ له الدولة الفاطمية كي تروج للشعب المصري زيارة أضرحة آل البيت، وهي تعلم يقينا كذب دعواها؛ فالكوهيني اطلع على لوحة كتبها الخليفة نزار بن المعز لدين اللّه الفاطمي للترويج لحب آل البيت، كما فعل الوزير طلائع بن زريك بعد ذلك بمائتي سنة في مشهد رأس الحسين، والخطأ الذي وقع فيه الكوهيني هو تصديقه لهذه الخدعة، وترديده لها دون أن يتأملها، أو يراجعها مع علماء عصره.

ثانيا: مشهد رؤيا: رأى علي الخواص فيما يراه النائم ما رواه الشعراني «ت: ٩٧٣ هـ» في كتابه المنن الكبرى، وفي لواقح الأنوار القدسية عن شيخه علي الخواص الأمي الذي لا يقرأ سوى من اللوح المحفوظ، والذي أُعطي التصريف في ثلاثة أرباع مصر وقراها، أن السيدة زينب المدفونة بقناطر السباع ابنة الإمام علي رضي الله عنه، وأنها في هذا المكان بلا شك وتابعه في النقل عنه كل من تأخر كالقليوبي في تحفة الراغب، والصبّان في إسعاف الراغبين والعدوي في مشارق الأنوار، والشبلنجي في نور الأبصار، والرفاعي في نور الأنوار، والشيخ جعفر النقدي في زينب الكبرى، وحسن قاسم في السيدة زينب. ومن ذلك ما كتبه ابن الناسخ المصري «ت ٨٠٠ هـ» في المزارات المصرية، حيث وضع كتابا سماه مصابيح الدياجي وغوث الراجي، وهو مازال مخطوطا برقم «٨٤» في فهرس البلدان، ذكر فيه قبر السيدة زينب بقناطر السباع، وعدّه من قبور

لو كان للسيدة زينب الكبرى مشهد بمصر بهذه الفخامة فلماذا أختفى عن الرحالين والمؤرخين الذين صرفوا همهم في تحرير حوادث مصر خاصة

الرؤيا، ولم يعرفنا لمن كانت هذه الرؤيا، كما لم يصرح بأن المدفونة هنا زينب الكبرى بنت علي بن أبي طالب؛ لأن تصريحه بأن المدفونة هنا حسب الرؤيا زينب فقط، لا يفيد أنها زينب الكبرى، وإن كان الذهن أسرع انتقالاً إلى الفرد الأشهر».

وعندما نناقش روايات دخول زينب مصر، نجد المثبتين لها اعتمدوا على أنها قدمت إلى المدينة عائدة من دمشق، بعد مقتل أخيها الحسين، جعلت تخطب في الناس وتؤلبهم على خلع يزيد والأخذ بثأر الحسين، فكتب والي المدينة عمرو بن سعيد بن العاص «الأشدق» إلى يزيد يُعلمه الخبر، فرد عليه أن فرّق بينها وبينهم، فأمرها بالخروج فاختارت مصر، ودخلتها في شعبان سنة «٦١ هـ»، ومعها فاطمة، وسكينة، وعلي أبناء الحسين، واستقبلها الناس في بلبيس، وتقدم إليها واليها مسلمة بن مخلد الأنصاري، واستضافها في داره الحمراء، فأقامت بها أحد عشر شهرًا وخمسة عشرة يومًا، وتوفيت يوم الأحد لخمسة عشر يوما مضت من رجب سنة «٦٢ هـ»، وصلى عليها مسلمة بن مخلد ورجع بها فدفنوها بالحمراء بمخدعها من الدار حسب وصيتها، ونتبين من مناقشة هذه الروايات:

استبعاد تصدي السيدة زينب رضوان اللّه عليها للخطابة في الناس، وهي التي لم يرَ أحد من الأجانب

مشهد السيدة زينب المعروف هو قبر مختلق تأسس بعد وفاتها بما يقارب ألف سنة بناء على حلم رآه علي الخواص، وروج له الشعراني، وتحمس له أصحاب المصالح، وشيدت ضريحه أموال البسطاء،

شخصها في نور النهار، فكيف تتخطى زوجها عبد الله بن جعفر وابن أخيها علي بن الحسين، وهو الولي الوحيد لدم أبيه، وأحق الناس به.

لم يذكر أي مصدر أن زوجها عبد الله بن جعفر الطيار سافر معها، أو أذن لها بالسفر، أو زارها بعد استقرارها في مصر، فلا يعقل أن تسافر دون علمه، أو دون مصاحبته، كما لم تثبت زيارة أحد بني هاشم لها في مصر في حياتها، أو بعد مماتها.

كيف تسير السيدة/ زينب إلى مصر ووالياها آنذاك مسلمة بن مخلد، وهو على رأس المطالبين بدم عثمان، ولم يبايع عليًا ولم يأتمر بأمر نوابه على مصر؟ وتعدهما الشيعة من ألد أعداء علي ومن أخلص أحباء معاوية، فكيف تتخذ السيدة زينب داره مسكنا لها؟

إن بيت والي مصر مسلمة بن مخلد كان بمدينة الفسطاط، بعيدا عن مكان الضريح الحالي، فكيف يزعمون أنها دفنت في منزله، الذي تحول فيما بعد إلى الضريح الحالي؟

كان ميدان السيدة زينب الحالي جزءا من مسار النيل قديما ,وكانت عليه قنطرة تسمى قنطرة السباع؛ لأنها كانت مزينة من جوانبها بتماثيل سباع ,كما هو الحال في مداخل كوبري قصر النيل حاليًا ,وقد أنشأ هذه القنطرة ركن الدين بيبرس البندقداري«ت: ٦٧٣», وقد تم ردم هذا الجزء من الخليج وزالت القنطرة فاتسع الشارع بعد عدة قرون ,وظهر مسجد السيدة, وسمي المكان ميدان السيدة زينب.

إن كُتب العبيدلي الأخرى مثل أخبار المدينة، وكتاب النسب لم تشر لما نسب إليه في وريقات رسالته أخبار الزينبيات، وكثير من المؤلفين نقلوا عن كتبه كثيرًا كأبي الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبيين، وشيخ الشرف العبيدلي في تهذيب الأنساب، وابن طقطقي في النسب الأصيلي، والنسابة العمري في المجدي، وأكثرهم تعرض لترجمة زينب الكبرى ولكن لم ينقل أحد عنه أنها ذهبت إلى مصر وماتت بها.

الخلاصة: مشهد السيدة زينب المعروف هو قبر مختلق تأسس بعد وفاتها بما يقارب ألف سنة بناء على حلم رآه علي الخواص، وروج له الشعراني، وتحمس له أصحاب المصالح، وشيدت ضريحه أموال البسطاء، وركبوا له العمامة الكبيرة ووضعوا فيه صناديق النذور، حتى تدور عجلة الحياة على أبواب الوهم. أما رئاسة الديوان، وحكم الدين في الأضرحة وما يدور حولها من منكرات، وباقي قائمة المشاهد الكاذبة والمختلقة قيطول شرحها، وأهم عناصر هذه القائمة هو ضريح رأس الحسين رضي الله عنه، الذي كتبنا حوله مقالتين أثبتنا فيهما عدم وجود رأسه في المسجد المعروف أمام مسجد الأزهر، والله المستعان، ومن أراد مزيدا من البيان فليرجع إلى كتابنا القول الصريح عن حقيقة الضريح.

والله الموفق.

عزاء واجب

توفي إلى رحمة الله الأخ / عبد السلام الحطاب نائب رئيس قرع دمياط يوم الخميس ٢٠٠٧/٥/١٧ من مواليد ١٩٤٦/٧/١٣م.

وجماعة أنصار السنة المحمدية وأسرة تحرير مجلة التوحيد تدعو الله سبحانه أن يتغمد الفقيد بواسع رحمته، وأن يرحمه رحمة واسعة.

يا رئيسة الديوان (٢)

□□ الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

قدمنا في المقال السابق الدليل على أن السيدة زينب رضي الله عنها لم تدخل مصر، وأنه لا علاقة لها بالضريح المختلق المنسوب إليها، والأخطر من هذه الحقيقة التاريخية، التي يرفضها أصحاب الحصص في صناديق النذور، والأهم الذي لا يستطيعون إنكاره هو تبرئة السيدة زينب من اعتقاد أحبابها برئاستها للديوان، فهذه فرية كبرى لم يحاول أحد أن يسأل نفسه عن حقيقة الديوان وأهدافه، فالصوفية يؤمنون أن الله تبارك وتعالى منح أقطابهم ومشايخهم وأولياءهم صلاحيات إدارة الكون وفوضهم في اتخاذ ما يرونه من قرارات لتصريف شئون الكون في ديوان التصريف على المستوى المركزي العالمي كما تمنح الإدارات المحلية صلاحيات موزعة على مشايخ وأضرحة كل بلد ويحصل الصوفي على مدد الأحياء بالتوسل إليهم، أما الأموات فبزيارة أضرحتهم، والنذر لهم.

ديوان التصريف: يروي الشعراني في طبقاته، قول عبد الله التستري: «ما من ولي لله صحت ولايته إلا ويحضر إلى غار حراء بمكة المكرمة. في كل ليلة جمعة».للنظر في أمور الكون، وتصريف أحواله نيابة عن الله عز وجل، ولهم أيضا اجتماع يومي في الثلث الأخير من الليل، وهي ساعة استجابة الدعاء، وساعة ميلاد رسول الله ﷺ □□

وصف الديوان

يتكون من سبع دوائر متحدة المركز، يقول عبد العزيز الدباغ صاحب كتاب الإبريز- وهو مالكي المذهب- يجلس القطب الغوث في صدر الصف الأول من الديوان، وأربعة أقطاب عن يمينه، وهؤلاء الخمسة مالكية المذهب، وعن يساره ثلاثة أقطاب، واحد من كل مذهب من المذاهب الثلاثة، والوكيل في مواجهة الغوث، وهو مالكي أيضا، ولا يتكلم الغوث إلا مع الوكيل، ولذلك سمي وكيلا؛ لأنه ينوب في الكلام عن جميع من في الديوان، والتصرف للأقطاب السبعة عن أمر الغوث، وكل واحد من الأقطاب السبعة تحته عدد مخصوص يتصرفون تحته، لاحظ تحيز الدباغ للمذهب المالكي، فقد منحهم ستة مقاعد في الصف الأول، ولم يعطِ بقية المذاهب إلا مقعدا واحدا لكل منهم، فالرجل

إعداد/
محمود المراكبي

مالكي متعصب.

لغة الديوان هي السريانية: لاختصارها، وجمعها المعاني الكثيرة: ولأن الديوان يحضره الأرواح والملائكة، والسريانية هي لغتهم، ولا يتكلمون بالعربية إلا إذا حضر النبي ﷺ أدبا معه.، والغرض من الاجتماع: الاتفاق على ما يكون من ذلك الوقت إلى مثله من الغد، فهم يتكلمون في قضاء الله تعالى في اليوم المستقبل، والليلة التي تليه، ولهم التصرف في العوالم كلها السفلية والعلوية، وحتى في الحجب السبعين، وحتى ما فوق الحجب السبعين، فهم يتصرفون فيه- حسب زعمهم- وفي أهله، وفي خواطرهم، وما تهجس به

إن الأولياء يتصرفون في أمور تطيق ذواتهم الوصول إليها، وفي أمور أخرى لا تطيق ذواتهم الوصول إليها فيستعينون بالملائكة والجن فيها !!

ضمائرهم، فلا يهجس في خاطر واحد منهم شيء إلا بإذن أهل التصريف، وإذا كان هذا في عالم ما فوق الحجب السبعين التي فوق العرش، فما ظنك بغيره من العوالم؟!.

كيف يجتمعون؟

ينزل الأموات من البرزخ، ويطيرون طيرا بطيران الروح، فإن قربوا من موضع الديوان بنحو مسافة نزلوا إلى الأرض، ومشوا على أرجلهم، إلى أن يصيروا إلى الديوان، والميت يحضر بذات روحه، لا بذاته الفانية الترابية.

الاجتماع السنوي: (الجمعية العمومية) ويحضره الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، مثل: إبراهيم، وموسى، وغيرهما من الرسل، ويحضره الملأ الأعلى من الملائكة المقربين، وأزواج النبي ﷺ، وأكابر صحابته رضوان الله عليهم. والأولياء، الأحياء والأموات، والملائكة وهم من وراء الصفوف، والجن الكمل، وهم الروحانيون، وهم من وراء الجميع، وهم يبلغون صفا كاملا، وليس كل من يحضر الديوان من الأولياء يقدر على النظر في اللوح المحفوظ، وموعد الاجتماع: في ليلة القدر.

حضور النبي ﷺ الديوان

حيث يجلس في موضع الغوث، ويجلس الغوث في موضع الوكيل، ويتأخر الوكيل للصف، وإذا جاء النبي ﷺ جاءت معه الأنوار التي لا تطاق، وإنما هي أنوار محرقة قاتلة لحينها، وهي أنوار المهابة والجلال، وكلامه ﷺ مع الغوث، فالأمر الذي ينزل من عند الله لا تطيقه ذات إلا ذات النبي ﷺ، وإذا خرج من عنده ﷺ لا تطيقه ذات إلا ذات الغوث، ومن ذات الغوث يتفرق على الأقطاب السبعة، ومنهم يتفرق على أهل الديوان. وإذا حضر النبي ﷺ في الديوان، بادرت الملائكة من أهل الديوان، ودخلوا في نوره ﷺ، فما دام النبي ﷺ في الديوان لا يظهر منهم ملك، فإذا خرج من الديوان رجع الملائكة إلى مراكزهم.

غياب الغوث وديكتاتورية الأغلبية

قد يغيب الغوث عن الديوان فلا يحضره، فيحصل بين أولياء الله تعالى ما يوجب اختلافهم، فيقع فيهم التصرف الموجب لأن يقتل بعضهم بعضا، فإن كان غالبهم اختار أمرا، وخالف الأقل من ذلك، فإن الأقل يحصل فيهم التصرف السابق، فيموتون جميعا.

والغوث يغيب

إما لاستغراقه في مشاهدة الحق سبحانه، وإما لكونه في بداية توليته بعد موت الغوث السابق، لذا فإنه قد لا يحضر في بداية الأمر حتى تأتنس ذاته شيئا فشيئا.

حضور النبي ﷺ في غياب الغوث

يحصل لأهل الديوان من الخوف والجزع، من حيث يجهلون العاقبة من حضور النبي ﷺ ما يخرجهم عن حواسهم، حتى أنه لو طال ذلك أياما كثيرة لانهدمت العوالم.

لم يحضر الجن والملائكة

إن الأولياء يتصرفون في أمور تطيق ذواتهم الوصول إليها، وفي أمور أخرى لا تطيق ذواتهم الوصول إليها، فيستعينون بالملائكة والجن فيها.

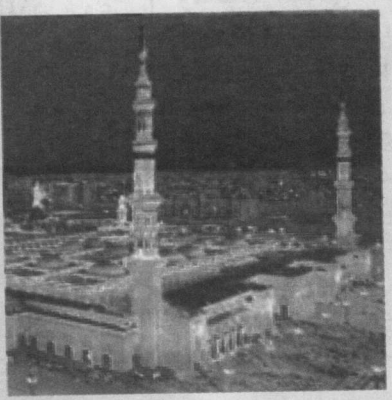

هل يحضر نساء في الديوان

نعم، يحضره النساء، وعددهن قليل، وصفوفهن ثلاثة، وذلك من جهة الأقطاب الثلاثة التي على اليسار خلف الصف الأول.

سبب قيام الساعة (عندهم):

زعم الدارويش أن السيدة زينب رئيسة الديوان يعني أنها المتصرفة في شئون مصر أو البقيع، وأن الله قد أناب السيدة زينب في إدارة شئون البلاد والعباد. فإن لله وإنا إليه راجعون.

لا دخل للمجاذيب في الديوان، ولا بأيديهم تصرف، وإذا بلغ إليهم التصرف هلك الناس، فإذا كان كبير الديوان (أي الغوث) منهم، وليس معه عقل تمييز، فيقع الخلل في التصرف، ويكون ذلك سببا في خروج الدجال.

إن زعم الدراويش أن السيدة زينب رئيسة الديوان يعني أنها المتصرفة في شئون مصر كلها، والأمر في حقيقته ليس دفن السيدة زينب في مصر أو البقيع، وإنما مدار الأمر في تسليم عامة زوار الضريح بأن الله تعالى قد أناب عنه السيدة زينب في إدارة شئون البلاد والعباد، وإذا أعلمتهم بخطورة عقيدتهم، قالوا لك إن هذا التصريف يكون بإذن الله، وهم لا يعلمون أن الدباغ يزعم أن أهل الديوان يتصرفون في جميع العوالم، بل ويتصرفون في الحجب السبعين التي فوق العرش.

الحكومة الباطنية، وهلوسة في رسالة دكتوراه

ومن أغرب الكتب التي اطلعت عليها، كتاب الحكومة الباطنية الذي ألفه دكتور في الفلسفة الإسلامية، اتضح له من خلال البحث الميداني أن عدد الأولياء بمدينة طنطا نفسها ثلاثة وثلاثون وليا.. يختص كل منهم بكرامة معروفة، ويمتاز بها عن غيره من الأولياء، منهم:

البدوي: «برغم وجود ضريح البدوي بالمنطقة، فإن هذا لا يمنع الناس من الاعتقاد في أتباعه، ووزرائه من الأولياء، وعلى العكس من ذلك تماما، فإن مريدي البدوي في اعتقاد العامة أيسر في استجابة الطلبات، وفي حل المشاكل، ونصرة المظلوم، وفك المربوط، لأن البدوي في اعتقادهم قطب عظيم (وآن مدده عال)، وأنه للوصول إليه يتطلب شفاعة بعض أنصاره، وأتباعه.

عبد العال الأنصاري: هو خليفة (البدوي)، وواسطته، والشفيع لديه، ولذلك فإن الناس الذين يزورون ضريح البدوي، لا يفوتهم قراءة الفاتحة، وزيارة ضريحه الموجود بجامع البدوي، بل وطلب حاجتهم منه، باعتباره خليفة البدوي، وتلميذه، ونائبه.

عز الرجال: مشهور عنه شفاء أمراض الأطفال، ولذلك تأتي إليه النساء من كل حدب وصوب، حاملات أطفالهن المرضى بغية الشفاء، وهو معروف عنه شفاء الأطفال من المس الروحي، وغيره من الأمراض العصبية، وهو مغربي الأصل، ويقام له مولد، ويزار، وتزداد شهرته سنة بعد أخرى.

مرزوق: من أهل النجدة، ومن كراماته أنه لا يقصده مظلوم إلا وينصره، وكثير من النساء يذهبن بعد صلاة الجمعة إلى مقامه، ويقمن بكنس الضريح على الظالم، وهذا يعني كنسه من الدنيا.

محمد البهي: كان عارفا بعلم الحرف، ودعوته مستجابة، يقال: إن مسجده الحالي ما زال يصلي فيه البدوي حتى الآن.

علي الحاملي: مشهور عنه زواج العانس، ولذلك يردد الزوار (من النساء طبعا) قولهم: «سيدي يا حاملي، جوزني وأنا أجيب لك شمعة طولي».

أحمد البابلي (الذي كان مقرئا في حضرة البدوي): يشتهر عنه نصرة المظلوم، ويردد الزوار: «يا بابلي كن باب لي» (أي بابا له إلى مقام البدوي).

يونس: يشتهر عنه «ماضيها» بقضاء الحوائج، ويظهر ذلك في التعبير الشائع بين الناس: «يا

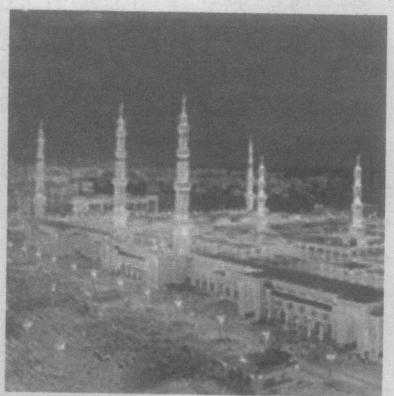

ماضيها اقضيها».

محمد رمضان: كان من الأبدال فيظهر في أكثر من مكان في وقت واحد، وكان يشفي الأمراض، ويحضر الفاكهة في غير أوانها، ويكشف الحجاب، ويفرج الكرب عن المكروبين.

محمد أبو شوشة: مكشوف عنه الحجاب، وعنده القدرة على شفاء المرضى، وإدخال الرضا، والراحة النفسية في قلوب المتصلين به، وذلك عند مجالسته، أو ملازمته، ويشتهر عنه عطفه، وبره على الفقراء.

الشيخة صباح من كراماتها الكثيرة شفاء المرضى خاصة النساء من العقم، وإحضار الفاكهة في غير أوانها، وتلقين المريدين الطريق إلى الله، وإظهار خوارق العادات، وأنها كانت ترى في الحج في مكة والمدينة، وهي في طنطا، لم تبارحها.

كما يذكر مؤلف الحكومة الباطنية بركات الشيخ أحمد الحجاب، ثم يذكر بركات البدوي على التجار، والزراع من أهل المنطقة» ويصل إلى نتائج عجيبة، يعرضها بسذاجة شديدة، كأنها مسلمات في دين الله تبارك وتعالى، فتراه يقول: «أما قواعد الدولة الباطنية، فثابتة لا تحتمل التناقض، ولا يأتيها الفساد والتغير؟ لأنها مستمدة من القرآن الكريم، والسنة المحمدية، فهي قواعد صالحة لكل زمان ومكان، وأصحابها يستمدون وجودهم منها، ومن ثم كانوا طبقة خاصة أرستوقراطية، ليس بينهم إلا مؤمن صالح، ومريد صادق، وسالك تائب، وولي عارف».

الموالد مواسم ارتكاب الموبقات

إن عقلاء الصوفية يستنكرون ما يحدث في الموالد، ويريدون أن تتوقف تلك المهازل الأخلاقية ودعاوى الثقافة الجماهيرية التي تنتشر في الموالد، أما المدافعون عنها فأسبابهم لا تخفى، فما يدره عليهم صندوق النذور أصبح وسيلة السدنة والخلفاء وباقي طابور المنتفعين، للثراء السريع حتى أن وزارة الأوقاف المصرية لم تنجح في تقليل نسبة ما يحصل عليه هؤلاء، فما بالك إذا أقدم أحد على إلغاء الأضرحة والموالد؟

وصدق شاعر النيل حافظ إبراهيم حين قال:

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم
وبألف ألف ترزق الأموات
من لي بحظ النائمين بحفرة
قامت على أحجارها الصلوات
يسعى الأنام لها، ويجرى حولها
بحر النذور وتقرأ الآيات
ويقال: هذا القطب باب المصطفى
ووسيلة تُقضى بها الحاجات

كما أن الموالد تدر دخلا اقتصاديا كبيرا لأصحابها من العوالم والراقصات، والمنشدين، والمطربين الشعبيين، ولاعبي الأكروبات، وأهل السيرك، والمحلات التجارية، والمطاعم، وأصحاب الشقق المفروشة، كما يتجمع في الموالد العاطلون، والمجاذيب، وطلاب المتعة المحرمة، بل وتجار المخدرات، ولاعبو القمار، وبهذا أصبحت احتفالات فولكلورية، ليس لها أي مضمون شرعي، والدليل هو تلك الحضرات التي يقيمها الصوفية على هامش أعمال المولد، حيث يجتمع أبناء كل طريقة، ويأخذون مساحة صغيرة للغاية لكثرة الطلب على الساحات من أبناء الطرق، ويقيم كل شيخ ما يسمى بالخدمة، ويعين أحد الأحباب لخدمة الزائرين للضريح من أبناء الطريق طوال مدة المولد، وتجد كل جماعة تستأجر الميكروفونات لإذاعة الحضرات وخطب الشيخ، فإذا ذهبت إلى هناك وجدت ضجيجا يختلط فيه أصوات المنشدين بقارئي الأوراد مع أصوات الذاكرين بخطب المشايخ، مع أصوات الباعة، والمروجين للفنون، وغيرهم، فأين الدين من ذلك؟! إن هذا الكم من الضجيج يعده أصحاب العلم الحديث نوعا من أنواع التلوث البيئي، فما بالك باختلاط الرجال والنساء في الحضرات؟!

لا شك أن حجم الضلال والبهتان في موضوع الديوان، والمملكة الباطنية أكبر مما يظن أتباع الصوفية، فالكون عندهم يدار بتصريف القطب وأتباعه، والقيامة تقوم إذا تولى تصريف الكون مجذوب لا يدري من أمر نفسه شيئا، والمجذوب لا يأمنه عاقل على بضاعة يبيعها للناس، فكيف يتولى تصريف شئون الكون، فيقع الخلل، ويخرج الدجال، وتقوم الساعة.إن إقحام اسم السيدة زينب رضي الله عنها في هذه المهالك العَقَدية يمثل أكبر إساءة تقدم بدعوى الحب والتشيع لها، فمن الحب ما قتل، سبحانك ربنا هذا بهتان عظيم.

الصيانة الربانية

إعداد / محمود المراكبي

أظهر العلم الحديث أن ما نراه من أشياء في الحياة الدنيا، هو مظاهر متباينة للطاقة، وأن الحركة في الكون لا تنشأ إلا عن عملية احتراق، والاحتراق ظاهرة لا تحتاج إلى دليل، فكل ما في صفحة الكون في حال احتراق، فألسنة اللهب تتطاير مئات الكيلومترات من الشمس، وضوؤها يصل لنا فيبعث فينا الطاقة، والطاقة ملازمة لموج البحار وحركة الرياح، حتى الشجر الأخضر وعملية التمثيل الكلوروفيللي التي يقوم بها، ينتج عنها غاز الأكسجين الذي هو أساس عملية الاحتراق، وصدق الله العظيم القائل في كتابه الكريم: (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا فإذا أنتم منه توقدون) (يس ٨٠)، ولابد للإنسان من الطاقة وعملية الاحتراق حتى يسعى في الأرض، وقد عرف الإنسان منذ القدم الحاجة إلى الطعام، وقد أظهر الطب الحديث أن الطعام لا يمد الإنسان بالفيتامينات والمعادن والأملاح فقط، وإنما يمده أيضًا بالسعرات الحرارية، وعندما درس العلماء صنوف الطعام والشراب، علموا مقدار الطاقة التي يقدمها كل منها، وبالتالي تحولت عملية هضم الطعام إلى احتراق يحول الطعام إلى سعرات حرارية ويستخلص منه ما ينفع الجسم من الفيتامينات وغيرها.

ومن البديهي أن أهم المهام التي يتولاها مصممو الأجهزة والآلات والماكينات التي تتعامل مع الطاقة بأي صورة من صورها، أن يجعل لها أنظمة تبريد وتشحيم، سواء أثناء حركة الآلة نفسها أو في فترات الصيانة الدورية، وكلنا نعلم أن السيارات والطائرات والقطارات والسفن وغيرها تدفعها المحركات، ولابد للأجزاء المتحركة من زيوت معينة، وبنقاوة ولزوجة محددة، حتى تحافظ على معدلات أدائها، وأي خلل في عملية التبريد هذه تصيب الآلة بأعطال وخلل في أداء وظيفتها، وكل صانع يضع مواصفات أنظمة التبريد لما يبتكره من آلات.

فيا ترى ما التبريد الذي يحتاجه الإنسان حتى تكون حركته في الحياة الدنيا على أمثل صورة؟

إننا دائما نتوجه بمثل هذا السؤال إلى علماء النفس أو الأطباء أو غيرهم، وهم من خلال علمهم وأبحاثهم يقدمون العديد من الإجابات، فهل فكرنا في أن نطرح هذا السؤال نحو خالق الإنسان؟

إذا أردت أن تعرف الإجابة فعليك أن تتوقع وجود نظامين للصيانة والتبريد أحدهما ملازم لحركة الإنسان اليومية في الحياة، والثاني صيانة دورية سنوية تتجدد فيه أجهزة الاحتراق، لتعود إلى حالة التشغيل الأمثل، و الضبط الشامل لكل الأجزاء.

أولاً: الصيانة المصاحبة للحركة اليومية

دعنا نتأمل حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي يرويه عن النبي ﷺ حيث يقول: «تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الفجر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الظهر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم العصر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم المغرب غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم العشاء غسلتها، ثم تنامون فلا يُكتب عليكم شيء حتى تستيقظوا».(١)

إن تكرار كلمة احتراق عشر مرات في الحديث ليست مصادفة، وإنما هو أسلوب تأكيد تعرفه العرب، فالاحتراق الأول منذ استيقاظ المسلم من نومه حتى صلاة الفجر، يغسله الوضوء الأول لصلاة الفجر، والمراد هنا التبريد، بمعناه المعاصر، واحتراق المرء في حياته إما أن يثمر طاعة الله تعالى في قلبه، أو يثمر معصية ينكت

في قلبه سواد على قدر ذلك الذنب، والوضوء لا يغسل الجوارح ويلطف من درجة حرارة الأعضاء فقط، وإنما يزيل سواد المعصية، ويستبدله بضياء المغفرة، فالأطباء وعلماء النفس وغيرهم سيغفلون دور الشيطان في عملية الاحتراق ودورة التبريد اللازمة لها، وعندما نرجع إلى الوحي يتبين لنا أمور جديدة، يقول رَسُول اللَّهِ ﷺ فيما يرويه أَحْمَد في مسنده وأبو داود في سننه: «إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خُلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ».(٢)

ويحلل الأطباء ظاهرة الغضب أن سببًا ما أدى إلى ارتفاع ضغط الدم، ولا يدركون أن الشيطان الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، قد وسوس للغضبان في عقله ونفسه، ودفع طاقة زائدة في دمه، فظهرت أعراض ارتفاع ضغط الدم، وعلاج هذا العرض عند الأطباء حبوب تخفض ضغط الدم، وهذا جيد، ولكن الداء الحقيقي علاجه في الوضوء الذي يعادل الطاقة الزائدة ويحدث تبريدًا سريعًا، فيسبب انخفاضًا في درجة حرارة أعضاء الوضوء، ومن ثم تضيق الشُعيرات الدموية المعرضة لماء الوضوء، وبالتالي تقل الدماء التي تصلها، وتُطفئ ثورة الشيطان في عروق ابن آدم، وتضيق عليه مجرى العروق، فيقضي على الداء وأعراضه معًا. فالوضوء إذن له دور هام في عملية الاحتراق، وقد أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رَسُول اللَّهِ ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم، فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه، خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقيًا من الذنوب».(٣) إن الوضوء فقط هو الطهور الحقيقي للمثول بين يدي الله ومناجاته.

وفي الحديث الشريف: «الطهور شطر الإيمان».(٤) فما بالك بالصلاة؟ وهي أشرف مناجاة بين العبد وربه، فرضها الله تعالى على نبيه من فوق سبع سماوات، ولهذا من أداها يتلقى خلالها نور الهداية والتوفيق من الله تعالى، فيضيء قلبه في الدنيا ويُحشر يوم القيامة ووجهه كالبدر يوم تمامه، أما من يحترق طوال يومه حائرًا بين المعاصي، ضائعًا في دروب النفس والشيطان والهوى، يتردى بين الكبر والخُيلاء، والظلم والاستبداد والحسد والحقد والبغضاء، فإن قلبه في الدنيا مُغلف بسواد المعصية ويُحشر يوم القيامة مع من قال فيهم الحق تبارك وتعالى ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ﴾ [الزمر آية ٦٠]

وفي الحديث الشريف الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر:«يا بلال، حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام؟ فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة، قال: ما عملت عملا أرجى عندي أني لم أتطهر طهورًا في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي».(٥)

ويروي مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أيضًا أن رَسُول اللَّهِ ﷺ قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رَسُول اللَّهِ، قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط».(٦) والمراد هنا الجهاد في سبيل الله، فجهاد النفس والشيطان يكونا بدوام الطهارة وإسباغ الوضوء، وحب الصلاة والمداومة عليها من أعظم الإيمان، فالصلاة عماد الدين، ومن أقامها أقام الدين واستعمل الأسلوب الرباني في صيانة الكيان الإنساني، وضمن أن يُبعث يوم القيامة ونوره يسعى بين يديه.

ثانيا: الصوم أفضل صيانة سنوية للإنسان

كتب علينا الصيام كما كتب على الذين من قبلنا، فبدلت الأمم أحكام الصيام، وحافظ عليها المسلمون كما أداها النبي وأصحابه، وكانت معظم شعوب الدنيا، ترى أن الصيام هو الوسيلة الطبيعية للشفاء من كثير من الأمراض. وقد انتبه الحكماء قديما وحديثا لفوائد الصيام فقد أوصت مخطوطات حكماء الإغريق. ومنهم سقراط وأفلاطون وأرسطو وجالينوس وأكدوا أن الصوم هو الطريق الطبيعي للشفاء من الأمراض، والأطباء يجدون في العصر الحديث دعوتهم إلى الصيام بعدما رأوا النتائج المبهرة التي يقدمها هذا الصوم للإنسان في مواجهة مختلف الأمراض. حتى إننا نجد اليوم على شبكة الإنترنت مواقع ومجلات بأكملها خاصة بالصوم، مثلاً موقع الصوم www.fasting.com

إن الدواء لكثير من الأمراض موجود في داخل كل منا، فجميع الأطباء يؤكدون اليوم أن الصوم

ضرورة حيوية لكل إنسان حتى ولو كان يبدو صحيح الجسم، فالسموم التي تتراكم خلال حياة الإنسان لا يمكن إزالتها إلا بالصيام والامتناع عن الطعام والشراب. يقول أحد الأطباء: يدخل إلى جسم كل واحد منا في فترة حياته من الماء الذي يشربه فقط أكثر من مئتي كيلو غرام من المعادن والمواد السامة كل واحد منا يستهلك في الهواء الذي يستنشقه عدة كيلوغرامات من المواد السامة والملوثة مثل أكاسيد الكربون والرصاص والكبريت. إن الحل الأمثل لاستئصال هذه المواد المتراكمة في خلايا الجسم هو استخدام سلاح الصوم الذي يقوم بصيانة وتنظيف هذه الخلايا بشكل فعال، وإن أفضل أنواع الصوم ما كان منتظماً. ونحن عندما نصوم لله شهراً في كل عام إنما نتبع نظاماً ميكانيكياً جيداً لتصريف مختلف أنواع السموم من أجسادنا.

ثالثا: الصوم أقوى سلاح للاضطرابات النفسية

من أغرب الأشياء التي لفتت انتباهي في الصوم قدرته على علاج الاضطرابات النفسية القوية مثل الفصام!! حيث يقدم الصوم للدماغ وخلايا المخ استراحة جيدة، وبنفس الوقت يقوم بتطهير خلايا الجسم من السموم، وهذا ينعكس إيجابياً على استقرار الوضع النفسي لدى الصائم.

حتى إن الدكتور يوري نيكولايف Dr. Yuri Nikolayev مدير وحدة الصوم في معهد موسكو النفسي قد عالج أكثر من سبعة آلاف مريض نفسي باستخدام الصوم، حيث استجاب هؤلاء المرضى لدواء الصوم فيما فشلت وسائل العلاج الأخرى، وكانت معظم النتائج مبهرة وناجحة! واعتبر أن الصوم هو الدواء الناجع لكثير من الأمراض النفسية المزمنة مثل مرض الفصام والاكتئاب والقلق والاحباط.

رابعا: الصوم: يخفض الشهوة الجنسية

إن إنتاج الهرمون الجنسي يكاد يكون معدوماً أثناء الصوم، وهذا ما حدثنا عنه الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بقوله: (فعليه بالصوم فإنه له وِجاء). والوِجاء هو رضّ عروق البيضتين فيكون شبيهاً بالخصاء في هذه الكلمة إشارة قوية وعلمية لانخفاض شهية الصائم الجنسية بسبب انخفاض هرمون الجنس عنده حتى الحدود الدنيا.

خامسا: صيام المتقين

إن هدف الصوم كما حدده القرآن الكريم هو الوصول إلى مقام التقوى، فقد ختم آية التكليف بالصيام بقوله تعالى: (لعلكم تتقون)، وفي السُنة المطهرة نجد للصوم دوره البارز في خفض تأثير الشيطان على ابن آدم، فشهر رمضان بمثابة معركة بين الإنسان وأعدائه الألداء من الشياطين وأعوانهم، فالصيام من العبادات القليلة التي لا مجال للرياء فيها، وكان إغلاق أبواب جهنم، وفتح أبواب الجنان، وتصفيد الشياطين، كل ذلك من عون الله تبارك وتعالى للعبد، وتيسيره له حتى يخلص في عبادته، ولابد للمرء من جهد يبذله، وعمل صالح يقدمه، والصوم يحاصر الشيطان ويضيق عليه مجاري العروق، فيحد من تأثيره على أعضاء جسد الإنسان، ووسوسته الخبيثة على نفسه، فشهر رمضان يمثل حصارًا مستمرًا على الشيطان، ولو أداه ابن آدم كما ينبغي، ولم يُحرم الطعام والشراب فقط، بل توقف عن الغيبة والنميمة، وأكل الربا، والخوض في الأعراض، وأكل السحت والمال المكتسب من الرشوة والحرام، وشهادة الزور، وقول الباطل، والانسياق وراء المفاسد والشهوات، وتجنب المنكرات، وسارع إلى الخيرات، فما بالك لو صاحب الصيام، طول القيام، مع تلاوة خالصة للقرآن، يعيش خلالها في رياض الذكر الحكيم، وقصص أنبياء الله الصالحين القانتين، فيشارف على منازل الشهداء والصديقين. إن الامتناع عن الطعام والشراب طوال شهر كامل يحقق صيانة سنوية للجهاز الهضمي مع التضييق على الشيطان وحركته في العروق، ويعرج بالروح إلى بلاد الأفراح، فتشتاق الأرواح إلى دار السعادة في مقعد صدق عند المليك المقتدر، فاللهم وفقنا لطاعتك في هذا الشهر الفضيل، وما بعده من أيام عمرنا، ومتعنا بأسماعنا وقوتنا أبدا ما أبقيتنا، واجمعنا مع حبيبك ومصطفاك في الدنيا والآخرة، وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وكل عام وأنتم بخير

الهوامش

١- حديث عبد الله بن مسعود أخرج الإمام الطبراني في المعجم الأوسط حديث ٢٢٢٤، وفي المعجم الصغير، وذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد في ترجمة أحمد بن علي بن الحسن، أبو صقر الضرير.

أخرجه أحْمَد حديث ١٧٣٠٢ في مسند الشاميين، وأبو داود في سننه حديث ٤١٥٢ كتاب الأدب.

٣- أخرجه مسلم حديث رقم ٣٦٠ كتاب الطهارة

٤- أخرجه مسلم حديث رقم ٣٢٨ كتاب الطهارة

٥- أخرجه البخاري حديث رقم ١١٤ كتاب الجمعة

٦- أخرجه مسلم حديث رقم ٣٦٩ كتاب الطهارة

النقض العقلي لعقيدة الشيعة

يحرص كثير من علماء آخر الزمان على نفي وجود خلاف بين السُّنَّة وبين الشيعة، ويستند بعضهم على فتوى الشيخ شلتوت التي يقول فيها يجوز التعبد على مذهب الإمامية الجعفرية، وشتان بين منطوق الفتوى المحدد بالعبادة، وبين حقيقة الخلاف بين السنة والشيعة في العقيدة، وهذا تدليس متعمد لا يليق بمقام العلماء، والمقام لا يسعنا لأن نبين مفردات هذا الاختلاف العقدي العريض والعميق؛ فمن السهل مجادلة أهل الكتاب، ومن الصعب جدا مجادلة الشيعة، فهم لا يقبلون أحاديثنا بتكفيرهم للصحابة، ونحن لا نقبل مئات آلاف من الأحاديث التي وضعها غلاة الشيعة في شأن الأئمة، كما أن عندهم مبدأ التقية، الذي يسمح لهم بتعمد الكذب بل وموافقة الخصم عند الاختلاف، ومن أراد أن يفهم طبيعة الخلاف فليقرأ كتابنا عن جذور الشيعة وجيش المهدي، وهو من أهم الكتب التي تبين عقيدة الشيعة؛ وفي نفس الوقت يظهر حقيقة ما يدور على أرض الرافدين، ولنتناول بصورة مجملة عقيدة الإمامية حول الإمامة الذي هو الركن السادس في عقيدة القوم.

إعداد/ د. محمود المراكبي

يؤمن الشيعة الإمامية الإثنا عشرية بأن هذه الرسالة جاء بها نبي، ولابد له من وصي يسمونه الإمام عندهم، وأن هذا الوصي لابد له من تنصيب إلهي، لأن له دورًا أساسيًا في فهم الدين وإبلاغه للعالمين، وهم يُعَرِّفون الإمامة بقولهم: «هي الزعامة في أمور الدين والدنيا، وهي نيابة عن الرسول ﷺ في حفظ شريعته من الزيادة والنقيصة، وإقامة الحدود، ودرء الفساد، وهي واجبة بعد النبي ﷺ؛ لئلا يضيع أمر الدين»، ويحدد علماء الشيعة مفهوم الإمامة بقولهم: «الإمامة منصب إلهي كالنبوة، فكما أن الله يختار من يشاء من عباده للنبوة، فكذلك يختار للإمامة من يشاء ويأمر نبيه بالنص عليه». (الشيعة في عقائدهم وأحكامهم: للسيد أمير محمد الكاظمي القزويني ٤٢).

وأن رسول الله ﷺ بلغ أمته بإمامة علي بن أبي طالب، وأخذ عليهم العهد والميثاق على مبايعة على قبل موته بشهرين تقريبًا، وبالتحديد يوم ١٨ ذي الحجة عام ١٠ من الهجرة، بعد حجة الوداع وأثناء عودته إلى المدينة عند غدير خم، إلا أن الشيخين أبا بكر وعمر قاما بمؤامرة لمنع علي من الخلافة، وأن الصحابة ارتدوا جميعًا عن الإسلام ما عدا ثلاثة فقط وأن الصحابة نكثوا عهدهم مع النبي حين بايعوا أبا بكر في سقيفة بني ساعدة، وأن أبا بكر وعمر قاما بحذف آيات وسور كاملة من القرآن الكريم لأنها تحض على الإمامة وتعدد فضائلها، حتى أن القرآن الذي نزل من السماء كان يبلغ سبعة عشر ألف آية، ولم يبق منه إلا قرابة الثلث فقط أي ما يزيد قليلا عن ستة آلاف آية هي جملة آيات المصحف المعروف بمصحف عثمان.

ويمكن بسهولة نقض هذه المعتقدات بصورة حاسمة كالتالي:

إن القول بهذه المؤامرة إساءة إلى الله عز وجل، وإساءة إلى رسول الله ﷺ، كما أنها تسيء إلى علي بن أبي طالب إساءة بالغة، ونتبين ذلك فيما يلي:

أولاً: إساءة الشيعة في حق الله تعالى

ليس من المعقول أن يسمح الحق تبارك وتعالى لأحد أن يفسد ترتيبه لرسالته الخاتمة، وكيف يتأتى أن يمنع نبي أرسله الله من إبلاغ رسالته لقومه، وعلى نفس المستوى لا يعقل أن يحجب إمام عن القيام بمهمة بيان الدين وتوضيح مراميه وأهدافه، وأن تظل الرسالة الخاتمة محرومة من مهمة الإمام منذ وفاة النبي وحتى دخول المهدي إلى السرداب والذي ينتظر أتباعه خروجه إلى اليوم، وما ذنب أجيال الإسلام المتتالية طوال أربعة عشر قرنًا حتى يحجب عنها المتمم لهذا الدين، وكيف تقوم لله حجة على المسلمين يوم القيامة والإمام غائب عنها؟ وإذا كان القرآن الكريم يقول للنبي ﷺ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فكيف لا تمتد العصمة للإمام والذي دوره أهم من دور النبي ﷺ، حتى يكتمل وحي الله إلى رسوله؟ قد يقبل العقل حدوث ذلك مع أي نبي من الأنبياء ومع أي قوم من الأقوام، أما حدوث ذلك الأمر في الرسالة الخاتمة فيستحيل عقلاً أن تظل رسالة الإسلام التي تحيا بين الناس وحتى قيام الساعة وهي ناقصة. وإذا كان أبو بكر وعمر حرما عليًا من النص الإلهي له بالإمامة، فتلك أكبر إساءة لله عز وجل، فكيف يكون النص الإلهي مع علي، ويمنعه من القيام بمهمته أبو بكر وعمر؟ أيستطيع بشر أن يوقف مشيئة الله وإرادته خاصة فيما يتعلق بالرسالة الخاتمة؟ ولماذا مكّن الله لنبيه حتى بلّغ الرسالة، وتخلى عن وصيه المكلف ببيانها؟ ثم كيف يقرب الله تبارك وتعالى أبا بكر وعمر من النبي ﷺ وفي علمه أنهما سيعطلان وظيفة الإمام؟ وإذا كانت الأمة قد عاشت أربعة عشر قرنًا من الزمان محرومة من وظيفة الإمام، فلا شك أنها وظيفة هامشية لا لزوم لها، لقد حمل أتباع هذا الدين رسالة نبيهم، وفتحوا بها الأمصار وسادوا الدنيا، ولم يوقف مسيرتهم أي أمر احتاج إلى مهمة من مهام الإمامة.

ثانيا: إساءة الشيعة في حق النبي ﷺ

أما إساءة الشيعة للنبي ﷺ فمن ناحيتين،

الناحية الأولى كون مطلبهم يخالف سنة النبي ﷺ، فرغبة الشيعة أن يملك آل البيت الممالك تخالف هدي النبي ﷺ، الذى رفض أن يكون ملكًا نبيًا، واختار أن يكون عبدًا رسولاً، وكان دائمًا يقول: «ما لي وللدنيا»، والقارئ لسيرة النبي ﷺ يرى بوضوح أن الدنيا لم تشغله طرفة عين، فمن أين جاءت رغبة آل البيت بحسب زعم الشيعة في الحكم وإدارة شئون الدنيا.

إن الأنصار بايعوا رسول الله ﷺ على نصرته وحمايته، وقد قبلوا شرط النبي أن لهم عند الله الجنة، واشترط عليهم عدم منازعة الأمر أهله، فكيف يكون موقف الأنصار أرقى من موقف آل البيت، الأنصار لم يطلبوا يومًا الإمارة، ومشكلة الشيعة طلبهم الإمارة لآل البيت والخروج على الحاكم، وشاء الله ألا تنجح واحدة من تلك المحاولات عبر التاريخ.

تزكية النبي ﷺ لتصرف الحسن رضي الله عنه

وهناك لمحة نبوية لم ينتبه إليها كثير من الناس، فقد كان الحسن والحسين رضوان الله عليهما فرسي رهان، ولهما من المنزلة في عهد الصحابة ما لا يدركها إلا الدارس للسيرة النبوية المطهرة وتاريخ الخلفاء الراشدين، تلك اللمحة حين زكى فيها النبي ﷺ الحسن وقال: «ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»، ذلك الصلح الذي خلع فيه الحسن نفسه، واتبع هدي النبي ﷺ وتنازل عن الإمارة، وهو عكس ما فعله الحسين رضي الله عنه وحارب لتحقيقه أيا كانت أسبابه. فالنبي ﷺ لا يريد لآل بيته الدنيا، ولا الملك ولا الخلافة ولا السلطان، ولما عرضت عليه الدنيا رفضها بزخارفها، وحين خيّره جبريل بين أن يجعل له جبال مكة ذهبًا، قال: «بل أجوع يومًا فأصبر لله وأشبع يوما فأحمد الله». إن الشيعة تحرم أبناء الحسن من الإمامة وتحصرها في أبناء الحسين، لأن الحسن عندهم مسود وجوه المؤمنين يوم أصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المؤمنين.

الناحية الثانية: اتهام النبي ﷺ بالتقصير في حق تولية علي من بعده

١- إنهم يقولون لك: إن النبي أبلغ الناس يوم غدير خم، ونحن نقول: أما كان الأجدر أن يعلن هذه الرغبة في تولية علي قبل ثمانية أيام فقط وهو يخطب يوم عرفة يوم الحج الأكبر، حتى ترسخ في عقول المسلمين ووجدانهم جميعًا، وهم مائة ألف صحابي الذين حجوا مع النبي ﷺ أن الخليفة علي بعد النبي ﷺ، وشتان بين بيان يعلن يوم الحج الأكبر، وبين آخر يعلن بين العائدين إلى المدينة من الحجاج، كأن الأمر لا يخص الأمة كلها، بل يخص أهل المدينة فقط.

٢- إذا قصّر النبي ﷺ في القيام بأي واجب من واجبات النبوة، يخاطبه ربه قائلا: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ

رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة]. فكيف يستساغ لذوي الألباب أن يظنوا أن النبي ﷺ قصّر في تثبيت الإمامة، ونحن نرى عبر الزمان الملوك والحكام يمهدون الحكم لأبنائهم من بعدهم، ولا يستطيع الرسول أن يمكّن لعلي؟

٣- يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب-٤٠].

شاء الله تبارك وتعالى أن يموت أبناء النبي الذكور في حياته، ولو كانت فكرة الإمامة مطلبًا إلهيًا، فلماذا يكون اللجوء إلى أبناء البنت، طالما الأبناء موجودون؟ أما كان أبناء النبي ﷺ الذكور أولى الناس بهذا التعيين الإلهي، تحقيقًا لفكرة الوصاية على الدين، وبالتالي تنتفي فكرة الوصاية؛ لأن مراد الله تعالى ومشيئته أن لا يعمر أبناء النبي ﷺ بعد وفاته، إن هذه الآية محكمة واضحة في أن الله لم يجعل أبناء النبي ملوكا من بعده، فكيف تزعم الشيعة أن أحفاده أبناء بنت النبي ﷺ هم الحكام من بعده.

٤- إن أكبر دليل على بطلان مزاعم الشيعة أن النبي ﷺ أمر أبا بكر بالصلاة أثناء مرضه، وكان يمكنه في فترات صحوه من مرض الموت أن يخطب الناس، ويعلن خلافة علي له، ويأمره أن يصلي بالناس، وما كان لأبي بكر ولا عمر أن يخالفوا أمره ﷺ في وضح النهار.

٥- وأدل من هذا الأمر، أن النبي ﷺ طلب أن يمرض في بيت عائشة، وبذلك مكّن لأبي بكر، فهو دائما مع النبي في بيت ابنته، ولو كان النبي ﷺ يريد أن يمكّن لعلي لطلب النبي ﷺ أن يمرض في بيت فاطمة، وكان البيتان متواجهين على خوخة تنتهي بباب في المسجد كان يخرج منه النبي ﷺ للصلاة.

٦- لقد خُيِّر رسول الله ﷺ بين أن يكون ملكًا نبيًا، أو عبدًا رسولاً، فاختار أن يكون عبدًا رسولاً، وهو بذلك يقدم الآخرة على الدنيا، ولو اختار أن يكون ملكًا نبيًا، لأصبح لورثته الحق في طلب الملك، أما طلب السلطان من ورثته، فيعد مخالفًا لاختياره ﷺ.

٧- يزعم الشيعة أن النبي ﷺ قد أوصى لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، فهناك دليل دامغ على بطلان هذا الزعم، ولن نقول تكليفه لأبي بكر رضي الله عنه بإمامة المسلمين في مرضه الأخير، وإنما في اختياره للموضع الذي يموت فيه، فالنبي ﷺ لا يموت إلا بعد أن يخير، ولما نزلت سورة النصر أيقن النبي ﷺ بقرب الأجل، ولما دارس جبريل القرآن الكريم مرتين في شهر رمضان، أدرك قرب وفاته، قبل حدوثها بعد أربعة أشهر تقريبا، فلم لم يختر- وعلى الملأ- أن يمرض في بيت فاطمة الزهراء ابنته وقرة عينه، ولو فعل ذلك لتولى بنو هاشم زمام الأمور كلها، ولزاره أصحابه في بيت فاطمة، ولسمعوا وصيته لعلي بن أبي طالب بين بني هاشم، ولاجتمع عندئذ بنو هاشم على قلب رجل واحد خلف علي، ولما تمكن الشيخان من اغتصاب الخلافة من الوصي.

ثالثا: إساءة الشيعة في حق علي

إن اتهام الشيعة لعلي أولا بالتقاعس عن المهمة الربانية التي كلفه الله بها، هو اتهام خطير، ثم بالخضوع والخنوع للمغتصب دون أن يجاهده في سبيل القيام بمهام الإمام، وهو الشجاع المقدام الجرار، صاحب السيف البتار.

والاتهام الثاني: أنه رضي بالدني وهو قبوله أن يجلس غيره في المجلس المعد له، لإقامة أمر الإمامة، فعاش ستة وعشرين سنة أو يزيد، وهو تارك لتكليف الله ورسوله له بالإمامة، ويدافع الشيعة أن عليًا كان يحرص على عدم إراقة الدماء، ولكنا نجد عليا قبل بالأمر الواقع، ورضي بأن يتنحى عن التكليف الرباني له، ولم يحاول تغيير هذا المنكر الشديد لا بيده ولا بلسانه، واكتفى بالإنكار بقلبه، وهذا أضعف الإيمان، وحتى الإنكار بقلبه لم يقم عليه دليل إلا فيما تزعمه الشيعة من مزاعم.

إن السير وراء اليهود في اعتقادهم بالوصي بعد النبي ﷺ، قد أوصل الشيعة إلى الإساءة لله عز وجل ولرسوله ﷺ، وللإمام نفسه، كما أوضحنا سالفا، فماذا بعد الحق إلى الضلال المبين.

حكم الردة في الإسلام

إعداد/ د. محمود المراكبي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد شاهدت حلقة للأستاذ/ جمال البنا عن حد الردة، والأستاذ/ جمال البنا يجاهر دائما بإنكار السنة النبوية، ويشرد به فكره إلى نتائج خارجة عما عليه الأمة، لذلك تجده ضيفا دائما على الصحف الصفراء والقنوات الفضائية لأنه ينشر الغريب والمثير، الأمر الذي يناسب رغبة تلك الصحف والقنوات في استقطاب المشاهدين، وهذا خطأ يحتاج إلى تصحيح، فالمفروض أن تختار القنوات الفضائية من العلماء العدول، وتبتعد عن أمثاله من أصحاب الأهواء والنزعات الغريبة فيكفينا ما نحن فيه من بلبلة وفتن.

وقد غابت الأدلة في حلقته عن حد الردة، وفرضت القناعات الشخصية والأهواء المريضة توجهاتها على الحوار، وضربت عرض الحائط بالأدلة والبراهين، وظهر في حلقته على أنه ليس في السنة دليل على حد الردة، وأنه لم يطبق في عهد النبي ﷺ ولا في عهد أصحابه الكرام، وهذا شيء عجيب، فالأدلة من السنة أكثر من أن تغيب عن أذهان الضيوف. كما أن المشكلة في هذه الحلقات أنها ليست على الهواء مباشرة وإنما هي تذاع بعد تسجيلها بعدة أيام، ولو أنك جربت معاناة الاتصال بأي قناة فضائية للمشاركة في أي برنامج يذاع مباشرة لعرفت أن رؤية الغول والعنقاء أيسر من تحقيق الاتصال المطلوب، فهناك حلقة من نفس البرنامج وعلى نفس القناة وكانت تناقش قضية التصوف، وتاهت الحقائق بين الضيوف، وقد حاولت جاهدا المشاركة دون جدوى.

من المهم أن ندرك أن اكتمال هذا الدين يوم حجة الوداع قام على أساس الإيمان والاتباع للكتاب والسنة، وما كان عليه فهم الصحابة والسلف الصالح لهما، فإذا ثبت وصح بالنقل الصحيح قضاء الله ورسوله في المرتد، يكون فتح الكلام في الموضوع من جديد خروجا عن نصوص الدين الكامل، فماذا بعد الحق إلا الضلال المبين، والمسلم يتساءل ما الذي يحدث هذه الأيام؟ كل الثوابت التي استقرت الأمة عليها من قرون، لماذا يعاد فتحها اليوم من جديد، هل نشجع المارقين عن الدين للكفر بالإسلام، أم نروج لمفاهيم الاستخراب الذي تصدره الولايات المتحدة، بدعوى رعايتهم للحريات الشخصية، هدفهم إزاحة المسلمين عن دينهم وعقيدتهم، ويستعملون عملاء علمانيين مفتونين بالحضارة الغربية، في إنكار ثوابت الدين تارة، أو الكراهية للإسلام كله، فتصبح قضايا ختان الإناث هي قضية الساعة، ويسارع ترزية التشريعات بتفصيل القوانين المُجَرِّمَة لمن يريد أن يطبق هذه السنة على يناته، فتراهم ينكصون عن مبدأ الحرية الذي ينادون به ليل نهار، ويفرضون علينا بقوة القانون ما أملته عليهم الولايات المتحدة الأمريكية، وهم اليوم يريدون أن يسمحوا للشيعة والبهائية والقديانية وكل الفرق الضالة أن يكون لها اعتراف، وأن تقام لها المساجد والمعابد، والاعتراف بفرقهم في البطاقات القومية، مع إفساح المجال لحملات التبشير النشطة وسط المسلمين، فيجدوا حد الردة سيفا على رقابهم، فيظهر أمثال الأستاذ/ جمال البنا ببدعة إنكار

السنة، ولم يعلموا أن النبي وأصحابه وسلف الأمة قد طبقوا الحد، وها هي الأدلة على ذلك.

أولا: الرسول يطبق حد الردة: فقد روي: أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ فَاجْتَوَوْهَا، فَبَعَثَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي إِبِلِ الصَّدَقَةِ، فَقَالَ: « اشْرَبُوا أَبْوَالَهَا وَأَلْبَانَهَا »، فَقَتَلُوا رَاعِيَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَاسْتَاقُوا الإِبِلَ، وَارْتَدُّوا عَنِ الإِسْلامِ، فَأُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِهِمْ، فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْ خِلافٍ، وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ، وَأَلْقَاهُمْ بِالْحَرَّةِ قَالَ أَنَسٌ: قَدْ كُنْتُ أَرَى أَحَدَهُمْ يَكْدِمُ الأَرْضَ بِفِيهِ حَتَّى مَاتُوا، وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ، أَنَّ هَذَا قَبْلَ أَنْ تُنْزَلَ الْحُدُودُ. يقول ابن القيم في زاد المعاد: إن النبي سمل أعينهم لما سملوا عين الراعي، والنبي ﷺ قطع أيديهم وأرجلهم حدا لله على حرابهم وإفسادهم، فقد تلقوا استضافة النبي لهم بالجحود والنكران، وسرقوا إبله واستاقوها إلى ديارهم، ولما كفروا بعد إسلامهم، تركهم في الشمس حتى ماتوا، وقد ظهر أن القصة محكمة، ليست منسوخة، وإن كانت قبل أن تنزل الحدود، والحدود قد نزلت بتقريرها لا إبطالها، وجعلت الحد القتل بالسيف.

ثانيا: الصحابة يطبقون حد الردة:

الصديق يقيم حد الردة: فقد قتل أبو بكر الصديق رضي الله عنه امرأة ارتدت بعد إسلامها يقال لها أم قرفة(١)، وعند البيهقي أن أبا بكر استتابها فلم تتب فقتلها مثلة.

عمر بن الخطاب يأمر بالاستتابة ثلاثا قبل إقامة حد الردة:فقد قيل له: رجل كفر بعد إسلامه، قال: ما فعلتم به؟ قالوا: قربناه فضربنا عنقه، قال: فهلا حبستموه ثلاثا،وأطعمتموه كل يوم رغيفا، واستتبتموه لعله يتوب، ويراجع أمر الله».(٢)

معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري يطبقان حد الردة: ورد في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى، أَنَّ رَجُلاً أَسْلَمَ، ثُمَّ تَهَوَّدَ، فَأَتَى مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَهُوَ عِنْدَ أَبِي مُوسَى، فَقَالَ: مَا لِهَذَا ؟، قَالَ: « أَسْلَمَ ثُمَّ تَهَوَّدَ، قَالَ: لاَ أَجْلِسُ حَتَّى أَقْتُلَهُ قَضَاءُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ(٣) إن معاذ بن جبل، وأبا موسى الأشعري يطبقان القتل كحد للردة في اليمن على رجل يهودي أسلم ثم ارتد، ولا مجال لمتنطع أن يصرف هذه الرواية عن مضمونها، وانظر إلى قوله قضاء الله ورسوله، لتعلم استقرار حد الردة في قلوب أصحاب النبي ﷺ

علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس يطبقان حد الردة: إن قوما من أتباع عبد الله بن سبأ زعموا أن عليَّ بن أبي طالب هو الله، فلما بلغه ذلك جمعهم واستتابهم ثلاثا ثم حفر لهم واوقد في الحفرة نارا ليخوفهم حتى يرجعوا عن كفرهم، فلما أبوا حرقهم وألقاهم فيها، والقصة يرويها البخاري في صحيحه فلما بَلَغَ ابْنَ عَبَّاس ذلك، فَقَالَ: لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحَرِّقْهُمْ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، قَالَ: لاَ تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ، وَلَقَتَلْتُهُمْ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ ».

إن ابن عباس أقر عليا على قتلهم ولكنه توقف في حرقهم بالنار لأن النار لا يعذب بها إلا الله. ولما عرف علي تعليق ابن عباس قال: وَيْحَ ابْنِ أُمِّ الْفَضْلِ، إِنَّهُ لَغَوَّاصٌ عَلَى الْهَنَاتِ، وأقر بأنه أخطأ بحرقهم.

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي آخِرِ خُطْبَةٍ خَطَبَهَا: « إِنَّ هَذِهِ الْقَرْيَةَ، يَعْنِي الْمَدِينَةَ، لاَ يَصْلُحُ فِيهَا مِلْتَانِ، فَأَيُّمَا نَصْرَانِيٍّ أَسْلَمَ ثُمَّ تَنَصَّرَ، فَاضْرِبُوا عُنُقَهُ

وفي حديث مشهور قارب حد التواتر رواه ثمانية من الصحابة: أبو هريرة، وعلي بن أبي طالب، وابن عباس، ومعاذ بن جبل، ومعاوية بن حيدة الأنصاري، وعبد الله بن عمر، والحسن بن علي بن أبي طالب، وزيد بن أسلم، وأرسله الحسن البصري، وورد ١٠٤ مرة في مصادر الحديث الشريف وفق استقصاء برنامج جوامع الكلم، وهو أول جمع حقيقي للسنة المطهرة، يقول النبي ﷺ : «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»، وفي رواية: «من رجع عن دينه فاقتلوه»، وفي لفظ: «من ارتد عن دينه فاقتلوه»، وفي لفظ: «من بدل دينه فاقتلوه»، هكذا جاءت النصوص بلا أي قيد أو شرط، وليس كما أوردتم أن حد المرتد قيدته روايات أخرى اشترطت: محاربة المرتد للمسلمين، فخصصتم الحد ولا يوجد في نصوص الأحاديث هذا التخصيص الذي دار حوله النقاش في حلقة الوسطية.

ثالثا: آثار التابعين حول الردة: خصص الإمام البخاري كتابا في صحيحه سماه استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، وكذا صنع كثير من مصنفي مصادر الحديث، ومنهم من ذكر حد الردة في كتاب الحدود، فالأمر مستقر طوال القرون الثلاثة الأولى التي سماها النبي خير القرون. كما كثرت أقوال التابعين عن حد المرتد، ولا خلاف بينهم على قتل الرجل المرتد، والخلاف بينهم حول المرأة المرتدة، وننقل جملة من آثار أعلام التابعيين حول حد الردة، ومنها:

عن طاوس قال: لا يقبل منه دون دمه، الذي يرجع عن دينه(٤).

عن إبراهيم النخعي في المرتد قال: يستتاب، فإن تاب ترك، وإن أبى قتل»(٥).

عن ابن شهاب الزهري أنه قال: يدعى إلى الإسلام ثلاث مرات، فإن أبى ضربت عنقه»(٦)

عن عطاء قال في الإنسان يكفر بعد إسلامه، يدعى إلى الإسلام، فإن أبى قتل»(٧).

عن ابن جريج أنه قال: أخبرني عمرو بن دينار في الرجل يكفر بعد إيمانه، قال: سمعت عبيد بن عمير يقول: يقتل»(٨).

رابعا: حكم الردة في المذاهب الأربعة

مذهب الأحناف: يقول القاشاني في بدائع الصنائع: « مِنْهَا - أي من أحكام المرتد- إبَاحَةُ دَمِهِ إذَا كَانَ رَجُلًا، حُرًا كَانَ أَوْ عَبْدًا ؛ لِسُقُوطِ عِصْمَتِهِ بِالرِّدَّةِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ ﴿مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ﴾. وَكَذَا الْعَرَبُ لَمَّا ارْتَدَّتْ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَجْمَعَتْ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى قَتْلِهِمْ »- بدائع الصنائع ١٥ / ٤٢١ .

مذهب المالكية: قال ابن عبد البر في الكافي في فقه أهل المدينة: «حكم المرتد ظاهرا، وحكم من أسر الكفر، أو جحد فرضا مجتمعا عليه، أو أبى من أدائه أو سحر، وكل من أعلن الانتقال عن الإسلام إلى غيره من سائر الأديان كلها طوعًا من غير إكراه، وجب قتله بضرب عنقه. -

الكافي ٢ / ٢١٠ ،

مذهب الشافعية: قال الإمام النووي في المجموع شرح المهذب: «إذا ارتد الرجل وجب قتله، سواء كان حرا أو عبدا، لقوله ﷺ (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث، رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفسا بغير نفس)، ثم قال: وقد انعقد الاجماع على قتل المرتد، وان ارتدت امرأة حرة أو أمة وجب قتلها، وبه قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه والحسن والزهرى والأوزاعي، والليث ومالك وأحمد وإسحاق المجموع شرح المهذب ١٩ /٢٢٨ .

مذهب الحنابلة:قال ابن قدامة في المغني: «وَأَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى وُجُوبِ قَتْلِ الْمُرْتَدِّ. وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ، وَعَلِيٍّ، وَمُعَاذٍ، وَأَبِي مُوسَى، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَخَالِدٍ، وَغَيْرِهِمْ، وَلَمْ يُنْكَرْ ذَلِكَ، فَكَانَ إجْمَاعًا ».

المغني مع الشرح الكبير ٩ / ١٦ .

ونكتفي بهذا القدر خشية الإطالة بعد أن أثبتنا حد الردة من فعل النبي وأصحابه ثم التابعين رضوان الله عليهم أجمعين، وبهذا يظهر أن السعي إلى رضا دول الغرب على حساب ثوابت الدين، أمر لا يقدم عليه إلا أعوان الظلمة وأتباع الشياطين، إن الإسلام لا يرغم أحدا على الدخول فيه لقوله تعالى: لا إكراه في الدين، وليس معنى هذا ترك الباب مفتوحا أمام اللاهين والعابثين، يدخلون اليوم ويخرجون غدا، إن الحدود في الإسلام تقيد اللذة، فالزاني والزانية يتمتعان بالمتعة الحرام، والرجم قيد لحريتهما من العبث بمحارم الله، وقطع يد السارق، نكالا عندما أطال يديه ومدهما إلى مال غيره، فحريته في سرقة مال غيره، تجعل الإسلام يقطع يده، ولا أحد يقول إن حرية السارق مسلوبة، وحبه للمال يقيده الإسلام،وعندما حارب الصديق مانعي الزكاة، وهي ركن من أركان الإسلام، أفيترك الإسلام من يهدم ركنه الأول وهو شهادة التوحيد بلا قصاص، فلا نامت أعين الخبثاء أصحاب الأهواء،

والله ولي التوفيق.

الهوامش

١ - أخرجه الدارقطني في سننه ٢٨١١ ، والبيهقي في سننه الصغير ١٤٥٠، وفي السنن الكبرى حديث ١٥٥٢١، الأموال للقاسم بن سلام حديث ٤١٨ ، وكتاب المحاربة من موطا ابن وهب حديث ٢٣ .

٢ - أخرجه الشافعي في الأم حديث ٤٤٣

٣ - أخرج البخاري في كتاب الأحكام من صحيحه حديث رقم ٦٦٥٣، وابن حزم بإسناد حسن رجاله ثقات في المحلى بالآثار حديث ١٤٩٤، والنسائي بإسناد حسن رجاله ثقات في السنن الصغرى حديث رقم ٤٠٢٢

٤ - مصنف عبد الرزاق حديث ١٨٠٨٨، وطاوس بن كيسان كما قال عنه أبو سعد السمعاني: حجة باتفاق، وقال عنه أبو حاتم بن حبان البستي: من عباد أهل اليمن، ومن فقهائهم ومن سادات التابعين، وقال عنه النووي: اتفقوا على جلالته وفضيلته، ووفور علمه، وصلاحه، وحفظه، وتثبته

٥ - مصنف ابن أبي شيبة ٢٨٤١٠، وإبراهيم النخعي ثقة باتفاق

٦ - مصنف ابن أبي شيبة حديث رقم ٢٨٤١٢، وابن شهاب الزهري إمام محدث معروف، قال عنه ابن حجر العسقلاني في التقريب: الفقيه الحافظ متفق على جلالته وإتقانه

٧ - مصنف ابن أبي شيبة حديث رقم ٢٨٤١٣، وأما عطاء فهو بن أبي رباح أسلم ، قال عنه أبو حاتم بن حبان البستي: كان من سادات التابعين فقها وعلما وورعا وفضلا، وقال عنه الذهبي: ثبت رضي حجة إمام كبير الشأن

٨ - مصنف ابن أبي شيبة ٢٨٤١٣، وكان شعبة بن الحجاج بن الورد أحد أعلام المحدثين لا يقدم على عمرو ابن دينار أحدا، يعني في الثبت، ومرة: لم أر مثله، وكان ابن شهاب الزهري يقول: ما رأيت شيخا أنص للحديث الجيد منه.

كذب جمال البنا وتابعه متولي إبراهيم في الطعن على حديث أمرت أن أقاتل الناس

أفسحت إحدى الجرائد للأستاذ / جمال البنا مقالا يوم السبت الموافق ٢٢ / ١١ / ٢٠٠٨، ولم تفسح المجال للرد عليه، فآثرنا أن ننشره في حصن السنة ومعقلها الأخير مجلة التوحيد التي نسأل الله أن يديمها والعاملين عليها لنصرة النبي ﷺ، والأستاذ البنا شخصية يدور حولها كثير من الجدل بين أوساط المسلمين لأنه يحوم حول الشبهات ولا يحدثنا إلا بالغريب منها بل والشاذ من آراء الفقهاء، فتارة يحل التدخين في نهار رمضان، ويحل قبلة المرأة الأجنبية، وتارة يرفض الحديث الصحيح الذي أخذته الأمة بالقبول طوال تاريخها، لأنه بعقله القاصر لا يوافق القرآن، واليوم يفاجئنا بمقالة في علم الحديث ويستعين بمجهول في الأبحاث ويفرد المقالة للأستاذ متولي إبراهيم الذي خدم السنة بالكمبيوتر، ومع أنني أعمل من عشرين سنة في مجال تطويع الحاسب حققت خلالها برنامج جوامع الكلم الذي يضم ١٤٠٠ كتاب ومخطوط من مصادر الحديث وهو يعد أضخم خدمة للسنة من أربعة عشر قرنا من الزمان، ويعد درعا لحماية السنة من الأقزام الذين يهاجمونها، وسنثبت بالدليل الدامغ أن الأستاذ البنا وتابعه متولي لم يحققا إلا الخيبة والخسران.

إعداد/ محمود المراكبي

فحديث "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله"، يريد الأستاذ البنا أن يمحوه من الوجود لأنه يصادم عقولهم المريضة بدعوى أنه يخالف حرية الاعتقاد، والحديث لو فهماه كما دلت عليه ألفاظ الحديث، لما لفقا التحقيق الذي نشر، وسنشرح الحديث ولكن بعد أن نبين الكذب في مقالة البنا.

ذكر الأستاذ البنا ومتولي أن عدد طرق رواية الحديث ٢٣٤ وهو خطأ فادح فعدد طرقه وفق نتائج برنامج جوامع الكلم هو ٦٣١ طريقًا، منها ١٥٤ طريقا صحيحا وفق أصول وقواعد المحدثين، و٢٥٨ طريقا حسنا، ومنها ١٧٤ طريقا ضعيفا، و٤١ طريقًا شديد الضعف، ومنها ٦ طرق فيها وضاع أو متهم بالوضع، والحديث لو صح له طريق واحد يعد صحيحا فما بالك ونحن أمام ١٥٤ طريقا و٢٥٨ طريقا حسنا حكمه حكم الصحيح ولا ريب، فنحن لدينا ٤١٢ طريقا ما بين صحيح وحسن، هذه هي الزلة الأولى، والثانية أنه أخفى عدد الصحابة الذين رووا الحديث، وهو ٢٧ صحابيًا أي حديث متواتر، والتواتر هو استحالة اتفاق رواته على الكذب، ويكفي أن الإمام البخاري رواه ٦ مرات في صحيحه، وفي كل المواضع تصريح بالسماع، في أربعة أحاديث منها ابن شهاب الزهري الذي

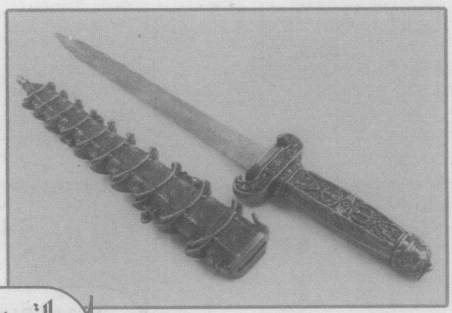

يطعن فيه البنا ومتولي، وهذا يثبت الكذب المتعمد، فهو يقول ولم يصرح بالسماع، والزهري يصرح بالسماع من شيخه فيقول في الحديثين الأول والثاني حدثنا، وفي الحديث الثالث والرابع أخبرني، وهما ينطقان بالسماع ولكن «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» (الحج: ٤٦)

الحديث الأول: رقم ١٣١٨ ونصه حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ الْحَكَمُ بْنُ نَافِعٍ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبُ بْنُ أَبِي حَمْزَةَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: " لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ، وَنَفْسَهُ إِلاَّ بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ.

الحديث الثاني: رقم ٢٧٤٢ ونصه حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَمَنْ، قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ إِلاَّ بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ.

الحديث الثالث: رقم ٦٤٤٣ ونصه حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: " لَمَّا تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ عُمَرُ: يَا أَبَا بَكْرٍ كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلاَّ بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ

الحديث الرابع: رقم ٦٧٧٠ ونصه حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا لَيْثٌ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ عُمَرُ لأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلاَّ بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ.

والحديث أيضا رواه الإمام مسلم رواه خمس مرات في صحيحه، والترمذي رواه ٤ مرات وقال في الأربعة المواضع وهذا حديث حسن صحيح، وأبو داود رواه ٤ مرات، والنسائي راوه في المجتبى ٢١ مرة، وفي السنن الكبرى ٢٠ مرة، وابن ماجة في ٥ مرات، والدارمي مرة، وأحمد بن حنبل في مسنده في ٢٠ موضعًا.

والأستاذ البنا يعرفنا بتابعه متولي إبراهيم بقوله: باحث كفء ومجهول، أما كونه كفئًا فقد أدركنا ضعف بحثه ومخالفته لمنهج علماء الحديث، والأستاذ البنا حكم عليه بالضعف قبل أن يقدمه حسب منهج المحدثين فالرواي المجهول يضعف الإسناد لجهالة الراوي، ومع أني أعرف العاملين في مجال خدمة السنة بالحاسب الآلي وكلهم تلاميذي ولا فخر، فلم أسمع يوما طوال العشرين سنة الماضية عن باحث اسمه متولي إبراهيم، وفي أي مؤسسة يعمل، وهل اطلع العلماء على عمله، وأقروا بسلامة منهجه، اعتقد أن الأستاذ البنا قد ضيع الباحث ووضعه في خانة من يحب الغرائب، وأخرجه من حيز العدالة، إنه يقول إن تحفة الأشراف و إتحاف المهرة لا يشفيان غليله.

تبقى نقطة لم يستوعبها البنا وهي قضية التدليس التي راح ينعت الحفاظ بها

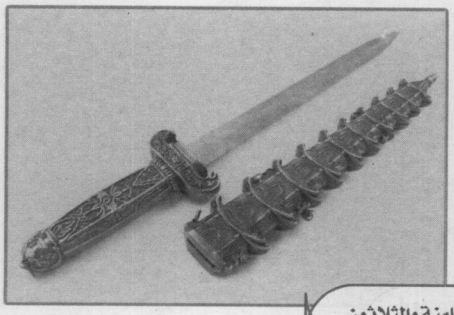

ويرفض حديثهم، فالتدليس نوعان تدليس شيوخ وتدليس تسوية، والنوع الأول لا خوف منه إذا عنعن الراوي عن شيخه، وصرح بالسماع في إحدى طرق الرواية فتنتفي شبهة تدليسه في هذا الحديث، ورواية البخاري لأي مدلس يجبر تدليسه لأنه لا يروي عن مدلسين لأنه يتأكد من سماعه للحديث.

وقضية رفض أحاديث الراوي لأنه مدلس قضية خطيرة، فابن شهاب الزهري يقول عنه علماء الحديث .

قال ابن حجر العسقلاني في التقريب: الفقيه الحافظ متفق على جلالته وإتقانه.

وقال ابن منجويه : كان من أحفظ أهل زمانه وأحسنهم سياقا لمتون الأخبار.

وقال الذهبي أحد الأئمة الأعلام، وعالم أهل الحجاز والشام.

وقال الليث بن سعد المصري ما رأيت عالما قط أجمع من ابن شهاب ولا أكثر علما منه.

وقال أبو بكر الهذلي جالسنا الحسن وابن سيرين فما رأينا أحدا أعلم من الزهري.

وقال أبو حاتم الرازي: الزهرى أحب إلي من الأعمش يحتج بحديثه وأثبت أصحاب أنس الزهري، وسئل عن الزهرى عندك فقيه فقال نعم فقيه وجعل يفخم امره.

وقال أبو حاتم : ذكره ابن حبان في الثقات وقال: رأى عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ وكان من أحفظ أهل زمانه وأحسنهم سياقا لمتون الأخبار وكان فقيها فاضلا روى عنه الناس، وقال أبو داود السجستاني عن الزهري: أحسن الناس حديثا.

وقال أيوب بن أبي تميمة السختياني: ما رأيت أحدا أعلم من الزهري.

وقال سفيان بن عيينة : لم يكن في الناس أحد أعلم بسنة منه.

وقال عمرو بن دينار الأثرم: ما رأيت أنص للحديث منه. وقال قتادة بن دعامة السدوسي، ما بقى على ظهرها إلا اثنان الزهرى وآخر.

وقال الإمام مالك بن أنس: بقى ابن شهاب وماله في الدنيا نظير، ومرة: أول من أسند الحديث ابن شهاب.

وقال محمد بن سعد كاتب الواقدي: الزهري ثقة كثير الحديث والعلم فقيه جامع.

أليس من غير المعقول أن يكون هذا رأي هؤلاء الأعلام في الإمام الزهري ويتجرأ البنا ومتولي كذبا وزروا وبهتانا على أعلامنا شهوة ورغبة في الظهور وإعلانا للغرائب.

أما الحديث الذي نتحاور حوله فهو أمرت أن أقاتل الناس وليس أقتل الناس، فقتل الناس لم يرد عن النبي ﷺ ويخالف جميع الشرائع، ولا يمكن أن يكون مراد النبي ﷺ من الحديث، وإنما نص الحديث ورد بلفظة أقاتل الناس، وشتان بين المعنين، ففعل أقاتل معناه أن طرفا يقاتلك عن دينك ليثنيك عنه فمرحبا بالقتال عندئذ، والزود عن المعتقد أسمى أنواع المقاتلة، فالبنا لا يفهم اللغة ولا يعرف الحديث ويحلو له أن يصف نفسه بالمفكر الإسلامي، فالرجل ليس مفكرا وليس إسلاميا فبضاعته مزجاة، فالرجل يشابه المستشرقين الذين يحقدون على الإسلام، ولا ينصفونه. فأصبح وجهه من الوجوه المكروهة بين الإسلاميين.

أما آن للبنا أن يتوب إلى الله، ويستعد للقائه، ويكف عن التفكير الذي يسميه وحده بالإسلامي، وإذا تركناه لتفكيره فسينقضي أجله ويهلك كما هلك من قال الله فيهم «وكنا نخوض مع الخائضين» (المدثر: ٤٥).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

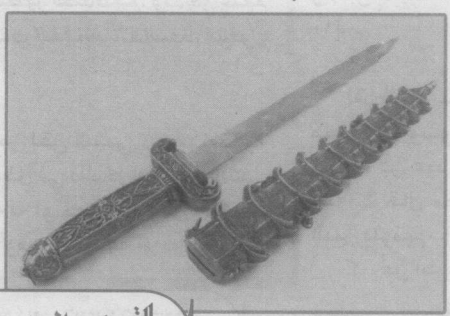

الرد على منكري السنة النبوية من المعاصرين

حد الردة
في شريعة الإسلام

إعداد: د/ محمود المراكبي

يتزعم الأستاذ/ جمال البنا إنكار السنة النبوية - والرجل لا مكن الله له قرارا - بينه وبين حديث «من بدل دينه فاقتلوه» أزمة نفسية تجعله يصرخ برأيه في الإعلام المرئي والمسموع، ونحن بلد الأزهر، وعلماؤنا يغضون الطرف عنه، ولو تناولوا فكره لأسكتوه.

والرجل يزعم أنه ليس في السنة دليل على حد الردة، وأن الحديث يناقض صريح القرآن، وأنه لم يطبق في عهد النبي ﷺ ولا في عهد أصحابه الكرام، وهذا كذب مفترى على الله ورسوله ﷺ، وتدليس صريح على عامة المسلمين وتشكيك في دين الله.

من المهم إدراك اكتمال الدين يوم حجة الوداع، وأن قيامه على أساس الإيمان والاتباع للكتاب والسنة، وما كان عليه فهم الصحابة والسلف الصالح لهما، فإذا ثبت وصح بالنقل الصحيح قضاء الله ورسوله في المرتد، يكون فتح الكلام في الموضوع من جديد خروجا عن نصوص الدين الكامل، فماذا بعد الحق إلا الضلال المبين، والمسلم يتساءل ما الذي يحدث هذه الأيام لماذا نهدم كل الثوابت التي استقرت الأمة عليها من قرون، ولمصلحة من هذه العمالة الذليلة، ولماذا نناقش حد الردة اليوم، هل نشجع المارقين عن الدين للكفر بالإسلام، أم نروج لمفاهيم الاستخراب الذي تصدره الولايات المتحدة، بدعوى رعايتهم للحريات الشخصية، وهدفهم إزاحة المسلمين عن دينهم وعقيدتهم، ويستعملون عملاء علمانيين مفتونين بالحضارة الغربية، ينكرون ثوابت الدين تارة، ويهاجمون الإمام البخاري تارة أخرى، ولا يحركهم إلا الكراهية للإسلام كله، ويفرضون علينا بقوة القانون ما أملته عليهم الولايات المتحدة الأمريكية، وهم اليوم يريدون أن يسمحوا للشيعة والبهائية والقاديانية وكل الفرق الضالة أن يكون لها اعتراف، وأن تقام لها المساجد والمعابد، والاعتراف بفرقهم في البطاقات القومية، مع إفساح المجال لحملات التبشير النشيطة وسط المسلمين، فيجدوا حد الردة سيفا على رقابهم، فيظهر أمثال الأستاذ/ جمال البنا ببدعة إنكار السنة، ولم يعلموا أن النبي ﷺ وأصحابه وسلف الأمة قد طبقوا الحد، وها هي الأدلة على ذلك.

أولا: الرسول يطبق حد الردة:

قد روي: أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ فَاجْتَوَوْهَا، فَبَعَثَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي إِبِلِ الصَّدَقَةِ، فَقَالَ: «اشْرَبُوا أَبْوَالَهَا وَأَلْبَانَهَا»، فَقَتَلُوا رَاعِيَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَاسْتَاقُوا الإِبِلَ، وَارْتَدُّوا عَنِ الإِسْلامِ، فَأُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِهِمْ، فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْ خِلافٍ، وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ، وَأَلْقَاهُمْ بِالْحَرَّةِ، قَالَ أَنَسٌ: قَدْ كُنْتُ أَرَى أَحَدَهُمْ يَكْدِمُ الأَرْضَ بِفِيهِ حَتَّى مَاتُوا، وَرُبَّمَا قَالَ حَمَّادٌ: يَكْدِمُ الأَرْضَ بِفِيهِ حَتَّى مَاتُوا وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ، أَنَّ هَذَا قَبْلَ أَنْ تُنْزَلَ الْحُدُودُ، يقول ابن القيم في زاد المعاد: أن النبي ﷺ سمل أعينهم لما سملوا عين الراعي، والنبي ﷺ قطع أيديهم وأرجلهم حدا لله على حرابهم وإفسادهم، فقد تلقوا استضافة النبي ﷺ لهم بالجحود والنكران، وسرقوا إبله واستاقوها إلى ديارهم، ولما كفروا بعد إسلامهم، تركهم في الشمس حتى ماتوا، وقد ظهر أن القصة محكمة، ليست منسوخة، وإن كانت قبل أن تنزل الحدود، والحدود قد نزلت بتقريرها لا إبطالها، وجعلت الحد القتل بالسيف.

ثانيا: الصحابة يطبقون حد الردة:

١- الصديق يقيم حد الردة: فقد قتل أبو بكر الصديق رضي الله عنه امرأة ارتدت بعد إسلامها يقال لها أم قرفة(١)، وعند البيهقي أن أبا بكر استتابها فلم تتب فقتلها مُثلة.

٢- عمر بن الخطاب يأمر بالاستتابة ثلاثا قبل إقامة حد الردة:فقد قيل له: رجل كفر بعد إسلامه، قال: ما فعلتم به؟ قالوا: قربناه فضربنا عنقه، قال: فهلا حبستموه ثلاثا،وأطعمتموه كل يوم رغيفا، واستتبتموه لعله يتوب، ويراجع أمر الله»(٢).

٣- معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري يطبقان حد الردة: ورد في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى، أَنَّ رَجُلا أَسْلَمَ، ثُمَّ تَهَوَّدَ، فَأَتَى مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَهُوَ عِنْدَ أَبِي مُوسَى، فَقَالَ: مَا لِهَذَا ؟، قَالَ: «أَسْلَمَ ثُمَّ تَهَوَّدَ، قَالَ: لا أَجْلِسُ حَتَّى أَقْتُلَهُ قَضَاءُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ (٣) إن معاذ بن جبل، وأبا موسى الأشعري يطبقان القتل كحد للردة في اليمن على رجل يهودي أسلم ثم ارتد، ولا مجال لمتنطع أن يصرف هذه الرواية عن مضمونها، وانظر إلى قولهم قضاء الله ورسوله، لتعلم استقرار حد الردة في قلوب أصحاب النبي ﷺ.

٤- علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس يطبقان حد الردة: إن قومًا من أتباع عبد الله بن سبأ زعموا أن علي بن أبي طالب هو الله، فلما بلغه ذلك جمعهم واستتابهم ثلاثًا ثم حفر لهم وأوقد في الحفرة نارًا ليخوفهم حتى يرجعوا عن كفرهم، فلما أبوا حرقهم وألقاهم فيها، والقصة يرويها البخاري في صحيحه فلما بَلَغَ ابْنَ عَبَّاسٍ ذلك، فَقَالَ: لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحَرِّقْهُمْ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: لا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ، وَلَقَتَلْتُهُمْ»، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ» إن ابن عباس أقر عليًا على قتلهم ولكنه توقف في حرقهم بالنار لأن النار لا يعذب بها إلا الله. ولما عرف علي تعليق ابن عباس قال: وَيْحَ ابْنِ أُمِّ الْفَضْلِ، إِنَّهُ لَغَوَّاصٌ عَلَى الْهَنَاتِ، وأقر بأنه أخطأ بحرقهم.

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي آخِرِ خُطْبَةٍ خَطَبَهَا: «إِنَّ هَذِهِ الْقَرْيَةَ، يَعْنِي الْمَدِينَةَ، لا يَصْلُحُ فِيهَا مِلَّتَانِ، فَأَيُّمَا نَصْرَانِيٍّ أَسْلَمَ ثُمَّ تَنَصَّرَ، فَاضْرِبُوا عُنُقَهُ».

وفي حديث مشهور قارب حد التواتر رواه ثمانية من الصحابة: أبو هريرة، علي بن أبي طالب، وابن عباس، معاذ بن جبل، معاوية بن حيدة الأنصاري، عبد الله بن عمر، والحسن بن علي بن أبي طالب، وزيد بن أسلم، وأرسله الحسن البصري، وورد ١٠٤ مرة في مصادر الحديث الشريف وفق استقصاء برنامج جوامع الكلم، وهو أول جمع حقيقي للسنة المطهرة، يقول النبي ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»، وفي رواية: «من رجع عن دينه فاقتلوه»، وفي لفظ: «من ارتد عن دينه فاقتلوه»، هكذا جاءت النصوص عامة بلا أي قيد أو شرط، ودون استثناء أو تخصيص.

ثالثا: آثار التابعين حول الردة: خصص

الإمام البخاري كتابا في صحيحه سماه استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، وكذا صنع كثير من مصنفي مصادر الحديث، ومنهم من ذكر حد الردة في كتاب الحدود، فالأمر مستقر طوال القرون الثلاثة الأولى التي سماها النبي خير القرون. كما كثرت أقوال التابعين عن حد المرتد، ولا خلاف بينهم على قتل الرجل المرتد، والخلاف بينهم حول المرأة المرتدة، وننقل جملة من آثار أعلام التابعين حول حد الردة، ومنها:

عن طاوس قال: لا يقبل منه دون دمه، الذي يرجع عن دينه(٤).

عن إبراهيم النخعي في المرتد قال: يستتاب، فإن تاب ترك، وإن أبى قتل(٥).

عن ابن شهاب الزهري أنه قال: يدعى إلى الإسلام ثلاث مرات، فإن أبى ضربت عنقه(٦).

عن عطاء قال في الإنسان يكفر بعد إسلامه، يدعى إلى الإسلام، فإن أبى قتل(٧).

عن ابن جريج أنه قال: أخبرني عمرو بن دينار في الرجل يكفر بعد إيمانه، قال: سمعت عبيد بن عمير يقول: يقتل(٨).

رابعا: حكم الردة في المذاهب الأربعة

١- مذهب الأحناف: يقول الكاساني في بدائع الصنائع: «منْهَا - أي من أحكام المرتد - إبَاحَةُ دَمه إذَا كَانَ رَجُلا، حُرًا كَانَ أَوْ عَبْدًا؛ لسُقُوط عِصْمَته بِالرِّدَّةِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ». وَكَذَا الْعَرَبُ لَمَّا ارْتَدَّتْ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَجْمَعَتْ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى قَتْلِهِمْ» (بدائع الصنائع ١٥ / ٤٢١).

٢- مذهب المالكية: قال ابن عبد البر في الكافي في فقه أهل المدينة: حكم المرتد ظاهراً، وحكم من أسر الكفر، أو جحد فرضًا مجتمعًا عليه، أو أبى من أدائه أو سحر، وكل من أعلن الانتقال عن الإسلام إلى غيره من سائر الأديان كلها طوعًا من غير إكراه، وجب قتله بضرب عنقه. «الكافي ٢ / ٢١٠».

٣- مذهب الشافعية: قال الإمام النووي في المجموع شرح المهذب: «إذا ارتد الرجل وجب قتله، سواء كان حرا أو عبدا، لقوله ﷺ (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث، رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفسا بغير نفس).»، ثم قال: «وقد انعقد الإجماع على قتل المرتد، وإن ارتدت امرأة حرة أو أمة وجب قتلها، وبه قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه والحسن والزهري والأوزاعي، والليث ومالك وأحمد واسحاق». (المجموع شرح المهذب ١٩ ٢٢٨/).

٤- مذهب الحنابلة:قال ابن قدامة في المغني: «وَأَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى وُجُوبِ قَتْلِ الْمُرْتَدِّ. وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ، وَعَلِيٍّ، وَمُعَاذٍ، وَأَبِي مُوسَى، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَخَالِدٍ، وَغَيْرِهِمْ، وَلَمْ يُنْكَرْ ذَلِكَ، فَكَانَ إجْمَاعًا». (المغني مع الشرح الكبير ٩ / ١٦).

خامسا: القول في الإكراه في الدين: يقول ابن حزم في المحلى بالآثار: فَبَقِيَ الآنَ الْكَلامُ فِي احْتِجَاجِهِمْ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى «لا إكْرَاهَ فِي الدِّينِ» فَوَجَدْنَا النَّاسَ عَلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ، وَالثَّانِي: أَنَّهَا مَخْصُوصَةٌ.

فَأَمَّا مَنْ قَالَ: إنَّهَا مَنْسُوخَةٌ، فَيَحْتَجُّ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَقْبَلْ مِنْ الْوَثَنِيِّينَ، فَيُقَالُ لَهُمْ لَمْ يَخْتَلِفْ مُسْلِمَانِ فِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَقْبَلْ مِنْ الْوَثَنِيِّينَ مِنْ الْعَرَبِ إلا الإِسْلامَ أَوْ السَّيْفَ إلَى أَنْ مَاتَ ﷺ فَهُوَ إكْرَاهٌ فِي الدِّينِ، فَهَذِهِ الآيَةُ مَنْسُوخَةٌ، مَنْ قَالَ: إنَّهَا مَخْصُوصَةٌ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا: إنَّمَا نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى خَاصَّةً، كَمَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ لِعَجُوزٍ نَصْرَانِيَّةٍ: أَيَّتُهَا الْعَجُوزُ أَسْلِمِي تَسْلَمِي، إنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ إلَيْنَا مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ فَقَالَتْ الْعَجُوزُ: وَأَنَا عَجُوزٌ كَبِيرَةٌ وَأَمُوتُ إلَى قَرِيبٍ قَالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ، لا إكْرَاهَ فِي الدِّينِ، وَبِمَا رُوِّينَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَتْ امْرَأَةٌ تَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا إنْ عَاشَ وَلَدُهَا تُهَوِّدُهُ، فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ كَانَ فِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ، فَقَالَتْ الأَنْصَارُ: لا نَدَعُ أَبْنَاءَنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى «لا إكْرَاهَ فِي الدِّينِ». فَقَدْ صَحَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَاتَلَ الْكُفَّارَ إلَى أَنْ مَاتَ عَلَيْهِ السَّلامُ حَتَّى أَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ. وَصَحَّ عَنْهُ الإِكْرَاهُ فِي الدِّينِ، ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ ذَلِكَ «فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ

وَجَدْتُمُوهُمْ الآيَةَ إلَى قَوْله تَعَالَى «فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ». وَنَزَلَ قَوْله تَعَالَى «قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّه وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ» إلَى قَوْله تَعَالَى «حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ»، فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَأَيْنَ أَنْتُمْ مِنْ قَوْله تَعَالَى «فَانْبِذْ إلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ». فَيُقَالُ لَهُمْ: لا يَخْتَلِفُ اثْنَانِ فِي أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ قَبْلَ نُزُولِ «بَرَاءَةٌ» فَإِذْ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَإِنَّ «بَرَاءَةٌ» نَسَخَتْ كُلَّ حُكْمٍ تَقَدَّمَ، وَأَبْطَلَتْ كُلَّ عَهْدٍ سَلَفَ بِقَوْله تَعَالَى «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّه وَعِنْدَ رَسُولِه إلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» وَإِنَّمَا كَانَتْ آيَةُ النَّبْذِ عَلَى سَوَاءٍ أَيَّامَ كَانَتْ الْمُهَادَنَاتُ جَائِزَةً، وَأَمَّا بَعْدَ نُزُولِ «فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» فَلا يَحِلُّ تَرْكُ مُشْرِكٍ أَصْلا، إلا بِأَنْ يُقْتَلَ، أَوْ يُسْلِمَ، أَوْ يُنْبَذَ إلَيْهِ عَهْدُهُ بَعْدَ التَّمَكُّنِ مِنْ قَتْلِه حَيْثُ وُجِدَ، إلا أَنْ يَكُونَ مِنْ أَبْنَاءِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ فَيُقَرَّ عَلَى الْجِزْيَةِ وَالصَّغَارِ، كَمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى، أَوْ يَكُونَ مُسْتَجِيرًا فَيُجَارَ حَتَّى يُقْرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، ثُمَّ يُرَدَّ إلَى مَأْمَنِه وَلا بُدَّ، إلَى أَنْ يُسْلِمَ، وَلا يُتْرَكَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، أَوْ رَسُولاً فَيُتْرَكَ مُدَّةَ أَدَاءِ رِسَالَتِه، وَأَخْذِ جَوَابِه، ثُمَّ يُرَدَّ إلَى بَلَدِه، وَمَا عَدَا هَؤُلاءِ فَالْقَتْلُ وَلا بُدَّ، أَوْ الإِسْلامُ، كَمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي نَصِّ الْقُرْآنِ، وَمَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. (المحلى لابن حزم ١١ / ١٩٦).

ونكتفي بهذا القدر خشية الإطالة بعد أن أثبتنا حد الردة من فعل النبي وأصحابه ثم التابعين رضوان الله عليهم أجمعين، وبهذا يظهر أن السعي إلى رضا دول الغرب على حساب ثوابت الدين، أمر لا يقدم عليه إلا أعوان الظلمة وأتباع الشياطين، إن الإسلام لا يرغم أحداً على الدخول فيه لقوله تعالى: «لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ»، وليس معنى هذا ترك الباب مفتوحاً أمام اللاهين والعابثين، يدخلون اليوم ويخرجون غداً، إن الحدود في الإسلام تقيد اللذة، فالزاني والزانية يتمتعان بالمتعة الحرام، والرجم قيد لحريتهما من العبث بمحارم الله، وقطع يد السارق، نكالاً عندما أطال يديه ومدهما إلى مال غيره، فحريته في سرقة مال غيره، تجعل الإسلام يقطع يده، ولا أحد يقول إن حرية السارق مسلوبة، وحبه للمال يقيده الإسلام،وعندما حارب الصديق مانعي الزكاة، وهي ركن من أركان الإسلام، أفيترك الإسلام من يهدم ركنه الأول وهو شهادة التوحيد بلا قصاص، فلا نامت أعين الخبثاء أصحاب الأهواء.

والله ولي التوفيق.

الهوامش

١- أخرجه الدارقطني في سننه ٢٨١١، والبيهقي في سننه الصغير ١٤٥٠، وفي السنن الكبرى حديث ١٥٥٢١، الأموال للقاسم بن سلام حديث ٤١٨، وكتاب المحاربة من موطأ ابن وهب حديث ٢٣ .

٢ - أخرجه الشافعي في الأم حديث ٤٤٣

٣- أخرج البخاري في كتاب الأحكام من صحيحه حديث رقم ٦٦٥٣، وابن حزم بإسناد حسن رجاله ثقات في المحلى بالآثار حديث ١٤٩٤، والنسائي بإسناد حسن رجاله ثقات في السنن الصغرى حديث رقم ٤٠٢٢

٤- مصنف عبد الرزاق حديث ١٨٠٨٨، وطاوس بن كيسان كما قال عنه أبو سعد السمعاني: حجة باتفاق، وقال عنه أبو حاتم بن حبان البستي: من عباد أهل اليمن، ومن فقهائهم ومن سادات التابعين، وقال عنه النووي: اتفقوا على جلالته وفضيلته، ووفور علمه، وصلاحه، وحفظه، وتثبته

٥- مصنف ابن أبي شيبة ٢٨٤١٠، وإبراهيم النخعي ثقة باتفاق

٦- مصنف ابن أبي شيبة حديث رقم ٢٨٤١٢، وابن شهاب الزهري إمام محدث معروف، قال عنه ابن حجر العسقلاني في التقريب: الفقيه الحافظ متفق على جلالته وإتقانه

٧- مصنف ابن أبي شيبة حديث رقم ٢٨٤١٣، وأما عطاء فهو بن أبي رباح أسلم، قال عنه أبو حاتم بن حبان البستي: كان من سادات التابعين فقها وعلما وورعا وفضلا، وقال عنه الذهبي: ثبت رضي حجة إمام كبير الشأن

٨- مصنف ابن أبي شيبة ٢٨٤١٣، وكان شعبة بن الحجاج بن الورد أحد أعلام المحدثين لا يقدم على عمرو بن دينار أحدا، يعني في الثبت، ومرة: لم أر مثله، وكان ابن شهاب الزهري يقول: ما رأيت شيخا أنص للحديث الجيد منه

الفنجري ينضم لحزب البنا لتشكيك في السنة

إعداد: د/ محمود المراكبي

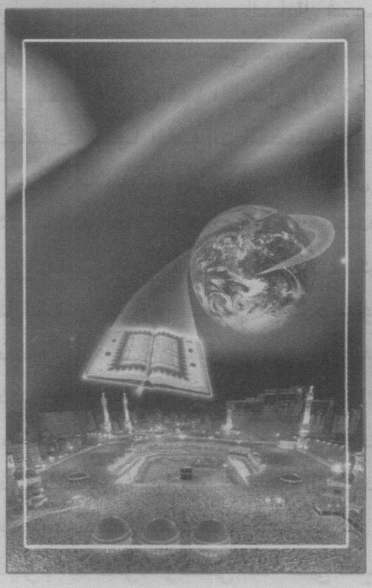

الحمد لله والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه الكرام الميامين، وبعد: فإن ما يهرف به جمال البنا وأحمد شوقي الفنجري من القرآنيين ومنكري السنة وأصحاب البدع ليس بجديد، كل ما يثيرونه من قضايا يريدون بها التلبيس على العوام، وصرف أذهان العلماء عن الدعوة إلى الله، والتفرغ لمتاهاتهم، ولأمثال هؤلاء يفرد الإعلام المرئي والمسموع المجال على اتساعه، حتى بلغت ١٨ مقالاً عن أن «الإسلام في خطر»، للفنجري فقط، وقد حصلت على أعداد مجلة روزا اليوسف التي تضم تحت سلسلة مقالات تتضمن قضايا مختلف في صحتها، كالنقاب وأحاديث ولاية المرأة، وغيرها مما لَبَّسَه الشيطان على هؤلاء وكبرت في عقولهم أنهم مفكرون فوق علماء الأمة، وليس هناك من خطر على الإسلام سواهم، والإسلام دين الله، والله متم نوره ولو كره المنافقون، وأبدأ بالمقالة الأولى للدكتور أحمد شوقي الفنجري، والتي تضم الكثير من المغالطات والأكاذيب المتعمدة، وسوء الفهم، ففي مقالته الأولى يقول: الرسول ﷺ قال: «لا تكتبوا عني غير القرآن، ومن كتب عني شيئا غير القرآن فليمحه». [حديث أبي سعيد الخدري أخرجه مسلم في صحيحه رقم ٥٣٣١، تقييد العلم للخطيب البغدادي ١، ٤، ٦، ٩، ١١ جامع بيان العلم وفضله ٣٣٥١، سنن النسائي الكبرى ٧٩٥٤، والحاكم في المستدرك ٤٠٠، وابن حبان في صحيحه ٦٤، والدارمي في سننه ٤٥٠].

فقلت: إن الرجل يستدل بالسنة، وهذه بداية جيدة، أما علم الرجل أن العلة وراء النهي عن كتابة الحديث قد انتفت، وأن القرآن قد استقر في الصدور، وليته علم ما قاله النبي ﷺ بعد هذا الحديث؟ لقد نسخ الأمر يا فنجري يوم قال ﷺ: «حدثوا عني ولا حرج» [الجامع لمعمر بن راشد ١١٠٤، وأحمد بن حنبل في مسنده ١٠٨٨٣، مسند أبو يعلى الموصلي ١١٩٦، مسند الشاميين للطبراني ٢١٤، المدخل إلى الصحيح للحاكم ٢٦، تقييد العلم للخطيب البغدادي ٨]، وقال: «اكتبوا لأبي شاه» [جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر الأندلسي ٢٨٢]، وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص: «اكتب فأنا لا أنطق إلا حقا»، وقد كتب صحيفة كانت تعرف في زمن النبي ﷺ بالصادقة، وأظهر الفنجري عدم علمه في تعليله لأسباب الوضع، ثم قال: وقد اعترف اليهودي الذي ادعى الإسلام كعب الأحبار أنه وضع عشرة آلاف حديث، بعضها ورد في الكتب الصحاح ولم يمكن كشفها، ونحن نتحدى الدكتور / أحمد شوقي الفنجري أن يذكر لنا مصدر هذه المعلومة الكاذبة المضللة، ولعلمك يا فنجري إن إحصاء جملة مرويات كعب الأحبار في ١٤٠٠ مصدر من مصادر السنة التي ضمت أمهات كتب الحديث قد بلغ ٢٩ حديثا فقط، فلينظر القارئ الكريم في كلام الفنجري وحزبه، يزعم أن الموضوع من أحاديث كعب الأحبار عشرة آلاف، فياترى كم إجمالي الأحاديث التي رواها كعب الأحبار إذا كان الموضوع منها عشرة آلاف حديث، فإذا كان جملة مروياته لا تبلغ الثلاثين حديثا، فليعلل القارئ الكريم سبب كلام الفنجري أهو الجهل أم الحقد على الإسلام أم تلبيس إبليس، ونستكمل كشف أكاذيب الفنجري، الذي يقول «إن البخاري جمع ٦٠٠ ألف حديث، ولكنه استبعد معظمها للشك في صحتها، ولم يثبت عنده غير ٤ آلاف حديث»، وهذه العبارة نتيجة طبيعية لتزاوج الجهل مع الاجتراء على الله ورسوله، إن سنة النبي ﷺ بلغت ١٥ ألف حديث فقط، فمن أين يفهم أن البخاري كان يحفظ ٦٠٠ ألف حديث، وصحة الأمر أنه كان يحفظ ٦٠٠ ألف إسناد، أي أنه كان عنده الحديث بعدة أسانيد، ولم يكتب في كتابه أحاديث لها أسانيد ليست على شرطه هو، ولما كان شرط البخاري من أوثق الشروط التي ألزم مصنفو السنة أنفسهم بها، حيث ألزم نفسه باللقاء في تحمل الراوي عن شيخه، فتأكد من كل إسناد بشرطه هو، وهو لم يلزم نفسه بكتابة كل ما يعرف من أحاديث صحيحة، وهذا يعرفه من له أقل دراية في علم الحديث، وليقرأ معي الفنجري اسم كتاب صحيح البخاري: «الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه»، هذا ما أسما البخاري كتابه به وهو أبلغ رد على جهل الجاهلين وليخسأ الخاسئون، ويستمر الفنجري في قوله: «ولم يثبت عند البخاري غير ٤ آلاف حديث»، هو قول عار عن الصحة، فعدد أحاديث البخاري بدون مكررات بلغت ٢٣٨٢، أما قوله «ثم جاء بعده مسلم فجمع ٣٠٠ ألف حديث لم يصح عنده غير ١٢ ألفا»، وهذا خطأ أيضا والصواب أن صحيح مسلم تضمن فقط ٢٨٤٦ بدون مكررات، وليس ١٢ ألفا كما فنجر الفنجري، ولا يحتاط من عدم علمه وإنما يؤكده بقوله وجمع أبو داود ٥٠٠ ألف حديث لم يصح عنده غير ٤٨٠٠ حديث. والصواب أن جملة مرويات أبي داود في سننه بلغت٣٧٨٤ حديثا، فكل معلومات الفنجري خطأ يوضح جهله وخوضه بالباطل فيما لا يعلم، فهو يصب جام حمقه على حديث إرضاع الكبير، وهي قضية تناولتها الألسن والأقلام غير بعيد وتهافتت عليها القنوات الفضائية، وهو حديث لا يعرف ملابساته ولا مناسبته أمثال الفنجري، وهل يطبق على العموم، أم إنه حديث خاص بإذن خاص، إن رسول الله ﷺ لا يمكن أن يقبل عقل سوى أنه أمر الناس أن يرضعوا من ثدي النساء، فالعربي لا يقبل أن يرى الأجنبي امرأته، فكيف بثديها، ولكنها الرغبة في التشنيع يسوقها المنافقون، وربما يتسع الوقت في حلقة قادمة نتناول فيها الحكمة من الحديث من كافة ملابساته والتي بكل تأكيد بعيدة كل البعد عن الفهوم القاصرة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.